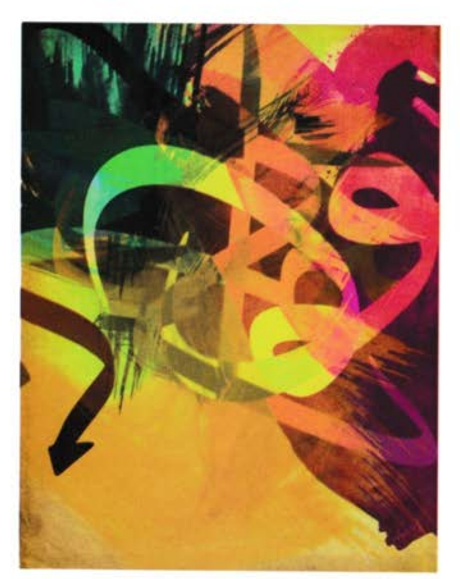
مكتبة ٣٤٤

اللسانيات العربية

رؤى وآفاق

الجزء الأول

اللسانيات النظرية



موسوعة لسانية أشرف عليها وحررها

الأستاذ المساعد الدكتور

حيدر غضبان



اللسانيات العربية

رؤى وآفاق

الجزء الأول

اللسانيات النظرية

موسوعة لسانية أشرف عليها وحررها

الأستاذ المساعد الدكتور

حيدر غضبان

تقديم الأستاذ الدكتور

أبو بكر العزاوي

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2019

الكتاب

اللسانيات العربية رؤى وآفاق

تأليف

حيدر غضبان

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 404

القياس: 17×24

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2018/6/2726)

ISBN 978-9923-14-008-6

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد - شارع الجامعة

تلفون: (27272272 - 00962)

خلوي: 0785459343

فاكس: 27269909 - 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
almalktob@gmail.com
facebook.com/modernworldbook

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن - العبدلي - تلفون: 079 /5264363

مكتب بيروت

روضة الغدير - بناية بزي - هاتف: 00961 1 471357

فاكس: 00961 1 475905



الفهرست

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور

والفسحة والسرور

اللهم اقبلها في عبادك الصالحين

واجعلها من ورثة جنة النعيم

تقديم

هذا الكتاب موسوعة لسانية بامتياز وقد تضمن عددا كبيرا من البحوث والدراسات العلمية المتميزة التي همت كل المجالات اللغوية والنظريات والنماذج اللسانية مثل اللسانيات المعرفية واللسانيات التوليدية والتحويلية واللسانيات التطبيقية والتداوليات والحجاج اللغوي ولسانيات الخطاب والنحو الوظيفي وغير ذلك، وهمت أيضا كل المستويات اللغوية.

وهذه الموسوعة تعكس واقع البحث في اللسانيات العربية الحديثة والمعاصرة، وتعكس كذلك الآفاق التي يسعى الدرس اللساني العربي إلى ارتيادها وخوض غمارها.

ومن هنا عنوان الكتاب الدال والمعبر:(اللسانيات العربية: رؤى وآفاق).

وقد عالجت البحوث والدراسات التي اشتمل عليها هذا الكتاب ظواهر عديدة تنتمي إلى مجال الصواتة والصرف والتركيب والدلالة والتداوليات، وتناولت بحوث أخرى مواضيع تتصل بالترجمة والتعريب وتعليم اللغة العربية والفكر اللغوي العربي القديم والبلاغة واللسانيات الأمازيغية واللسانيات القطاعية وغير ذلك.

وقد بذل أخونا الباحث اللساني الجاد الدكتور حيدر غضبان (من جامعة بابل)، جهدا كبيرا في إعداد هذه الموسوعة اللسانية المتميزة والغنية بالأفكار والآراء والمعلومات والاجتهادات القيمة. وهو جهد يستحق عليه كل شكر وتقدير، وهذه الموسوعة تشكل بحق إضافة قيمة ونوعية إلى المكتبة العربية بشكل عام، والمكتبة اللسانية بوجه خاص. وما أحوج المكتبة اللسانية العربية إلى مثل هذه الكتب والموسوعات من أجل تعميم الوعي بأهمية البحث اللساني، ومن أجل نشر المعرفة اللسانية الحديثة، ومن أجل تطوير الدرس اللساني العربي.

والكتاب له فوائد عديدة، لا يمكن الإتيان على ذكرها كلها، ولا الإحاطة بها بشكل واسع. وحسبي أني أشرت إلى بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر. وقد كان الدكتور حيدر غضبان يستشيرني دائما ومنذ البداية، وكان القصد يتمثل في الرغبة في إعداد موسوعة لسانية متميزة. وقد تحقق هذا، ولله الحمد وعظيم الشكر.

لا يسعني في نهاية هذه الكلمة الموجزة إلا أن أبارك لأخي وصديقي د.حيدر غضبان هذا الإصدار اللساني والقيم. ونحن ننتظر منه المزيد، وما ذلك على همته بعزيز والله الموفق والهادي إلى الصواب.

أ.د.أبوبكر العزاوي

المغرب

المقدمة

منذ زمن ليس بالبعيد قررت اللسانيات الابتعاد عن الانزواء والخروج من بوتقة الفردية إلى ما هو جمعي، والبحث عما هو كائن وليس عما يجب أن يكون. وأصبحت الموضوعية من تقاليدها البدهية والمتعارف عليها. وهي - أي اللسانيات - بمختلف مشاربها ومنذ صيرورتها لم تتخل عن النظامية والنواة والعمل الجمعي والانفتاح على التخصصات الأخر. وقد أصبحت كل تلك الأمور من مرتكزاتها الأبستيمية التي يجب تشربها في ذهن كل من يروم التخصص وممارسة الكتابة بها. وهي في طوال سيرورتها لم تخلُ من المراجعة والنقد والتمحيص لتفيد من التجارب الماضية وتنطلق من حاجة العصر وفلسفته في بناء صيرورتها.

اللسانيات ذلك العالم الرحب والمتطور، أصبحت هاجس الباحث العربي اليوم. بحيث خلق لنا ذلك الاهتمام كمّا كبيرا من التجارب اللسانية العربية. ممّا ولّد تساؤلات وإشكاليات وتصورات. صار من اللازم علينا مراجعتها وفتح حوار مع ما أنجز وتلقيه بالنقد والبناء الموضوعيين.

من هنا جاءت الحاجة إلى هذا الاكتتاب، بوصفه عملا جماعيا لا فرديا يبحث في هموم البحث اللساني اليوم؛ تنظيرا، وترجمة، ونقدا، ومثاقفة بين التراث وجديد النظريات اللسانية. ليضم مجموعة أبحاث مثّلت (رؤى وآفاق) لا شك في أنها ستغني البحث اللساني العربي وتفتح آفاقه.

لقد كانت رحلتي مع هذا الكتاب ممتدة إلى أكثر من سنتين جمعتُ فيها ما جمعت من أبحاث، وأخضعتها للتحكيم والتقييم والمراجعة، فكان الاختيار صعبا وموضوعيا. فتحتُ طيلة اهتمامي بالكتاب حوارا جماعيا مع العقول اللسانية العربية بالمناقشة وتبادل الآراء. فكان هذا العمل نتيجة تضافر جهود الزملاء الباحثين ووعيهم بالحاجة الماسة إلى ظهور مثل هذا الكتاب.

وبناء على ما تحصل لدي من أبحاث، اعترتني مشكلة تصنيف الأبحاث وتبويبها نظرا لتداخل ما هو إجرائي بما هو نظري، وما هو نظري بما هو نقدي...الخ، تبعا لتشعب النظريات اللسانية وتداخل موضوعاتها. وبعد لأي وعناء شديدين تم توزيع الأبحاث على أربعة أجزاء، خصصت الجزء الأول منها باللسانيات النظرية، فكان على محاور. خصص المحور الأول بالدراسات الذهنية، والثاني بالدراسات الوظيفية والحجاجية، والثالث منها بدراسات إجرائية ونقدية في الاستشراق والبحث التاريخي والمقارن. أما الجزء الثاني فكان بعنوان مراجعات لسانية. وتضمن بحوثا عديدة صنفتُها على محاور: ضمّ المحور الأول منها الدراسات التي تتعلق بـ(اللسانيات العربية بين التجديد والتراث)، ووسمتُ المحور الثاني منها بـ(مراجعات تداولية). أما المحور الثالث فضم أبحاثا تتعلق بنقد الجهود اللسانية العربية. وجاء الجزء الثالث ليضم الأبحاث المتعلقة باللسانيات التطبيقية وتعليمية اللغة العربية. ونظرا لتداخل النظريات اللسانية بتحليل النصوص والنقد الأدبي خصصت الجزء الأخير من هذا الكتاب باللسانيات وتحليل النصوص الأدبية، ضم رؤى اللسانيين العرب في آليات تحليل النصوص ونقد تلك الآليات، ودراسات إجرائية سخّرت النظريات اللسانية في تحليل النصوص الأدبية.

لقد دأبت في أثناء تحرير هذا الكتاب على الموضوعية التامة في انتقاء الأبحاث والمقالات، والمحافظة على شخصية الباحثين واستعمالاتهم الاصطلاحية وتقنياتهم البحثية. أما الملاحظات العلمية على تلك الأبحاث فكنت أتشاور بها مع الزملاء المشاركين، بعد إجازة البحث وتحكيمه، تاركا لهم فسحة في اتخاذ التعديلات، إيمانا مني بأن كل بحث يمثل صاحبه وهو مسؤول عنه.

لقد كان الإقدام على مثل هذا العمل أمرًا ليس باليسير، ولا سيما إذا كان الجهد فرديا. ولعل النظرة الفاحصة لما فيه تكشف قدر العناء الذي بذل فيه، والمغامرة التي رغبتُ في خوض غمارها. لقد كانت الهمة العالية والرغبة الكبيرة تحثاني لإنجاز ذلك الحلم. فليس دون الهمم من عوائق. وأرجو أن أكون قد قدمت في هذا العمل فائدة للباحثين المهتمين

باللسانيات، وأن يغفروا، لي ولمن شاركني، ما فيه من خطأ أو سهو. فالكمال لله تعالى وحده.

وفي نهاية رحلتي هذه يطيبُ لي أن أتقدم بشكري الجزيل إلى الأساتذة الذين قضوا معي وقتا طويلا في المناقشة والحوار، ولاسيما الأستاذ الدكتور لطيف حاتم الزاملي أستاذ اللسانيات في كلية التربية جامعة القادسية، الذي أفدت من ملاحظاته في صوغ ديباجة الاكتتاب ومحاوره وعنوانه، وأستاذ اللسانيات الدكتور أبو بكر العزاوي من المغرب الشقيق، الذي لم يبخل علي بملاحظاته ونصائحه القيمة ومراجعة بعض الأبحاث وتقييمها. فلهما ولكل من أسهم في إظهار الاكتتاب بصورته هذه كل الشكر والتقدير.

ولا أنسى في هذه الوقفة أن أتقدم بشكري الجزيل إلى دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ولا سيما إلى الأستاذة فاطمة أحمد خلف عناقرة لجهودها الجبارة التي بذلتها في تنضيد هذا العمل وتوظيبه. ولصاحب الدار الأستاذ بلال فندي قاسم عبيدات شكري الخالص لإشرافه على طباعة الكتاب واهتمامه الخاص به.

د.حيدرغضبان

أستاذ اللسانيات المساعد

العراق/ **2018**

أولا: الدراسات الذهنية

1- البرنامج البايولساني: ماذا هو عليه الآن، روبرت سي بيرويك ونعوم چومسكي، ترجمة أ.د.مرتضى جواد باقر.

2- التمثيل الصوري للتجرّد والزيادة في الفعل في اللغة العربية، د.محمد بلبول.

3- نظرية المفاضلة وتجديد توصيف اللغة العربية. د.محمد الفتحي.

4- اللغة العربية والدلالة المعرفية، الفضاء في اللغة نموذجا، د.أبو بكر العزاوي.

5- مركزية اللسانيات ضمن نظرية المعرفة وفلسفة العلوم، د.عبد الرحمن محمد طعمة.

البرنامج البايولساني: ماذا هو عليه الآن[*]

روبرت سي بيرويك

(أستاذ الهندسة الكهربائية واللسانيات الحاسوبية / معهد ماساچوستس للتكنولوجيا)

ونعوم چومسكي

(أستاذ المعهد المتمرس في اللسانيات/ معهد ماساچوستس للتكنولوجيا)

أ.د.مرتضى جواد باقر

قبل أن نبسط البحث في اللغة، وبخاصة في سياقها البيولوجي، لابد أن نكون على بينة من ما نقصده بهذا المصطلح الذي أثار الكثير من اللبس والارباك. فقد يستخدم مصطلح "اللغة" أحيانا للاحالة الى اللغة البشرية، وفي أحيان أخرى للاحالة الى أي نظام رمزي أو صيغة رمزية للتواصل أو التمثيل، كما هو الحال في الحديث عن لغة النحل، أو لغات البرمجيات أو لغة النجوم، وما إلى ذلك. هنا سنلزم المعنى الأول: اللغة البشرية، جسم معين من أجسام العالم البايولوجي. ولقد أصبحت دراسة اللغة، بهذا الفهم، تدعى المنظور البايولساني/ اللساني الأحيائي.

ومن بين الأسئلة المحيرة الكثيرة عن اللغة يبرز سؤالان مهمان: أولا، لماذا توجد لغات أصلا، وهي بوضوح شيء يتفرد به الجنس البشري، ما يطلق عليه علماء الأحياء التطوريون (دارسو التطور الأحيائي) "خاصية تقتصر على صنف أحيائي واحد لا يشترك معه فيها أي صنف من نفس الجنس أو من الأجناس الأخر. وثانيا، لماذا نجد هناك لغات عديدة؟ إن هذين هما السؤالان الأساسيان عن أصل اللغة وتنوعها اللذين شغلا ذهن

(*) هذه ترجمة لفصل بعنوان The Biolinguistic Program: The Current State of its Development من كتاب The Biolinguistic Enterprise من تحرير Anna Maria Di Sciullo and Cedric Boeckx ونشرته Oxford University Press في New York عام 2011. اوقد خترت مصطلح "بايولسلنيات" ليقابل المصطلح الإنكليزي Biolinguistics بدلا من مصطلح "اللسانيات الأحيائية" المكافئ لشيوعه.

داروين والمفكرين النشوئيين ويكونان لب التفسير في البيالوجيا الحديثة: لماذا نجد هـذا النسق المعين من الأشكال الحية في العالم وليس أنساقا أخر؟ ومن هذه الناحية تقـع اللسانيات بحق ضمن الدرس البايولوجي الحديث، بالرغم مما غلبت ملاحظته من تفصيلاتها التجريدية.

ويتفق علماء أصول الانسان والآثاريون عموما على أن هذه الأسئلة أسئلة حديثة إن قيست وفق الازمنة النشوئية. فقبل حوالي 100000 سنة لم يكـن السؤال الأول واردا إذ لم تكن هناك لغات حينئذ. لكن إجابة السؤالين كانت قد استقرت منذ حوالي 50000 ألـف سنة: فلقد بدأ حينها أسلافنا رحلتهم من أفريقيا منتشرين في كل صقاع الأرض، وعلـى حـد ما نعرف فإن ملكة اللغة لم يطلها أساسا أي تغيير، وهذا ليس بـأمر مـستغرب في فـترة زمنيـة قصيرة مثل هذه. فلو جُلِب طفل من قبيلة من العصر الحجـري في الأمـازون إلى بوسـطن (في الولايات المتحدة) لن نستطيع تمييزه في الوظـائف اللغويـة والمعرفيـة الأخـرى عـن الأطفـال المولودين في بوسطن الذين يمتد نسبهم الى المستعمرين الانكليـز الأوائـل، والعكـس صـحيح كذلك. إن هذه التواريخ التي ذكرناها ليست مؤكدة تماما، ولكن ذلك لـيس مهمـا لمـا نهـدف إليه. فالصورة العامة تبدو صحيحة إجمالا.

وهكذا فإننا معنيون بشيء بايولوجي غريب، هو اللغة، ظهـر علـى الأرض حـديثا. وهو صفة يختص بها البشر، هبة عامة لا تنوع مهماً فيهـا بيـنهم باستثناء حـالات الأمـراض الحادة، ولا تشبه في أسسها أي شيء آخر نعرفه في العالم، وهي بالتأكيد سمـة مركزيـة للحيـاة البشرية منذ ظهرت. إنها مكون رئيس لمـا دعـاه ألفـرد رسـل ولاس، أحـد مؤسـسي نظريـة النشوء الحديثة، "طبيعة الإنسان الأخلاقية والفكرية": القدرات البشرية للتخيل الخلاق، واللغـة والرمزية عموما، وتسجيل الظواهر الطبيعية وتفسيرها، والممارسات الاجتماعية المعقدة، ومـا إلى ذلك، وهي مركب من القدرات والممارسات يطلق عليها أحيانـا مجـرد "المقـدرة الانـسانية". ويبدو أن هذا المركب قد تبلور حديثا نوعا ما بين مجموعـة صـغيرة في شـرق أفريقيـا انحدرنا جميعنا منها، ويميز بحدة البشر المعاصرين عن غيرهم في عالم الحيوان، وكانت لـه آثـار عظيمـة على عالم الأحياء. وهناك افتراض عام ومنطقي بأن ظهور اللغة كان عنصرا جوهريـا في هـذا التحول الفجائي والدراماتيكي. وبالإضافة الى ذلك فإن اللغة تـشكل أحـد مكونـات المقـدرة

الانسانية المتاحة للدراسة بعمق. وهذا سبب آخر لأن يقع البحث - حتى ذي الطبيعة اللسانية الخالصة - تحت عنوان اللسانيات الأحيائية أو البايولسانيات بالرغم من بعده الظاهري عن البايولوجيا كما يتمثل ذلك في الفصلين اللذين بقلم لازنك ولارسون في هذا الكتاب.

ومن المنظور البايولساني، لنا أن نتصور اللغة في جوهرها "عضوا من اعضاء البدن"، مثلها مثل أجهزة البصر والهضم والمناعة. وهي مثل الأجهزة الأخرى مكون فرعي من كائن حي مركب له من التكامل الداخلي ما يكفي لأن يكون من المقبول أن يدرس دراسة مجردة عن تفاعلاته المعقدة مع الاجهزة الأخرى في حياة ذلك الكائن. وفي هذه الحالة فإن هذا العضو هو عضو معرفي مثل أجهزة التخطيط والتفسير والتأمل وغير ذلك مما يقع ضمن تلك الجوانب من العالم التي تدعى "العقلية" والتي يمكن ردها بشكل من الأشكال إلى "التركيب العضوي للدماغ" وفق كلمات العالم والفيلسوف جوزيف بريستلي من القرن الثامن عشر. وكان بهذا يعبر عن الاستنتاج الطبيعي بعد أن أثبت نيوتن، على استيائه الكبير وعدم تصديقه لما أثبته هو، أن العالم ليس ماكنة، على عكس الأفتراضات الأساسية لثورة القرن السابع عشر العلمية - وهو استنتاج أسقط مسألة "العقل - الجسم"، لأنه لم يعد هناك مفهوم متسق للجسم (مادة، مادي)، وكان ذلك شيئا مفهوما في القرنين الثامن والتاسع عشر. لنا أن نتصور اللغة "عضوا عقليا"، حيث تحيل كلمة "عقلي" إلى جوانب معينة من العالم، تُدرَس كما تدرس الجوانب الكيمياوية والبصرية والكهربائية وغيرها من الجوانب، بأمل توحيدها في نهاية الأمر، ملاحظين أن التوصل إلى مثل هذا التوحيد في تلك المجالات الأخرى في الماضي كان يتم غالبا بطرق غير متوقعة تماما وليس بالضرورة عبر اختزال جانب بآخر.

وكما قيل في البداية عن هذا العضو العقلي الغريب: **اللغة**، فإنه يبرز سؤالان واضحان. أولهما: لماذا توجد اللغة أصلا، وهي التي ينفرد بها جنسنا فقط؟ والسؤال الثاني هو لماذا توجد أكثر من لغة؟ وفي الحقيقة، لماذا هذا التعدد الكبير والتنوع بحيث تبدو اللغات "تختلف عن بعضها البعض بلا حدود وبطرق لا يمكن التنبؤ بها". ولهذا فإن دراسة أية لغة يجب أن تقارب "بدون أية خطة قبلية لما يجب أن تكون عليه اللغة". ونحن هنا نقتبس تعبيرات

للساني الشهير مارتن جوس قبل 50 عاما، مختصرا ما أسماها "التقاليد التي أرساها بواس" السائدة آنذاك والتي رد أصولها إلى أعمال فرانس بواس أحد مؤسسي علم الانثروبولوجيا واللسانيات الانثروبولوجية الحديثة. ولقد دعي العمل الذي يمثل الأساس للسانيات البنيوية الأميركية في الخمسينات من القرن الماضي، وهو كتاب زيليغ هاريس "طرق في اللسانيات البنيوية"، دعي "طرق" لأنه لم يبدُ أن هناك شيئا يقال عن اللغة أبعد من طرق لاختزال المادة اللغوية من اللغات ذات التنوع اللامحدود إلى صيغة منتظمة. ولم تكن البنيوية الأوربية لتختلف عن هذا. فمقدمة نيكولاي تروبتسكوي الكلاسيكية للتحليل الفونولوجي شبيهة به في مفاهيمها. وعموما، فإن البحث البنيوي ركز بشكل كلي تقريبا على الفونولوجيا (أصوات اللغة) والمورفولوجيا (الصرف)، وهي المجالات التي تظهر فيها اللغات مختلفة اختلافا واسعا وبطرق معقدة، وهذا أمر مهم سنعود إليه[1].

لقد كانت المنظر السائد في البايولوجيا العامة في ذات الوقت مشابها تقريبا. وقد صورته ملاحظة عالم البايولوجيا الجزيئية كنثر ستنت بأن التنوع في الكائنات العضوية حر لدرجة واسعة بحيث أنه يكون "اللا نهاية في الجزئيات التي يجب فرزها في كل حالة على حدة" (كما اقتبست في Carrol 2005a:24).

وفي الحقيقة فإن مشكلة التوفيق بين الوحدة والتنوع تبرز دوما في البايولوجيا العامة كما في اللسانيات. فدراسة اللغة التي تطورت ضمن الثورة العلمية في القرن السابع عشر ميزت بين القواعد الكلية والقواعد الخاصة، ولو أن ذلك لم يكن تماما بنفس معنى المقاربة البايولسانية المعاصرة. فقد عُدَّت القواعد الكلية الجوهر الفكري لتلك الدراسات؛ في حين أن القواعد الخاصة عدت مجرد تجليات عرضية للنظام الكلي. وبازدهار اللسانيات الأنثروبولوجية تأرجح البندول نحو الاتجاه الآخر، نحو التنوع والاختلاف، الذي عبّر عنه بشكل جيد في صياغة بواس التي اقتبسناها. ولقد برزت القضية في البايولوجيا العامة بشكل حاد في الجدل المشهور بين العالِمين الطبيعيَين جورجي كوفيه وجفري سان هيلير في 1830. وقد تغلّب موقف كوفيه الذي يؤكد على التنوع وبخاصة بعد الثورة الداروينية، وأدى إلى

---

[1] انظر Joos (1957) و(Trubetzkoy (1939, trans. 1969).

الاستنتاجات حول اللانهائية في التنوع التي يجب أن تفرز حالة بحالة. وربما كانت العبارة الأشهر اقتباسا في البايولوجيا هي ملاحظة داروين الأخيرة في **أصل الأنواع** حول كيف أنه "من بداية جد بسيطة نشأت وما تزال أشكال لا نهاية لها جميلة ومدهشة الى أبعد الحدود". ولا نعرف إن كانت التورية مقصودة. ولكنها كانت كافية لأن يتخذ العالم البايولوجي النشوئي شون كارول من هذه الكلمات عنوانا لمقدمته عن "البايولوجيا النشوئية التطورية - evo devo"الذي يسعى لإثبات أن الاشكال التي تطورت ليست لا نهائية في تنوعها إطلاقا، بل هي منتظمة إلى حد لافت.

إن التوفيق بين التنوع الظاهر في الأشكال العضوية وانتظامها الخفي - لماذا نرى هذه المجموعة من الأشياء الحية في العالم وليس غيرها، مثلما لماذا نرى هذه المجموعة من اللغات/ القواعد وليس غيرها - هذا التوفيق يأتي من خلال تفاعل عوامل ثلاثة، صاغها بمهارة العالم البايولوجي مونو Monod في كتابه **الصدفة والضرورة** Chance and Necessity, 1972. فهناك أولا الحقيقة المحتملة تأريخيا بأننا ننحدر من شجرة واحدة للحياة، ونشترك بذات الأصل مع كل الأشياء الحية التي يبدو أنها لم تسبر إلا جزءا صغيرا من الفضاء الذي يضم مجموعة أعظم من المخرجات البايولوجية الممكنة. وهكذا فيجب أن لا يكون من المستغرب أننا نمتلك جينات مشتركة وسبلا بايولوجية - كيمياوية مشتركة، وكثيرا غير ذلك.

ثانيا، هناك قيود العالم الفيسيولوجية - الكيمياوية، وهي ضرورات تحدد ما هو ممكن بايولوجيا، كشبه استحالة العجلة أداة للانتقال بسبب الصعوبة المادية في توفير السيطرة العصبية على جسم يدور أو في تزويده بالدم. وثالثا، هناك عامل التصفية التي يقوم بها الانتقاء الطبيعي الذي يختار من القائمة المسبقة للإمكانات التي تقدمها الاحتمالات التاريخية والقيود الفسيولوجية - الكيمياوية - المجموعة الفعلية للكائنات الحية التي نراها حولنا في العالم. ولنلاحظ أن لقائمة الخيارات المقيدة عظيم الأهمية. فلو لم تكن الخيارات مقيدة جدا لما كان للانتقاء الكثير مما يختاره منه. إذ لن يثير الدهشة حين يذهب شخص إلى مطعم للوجبات السريعة أن يخرج منه حاملا شطيرة همبركر وأصابع البطاطس المقلية. وهكذا فان الانتقاء الطبيعي، كما قال داروين، ليس الوسيلة "الوحيدة" التي شكلت العالم الطبيعي، فهو

يقول: "بالإضافة إلى ذلك، فإني مقتنع بأن الانتقاء الطبيعي كان الوسيلة الرئيسة، وليست الوحيدة، للتعديلات التي طرات على الكائنات الحية" (Darwin 1859: 7).

وقد أعادت الاكتشافات الحديثة تنشيط مقاربة دارسي تومسون (Thompson1992) والان تورينغ للأسس التي تقيد تنوع الكائنات. ووفق كلمات تورينغ و واردلو فإن علم البايولوجيا الحقيقي يجب أن يعد كل كائن حي نوعا خاصا من الأنظمة تعمل عليه قوانين الفيزياء والكيمياء" مقيدة بشدة تنوعها الممكن ومثبتة خواصها الأساسية (Turing and Wardlaw 1953). إن هذا المنظور يبدو أقل تطرفا اليوم بعد اكتشاف الجينات الرئيسة master genes والتشاكلات العميقة (الأعضاء المتشابهة في الكائنات الحيوية المختلفة والناتجة عن أصل واحد) وحفظ الصفات، وكثير غيرها، وربما حتى الحدود الضيقة التي تفرضها العمليات النشوئية - التطورية بحيث إن إعادة تدوير شريط بروتين الحياة فيها تكرار مدهش" كما يقول تقرير كتبه واينراش وآخرون (Weinreich et al.2006) عن طرق التحولات (الطفرات) الوراثية المحتملة، واعادوا فيه تفسير صورة مشهورة رسمها ستيفن غولد الذي رأى ان شريط الحياة إن أعيد تدويره سيتبع طرقا متنوعة. وكما يلاحظ مايكل لينج Michael Lynch أيضا (2007: 367) "لقد عرفنا منذ عقود أن كل الكائنات حقيقية النواة eukaryotes تشترك تقريبا بنفس جينات الاستنساخ والنقل والتكرار وامتصاص المغذيات والأيض الأساسي وبنية هيكل الخلية، وغيرها. فلماذا نتوقع أن تكون الأشياء مختلفة في التطور؟"

في استعراض حديث لمقاربة البايولوجيا **النشوئية - التطورية**evo - devo يلاحظ غيرد مولر Gerd Muller (2007) مقدار عمق فهمنا لنماذج التنميطات التي اقترحها تورينغ، مبينا أن العديد من الاشكال التي تعم الجنس... تنتج من تفاعل الخواص الأساسية للخلايا مع الآليات المختلفة التي تشكل الأنماط. فالالتصاق التفريقي (بين الخلايا المختلفة) والاستقطاب الخلوي (الاستقطاب بين الخلايا المختلفة) حين تعدلها أنواع مختلفة من آليات التنميط الفيزياوية والكيمياوية.... ستقود إلى أشكال تنظيمية قياسية...... إن خصائص الالتصاق التفريقي وتوزيعها القطبي على سطوح الخلايا تؤدي الى حيز مجوف حين تجتمع مع

تدرج الانتشار وإلى حيز مطوي حين تجتمع مع تدرج الترسب........ إن المزج بين الالتصاق التفريقي مع آلية لانتشار التفاعل يولد بنى دورية بشكل شعاعي في حين ينتج المزج مع الذبذبة الكيمياوية بنى دورية بشكل متسلسل. إن خطط اجسام الكائنات المتعددة الخلايا (المتزويات) المبكرة تمثل استغلالا لهذه المخزونات من الانماط العامة (Muller 2007: 947).

فمثلا، إن الحقيقة العارضة في أن لدينا خمسة أصابع في اليد وخمسة أصابع في القدم ربما كانت ستفسر بشكل أفضل بالنظر في تطور أصابع اليد والقدم من القول بأن هذا العدد يمثل العدد المثالي لتأديتها وظيفتها[1].

يحتج عالم الكيمياء الحيوية مايكل شرمان (2007)، ولو برؤية خلافية، بأن هناك جينوم كلي يشفر كل البرامج التطورية الرئيسة والضرورية لشعب الأحياء متعددة الخلايا ظهر في كائن عضوي وحيد الخلية أو كائن عضوي متعدد الخلايا بدائي قبيل العصر الكمبري" أي قبل حوالي 500 مليون سنة، حين حصل انفجار فجائي لأشكال حيوانية معقدة، وأنه بالإضافة الى ذلك فإنه "مع أن لشعب الأحياء متعددة الخلايا جينومات متشابهة، إلا أنها متمايزة لأنها تفيد من توليفات محددة من البرامج التطورية". ووفق هذه الصورة فإن هناك حيوان متعدد الخلايا واحد لو نظرنا إليها من وجهة نظر تجريدية - وجهة نظر العالم القادم من المريخ ومن حضارة متقدمة علينا بأشواط كبيرة حين ينظر إلى الأرض وما عليها. فالتنوع السطحي ينتج في جزء منه عن الترتيب المتنوع لأدوات في "صندوق للعدد الوراثية - التطورية" محافظ عليه نشوئيا كما يطلق عليه أحيانا (أي إن عمليات النشوء لا تمسه فأدواته هي نفس الأدوات والفرق ينحصر في ترتيبها المختلف). وإن ثبت صدق مثل هذه الافكار وأنها على المسار الصحيح، فستعاد صياغة مسألة الوحدة والاختلاف بطرق ستدهش بعض

---

(1) كما يقول أهاوس وبيروك Ahouse and Berwick (1998) فإن "خمسة أصابع يد وقدم لم تكن هي العدد الأصلي لها لدى ذوات القوائم الأربع (أنظرمناقشة كوتس Coates وكلارك Clark في (*Nature* 347, 1990, 66–9)، وأن البرمائيات ربما لم يكن لها أكثر من أربعة أصابع (وثلاثة عموما) في قوائمها الأمامية والخلفية. وهناك تفسير ذكي من حقل علم الوراثة الجزيئي التطوري يعطي تعليلا منطقيا لسبب وجود خمسة أنواع مختلفة من الأصابع ولو أن بعضها قد نسخ عن الآخر".

الأجيال الحديثة من العلماء. إن فكرة أن يشكل صندوق العدد المحافظ عليه التفسير الوحيد لما نلاحظه من اتساق وانتظام تستحق بعض العناية. فكما ذكرنا، فإن ما نراه من هذا الاتساق يأتي في جزء منه نتيجة عدم وجود وقت كاف، واحتمال الانتساب بالتحدر من أسلاف يمنع الذهاب بعيدا في إمكانية استكشاف المجال الوراثي - البروتيني - والشكلي - وبخاصة إذا أدركنا استحالة "العودة إلى الوراء" والبدء بالبحث مرة أخرى لنحرز نجاحا أكبر. وبوجود هذه القيود الذاتية لن يكون من المستغرب أن تكون الكائنات كلها قد بنيت وفق مجموعة محددة من تصاميم البناء كما أكد ستيفن غولد وآخرون غيره. وبهذا المعنى سيرى العلماء المريخيون، إذا ما قدموا إلى الأرض، كائنا واحدا فعليا ولو بتنوعات سطحية كثيرة.

إن هذا الاتساق لم يمر بدون ملاحظة في أيام داروين. فالدراسات الطبيعية لتوماس هكسلي، زميل داروين وشارح نظرياته، أوصلته الى ملاحظة ساورتها الحيرة وهي أنه يظهر أن هناك "خطوطا للتعديل محددة مسبقا" تقود الانتقاء الطبيعي "لانتاج تنوعات محدودة عددا ونوعا" لكل نوع (Maynard - Smith et al. 1985: 266). وفي الواقع فإن دراسة مصدر التنويعات الممكنة وطبيعتها شكلت جزءا كبيرا من برنامج بحوث داروين نفسه بعد كتابه "**أصل الانواع**"، كما في كتابه **تنوع النباتات والحيوانات في التدجين (1868)**. إن استنتاج هكسلي يذكرنا بالأفكار الأقدم عن "التشكيل المنطقي"، التي تبرز، كمثال عليه، نظريات غوته عن الأشكال البدئية للنباتات، والتي ازدهرت من جديد في الثورة التطورية النشوئية. وبالفعل - وكما أشرنا سابقا - فإن داروين نفسه كان يحس بهذه القضية، وكان، وهو التوليفيsynthesizer الأعظم، يتعامل بعناية أكبر مع "قوانين النمو والشكل": أي كون القيود وفرص التغير تعود إلى تفصيلات النمو، والترافق العرضي بسمات انتقيت بقوة إيجابا أو سلبا، وأخيرا الانتقاء على الخاصية النوعية نفسها. وقد لاحظ داروين أن مثل هذه القوانين لـ "الترابط والتوازن" ستكون ذات أهمية كبيرة لنظريته، وقد علق، مثلا، بأن "القطط البيض، إن كانت عيونها زرقاء فهي صماء بلا خلاف". (رسالة داروين الى دبليو.دي. فوكس في 1856).

حين سادت نظرية التركيب الحديث في النشوء، التي كان روادها فيشر وهالدين ورايت خلال معظم النصف الثاني من القرن الماضي، كان التأكيد في النشوء يتركز على حالات الطفرات الصغيرة والتدرج، وإبراز قوة الانتقاء الطبيعي الذي يعمل بخطوات جزئية صغيرة جدا. ولكن البندول في البايولوجيا العامة أصبح يميل حديثا نحو تضامن عوامل مونو الثلاثة التي تقدم لنا طرقا جديدة لفهم الأفكار التقليدية.

لنعد إلى أول السؤالين الأساسيين اللذين طرحناهما: لماذا يجب أن تكون هناك لغات أصلا، وهو أمر يتفرد به جنسنا البشري؟ وكما ذكرنا، فإن هذا السؤال لم يكن ليطرح حتى وقت قريب - إذا نظرنا اليه وفق أزمنة النشوءevolutionary time، إذ لم تكن هناك لغات. لقد كان هناك بالطبع كثير من أنظمة الاتصال الحيواني. ولكن هذه كلها تختلف جذريا عن اللغة البشرية في بنيتها ووظيفتها. فاللغة البشرية لا يمكن حتى ضمها الى أي من التصنيفات القياسية لانواع أنظمة اتصال الحيوان - مثلا تصنيفات مارك هاوزر في عرضه الشامل لنشوء الاتصال (Hauser1996). ولقد كان من التقليدي أن تعد اللغة نظاما وظيفته الاتصال. وهذه، بالفعل، هي النظرة الشائعة التي يؤتى بها في غالبية التفسيرات الانتقائية للغة (تلك التي تعتمد على نشوئها انتقائيا)، التي تبتدئ جميعا من هذا التفسير. غير أنه حتى لو كان لهذا التوصيف معنى فإنه مجانب للصواب ولأسباب متنوعة سنعود إليها فيما يلي.

إن الاستدلال على "هدف" لخاصية بايولوجية اعتمادا على شكلها السطحي محفوف بالمصاعب. فملاحظات لونتن في كتابه The Triple Helix (2000: 79) توضح كم هي صعوبة تعيين وظيفة فريدة لعضو من الأعضاء أو خاصية معينة حتى في الحالات التي تبدو أول الأمر مواقف أبسط كثيرا: فالعظام ليس لها وظيفة وحيدة لا لبس فيها. فمع أنه من الصحيح القول بأن العظام تدعم الجسم متيحة لنا الوقوف والمشي، إلا أنها كذلك مخزن للكالسيوم ونخاع العظام لانتاج كريات دم حمراء جديدة، وهكذا فإنها، بمعنى من المعاني، جزء من جهاز الدوران.

إن ما يصدق على العظام يصدق بصورة كبيرة على اللغة البشرية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك دائما تراث علمي بديل، عبر عنه بيرلينغ Burling (1993) وآخرون، يقول بأن البشر يمتلكون نظاما ثانويا للتواصل مثل تلك النظم التي لدى الرئيسات (أعلى مراتب الثديات)، وهو نظام غير كلامي من الإشارات أو حتى الصيحات، ولكن هذا كله ليس بلغة، إذ كما يلاحظ بيرلينغ "فإن هذا النظام المتبقي لدينا يتميز عن اللغة بشكل حاد"[1].

وطبعا، يمكن أن تستخدم اللغة للتواصل، وكذلك أي شيء نفعله: طراز ما نلبس، الإشارات، وهكذا... وكذلك فإن اللغة يمكن أن تستخدم، بل هي تستخدم على نحو شائع، في كثير من الأغراض غير التواصل. ومن منظور إحصائي، فإن الاستخدام الغالب للغة باطني - أي للفكر. فالامتناع عن التحدث إلى النفس في كل لحظة يقظة يتطلب فعلا إراديا كبيرا - وكذلك أثناء النوم، وهذا أمر مزعج لحد كبير. وقد أبدى عالم الأعصاب البارز هاري جريسون Jerison (1973: 55) وكذلك أخرون رأيا أقوى، وذلك بقوله بأن "اللغة لم تنشأ وتتطور بوصفها نظام تواصل.... فالرأي الأكثر احتمالا هو أن النشوء الأول للغة.... كان لإعادة تركيب العالم الحقيقي، "بوصفها أداة للفكر". إذ يظهر أن الخواص الأساسية للغة تختلف، ليست في بعدها الوظيفي حسب، بل في كل جوانبها الأخرى - الجانب الدلالي والنحوي والصرفي والفونولوجي - تختلف اختلافا حادا عن نظم اتصال الحيوانات، وإنها نظام فريد ليس له شبيه في عالم الكائنات الحية.

كيف إذن ظهر هذه الشيء الغريب في السجل البايولوجي، وكما يبدو، خلال منفذ نشوئي ضيق جدا، ربما بين 50000 إلى 100000 سنة؟ ليس هناك، طبعا، أجوبة جازمة، ولكن من الممكن رسم بعض التخمينات المعقولة التي لها صلة وثيقة بالبحث العلمي ضمن الإطار البايولساني في السنين الاخيرة.

---

(1) توضح بحوث لورا بتيتو عن لغة الاشارات (Petitto1987) ملاحظة بيرلينغ بشكل مثير – فنفس الاشارة تستخدم للإيماء وكذلك للإحالة الضميرية، ولكنها في الحالة الثانية تكون عكس-إيقونية في العمر الذي يعكس فيه الأطفال الصغار إحالة الضميرين "أنا" و"أنت".

إن السجل الأحفوري للانسان الحديث يبين تواجده تشريحيا لبضعة مئات آلالاف من السنين (ثلاثمائة ألف سنة وفق آخر الاكتشافات)، ولكن الأدلة على القدرة الإنسانية أحدث من ذلك بكثير، ولا تسبق ارتحال الإنسان الحديث من أفريقيا بكثير. يخبرنا عالم أصول البشر إيان تاترسول أن وجود "قناة صوتية قادرة على إنتاج أصوات الكلام المقطع" يسبق بنصف مليون سنة الأدلة التي تشير إلى استخدام أسلافنا للغة. ويكتب "أن علينا أن نستنتج أن ظهور اللغة وما يرتبط بها تشريحيا لم يكن مدفوعا بالانتقاء الطبيعي، بغض النظر عن مدى فائدة هذه المستجدات حين ننظر إليها بعد مرور كل هذا الزمن" - وهذا استنتاج لا يمثل مشكلة للبايولوجيا النشوئية، على عكس الأوهام الشائعة في الكتابات الشعبية (Tattersall 1998). ويبدو أن حجم الدماغ البشري قد وصل مستواه الحالي في وقت متأخر نسبيا، وربما منذ حوالي 100.000 سنة، وهو ما يوحي لبعض المختصين بان "اللغة البشرية ربما نشأت، على الأقل جزئيا، بوصفها نتيجة أوتوماتيكية تكيفية لزيادة حجم الدماغ (عالم الاعصاب جورج ستريدتر (Striedter 2004). وفي ما يخص اللغة فإن تاترسول يستنتج بأنه "وبعد فترة طويلة، لا نعرف عنها كثيرا، من توسع متذبذب في حجم الدماغ وإعادة التنظيم في السلالات البشرية، حدث شيء ما مهد السبيل لاكتساب اللغة. وكان هذا الشيء الجديد سيعتمد على ظاهرة البروز emergence، حيث ينتج عن تجمع عرضي لعناصر موجودة قبل ذلك شيء لم يكن متوقعا إطلاقا، "ربما كان "تغيرا عصبيا.... في بعض أفراد السلالة البشرية.... شيئا ثانويا من الناحية الجينية، ربما لم يكن له أية صلة بالتكيف" ولو أنه أعطى ميزات، ثم تكاثر هذا التغير وانتشر. وربما كان نتيجة أوتوماتييكية لحجم الدماغ البحت، كما يقول ستريدتر، أو ربما كان طفرة ثانوية عرضية. وبعد ذلك بفترة من الزمن - ليست طويلة وفق الزمن النشوئي - حدثت مستجدات أخرى، ربما كانت بدافع حضاري، قادتنا إلى الانسان الحديث سلوكيا، وهو تبلور القدرة البشرية، ورحلة الخروج من أفريقيا (Tattersall 1998, 2002, 2005) .

ماذا كان هذا التغير العصبي الذي حدث في مجموعة صغيرة والذي كان تغيرا ثانويا من الناحية الجينية؟ للجواب على هذا السؤال علينا أن نتدبر الخصائص التي تتميز بها اللغة.

إن أول ما تتصف به قابليتنا اللغوية المشتركة من الخواص الأساسية هي أنها تمكننا من بناء وتفسير عدد لا نهائي من التعبيرات المتمايزة المبنية بناء هرميا: وهي متمايزة لأن هناك جملا تتألف من خمس كلمات وأخرى من ست كلمات ولكن لا توجد جملة تتألف من خمس كلمات ونصف؛ وهي لا نهائية لأنه ليس لدينا جملة يمكننا أن نقول عنها إنها أطول جملة. وهكذا فإن اللغة مبنية على إجراء توليدي متكرر يلتقط عناصر أولية شبيهة بالكلمات من مخزن ما، لنسمه المعجم، ويعمل مرة بعد مرة ليعطينا تعبيرات ذات بنية، لا حد لها. ولكي نحسب حساب انبثاق ملكة اللغة - أي وجود لغة واحدة في الأقل - علينا أن نواجه مهمتين أساسيتين. المهمة الأولى هي أن نحسب حساب "ذرات الحوسبة" - المفردات - والتي يتراوح عددها عموما مابين 30000 و35000 وحدة. أما الثانية فتتمثل باكتشاف الإجراء التوليدي الذي ينشئ التعبيرات اللا محدودة عددا في الذهن، والطرق التي بواسطتها توصل هذه العناصر الذهنية الداخلية ب - **واجهتين** interfaces مع نظامين خارج اللغة (ولكنهما ضمن أنظمة الكائن): نظام الأفكار من ناحية، ومن ناحية أخرى النظام الحسي الحركي sensory - motor، بما يكفل **تجسيد/ تمظهر** externalizintion الحوسبات والافكار الباطنية. إن هذا يمثل إحدى الطرق في إعادة صياغة التصور التقليدي، على الاقل منذ أرسطو، القائم على أن اللغة هي "صوت له معنى". إن كل هذه المهمات تنطوي على مشكلات كبيرة، أكبر مما قد ظُن في الماضي القريب أو في الوقت الحاضر.

لنلتفت إذن الى العناصر الأساسية في اللغة، مبتدئين بالإجراء التوليدي الذي يبدو أنه ظهر في وقت من الاوقات في نطاق ال - 50000 و100000 سنة وهذا ليس أطول من طرفة عين وفق الازمنة النشوئية، والذي يبدو أنه يتضمن إعادة تشكيل طفيفة في الدماغ. وهنا تصبح الثورة النشوؤية التطورية ذات صلة بما نحن بصدده. فلقد قدمت أدلة دامغة على استنتاجين مهمين. الاول منهما هو أن الموهوبات الجينية، حتى تلك المتعلقة بالأجهزة التنظيمية Regulatory systems، محفوظة ولا تتعرض لعوامل التغيير. والاستنتاج الثاني هو أنه يمكن للتغييرات الطفيفة جدا أن تؤدي إلى اختلافات واسعة فيما نلاحظه من مخرجات - ولو أن اختلاف الأنماط الظاهرية محدود بسبب الحفظ العالي (وضآلة التغير)

للأنظمة الجينية، وقوانين الطبيعة التي كانت موضع اهتمام تومسون وتورينغ. ولنوضح هذا بمثل بسيط. فهناك نوعان من سمك "أبو شوكة"، أحدهما له فقرات شوكية في منطقة الحوض والآخر ليس له ذلك. لقد حدثت طفرة قبل حوالي 10000 سنة في "مفتاح" جيني قريب من جين ذي صلة بإنتاج العمود الفقري أدت إلى التفريق بين النوعين، أحدهما أصبح له أشواك وتكيف للعيش في المحيطات، والآخر بدونها تكيف للعيش في البحيرات (Colosimo et al. 2004, 2005; Orr 2005a).

هناك نتائج كثيرة أكبر أثرا لها علاقة بنشوء العيون، وهو موضوع جرت دراسته بعمق. وتبين أن ليس هناك إلا أنواع قليلة جدا من العيون، وهذا يعود في جزء منه إلى القيود التي تفرضها فيزياء الضوء، وفي جزء آخر إلى أن فصيلة واحدة فقط من البروتين - جزيئات الاوبسن opsin - تستطيع أن تؤدي الوظائف الضرورية. إن للجينات التي تشفر الاوبسين أصولا مبكرة جدا، ويجري توظيفها مرة بعد أخرى ولكن بطرق محدودة، وذلك أيضا بسبب القيود الفيزياوية. ويصح الشيء نفسه عن بروتينات عدسة العين. إن نشوء العيون يوضح التفاعلات المعقدة للقوانين الفيزياوية والعمليات العشوائية ودور الانتقاء في الاختيار ضمن مسلك مادي ضيق من الاحتمالات (Gehring 2005).

إن بحوث جيكوب ومونو منذ 1961 عن اكتشاف "الاوبرون" operon في ال - إي كولي E. coli "الاشريكية القولونية"، التي حازا بها على جائزة نوبل، قادت إلى عبارات مونو المقتبسة الشهيرة (والمذكورة في Jacob 1988): "ما يصدق على بكتيريا القولون (إي كولي) يصدق على الفيل" (Jacob 1988: 290). وفيما فسرت هذه الكلمات أحيانا كاستباق للطروحات اللنشوئية التطورية المعاصرة، فإنه يبدو أن ما كان مونو يعنيه هو أن نظرية التنظيم السلبي التي وضعها هو وفرانسوا جيكوب تكفي لان تحسب حساب كل حالات تنظيم الجينات. غير أنه تبين أن هذا التخمين ليس صحيحا. فالكائنات حقيقية النواة (اللابكتيريا) لا تستخدم (ولا تستطيع ان تستخدم) آلية المشغل الوراثي التنظيمية التي تستخدمها البكتيريا (بدائية النواة Prokaryotes)، لأن جيناتها ليست مصفوفة بشكل خطي منتظم كما تنتظم الخرزات في خيط بدون تقطع، وبدون تدخل مناطق تشفير غير

بروتينية (انترونات introns). وبشكل عام فإن هذا التنظيم في البكتيريات البدائية النواة هو الذي يسمح بعمل نظام الاوبرون. وبالفعل، فإن الكثير من الثورة النشوئية التطورية يتمحور على اكتشاف الاساليب الدقيقة لتنظيم الجينات وتطورها التي تستخدمها الكائنات حقيقية النواة. ومع ذلك فإن فكرة مونو الأساسية بأن الاختلافات الضئيلة في توقيت وترتيب الآليات التنظيمية التي تفعّل الجينات يمكن أن تنتج عنها اختلافات عظيمة، ظهر أنها فكرة صحيحة، ولو أن الآليات لم تكن متوقعة. وقد تولى جيكوب (1977) تزويدنا بنموذج إيحائي لنمو الكائنات الأخرى مبني على فكرة أن "لنا أن نشكر الدورات التنظيمية" على أن الاختلاف بين الفراشة والأسد، وبين الدجاجة والذبابة...... ما هو إلا نتيجة طفرات غيرت الدورات التنظيمية للكائن وليس بنيته الكيمياوية" (1977:26). وبدوره فإن نموذج جيكوب هو من جملة ما ألهمنا مقاربة **المبادئ والمتغيرات** Principles and Parameters للغة، وهو ما كان موضع النقاش في محاضرات بعيد ذلك (Chomsky 1980: 67).

تتأسس مقاربة المبادئ والمتغيرات على افتراض أن اللغة تتكون من مبادئ ثابتة لا تتغير متصلة بلوحة مفاتيح من المتغيرات، وهذه أسئلة على الطفل إجابتها على أساس المادة اللغوية التي يتعرض لها كي يثبت لغة معينة من بين عدد محدود منها مبدئيا - أو كما احتج جارلس يانغ (Charles Yang2002) - لتعيين توزيع الاحتمالات على اللغات الناتج عن إجراء تعلمي لتثبيت المتغيرات. فمثلا، يتعين على الطفل أن يحدد فيما إذا كانت اللغة التي يتعرض لها هي من النوع الذي تبتدئ عباراته بالرأس، كما هو الحال في الإنكليزية، التي تتقدم عناصرها الرئيسة على مفاعيلها (أو العربية كما في **يقرأ الكتاب أو في الغرفة** (م))، أو انها لغة تنتهي عباراتها بالرأس، كاليابانية، حيث تكون مقابلات العبارتين السابقتين فيها **الكتاب يقرأ والغرفة في**. وكما هو الحال في الحالة المشابهة لها تقريبا وهي إعادة ترتيب الآليات المنظمة، فإن هذه المقاربة تقدم إطارا لفهم كيف يمكن لوحدة أساسية أن تعطينا ما يبدو تنوعا لا محدودا، تنوعا كان يفترض عن اللغة حتى وقت قريب (وكذلك عن الكائنات البايولوجية عموما).

لقد كان البرنامج البحثي للمبادئ والمتغيرات مثمرا، وأعطانا فهما جديدا غنيا لمدى واسع من التنوع اللغوي، مثيرا أسئلة جديدة لم تكن قد أثيرت من قبل أبدا، ومقدما إجابات عليها في بعض الأحيان. ولن نبالغ إذا قلنا إن ما تعلمناه عن اللغات في السنين الخمس والعشرين الأخيرة يفوق بكثير ما تعلمناه في آلاف السنين السابقة من البحث الجاد في اللغة. وفيما يتعلق بالسؤالين المهمين اللذين بدأنا بهما، فإن هذه المقاربة ترى أن ما برز، فجأة الى حد ما وفق الاعتبارات النشوئية، كان الإجراء التوليدي الذي يزودنا بالمبادئ، وأن تنوع اللغات ناتج عن أن تلك المبادئ لا تحدد اجوبة على كل الأسئلة عن اللغة، بل تترك بعض الأسئلة إلى المتغيرات المفتوحة. ولنلاحظ أن المثال التوضيحي أعلاه يتعلق برتبة العناصر. ومع أن الموضوع ما يزال موضع إختلاف، فإنه يبدو أن لدينا الآن أدلة لسانية قوية على أن رتبة العناصر مقيدة بتمظهر الحوسبة الباطنة إلى النظام الحسي الحركي sensory - motor، وأنها لا دور لها في الجوانب الجوهرية للنحو والدلالة، وهو استنتاج تتوفر عليه أدلة بايولوجية متزايدة من النوع المألوف لعموم علماء البايولوجيا، وسنعود لهذا بعد قليل.

إن أبسط افتراض، وهو الافتراض الذي سنتبناه في غياب الدليل المضاد، هو أن الاجراء التوليدي ظهر فجأة بوصفه نتيجة لطفرة صغيرة. وفي هذه الحالة، لنا أن نتوقع أن يكون هذا الإجراء بسيطا جدا. ولقد جرى استكشاف أنواع مختلفة من الاجراءات التوليدية في الخمسين سنة الماضية. وكان إحدى هذه المقاربات المقترحة **قواعد بنية العبارة** phrase - structure rammar المألوفة للسانيين وعلماء الكومبيوتر، التي طورت في الخمسينات من القرن الماضي، واستخدمت بشكل واسع منذ ذلك الحين. وفي ذلك الوقت كان لهذه المقاربة قبول كبير. فقد توافقت بشكل طبيعي مع واحدة من الصياغات المتساوية لنظرية الإجراءات المتكررةrecursive procedures الرياضية - نظم إعادة الكتابة لأميل بوست - وأحاطت، على الأقل، ببعض خواص اللغة الأساسية، كالبنية التراتبية والاكتناف embedding. غير أنه سرعان ما اتضح أن نظام قواعد بنية العبارة لم يكن غير مناسب فحسب، بل كان إجراءً بالغ التعقيد، وذا اشتراطات اعتباطية كثيرة، وليس النظام الذي كنا نأمل أن نجده، وكذلك فهو ليس بالنظام الذي من المحتمل أن يكون قد برز فجأة.

وبمرور السنين، أوجد البحث طرقا لتخفيض التعقيدات في هذه الأنظمة، وأخيرا لاستبعادها كليا لصالح الصيغة الأبسط للتوليد المتكرر: عملية تأخذ شيئين سبق بناؤهما، لندعوهما س و ص، وتشكل منهما شيئا جديدا يتكون منهما بدون تغيير عليهما، أي مجموعة تتكون من عضوين هما س وص. ولندعو هذه العملية **الدمج Merge**. وحين تزود بالذرات المفهومية للمعجم فإن عملية الدمج التي تتكرر بدون حدود تعطينا عددا لا متناه من التعبيرات ذات البنية التراتبية. وإن كان يمكن تفسير هذه التعبيرات من قبل الأنظمة المفاهيمية فإن العملية تعطينا لغة فكر باطنية.

هناك فرضية قوية جدا تدعى **'الفرضية الأدنوية القوية strong minimalist thesis'**. تقول هذه الفرضية بان العملية التوليدية عملية **مثلى optimal**: فمبادئ اللغة تحددها الحوسبة الفعالة، واللغة لا تعدو أبسط عمليات التكرار، الدمج، المصممة للإيفاء بمتطلبات المواجهة interface (مع الاجهزة/ الأنظمة العقلية الأخرى(م)) بما يتلاءم مع المبادئ المستقلة للحوسبة الفعالة. فاللغة مثلها مثل ندفة الثلج الرقيقة، تتخذ شكلها بفضل قوانين الطبيعة - في هذه الحالة، مبادئ الحوسبة الفعالة - حين يكون قالب البناء الأساسي متاحا، ملبية الشروط المفروضة عليها عند خطوط المواجهة. ولقد عبّر عن هذه الفرضية الأساسية عنوان مجموعة حديثة من المقالات الفنية: 'المواجهات + التكرار = اللغة؟' (Sauerland and Gartner 2007). وفي أمثل الأحوال، يمكن للتكرار أن يختصر بالدمج. إن علامة الاستفهام في العنوان الفائت مناسبة جدا: فالأسئلة تبرز على حواف البحث اللساني الجاري الآن. وسنقترح أدناه أن هناك عدم تماثل مهم بين المواجهتين، حيث تكون الأسبقية للمواجهة الدلالية البرغماتية - أي الصلة بأجهزة الفكر - والفعل. وكذلك فإن معرفة مدى ثراء هذه الشروط الخارجية هو أيضا سؤال جدي للبحث، وكذلك فهو سؤال صعب نظرا لغياب أدلة حول أجهزة الفكر - الفعل هذه من خارج نطاق اللغة. وهناك فرضية قوية جدا اقترحها ولفرام هنزن (Wolfram Hinzen 2006) تقول بأن المكونات المركزية للفكر، كالقضايا، مشتقة أساسا من الاجراء التوليدي المبني بصيغته المثلى.

فإذا ما تم صقل هذه الأفكار وأثبتت صدقيتها فإن تأثير المواجهة الدلالية - البراغماتية على تصميم اللغة سينخفض تبعا لذلك.

إن الفرضية الأدنوية القوية ما زالت غير راسخة ولكنها تبدو أكثر مقبولية مما كانت عليه قبل سنين. وبصحة هذه الفرضية، فإن نشوء اللغة سيختصر ببروز عملية الدمج، ونشوء ذرات المعجم المفهومية، والوصل بالانظمة المفهومية وقالب التمظهر. أما المتبقي من مبادئ اللغة التي لا يمكن ردها إلى الدمج والحوسبة المثلى فستفسر بكونها ناجمة عن عملية نشوئية أخرى - عملية لا يحتمل أن نعرف الكثير عنها، على الأقل، بالطرق المفهومة في وقتنا الحاضر، كما يلاحظ لونتين Lewontin (1998).

ولنلاحظ أنه لا يوجود هناك مكان في هذه الصورة لأي طلائع أو أسلاف للغة - مثل نظام يشبه اللغة ولكنه ذو جمل قصيرة. وليس هناك سبب منطقي لافتراض مثل هذا النظام: فالانتقال من جمل ذات سبعة كلمات إلى اللانهائية المتمايزة في اللغة البشرية يتطلب بروز إجراء تكراري مثلما ننتقل من الصفر إلى اللانهاية، ولا يوجد هناك، بالطبع، دليل مباشر لمثل هذه الأسلاف اللغوية. وتنطبق هذه الملاحظات على اكتساب اللغة، بالرغم من ظواهر الأمور، وهو موضوع سنضعه جانبا هنا.

وبشكل حاسم فإن عملية الدمج ستعطينا خاصية **الانزياح** displacement المألوفة في اللغة: أي حقيقة أننا نلفظ عبارات في موضع ولكننا نفسرها في موضع آخر في الوقت نفسه. وهكذا ففي الجملة **احزر ماذا جون يأكل**–[1]. نفهم **ماذا** بأنها مفعول الفعل **يأكل**، كما في **جون يأكل تفاحة**، ولو أن **ماذا** لا تلفظ بعد الفعل، بل في مكان آخر. ولقد كانت هذه الخاصية دوما تنطوي على سمة تناقض ظاهري، أي نوع من أنواع الخلل في اللغة. فهي ليست ضرورية بأي حال للإحاطة بالحقائق الدلالية ولكنها ظاهرة واسعة الانتشار في اللغة البشرية. وهي كذلك تفوق قدرة قواعد بنية العبارة، إذ إنها تتطلب من هذه الأنظمة مزيدا من التعقيد بإضافة أدوات إضافية إليها لكي تستطيع أن تحسب حسابها.

---

(1) هذه الجملة المثل وما يتلوها من الجمل المتصلة بها هي ترجمة حرفية لمقابلاتها في الإنجليزية، وتلتزم برتبة الكلمات في جمل تلك اللغة. وقد آثرت هذا لضمان وضوح النقطة موضوع المناقشة.

غير أنها مما يقع أوتوماتيكيا ضمن عملية الدمج. ولتوضيح ذلك، لنفترض أن عملية الدمج قد بنت التعبير الذهني الذي يقابل التعبير **جون يأكل ماذا**. هناك تعبير أكبر يمكن لعملية الدمج بناءه بطريقين: الدمج الداخلي يمكن أن يضيف شيئا من داخل التعبير، لكي يصوغ **ماذا جون يأكل ماذا**؛ والدمج الخارجي يمكن أن يضيف شيئا جديدا ليعطينا **إحزر ماذا جون يأكل**.

إن هذا سيوصلنا إلى نصف الطريق نحو فهم الانزياح. ففي **ماذا جون يأكل ماذا** تظهر العبارة **ماذا** في موضعين، وفي الحقيقة فإن هذين الموضعين هما مما يتطلبه التفسير الدلالي: فالموضع الأصلي يزودنا بالمعلومة عن أن **ماذا** تفهم على أنها المفعول المباشر للفعل **يأكل**، أما الموضع الجديد، على الطرف الأول من التعبير، فإنه يفسر على أنه سور quantifier (محدد كمي) ينبسط على متغير variable بحيث يكون معنى هذا التعبير (بصورته المنطقية) شيئا مثل "**لأي شيء س، جون يأكل الشيء س**".

إن هذه الملاحظات تعم نطاقا واسعا من الأبنية. فالنتائج هي بالضبط ما نحتاج إليه للتفسير الدلالي، ولكنها لا تعطينا الأشياء التي نلفظها في الإنجليزية. فنحن لا نلفظ احزر **ماذا جون يأكل ماذا** بل احزر **ماذا جون يأكل**، بإخفاء الموضع الأصلي (لعبارة ماذا). إن هذه خاصية كلية للانزياح، ببعض التعديلات الطفيفة (والمهمة) التي يمكن أن نغفلها هنا. وتنبع هذه الخاصية من مبادئ أولية للحوسبة الفعالة. وفي الواقع، فإنه قد طالما لوحظ أن النشاط الحركي المتسلسل هو نشاط ذو كلفة عالية حوسبيا، وهذا أمر ثبت من خلال احتساب حجم الغشاء الدماغي المختص بالحركة الذي يخصص للسيطرة الحركية على اليدين وكذلك للسيطرة الحركية على الإشارات الفموية الوجهية.

ولتمظهر التعبير **ماذا جون يأكل ماذا** المولد باطنيا، سيكون من الضروري أن تلفظ عبارة **ماذا** مرتين، وسيتبين أن هذا سيضع حملا كبيرا جدا على الحوسبة، حين نأخذ بنظر الاعتبار التعبيرات ذات التعقيد الطبيعي، والطبيعة الفعلية للانزياح بواسطة الدمج الداخلي. وبإخفاء كل مرة نجد فيها **ماذا** باستثناء مرة واحدة، يتم تخفيف العبء الحوسبي بشكل كبير. والمرة الواحدة التي يجري فيها تلفظ **ماذا** هي الأكثر بروزا، أي المرة الأخيرة التي أنتجتها

عملية الدمج الداخلي: وإلا لن تكون هناك أي إشارة إلى عمل الدمج لكي يقدم التفسير الصحيح. ويبدو، إذن، أن ملكة اللغة تجند المبدا العام للحوسبة الفعالة لعملية التمظهر.

إن إخفاء كل المرات - باستثناء مرة واحدة - للعنصر المزاح أمر فعال حوسبيا، ولكنه يفرض عبئا ثقيلا على التفسير، وتبعا لذلك، على الاتصال. فالشخص الذي يسمع الجملة عليه أن يكتشف موضع الفجوة التي يجري تفسير العنصر المزاح فيها. وهذه مشكلة بالغة عموما، وهي مألوفة لدينا من برامج الإعراب parsing. وإذن فهناك صراع بين الفاعلية الحوسبية والفاعلية التفسيرية التواصلية. وتوحي هذه الحقائق، بدون تردد، بأن اللغة نشأت بوصفها أداة للفكر الباطني، وأن التمظهر عملية ثانوية. وهناك الكثير من الدلائل المتعلقة بالطريقة التي صممت بها اللغة نصل منها إلى استنتاجات مشابهة؛ مثل "خواص الجزر island properties".

وإلى جانب هذا، هناك أسباب مستقلة لاستنتاج أن التمظهر هو عملية ثانوية. وأحدها أن هذا التمظهر يبدو غير معتمد على صيغة التنفيذ، كما علمتنا الدراسات التي أجريت على لغة الإشارات في السنين الأخيرة. فالخواص البنيوية للغة الإشارة واللغة المنطوقة متشابهة بشكل ملفت. وكذلك فاكتساب اللغة يتبع نفس المسار في كليهما، وبالإضافة غلى ذلك، فالتركز العصبي يبدو متشابها. وهذا يعزز الاستنتاج بأن اللغة هي صيغة مثلى لجهاز الفكر، في حين أن صيغة التمظهر ثانوية.

ولنلاحظ أيضا أن القيود على التمظهر القائمة في الصيغة السمعية نجدها في حالة الصيغة المرئية في لغات الإشارة. فمع أنه لا يوجد هناك قيد مادي يمنع من يستخدم لغة الإشارة من "قول" **جون يحب المثلجات** بإحدى يديه و **ميري تحب البيرة** بيده الأخرى، غير أنه يبدو أن إحدى اليدين هي اليد المهيمنة طوال الوقت وهي التي تقدم الجملة (عبر الإشارات) مرتبة عناصرها من اليسار إلى اليمين زمنياً، ومتسلسلة خطيا كما في التمظهر الناتج من الجهاز الصوتي، في حين أن اليد الأخرى غير المهيمنة تضيف علامات التأكيد والصرف وما شابههما.

وبالفعل، فإنه يبدو ممكنا أن نصل إلى مقولة أقوى بكثير، ألا وهي أن كل البحوث البايولوجية والنشوئية الحديثة ذات الصلة تقودنا إلى استنتاج أن عملية التمظهر هي عملية ثانوية. وهذا يتضمن الاكتشافات الأخيرة، والتي ذاعت بشكل كبير، عن العناصر الجينية المحتمل صلتها باللغة، وبالتحديد FOXP2 الجين التنظيمي (عامل النسخ). لهذا الجين صلة بعيب لغوي وراثي إلى حد كبير، هو ما يدعى الخلل الكلامي verbal dyspraxia. ومنذ هذا الاكتشاف جرى تحليل هذا الجين بشكل مركز من وجهة نظر نشوئية ومقارنة، على افتراض أن الاختلافات الحامضية - الامينية الصغيرة بين البشر وبين الرئيسات الاخرى والثديات غير البشرية هي ما توجه إليه الانتقاء الطبيعي الموجب الحديث، وربما صاحب ذلك بروز اللغة (Fisher et al. 1998; Enard et al. 2002)؛ وكذلك القول بأن التشابهات بين نفس تلك الحوامض الأمينية في البشر وإنسان النياندرتال قد تكون مهمة بالنسبة للغة (Krause, Lalueza - Fox, et al. 2007; Science Daily, 21 Oct. 2007).

غير أن لنا أن نسأل إن كان هذا الجين يتعلق جوهريا باللغة، أو أنه جزء من عملية التمظهر الثانوية، وهو افتراض يبدو أكثر مقبولية الآن. إذ إن الاكتشافات الحديثة في الطيور والجرذان في السنين الأخيرة الماضية تشير إلى بروز اتفاق بأن هذا الجين (عامل النسخ) ليس جزءا من النحو الباطني، أي ملكة اللغة الضيقة، وإنه بالتأكيد ليس "جين" مفترض للغة (مثلما لا يوجد هناك جينات مفردة للون العينين أو للتوحد) ولكنه ربما كان جزءا من الآلية التنظيمية ذات الصلة بالتمظهر (Vargha - Khadem et al. 2005; Groszer et al. 2008). إن الجينFOXP2 يساعد في تطوير السيطرة الحركية الدقيقة المتسلسلة، الخاصة بحركة الفم والوجه أو غيرها؛ أي، حرفيا، القدرة على وضع صوت واحد او إشارة واحدة في مكانهما، في نقطة بعد أخرى زمنيا.

وفي هذا الخصوص من الجدير ملاحظة أن أفراد عائلة كي إي الذين تم فيهم عزل هذا العيب الجيني أصلا يعانون من خلل حركي عام، لا يتركز فقط في الحركة الفموية الوجهية لديهم. وتؤكد وجهة النظر هذه دراسات حديثة حيث أدخل في الجرذان

جينFOXP2 جرى تحويره لكي ينسخ العيوب الموجودة في عائلة كي إي. "فقد وجدنا أن الجرذان ال – R552H - Foxp2 المتغايرة الزايكوتات يظهر عليها عجز خفي ولكن مهم في تعلم المهارات الحركية السريعة.....إن هذه البيانات تتوافق مع الطروحات القائلة بأن ملكات الكلام البشري تستخدم دوائر عصبية بالغة في القدم نشوئيا تتعلق بتعلم الحركة" (Groszer et al. 2008: 359).

وإذا كانت وجهة النظر هذه على صواب فإنFOXP2 أكثر شبها بالمخطط الذي يساعد في بناء نظام للمدخلات - المخرجات في الكومبيوتر يعمل بشكل صحيح، كجهاز الطباعة، وليس مخططا لبناء المعالج المركزي للكومبيوتر نفسه. ومن هذه النظرة، فإن ما حصل لأفراد عائلة كي إي المصابين بالعيب الكلامي هو انحراف في نظام التمظهر، "جهاز الطباعة"، وليس ملكة اللغة الأساسية بعينها. وفي هذه الحال، فإن التحليلات النشوئية التي تقول بأن عامل النسخ هذا مر بانتقاء طبيعي إيجابي قبل حوالي 100،000 سنة (وهذا في حد ذاته محل نقاش)، غير حاسمة حول نشوء المكونات الجوهرية لملكة اللغة: النحو، ووصل ذلك بالمواجهة 'الدلالية' (المفهومية – القصدية). إن من الصعب هنا تحديد التسلسل السببي: فمن الممكن اعتبار الصلة بين FOXP2 والتناسق الحركي التسلسلي العالي إما شرطا ضمنيا مسبقا للتمظهر، بغض النظر عن صيغته، كما هو شائع في السناريوهات النشوئية، أو نتيجة لضغط انتقائي لحلول تضمن تمظهرا فعالا بعد بزوغ الدمج. وفي كلتا الحالتين يصبح جزءا من نظام خارج عن النحو/ الدلالة، لب ملكة اللغة.

وهناك دليل آخر يقدمه لنا حديثا مايكل كوِن (اتصال شخصي) بخصوص التناسق التسلسلي في اللفظ يوحي بأن سيطرة الحركة التسلسلية المتميزة قد تكون مجرد خاصية تحتية تعم كل الثديات، وربما كل الفقريات. وإذا كان الأمر كذلك فإن قصة FOXP2 بأجمعها، والتمظهر الحركي عموما، بعيدة تماما عن صورة نشوء النحو/ الدلالة الجوهريين. ويأتي الدليل من اكتشافنا بأن كل الثديات التي اختبرت (الناس، الكلاب، القطط، الفقمات، الحيتان، قردة البابون، قردة التمارين، الجرذان) والفقريات البعيدة عنها (الغربان، عصافير الفينش، الضفادع)، أن كل هذه تمتلك ما كان سابقا ينسب فقط إلى جهاز التمظهر البشري:

فالمخزون الصوتي لكل واحد من هذه الأجناس الحيوانية المختلفة مأخوذ من مجموعة محددة من الفونيمات (الوحدات الصوتية) المتمايزة (أو بشكل أدق تغريدمات بالنسبة للطيور، ونبحيمات بالنسبة للكلاب، الخ...). وتقول فرضية كوِن: إن كل جنس لديه عدد محدود مما ينتجه نطقا، مثلا، فونيمات، وهذه محددة جينيا بتكوينه التشريحي، وفقا لمبادئ مثل تقليل الطاقة المصروفة خلال التصويت، القيود الفيزياوية المادية، وهكذا. وهذا يشبه الصورة التي رسمها كينيث ستيفنس عن الطبيعة الكمية لإنتاج الكلام (Stevens 1972,1989).

وعلى هذا الأساس، فإن أي جنس من الأجناس يستخدم مجموعة فرعية من الأصوات البدائية المحددة جنسيا لينتج التصويتات التي يشترك بها أفراد ذلك الجنس. (ولن نتوقع أن يستخدم كل حيوان كل تلك الأصوات، مثلما لا يستخدم أي إنسان كل الفونيمات.) وإذا كان الأمر كذلك فإن عالمنا المريخي المفترض سيستنتج أنه حتى على مستوى التمظهر الهامشي، فإن هناك لغة بشرية واحدة، ولغة كلبية واحدة، ولغة ضفدعية واحدة، وهكذا.

وبتلخيص ما ذكرناه، فإن FOXP2 لا يجيب على السؤال عن الملكة الجوهرية للغة البشرية لأنه لا صلة له، في الحقيقة، بالنمط الظاهري phenotype لجوهر اللغة، الدمج والنحو. ومن وجهة نظر تفسيرية، فإن هذا سيجعله مختلفا تماما عن، مثلا، فقر الدم المنجلي، حيث يقود عيب جيني مباشرة الى هذه السمة الشاذة: تشكيل بروتين هيموغلوبين شاذ، ينتج تشويها في كريات الدم الحمراء. وبالتاكيد فإن FOXP2 يظل مكونا قد يكون ضروريا للنظام اللغوي بنفس الشكل الذي تكون فيه الطابعة جزءا من الكومبيوتر. لكن هذا الجين، ببساطة، ليس اللغة البشرية. وإذا صح كل هذا، فإن التفسير للنمط الظاهري لجوهر اللغة قد يكون غير مباشر وصعبا أكثر مما رسمه ريجارد لونتين(Lewontin (1998 –[1].

---

(1) لنلاحظ أن ما نقوله لا يتنفي إذا ما افترضنا أن هناك احتمال آخر، وهو ان ينشئ FOXP2 جزءا من نظام المدخلات- المخرجات للتعلم الصوتي حيث يكون على الواحد أن يظهر ثم يعود فيستبطن الاغنية/ الحديث- أي يغني أو يحدث نفسه. وهذا سيظل طريقة لتمرير الفقرات داخل وخارج النظام الباطني، وسلسلتها، وهذا ربما كان مكونا حاسما، بنفس المعنى الذي ان الشكل الذي لحتاج فيه الى طريقة لطباعة المخرجات من الكومبيوتر.

وفي الواقع فإن التركيز على FOXP2 والعيب الكلامي يشبه، من جوانب عديدة، التركيز العام على اللغة كاتصال–[1] ففي كلا الحالتين يجري اختبار خواص لا تخص إلا عملية التمظهر، التي نعتقد أنها ليست جزءا من جوهر ملكة اللغة البشرية. وبهذا المعنى، فإن الجهود في كلتا الحالتين لا تتجه الاتجاه الصحيح، وإنها لا تكشف عن عمليات الحوسبة الباطنية في الذهن/ الدماغ، بالرغم من الثورة المعرفية. وبالتصريح بهذا االتمييز بين النحو الباطني والتمظهر، يمكن فتح اتجاهات جديدة كثيرة للبحث وتقديم تنبؤات مادية جديدة يمكن إختبارها وبخاصة من منظور بايولوجي، كما يفصح مثل الإنتاج الصوتي الحيواني.

وبالعودة إلى مبادئ اللغة الجوهرية، فإنه يمكن القول: إن الدمج غير المقيد (وبالتالي الانزياح) قد برز من "بعض الإعادة للتوصيلات" في الدماغ، وبالتالي في فرد واحد وليس في مجموعة. وحين يكون الفرد قد وهب بهذا التغير في التوصيلات في دماغه فسيكون لديه الكثير من المزايا: قدرات على التفكير المركب والتخطيط والتفسير، وهكذا. وستمرر هذه القدرات جزئيا الى عقبه، وبسبب المزايا الانتقائية التي تضفيها فإنها ستكون غالبة على مجموعة صغيرة متناسلة، ولو أننا هنا أمام سؤال، كما هو الحال في كل طفرات جديدة مثلها، حول كيف سيبقى هذا العدد الصغير من نسخ هذا الأليل (شكل من أشكال جين معين(م))، بالرغم من مزاياه الانتقائية الواسعة. وكما لاحظ هالدين (1927) Haldane فإن هناك احتمال أن تنقرض حتى مثل هذه الطفرة متغايرة الزايكوتات وذات المزايا العالية - لها مزية انتقائية تبلغ 1 بالمائة - وهي أعلى من أي مزية إنتقائية نجدها في معايناتنا على الطبيعة - إذ يبلغ احتمال انقراضها خلال جيل واحد حوالي 30٪. ويلاحظ جيلسبي

---

(1) إن هذا يشبه إلى حد بعيد النظر إلى الطرق المختلفة التي تعمل فيها أنظمة أجهزة التلفزيون المختلفة لعرض الصور المتحركة (نظاما البلور السائل ونظام اللمبات الكاثودية القديم، بدون الالتفات الى ما هي الصور المعروضة. فشاشة التلفزيون القديم "ترسم" الصورة بتمرير شعاع الكترونات على مجموعة نقاط كيمياوية فيشع بعضها. أما شاشات البلور السائل فإنها تعمل بوسائل مختلفة تماما: فهي بشكل عاك تمرر أو لا تمرر ضوءا خلال حزمة نقاط من البلور السائل اعتمادا على شحنة كهربائية تعمل على كل نقطة، ولكن ليس هناك شعاع واحد. ونولد الصورة المستوية بوسائل مختلفة. على غرار ذلك، إذا كانت الفسحات الزمنية الخطية الظاهرية تحددها الأوامر الحركية للقناة الصوتية أو بتحريك الأصابع لا صلة له بالتمثيلات "الباطنية" الأساسية.

(Gillespie (1991 أن بوسعنا التأكد بنسبة 99٪ من ثبات مثل هذه الطفرات المفيدة فقط حين يصل عدد النسخ من هذا الأليل إلى ما يقارب 4000 نسخة. وبافتراض وجود مجموعة سكانية مؤثرة بهذا العدد - وهذا ليس افتراضا غير معقول لما نعرفه عن التوزيع السكاني المبكر في أفريقيا في ذلك الوقت، فإن ذلك يوحي بأن على مثل هذا الأليل المفيد أن ينتشر بين كل المجموعة التناسلية لكي يعمل الانتقاء الطبيعي بدون إعاقة لتثبيت هذه الطفرة. وليس في هذا أي تناقض، إنه فقط يعكس الطابع العشوائي للنشوء عن طريق الانتقاء الطبيعي؛ وينطبق نفس المبدأ على كل الطفرات المفيدة. وما يعنيه هذا أن بروز اللغة بهذا المعنى، ربما كان بالفعل حدثا فريدا، وهو ما يفسر كونها خاصية تقتصر على جنس واحد. إن مثل هذه النتائج الكاسحة في المواقف الضيقة التي تمر بها المجموعات السكانية ليست أمرا غريبا.

وحين تنتشر الطفرة المفيدة خلال المجموعة فستكون هناك مزية للتمظهر، وهكذا فإن هذه القدرة سترتبط كعملية ثانوية بالنظام الحسي - الحركي من اجل التمظهر والتفاعل بما في ذلك الاتصال بوصفه حالة خاصة. إن من الصعب تصور تفسير للنشوء البشري لا يصل بافتراضاته إلى هذا الحد، بشكل من الأشكال. وأي افتراض إضافي سيتطلب دليلا وكذلك تسبيبا معقولا، وهما أمران يصعب الحصول عليهما.

الواقع فإن أكثر البدائل لهذه الصورة التي رسمناها تضع افتراضات إضافية مؤسسة على النظرة للغة بوصفها اتصالا، وذات علاقة كما يبدو بالتمظهر كما رأينا. إذ يدرج سمادو وساثمري (Szamado and Szathmary (2006 ما يعدانه النظريات البديلة الرئيسية التي تفسر بروز اللغة البشرية. وهذه تضم: (1) اللغة بوصفها ثرثرة؛ (2) اللغة بوصفها تزيينا اجتماعيا؛ (3) اللغة بوصفها تطورا للتعاون في الصيد؛ (4) اللغة بوصفها ناتج لحديث الأم لولدها؛ (5) الانتقاء الجنسي؛ (6) اللغة بوصفها متطلبا لتبادل المعلومات عن المكانة؛ (7) اللغة بوصفها أغنية؛ (8) اللغة بوصفها متطلب لصنع الأدوات؛ (9) اللغة بوصفها تطورا لأنظمة الإشارة؛ (10) اللغة بوصفها أداة ميكافيلية للخداع؛ وأخيرا (11) اللغة بوصفها أداة ذهنية باطنية.

لنلاحظ أن آخر هذه النظريات، وهي اللغة بوصفها أداة ذهنية باطنية، هي الوحيدة التي لا تفترض، صراحة أو ضمنيا، بأن الوظيفة الأولى للغة هي للاتصال الخارجي. غير أن هذا يقودنا إلى نوع من التناقض التكيفي، إذ إن الإشارات المستخدمة من الحيوانات يجب أن تكون كافية لأداء هذه المهمة. ويلاحظ سمادو وساثمري أن غالبية النظريات لا تتطرق إلى القوى الانتقائية التي قد تشجع استخدام الاتصال التقليدي في سياق معين بدلا من استخدام "الإشارات الحيوانية" التقليدية..... وهكذا، فليس هناك نظرية تدلل بشكل مقنع على وجود مواقف تتطلب وسيلة معقدة للاتصال الرمزي بدلا من نظم الاتصال البسيطة الموجودة. (2006:679). ويضيفان أن نظرية اللغة بوصفها أداة ذهنية لا تعاني من هذه النقيصة. إلا أنهما، مثل غالبية الباحثين في هذا المجال، لا يصلان إلى الاستنتاج الواضح، بل يبقى تركيزهما وقفا على التمظهر والاتصال.

لقد طرحت آراء حول أولوية اللغة الباطنة - تشابه ملاحظة هاري جريسون التي ذكرناها حول اللغة بوصفها "أداة داخلية" - من علماء بايولوجيا نشوئية بارزين. ففي مؤتمر عالمي عن البايولسانيات عقد عام 1974، كان سلفادور لوريا أقوى المدافعين عن وجهة النظر القائلة بأن متطلبات الاتصال لم تكن لتقدم أي ضغط انتقائي كبير لإنتاج نظام مثل اللغة،" التي لها علاقة حاسمة ب - "تطور التفكير المجرد أو الخلاق." وقد عبر فرانسوا جيكوب عن نفس الفكرة بقوله إن "دور اللغة بوصفها نظاما للاتصال بين الأفراد كان سيظهر فقط بوصفه شيئا ثانويا..... وإن خاصية اللغة التي تجعل منها فريدة ليست دورها في الاتصال، ولكن في "دورها في الترميز، وفي إثارة الصور المعرفية،" وفي تشكيل مفهومنا عن الواقع، وإعطائنا القدرة على التفكير والتخطيط، من خلال خاصيتها الفريدة في السماح ب"مجموعات غير متناهية للرموز"، وتبعا لذلك، "الخلق الذهني للعوالم المحتملة". إن هذه الأفكار تعود في أصولها إلى الثورة المعرفية في القرن السابع عشر، التي أذنت، بأكثر من طريق، بالتطورات التي حدثت منذ الخمسينات (Luria 1974; Jacob 1982).

إلا أن لنا أن نذهب لأبعد من التكهن والتخمين. فالبحث في تصميم اللغة يمكن أن يعطينا أدلة على علاقة اللغة بالنظام الحسي - الحركي ونظام الفكر. وكما لاحظنا، فإننا

نعتقد أن هناك دلائل تتعاظم يوما بعد يوم تؤيد الاستنتاج الطبيعي بأن علاقة اللغة بهذين النظامين ليست متماثلة وبالشكل الذي أوضحناه في قضية الانزياح الحاسمة.

إن التمظهر ليس بالمهمة البسيطة. فعليه أن يصل بين نظامين متميزين تماما: أحدهما النظام الحسي - الحركي الذي يبدو أن وجوده يمتد إلى مئات الألوف من السنين: والثاني هو النظام الحوسبي الذي برز إلى الوجود حديثا، والكامل بمقدار صحة الفرضية الأدنوية القوية. وسنتوقع، إذن، أن النظامين الصرفي والصوتي للغة - وهما العمليات اللسانية التي تقلب الأشياء النحوية الباطنية إلى عناصر متاحة للنظام الحسي - الحركي - قد يتبين أنها معقدة ومتنوعة وتتأثر بالأحداث التاريخية العرضية. فالتغاير والتنوع سيقتصران بمعظمهما - أو ربما بأجمعهما - على التمظهر. وهذا في واقع الأمر هو ما نجده كما يبدو: نظام حوسبي يولد بفعالية تعبيرات يمكن تفسيرها عند المواجهة الدلالية - البرغماتية، بينما ينتج التنوع والاختلاف عن صيغ معقدة وكبيرة التنوع للتمظهر، هي بالإضافة إلى ذلك، عرضة للتغير التاريخي[1].

وإذا كانت هذه الصورة صحيحة فقد يكون لدينا جواب على السؤال الثاني من السؤالين الأساسيين: ما سبب وجود لغات كثيرة؟ إن السبب في ذلك قد يكمن في أن مشكلة التمظهر يمكن حلها بطرق عديدة ومستقلة، إما قبل أو بعد تفرق المجموعة اللغوية الأصلية.

وليس هناك من مسوغ لافتراض أن حل مشكلة التمظهر يتضمن تغيرا نشوئيا - أي تغيرا في الجينوم البشري. إذ قد تكون مجرد مشكلة واجهتها العمليات المعرفية بطرق مختلفة، وفي أوقات مختلفة. وهناك أحيانا ميل خاطئ للخلط بين التغير النشوئي الحرفي (الجينومي) والتغير التاريخي، فهذان يمثلان ظاهرتين مختلفتين. وكما لوحظ من قبل، فهناك دليل قوي على أنه لم يكن هناك أي نشوء ذي صلة باللغة منذ الرحيل من أفريقيا قبل حوالي 50000 سنة، ولو أنه كان هناك بلا شك الكثير من التغير، وحتى ابتداع صيغ للتمظهر (كما في لغة

---

[1] إن افتراض لغة فكر مستقلة وفيها تكرار، كوسيلة لتفسير التكرار في النحو يقودنا الى تراجع تفسيري بالإضافة إلى إنه غير ضروري وغامض.

الإشارة). إن الارتباك والخلط في هذه الأمور يمكن تجاوزها بإبدال المفاهيم المجازية: "نشوء اللغة" و"تغير اللغة" بمقابلاتها الدقيقة: الكائنات التي تستخدم اللغة، والتغير في الطرق التي يفعلون بها ذلك. وفي هذه المصطلحات الدقيقة، يتضمن بروز ملكة اللغة نشوءا، في حين لا يتضمن ذلك التغير التاريخي (الذي يستمر بثبات).

ومرة أخرى، فإن هذه تبدو الافتراضات الأبسط، وإنه لا يوجد هناك سبب لرفضها. وإذا كانت في الاتجاه الصحيح، فهذا يعني أن التمظهر قد لا يكون قد مر بأدوار النشوء، بل قد يكون عملية لحل المشاكل باستخدام قدرات معرفية موجودة أصلا. إن النشوء بمعناه البايولوجي سيقتصر على الطفرة التي أعطتنا عملية الدمج، مع كل الفضلة التي لا يمكن تفسيرها وفق الفرضية الأدنوية القوية، وأي قيود خاصة باللغة قد توجد لحل مشكلة التمظهر المعرفية. وتبعا لذلك، فإن أي مقاربة لنشوء اللغة تركز على الاتصال، أو على النظام الحسي - الحركي، أو الخواص الإحصائية للغة المنطوقة، وما أشبه، هي مقاربة على ضلال كبير. إن هذا الحكم يغطي مدى واسعا، كما يعرف من ألف الأدبيات عن الموضوع.

وبالعودة إلى السؤالين المهمين اللذين بدأنا، نجد لدينا، على الأقل، بعض المقترحات - نظنها مقترحات معقولة - حول كيف حدث أن لدينا لغة واحدة، ولماذا تبدو اللغات مختلفة فيما بينها بهذا الشكل الواسع - وهذا الأخير وهم في جزء منه، كما هو الحال في التنوع الظاهري غير المحدود للكائنات، المؤسسة كلها على عناصر محفوظة بشكل كبير (ولا تتعرض للتغيير)، وفي نفس الوقت نجد لها مخرجات هائلة ولكنها مقيدة بقوانين الطبيعة (الفعالية الحوسبية بالنسبة للغة).

وهناك عوامل أخرى قد تؤثر على تصميم اللغة بشكل كبير - وبخاصة خواص الدماغ، التي لا نعرف عنها في الوقت الحاضر - وهناك الكثير مما يمكن قوله حتى عن المواضيع التي أشرنا إليها باختصار هنا. ولكن بدلا من متابعة هذه الاسئلة دعنا نتحول قليلا إلى المفردات المعجمية، الذرات المفهومية للفكر وتمظهره بطرق متنوعة في نهاية الأمر.

توجد بنى مفهومية عند الرئيسات الأخرى: ربما مخططات الفاعل - الفعل - الهدف، التصنيف، وربما التمييز بين المفرد والجمع، وغيرها. وعلى ما يبدو فإن هذه كلها قد استخدمت في اللغة، ولو أن الموارد المفهومية للبشر التي تدخل في استخدام اللغة أغنى منها بكثير. وبشكل خاص، فحتى "ذرات" الحوسبة، أي المفردات/ المفاهيم المعجمية، يبدو أنها عناصر فريدة تقتصر على البشر.

وبشكل حاسم، فحتى أبسط كلمات ومفاهيم اللغة والفكر البشري، ليست ذات صلة بالأشياء المستقلة عن الذهن، وهو ما نجده يطبع الاتصال لدى الحيوانات. وينظر إلى هذا الأخير بأنه مؤسس على علاقة تناظر أحادية بين عمليات الذهن/ الدماغ و"جانب من المحيط تكيف معه هذه العمليات سلوك الحيوان"، مقتبسين من عالم الاعصاب المعرفي راندي غالستل، في مقدمته لمجموعة من البحوث العلمية عن الاتصال الحيواني (Gallistel 1990a). ووفقا لـ جين غودال، أكبر وأقرب مراقب لقرود الشمبانزي في الغابات، فأنه "بالنسبة للشمبانزي يبدو إنتاج الاصوات في غياب الحالة الانفعالية المناسبة مهمة مستحيلة تقريبا" (Goodall, cited in Tattersall 2002).

إن رموز اللغة والفكر تختلف بشكل حاد. فاستخدامها لا يرتبط أوتوماتيكيا بالحالات الانفعالية، ولا تنتقي أشياء أو أحداثا مستقلة عن العقل في العالم الخارجي. ويبدو أنه بالنسبة للغة والفكر البشريين لاتوجد هناك علاقة إحالة reference بالمعنى الذي يقصده فريغة وبيرس وتارسكي وكواين، وفي فلسفة اللغة والعقل المعاصرة. فما نفهم أنه نهر أو شخص، أو شجرة، وهكذا، يتبين أنه دائما شيء خلقته ما دعاها باحثو القرن السابع عشر "القوى المعرفية البشرية cognoscitive powers"، التي تزودنا بوسائل غنية للإحالة إلى العالم الخارجي من منظورات معقدة. وكما وصف الفيلسوف الإفلاطوني الجديد المهم رالف كدورث الموضوع، فأنه فقط عن طريق "الأفكار الداخلية" التي تنتجها "القوة المعرفية الباطنية" للعقل يستطيع العقل أن "يعرف ويفهم كل الأشياء المفردة الخارجية" معبرا بذلك عن أفكار أثرت في كانط. إن مواد الفكر التي تنشئها القوى المعرفية لا يمكن اختصارها إلى "انتماء طبيعي خاص" للشيء الذي نتحدث عنه، كما أوجز ديفد هيوم دراسات استمرت قرنا من

الزمان. وفي هذا الخصوص، تكون الرموز المفهومية الباطنية مثل الوحدات الصوتية للتمثيلات الذهنية، كالمقطع [با]؛ فكل فعل محدد لإظهار هذا الشيء الذهني يعطينا كيانا مستقلا عن الذهن، ولكنه من العبث البحث عن بناء مستقل عن الذهن يقابل المقطع. فالاتصال لا يعني إنتاج كيان مستقل عن الذهن ينتقيه السامع من العالم كما يفعل الفيزياوي. بل إن الاتصال هو شيء نسبي ينتج فيه المتكلم أحداثا خارجية والسامعون يحاولون أن يجدوا أفضل ما يوافقها في مواردهم الباطنية. ويبدو أن الكلمات والمفاهيم، حتى أبسطها، تتشابه في هذا الشأن. فالاتصال يعتمد على قوى معرفية مشتركة، وينجح بمقدار ما تسمح به الأبنية الذهنية، والخلفيات، والاهتمامات والفرضيات المسبقة، وغيرها، المشتركة للوصول إلى المنظورات العامة. ويبدو أن هذه الخواص للمفردات المعجمية فريدة وتقتصر على اللغة والفكر البشريين ويجب تفسيرها بشكل من الأشكال في دراسة نشوئهما. ولكن، كيف؟ لا أحد يعرف. ولم يكن هناك، حتى وقت قريب، إدراك لوجود مشكلة هنا، وهذا من نتائج القبضة القوية لمبادئ مدرسة الإحالة.

تزودنا القوى المعرفية البشرية بعالم تجربة مختلف عن عالم تجربة الحيوانات الأخر. وبكون البشر مخلوقات مفكرة، بسبب بروز القدرة البشرية، فإنهم يحاولون أن يفهموا التجربة. إن هذه الجهود تسمى خرافة، أو دينا، أو سحرا، أو فلسفة، أو، بالاستعمال الإنجليزي الحديث، علما. وبالنسبة للعلم، فإن مفهوم الإحالة بمعناه الفني هو مثال معياري: إذ إننا نأمل أن تنتقي المفاهيم المبتكرة كـ - **الفوتون والعبارة الفعلية** شيئا حقيقيا من العالم. وبالطبع فإن مفهوم الإحالة مناسب للسياق الذي ابتكر من أجله في علم المنطق الحديث: كالأنظمة الشكلية التي تشترط فيها علاقة الإحالة بين الأرقام والأعداد. إلا أن اللغة والفكر البشريين لا يعملان بهذه الطريقة، وقد نتج ارتباك لا محدود بسبب الفشل في إدراك تلك الحقيقة.

وهنا ندخل في موضوعات كبيرة وفي غاية الأهمية لكن لابد أن نضعها جانبا. دعنا نلخص بإيجاز ما يبدو أنه أفضل صورة تخمينية في الوقت الحاضر عن الوحدة والاختلاف في اللغة والفكر، فبطريقة مجهولة تماما، طور أسلافنا مفاهيم بشرية. وفي وقت من أوقات

الماضي القريب، ربما منذ 75000 سنة، حدثت لفرد من مجموعة صغيرة من الأناسي في شرق أفريقيا طفرة صغيرة زودته بعملية الدمج - عملية تأخذ المفاهيم البشرية كذرات حوسبية، وتعطي تعبيرات ذات بنية توفر لغة فكر غنية. إن هذه العمليات قد تكون كاملة حوسبيا، أو قريبة من ذلك، وبذلك فهي نتاج القوانين الفيزياوية المستقلة عن البشر. لقد كان هذا الابتكار ذا مزايا واضحة، وقد عم كل أفراد تلك المجموعة. وفي مرحلة لاحقة، وُصِلت لغة الفكر الباطنية بالنظام الحسي - الحركي، وهذه مهمة معقدة يمكن إنجازها بطرق مختلفة كثيرة وفي أوقات مختلفة، وربما كانت مهمة لا تتضمن نشوءا أطلاقا. وفي مسار هذه الأحداث تشكلت القدرة البشرية، موفرة لنا جزءاً مهما من "طبيعتنا الفكرية والأخلاقية" باستخدام عبارة ولاس (Wallace (1871. وتبدو النتائج شديدة الاختلاف، ولكن فيها وحدة جوهرية، تعكس حقيقة أن البشر متماثلين في نواحي أساسية، كما قد يستنتج العالم المريخي المفترض الذي استحضرناه سابقا أن ليس هناك غير لغة واحدة مع بعض التنوعات اللهجية الصغيرة، نجد معظمها، بل ربما كلها، في صيغة التمظهر.

وفي الخاتمة، لنتذكر أنه حتى لو تبين أن هذه الصورة العامة صحيحة تقريبا، وأنه يمكن ملئ الفجوات فيها، فإنها ستترك مشاكل أثيرت منذ مئات من السنين بدون حل. ومن هذه السؤال عن كيف ترتبط الخواص "التي دعوناها ذهنية" ب - "البنية الحيوية للدماغ" وفق صياغة القرن الثامن عشر؛ وكذلك المشاكل الأكثر غموضا المتعلقة باستخدام اللغة الاعتيادي الخلاق والمترابط، وهو موضع اهتمام مركزي في الدراسات الديكارتية، وما زال خارج آفاق البحث في الوقت الحاضر.

- Ahouse, J., and Berwick, R. C. (1998). "Darwin on the Mind', Boston Review of Books April/May.
- Burling, R. (1993). "Primate Calls, Human Language, and Nonverbal Communication', Current Anthropology 34(1): 25 - 53.
- Carroll, S. B., Grenier, J. K., and Weatherbee, S. D. (2005a). Endless Forms Most Beautiful: The New Science of Evo - devo and the Making of the Animal Kingdom. New York: W. W. Norton & Co.
- Chomsky, N. (1980). Rules and Representations. New York: Columbia University Press.
- Colosimo, P. F., Hosemann, K. E., Balabhadra, S., Villareal J. G., Dickson, M., Grimwood, J., Schmutz, J., Myers, R. M., Schluter, D., and Kingsley, D.M. (2005). "Widespread Parallel Evolution in Sticklebacks by Repeated Fixation of Ectodysplasin Alleles', Science 307(5717): 1928 - 33.
- ------ Peichel, C. L., Nereng, K., Blackman, B. K., Shapiro, M. D., Schluter, D., and Kingsley, D. M. (2004). "The Genetic Architecture of Parallel Armor Plate Reduction in Threespine Sticklebacks', PloS Biology 2: 635 - 41.
- Darwin, C. (1859). On the Origin of Species. London: John Murray.
- Darwin, C. (1868). Variation of Plants and Animals under Domestication. London: John Murray.
- Enard, W., Przeworski, M., Fisher, S. E., Lai, C. S. L., Wiebe, V., Kitano, T., Monaco, A. P., and Paabo, S. (2002). "Molecular Evolution of FOXP2, a Gene Involved in Speech and Language', Nature 418: 869 - 72.



- Fisher, S. E., Vargha - Khadem, F., Watkins, K. E., Monaco, A. P., and Pembrey, M. E. (1998).'Localisation of a Gene Implicated in a Severe Speech and Language Disorder', Nature Genetics 18: 168 - 70.
- Gallistel, C. G. (1990a). "Introduction', in C. G. Gallistel (ed.), "Animal Communication'. Cognition 37: 1 - 2.
- New Haven: Yale University Press.
- Gehring, W..J. (2005). "New Perspectives on Eye Development and the Evolution of Eyes and Photoreceptors', Journal of Heredity 96(3): 171 - 84.
- Gillespie, J. H. (1991). Population Genetics: A Concise Guide. (2nd ed.). Baltimore: Johns Hopkins
- University Press.
- Groszer, M., Keays, D., Deacon, R., de Bono, J., Prasad - Mulcare, S., Gaub, S., Baum, M., French, D., Nicod, J., Coventry, J., Enard, W., Fray, M., Brown, S., Nolan, P., Paabo, S., Channon, K., Costa, R., Eilers, J., Ehret, G., Rawlins, N., and Fisher, S. E. (2008). "Impaired Synaptic Plasticity and Motor Learning in Mice with a Point Mutation Implicated in Human Speech Deficits', Current Biology 18: 354 - 62.
- Haldane J. B. S. (1927). "A Mathematical Theory of Natural and Artificial Selection', Proceedings of the Cambridge Philosophical Society 23, Part V. Selection and Mutation: 838 - 44.
- Hauser, M. D. (1996). Animal Communication. Cambridge, MA: MIT Press.
- Hinzen, W. (2006). Mind Design and Minimal Syntax. Oxford: Oxford University Press.
- Jacob, F. (1977). "Darwinism Reconsidered', Le Monde, September 6 - 8.



- -------- (1982). The Possible and the Actual. New York: Pantheon.
- ------------ (1988). The Statue Within. New York: Basic Books.
- Joos, M. (ed.) (1957). Readings in Linguistics. New York: American Council of Learned Societies.
- Krause, J., Lalueza - Fox, C., Orlando, L., Enard, W., Green, R., Burbano, H., Hublin, J - J., Hanni, C., Fortea, J., Rasilla, M., Bertranpetit, J., Rosas, A., and Paabo, S. (2007). "The Derived FOXP2 Variant of Modern Humans Was Shared with Neanderthals', Current Biology 17(1 - 5): 53 - 60.
- Lewontin, R. C. (1998). "The Evolution of Cognition: Questions We Will Never Answer', in D. Scarborough and S. Sternberg (eds.). An Invitation to Cognitive Science - Vol. 4 Methods, Models and Conceptual Issues. Cambridge, MA: MIT Press, 107 - 32.
- Lewontin, R. C. (2000). The Triple Helix. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Luria, S. (1974). "A Debate on Bio - linguistics', paper presented at Centre Royaumont pour une Science de l'Homme. Dedham MA: Endicott House.
- Lynch, M. (2007). The Origins of Genome Architecture. Sunderland: Sinauer.
- Maynard - Smith, J., Burian, J. R., Kauffman, S., Alberch, P., Campbell, J., Goodwin, B., Lande, R., Raup, D., and Wolpert, L. (1985). "Developmental Constraints and Evolution: A Perspective From theMountain Lake Conference on Development and Evolution', The Quarterly Review of Biology 60(3): 265 - 87.



- Monod, J. (1972). Chance and Necessity: An Essay on the Natural Philosophy of Modern Biology. New York: Vintage Books.
- Orr, H. (2005b). "The Genetic Theory of Adaptation: A Brief History', Nature Reviews Genetics 6: 119 - 27.
- Petitto, L. A. (1987). "On the Autonomy of Language and Gesture: Evidence from the Acquisition of Personal Pronouns in American Sign Language', Cognition 27(1): 1 - 52.
- Sauerland, U., and Gartner, H - M. (eds.) (2007). Interfaces + Recursion = Language? Berlin: Mouton.
- Sherman, M. (2007). "Universal Genome in the Origin of Metazoa: Thoughts about Evolution', Cell Cycle 6(15): 1873 - 7.
- Stevens, K. N. (1972). "The Quantal Nature of Speech: Evidence from Articulatory - Acoustic Data', in E. E. David Jr. and P. B. Denes (eds.), Human Communication: A Unified View. New York: McGraw - Hill, 51 - 66.
- --------- (1989). "On the Quantal Nature of Speech', Journal of Phonetics 17(1 - 2): 3 - 45.
- Striedter, G. F. (2004). Principles of Brain Evolution. Sunderland, MA: Sinauer.
- Szamado, S., and Szathmary, E. (2006). "Selective Scenarios for the Emergence of Natural Language', Trends in Ecology and Evolution 679: 555 - 61.
- Tattersall, I. (1998). The Origin of the Human Capacity, series James Arthur Lecture on the Evolution of the Human Brain 68, New York: American Museum of Natural History.
- -------- (2002). The Monkey in the Mirror. New York: Harcourt.



- - - - - - - - - (2005). "Patterns of Innovation in Human Evolution, Evolution und Menschenwerdung', Nova Acta Leopoldina 345(93).
- Thompson, D'Arcy W. (1992). On Growth and Form. (2nd repr. of 2nd ed. 1942; 1s publ. 1917, Cambridge: Cambridge University Press). New York: Dover.
- Trubetzkoy, N. (1939). Grundzüge der Phonologie. Gottingen: Vandenhoeck & Ruprecht.
- Turing, A. and Wardlaw, C. W. (1992). A Diffusion Reaction Theory of Morphogenesis, The Collected Works of Alan Turing: Morphogenesis1st publ. 1953). Amsterdam: North - Holland.
- Vargha - Khadem, F., Gadian, D. G., Copp, A., and Mishkin, M. (2005). "FOXP2 and the Neuroanatomy
- of Speech and Language', Nature Reviews in Neuroscience 6(2): 131 - 8.
- Weinreich, D. M., Delaney, N. F., DePristo, M. A., and Hartl, D. L. (2006). "Darwinian Evolution Can Follow Only Very Few Mutational Paths to Fitter Proteins', Science 7(312): 111 - 14.
- Yang, C. (2002). Knowledge and Learning in Natural Language. New York: Oxford University Press.



التمثيل الصوري للتجرّد والزيادة في الفعل في اللغة العربية

Formal Representation of the Morphological of the Arabic Verb Structure

محمّد بلبول

Mohammed Balboul

ملخّص

كيف يرصد نحو صوريّ، يتبنّى فرْضيات النحو التوليديّ بخصوص الملكة اللغوية، مظاهرَ الصرف غير الإلصاقي في اللغات الطبيعية، ومنها اللغة العربية؟ كان هذا هو السؤال الذي شكّل العمود الفقري لهذه الدراسة. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية قام الباحث:

- بنقد التحليل المؤسّس على مقولتَي التجرّد والزيادة، وذلك بالكشف عن محدوديته الوصفية.
- وإبراز التعقيد الصرفيّ لبنية الفعل المجرّد بناء على تحليل غير سِلسلي (non concatenative)مؤسَّس على المورفيم ضمن نظرية صورية تعتمد تمثيلات فونولوجية وصرفية متعددة الرفوف.

وقد بيّنت الدراسة كيف تتوفّق النظرية المتبنّاة في التعبير عن الاطرادات الاشتقاقية من خلال التمييز بين الاشتقاق المعجميّ والاشتقاق التصريفيّ على أسس صورية مُبرّرة نظريا وتجريبيا. أمّا الأوّل فلا يقتضي أخذ فرع من أصل بل تحكمه قيود إرضاء مواقع هيكل الفعل، الذي يُعَدّ أساس تكوين جميع الأفعال العربية. وأمّا الثاني (الاشتقاق التصريفي) فأساسه علاقة ربط أصل بفرع انطلاقا من نظرية الصرف الأبوفوني، حيث تؤدي التناوبات الحركية وظيفة تمييزية فتتيح تمييز معان وظيفية (البناء، الزمن، الجهة).

تـثير المقالـة في قـسمها الأخـير أسـئلة عديـدة متعلّقـة بطبيعـة الهيكـل العروضـي وبتمظهرات التوافقات بين البنية العروضية وبين البنية الـصرفية في اللغـات الطبيعيـة، ومنهـا العربية.

الكلمات المفاتيح: نمـوذج صـوري، الـصيغ المجـردة، الجـذر، الهيكـل، العـروض، الاشتقاق الأبوفوني، المقطع، النغمة.

Abstract

This study, which draws on substantial knowledge of formal models adopting the hypotheses of generative Grammar, aims to achieve the following goals: to provide a critical account of the analysis based on bare radicals and affixation, by showing its descriptive limitations. to argue that the triliteral radical (mujarrad) is characterized by a morphological complexity, which can be accounted for by the auto - segmental approach based on the morpheme. To expose a formal Theory of derivation allowing a distinction between lexical derivation and inflectional derivation on categories independently motivated. The first type does not need to extract a derived item from the radical; rather, it is a relation between representations. The second type (inflectional derivation) is a process that involves deriving an inflected form another inflected one by apophonic ablaut. To raise some issues that concern the nature of prosodic template and the relationship between the morphological level and the phonological level.

Key words: formal model, triliteral radical, root, derivation, prosody, template, apophony, morphology

تمهيد

توصلنا في كتابنا بنية الكلمة في اللغة العربية: تمثيلات ومبادئ إلى خلاصات أساسية تُفيد أن البنية الصرفية للغة العربية، خاضعة وتابعة لقيود العروض. يظهر هذا جليًا في صياغتنا لمعالجات تنتصر لنظرية فونولوجية تعرّف الكلمة بمعايير العروض، فتتحدث عن الكلمة العروضية (prosodic word) وعن قيود الكمّ العروضيّ ودورهما في الاشتقاق. وقد أسهمنا في تلك الدراسة، التي أزعم أنها لم تفقد راهنيتها في سياق الدراسات العربية الحديثة، في إعادة النظر في بنية الكلمات التي صنّفها التقليد اللغوي العربيّ القديم أسماء مصادر. ثمّ إننا قدّمنا تحليلا لبنية الاسم المنسوب بإلصاق الياء المشدّدة، يستند إلى فرضيات النظرية المثلوية (optimality theory)، فأبرزنا هيمنة قيد الاستهلال (onset principle) على القيود المنافسة. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن وقوفنا عند نظرية الصرف الأبوفوني، من خلال تطبيقاتها على الاشتقاق في النظام الصرفي للفعل العربي، حكمته اعتبارات التأريخ للمقاربات والنظريات المتنافسة. أما في هذه الدراسة فإننا نعود إلى هذه النظرية التي لم تنضب خصوبتها الإجرائية، من منطلق توضيح رؤية نظرية لا من وجهة نظر تقترح تحليلا نسقيا لظاهرة تجريبية. فما هو كُنه هذه الرؤية؟

يكمُن الجواب عن هذا السؤال في استحضار فكرتين أساسيتين لم نتطرق إليهما في دراساتنا السابقة. أولاهما، أننا نميل في هذه الدراسة إلى بسط تصوّر معجمي للكلمة (lexicalist approach) مخالف للتصوّرالعروضي، مما يتيح رصد الطابع التأليفي لنظام صرف العربية وفق نظرية صورية للتمثيل النحوي مؤسّسة على المورفيم، على نحو أوضح. وقد كان السؤال أو الهاجس الذي يثوي خلف تحبير هذه الورقة، يتمثّل في البرهنة على: (أ) أنّ العربية لغة تأليفية وليست لغة دمجية ذات بنية صرفية غير شفافة، وعلى: (ب) أنّ نظرية مورفيمية، متعدّدة الرفوف، أي أنها لا تعتمد بنية خطية للتمثيلات، تُسعف في تجلية مُكوّناتها المباشرة في مستوى بنيتها الصرفية. بمعنى أن اللغة العربية تطاوع تحليلا مورفيميا يختلف من مناح كثيرة عن الموقف الدمجي الذي أقرّه تبني تنميط اللسانيات التاريخية لبنية الكلمة في اللغات الطبيعية. لقد اتخذنا من نظرية الصرف الأبوفوني تعلّة لتوضيح المنحى

الوظيفي للمقاربة التراثية للبنية الصرفية. وتبنينا في المقابل مقاربة صورية تذهب إلى أن التماثلات الصيغية بين الاسم والفعل، كما طرحت في النحو التقليدي مُضلّلة، وتوهِم بتماثلات بنيوية بين الفعل والاسم غير موجودة أصلا، وقد مثّلنا لذلك بالمقابلة بين **فَعَل** الاسمية و**فَعَل** الفعلية. أما الفكرة الثانية التي يبرزها المقال فمُرتبطة بأهمية إبراز الأبعاد النظرية والتجريبية للتحولّات التي تمّت في مستوى الهيكل الذي يجعل التأويل الصوتي للقطعات ممكنا، عبر ربطها بمواقعه. إننا نزعم أن هذه الإشكالات جديدة على الإبستمي اللساني العربي، وقد بدا طرحُها، في السياق الإشكالي المشار إلى ملامحه أعلاه، مناسبا إن لم نقل ملّحا.

أضف إلى هذا أننا ارتأينا أن نطرح هذه الإشكالات في ثنايا إثارة قضية التجريد والتعقيد، في مستوى الوحدة المعجمية الفعلية (النسبة إلى الفعل)، لتعلّقها بأبْجدية العناصر المعتمدة في التحليل الصرفي، وبعلاقتها بصياغة الاطراد في هذا المستوى. وبتعبير آخر، يمكن القول إن الحديث عن مقولتي التجريد والزيادة على صعيد الصيغ، مترتّب بالضرورة عن طبيعة الأوّليات التي تُعدّ بمثابة المادةَ الخام للتأليف. وبدهيّ أن إعادة النظر في هذا الأوّليات مفض بالضرورة إلى مساءلة التصانيف المترتبة عن تحليل يأخذ بمُسلّمات مغايرة. ونقدّم فيما يلي تحليلا صوريا يمكّن من رصد التجريد والتعقيد في البنى الصرفية بناء على رؤية تمكّن من الإمساك بآليات التأليف وما يستتبعها من ربط اشتقاقي بين الوحدات المعجمية، إما عبر الهياكل وإما عبر النغمات بصفتها مورفيمات تتدخل في بناء كيانات معجمية.

1- حول "فَعَل" الفعلية و"فَعَل" الاسمية

من المفيد الإشارة في مستهل هذه المقالة إلى أنّ التحليل الصرفي، الموروث عن الوصف اللغوي القديم، يقوم على وحدتين وظيفيّتين أساسيّتين: هما الصيغة والزوائد. نقول وظيفيتين ولا نسمّيهما صوريتين لأن نهج القدماء في هذا الباب كان أقرب إلى ربط الموضوعات الصرفية (الصيغ والزوائد) بأنماط الدلالات الصناعية (أو الوظيفية باصطلاحنا المعاصر) وأبعد ما يكون عن المنحى التحليلي، وهذه مسألة لا تخلو من أهمية في نظرنا، إذ على أساسها نتمكّن من تجنّب الخلط بين وصفين لنظام صرف العربية: نسق المقاربات

العربية القديمة ونسق المقاربات الصورية التحليلية المعتمِدة على مقولات مُسوّغة على نحو مستقل (motivated independently). يزكي هذا الطرح أنّ علماء التصريف القدماء لم يهتموا بالنظام التوليفي وإنْ كُنّا لا نعدَم إشارات، هنا وهناك، توحي بحدسهم وجودَه، بقدر ما أوْلوا العناية بردّ المسموع إلى أبنية وظيفية ومَيْز الزائد من الأصلي بناء على ما تحدثه الزيادة من أثر دلالي – وظيفي[1].

حين أخذنا من اللسانيات الحديثة مفهومَ "المورفيم" بوصفة وحدة لسانية دنيا دالة، دَلَفْنا، من حيث لا نعلم، إلى براديكم مختلف أسمّية براديكم "لسانيات الأنساق التوليفية التمييزية" (discret). ونحن نعرف نتائجَ هذا التحوّل على جملة من القضايا المرتبطة أساسا بمكوّنات هذا النسق التوليفي ومكانة الصرف فيه. ومن المعلوم أنّ اللسانيات الحديثة بشقيها البنيوي والتوليدي (إلى حدود سبعينيات القرن الماضي) ظلت أسيرة موقف مُسبق من الصرف، فقد نظرت إليه في حدود قابلية بعض مباحثه لأن تُوزّع على المستويين التركيبي والفُونولوجي ولم تمنحه استقلالية فكان أن اختُزلت القضية وقتئذ في مستويين:

- بما أنّ الكلمات عبارة عن مورفيم أو سلاسل مورفيمية، والجملَ سلاسل مورفيمية أيضا، فالأولى معالجة كلا النمطين في مستوى واحد: هو المستوى التركيبي. (على سبيل التمثيل لا الحصر موقف مارتينه وبلومفيلد وتشومسكي إلى حدود السبعينات).

- وبما أن الفُونولوجية تتعرَف على حدود المورفيمات وتسهر على تأمين إلصاقها على نحو لا يُخلّ بمتطلبات التحقيق الصوتي للبنيات، فمن المشروع أن تعالج ظواهر التغييرات الصوتية المُعلّلة صرفيا في إطار الفونولوجية.

يمكن القول إنّ هذين العنصرين شكّلا العمود الفقري للعقيدة العلمية للّسانيات الحديثة، وما زالا يثيران جدلا محموما في أوساط اللسانيين بمختلف ولاءاتهم النظرية. وبما أن المقام ليس مقام تأريخ، سنقفز عن كثير من الأحداث لنخلُص إلى أنّ المعالجات الأولى الجادّة

---

(1) نتعمّد في هذا السياق التمييز بين الدلالي والوظيفي بغرض التنبيه إلى أنّ الدلالة يمكن النظر إليها على أساس أنها لا تخلو من أن تكون إمّا دلالة معجمية (وهذا ما يطلق عليه في الاصطلاح القديم الدلالة اللفظية)، وإمّا دلالة وظيفية تشمل الدلالة الصناعية للزوائد أو الصيغ من قبيل المطاوعة والتعدية والصيرورة والانعكاس والمشاركة وما إلى ذلك.

للنظر في الصرف العربي من منطلق أنّه نظام توليفيّ محكوم بمبادئ لسانية محضة تسري على سائر اللغات وإن بأساليب مختلفة، عرفت النور في خضم النقاش الذي نجم عن النظرية الفُنولوجية القطعية لتشومسكي وهالي[1]. ومن أبرز نتائجه التشكيك في سلامة خطّية التمثيلات الفونولوجية. وتعدّ أطروحة جون مككارثي John McCarthy التي تحمل عنوان: "المشاكل الصورية في الفونولوجية السامية وصرفها"[2]، عملا رائدا مكّن من التمثيل لصرف اللغة العربية من منظور توليفي مؤسّس على قطعة المورفيم. سنقف عند الفلسفة التي يقوم عليها هذا العمل بحكم أنّه أوّل عمل تصدّى لظواهر التكسير الصرفي في العربية من منطلقات صورية توليدية. وقد كان له تأثير كبير في مجمل الأعمال التي تلته، سواء أكانت مرتبطة باللغة العربية أم بلغات أخرى.

لقد قلنا في مستهلّ هذه المقالة إنّ الوصف الصّرفي للنحاة العرب اعتمد مقاربة وظيفية لا توليفية وأظن أنَ من الواجب، بعد هذه التوضيحات، شرحَ هذا التوصيف. فحين حصر الصرفيون العرب الفعل المجرّد في ثلاثة أبنية "فَعَلَ"، "فَعِلَ"، وفَعُلَ" استندوا في تصنيفهم هذا إلى مقياس الخلوّ من الزوائد لا غير. ومن الصعب تأويل أقوالهم في هذا الباب على أساس أنَ البنية المجرّدة تعني البنية البسيطة، بدليل أنّهم لم يعاملوا "فَعَلَ" الفعلية معاملة "فَعَلَ" الاسمية، من منطلق إدركهم أنّ الصيغة المجردة الفعلية أكثر تعقيدا، من ناحية الدلالة الوظيفية، من "فَعَلَ" الاسمية. وقد عبَروا عن هذه الفكرة من خلال مفهوم "الثِّقَل" فعدّوا الفعل أثقل من الاسم: فهذا ابن يعيش في شرح الملوكي في التصريف يأتي على ذكر ثقل الفعل في مقابل خفة الاسم لتعليل حذف الواو الأصلية في مضارع الفعل المثال فيقول:

---

(1) انظر مزيدا من التفاصيل في:

Chomsky, N., & Halle. M., *The Sound Patterrn English*, (New York, Harper & Row, 1968).

(2) انظر مزيدا من التفاصيل في:

John McCarthy, *Formal Problems in Semitic Phonology and Morphology*, Ph. D. diss. (Cambridge, MIT, 1979).

"والفعل نفسه أثقل من الاسم وما يعرِض فيه أثقل ممّا يعرض في الاسم"[1]. تكمُن المفارقة في أنّ هذا التعقيد الوظيفي الذي ينتج عنه الثقل، لا تعكسه البنية الصرفية للفعل المجرّد في التحليل القديم، بمعنى آخر إن نحن سلّمنا بالتعقيد الوظيفي للفعل المجرّد فإن هذا التعقيد لا تعكسه صورة الفعل أو صيغة.

وإنْ نحن يمّمنا وجهنا شطر البنيويين - الذين كانوا صوريين في حدود تجنّب التحديدات بالماهية، فكانت صوريَتهم مختلفة، من حيث المنطلقات الإبستمولوجية، عن صورية الأنحاء التوليدية - فإنّ الحكم نفسَه يجري عليهم، ذلك أنّهم لم يتوفّقوا في التمثيل للتوافق بين التعقيد الوظيفي والبنية الصرفية التي يفترض أن تتوافق مكوّناتها مع عناصر بنية المعاني الوظيفية التي تضمّ الزمن والبناء (voice) والجهة (aspect). ويترتب عن هذا، بالتبعية، القولُ: إن الوصف الأمثل للنظام الصرفي للعربية يجب أن يُسند لكلّ من الكلمتين: ضرَب وجمَل تمثيلين بنيويين مختلفين، خلافا للتحليل الذي يستبطِن فكرة أنّ التأويل ليس تابعا للبنية، فيُتيح له هذا أنْ يقول باتّحادهما في الصيغة واختلافهما باعتبار الدلالةالوظيفية. إنّ فتحة عين ضرَب، مثلا، لها دلالة وظيفية (لأنه بها يُعرف وجه تمام الحدث) بخلاف الفتحة بعد ميم جمَل التي تدعو إليها ضرورة استكمال بناء القدم العروضي الترويشي[2] (trochaic foot). الظاهر من هذا التحليل أنّ صيغة "فَعَلَ" الفعلية تحيل على بنية متعدّدة المورفيمات. أمّا جمَل ونظائرها من الأسماء الأُوَل، فليس ربطها ب "فَعَلَ" ممّا يدخل في الصرف بحكم كونها ذرة معجمية غير قابلة للتفكيك المورفيمي و تنطبق عليها صفة التجرّد. إنّ صيغة "فَعَلَ"، في باب هذا المثال، وزنٌ عروضيّ به يُعرف استيفاءالكلمة لقيود العروض، التي تعمل إلى جانب قيود الصرف لضمان السلامة النحوية للكلمات.

---

(1) ابن يعيش موفق الدين يعيش ابن علي، شرح الملوكي في التصريف لابن جنّي.، تحقيق فخر الدين قباوة. (حلب. المكتبة التجارية، (1973)، ص. 335.

(2) يميز مككارثي في دراسته لجمع التكسير في اللغة العربية بين القدم الإيمبي الذي يشرف على مقطعين: أولهما خفيف وثانيهما ثقيل/ س ح س ح ح/ وبين القدم الترويشي الذي يكون إما على صورة مقطعين خفيفين:/ س ح س ح/ أو على صورة مقطع واحد بوقعين: س ح س ٍ)س) ما في كلمة بَيْت حيث التاء قطعة خارج- عروضية (extraprosodic).

بعد هذا التمييز يجدر بنا أن نوجّه العناية إلى النسق التمثيلي الذي يُتيح رصدَ التعقيد البنيوي للفعل؛ الذي يعبّر عن تعقيد دلالته الوظيفية وامتزاجها بدلالته اللفظية. نستطيع التمثيل للكلمات المتعدّدة الصرْفيات بالاعتماد على فرْضيتين: فرْضية استقلال المورفيمات في رفوف متوازية عموديا (وهذا تمثيل ينسف مبدأ الخطية فيصبح التمثيل الفونولوجيّ والصرفيّ متعدّد المستويات)، والفرضية القاضية بأن سلامة التمثيل الصرفيّ تؤمّنه مبادئ الربط بين الرفوف المورفيمية، فضلا عن مبدأ المحيط الإجباري (OCP) الذي يعمل قيدا على بنية المورفيم، فيحظر تجاور قطعتين متماثلتين في رفّ مورفيميّ، ممّا يُمكّن من ردّ بنيات مثل "سَمّ" و"دَسّ" إلى جذور ثنائية. علاوة على هذا، تفترض نظرية الصرف المستقل القطع وجودَ الصيغة كقطعة مورفيمية مستقلّة في رفّ؛ وهي عبارة عن متوالية من المواقع الزمنية (بمعنى أنها غير مربوطة بنغمة) التي تربط بها نغمات المورفيمات. وتُحدّد الصيغة المدة الزمنية للنغمة من حيث القصر والطول. باعتبار أنّ السمات الفونولوجية لا تُحدّد مدّة القطعة أي طولها.

من بين التطبيقات التي اشتغلت على اللغة العربية باعتماد فرْضيات هذه النظرية، علاوة على الأطروحة المؤسِّسة لجون مككارثي (م. ن)، نجد بحثا لجان لوفينستام ومُحَند كرسال (Guerssel) Jean Lowenstamm& Mohand[1]، صاغا فيه نظرية اشتقاقية فرعية جديدة تبرهن على وجود صرف أبوفوني (morphology apophonic) يرصد دور التناوبات الحركية في الاشتقاق ويعدّ مكوّنا من مكوّنات النظرية الصرفية المستقلة القطع في صيغة تختلف في جوانب عديدة عن الصيغة الأولى لنظرية مككارثي (م.ن). من بين أوجه الاختلاف أنّ نظرية الصرف الأبوفوني أدمِجت في نظرية تتبنى هيكلا عروضيا، حيث المواقع مُخَصّصة بإحدى السمتين: س ح (C V)[2]، يتشكّل من مقاطع قصيرة. وتفترض أنّ المقطع الثقيل مُشتقّ من سلسلة مُكوّنة من مقطعين قصيرين، بموجب مبادئ عاملية لمراقبة

---

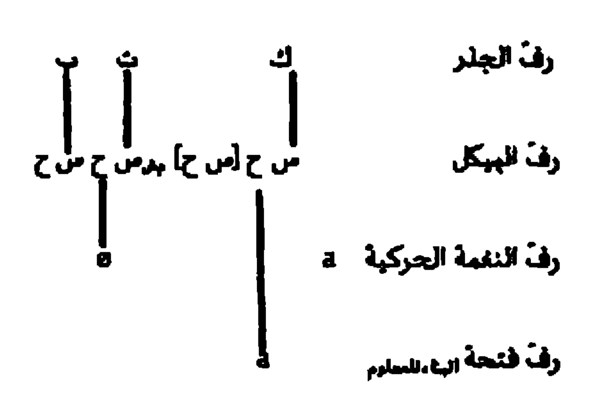
(1) انظر:
Mohand Guerssel & John Lowenstamm., "Classical Arabic Apophony", (ms. , 1993).

(2) نرمز لموقع القطعة الساكنة أو الصامتية (consonant) ب ساكن س ونرمز لموقع القطعة الحركية أو الصائت بحركة ح (vowel). نستعمل الحرف اللاتيني في كتابة الحركات الثلاث فرسم الفتحة (a) ورسم الكسرة (i) والضمّة (u).

المواقع الفارغة في الهيكل المقطعي[1] أضف إلى هذا تخلّيها عن مُواضعات الربط الخاضعة للاتجاهية (directionality)، في الصورة التي اقترحها مككارثي (م.ن)، واستغناءها عن القواعد جملة وتفصيلا، بما فيها قواعد الملاذ الأخير التي يُلجأ إليها لتعديل الربط.

تفكّك هذه النظرية وحدة معجمية "مُجرّدة" مثل "كَتَبَ" إلى أربعة مورفيمات، يستقلّ كل واحد منها بذاته في رفّ، وتنضّد المورفيمات عموديا للتمثيل لكونها متقطّعة (discontinuous)؛ ذلك أنّ أساس معظم المادة المعجمية مورفيمٌ متقطّع نسمّيه جذرا أو أصول المادة لميزه من الزوائد، ويجري هذا الوصف على النغمات الحركية الوظيفية، فهي أيضا مُتقطّعة. ويعدّ الهيكل العروضي القاعدة (بمعنى المنصة) التي تتيح الانتظام السلسلي للنغمات التي تتكوّن منها المورفيمات وفق شروط السلامة المقطعية. وتوضح البنية (1) المكوّنات المباشرة لبنية الفعل البسيط.

(1)



تبرز البنية (1) التعقيد المورفيمي للفعل المجردّ غير المتصرّف، الخالي من لواحِق الشخص والجنس والعدد. ويُجسّد التمثيلُ (1) التحليلَ المُؤسّس على مقولة المورفيم، بمعنى أن التأليف الصرفي مبنيّ بوحدات دنيا تسمّى المورفيم، ذلك أن كلّ رفّ يستقلّ بقطعة صرفية مستقلة تسمّى مورفيما. ويحسن التنبيه إلى أنّ مورفيم الهيكل في البنية (1) يمثّل الهيكلَ النواةَ

---

(1) ينظر من أجل التفاصيل مقالة:

Jonathan Kaye& Jean Lowenstamm, & Jean Roger Vergnaud, “Constituent structure and government” in: *phonology*, vol. 7, (1990).

الموسّعَ بمقطع الاشتقاق الذي يظهر محصورا بين معقوفين: [س ح]م ش[1]. وعلاوة على هـذا، فإنّ كلّ نغمات المورفيم مربوطة بموقـع في الهيكـل باسـتثناء الفتحـة المنتميـة إلى رفـّ القالـب الحركي المعجمي التي تظهر غير مربوطة بموقع فتكون بذلك نغمة "طافية"، وهي بهـذا لا تتلقـى تأويلا صوتيا، عملا بالمبدأ الذي يقضي بأن تؤوَل صوتيا النغمـات المسوّغة عروضـيا فقـط. (أي تلك التي تُشبع موقعا في الهيكل). ونظير هذا في التركيب أنّ الألفاظ غير المربوطـة بموقـع في البنيـة التركيبيـة لا تتلقّـى تـأويلا دلاليـا. إنّ الـسؤال الـذي يتعـيّن الإجابـة عنـه، يتعلّـق بالاستفهام عن الأساس الأمبريقي والنسقي الذي يبرّر افتراض وجود هذه الفتحة الطافيـة في رفـّ مستقلّ عن رفـّ فتحة البناء للمعلوم عن يمين العنصر [ø] الذي يحتاج بدوره إلى تعليل.

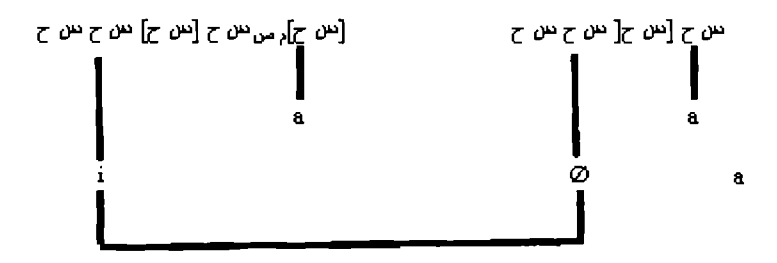
2- الفتحة الطافية

من أجل فهم أفضل لمسوّغات وجـود الفتحـة غـير المربوطـة "الطافيـة" في البنيـة (1)، نحتاج إلى الإحاطة بما تقتضيه من فرضيات، نُجملها فيما يلي:

- فتحة البناء للمعلوم ملازمة لبنية الماضي والمضارع المعلومين وليـست دخـلا (input) لتناوب أبوفوني
- في إطار الفعل المبنيّ للمعلوم يحصل التناوب الأبوفوني بين حركة عين الماضي وحركـة عين المضارع دون حركة البناء وذلك كما هو مبيّن في البنية (2).

---

(1) انظر تفاصيل تعين مقطع الاشـتقاق في Mohand Guerssel & John Lowenstanm، مـصدر سـابق، ص 4-14. وانظر كذلك بالعربية محمد بلبول، "المصدرُ والإلصاق"، في: محمد بلبول، بنية الكلمة في اللغـة العربيـة: تمثـيلات ومبادئ، (الرباط، مؤسـسة فكر للنشر، 2008).



يتبيّن من البنية التمثيلية (2) أنّ فتحة البناء للمعلوم (الفتحة السميكة) غير منخرطة في عملية التناوب الحركي بدليل أنّهما غير مربوطين أبوفونيا (—). وفي المقابل فإنّ حركة عين الماضي - التي يشار إليها بواسطة عنصر افتراضي بدون محتوى صوتي (ø) - تُعدّ سابقا أبوفونيا للكسرة التي تُحرّك عين المضارع المعلوم؛ ممّا يعني أنّها متولّدة أبوفونيا عن العنصر الافتراضي (ø) الذي ينتمي للرفّ نفسه الذي تظهر في بدايته الفتحة الطافية.

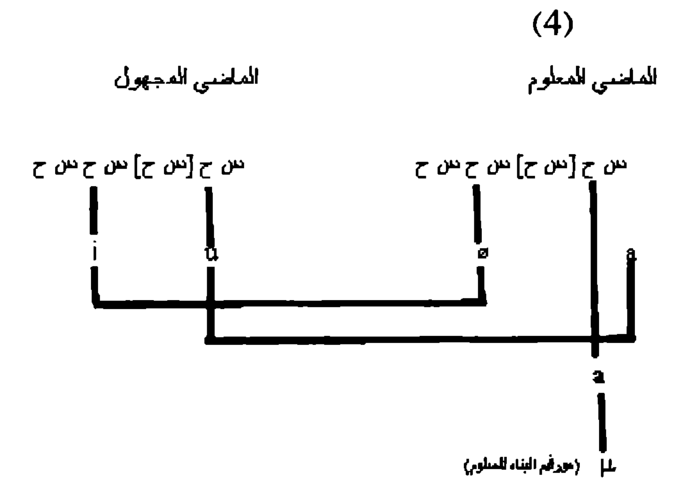
من المعروف أن الضمّة التي تحرّك فاء الماضي والمضارع المبنيين للمجهول علامة وظيفية تُنبئ أنّنا في هيكل مبني للمجهول؛ وهي ليست ضمة أوّلية (primitive) بل وليدة اشتقاق تصريفي ينطلق من أصل يُفترض أنّه عبارة عن فتحة طافية - كما يظهر في البنيتين التمثيليتين (1) و(2) - تتولّد عنها ضمّة، بموجب قانون التناوبات الأبوفونية المصاغ في (3) الذي سنقف عنده لاحقا، لشرح خلفياته النظرية والأمبريقية.

(3)

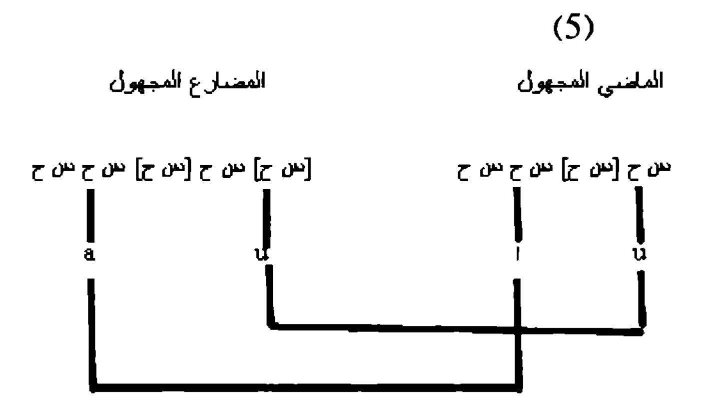
u ← u ← a ← i ← ∅

ويوضح التمثيلان (4) و(5)، على التوالي، الربطَ الأبوفوني بين الماضي المعلوم والماضي المجهول من جهة، والربط الاشتقاقي بين الماضي المجهول والمضارع المجهول. ففي البنية (4) تعدّ الفتحة الطافية (غير المربوطة في الهيكل س ح)، في بنية الماضي المعلوم سابقا أبوفونيا (apophonic antecedent) لضمّة فاء الماضي المجهول التي تُشكّل، بدورها، أساسَ اشتقاق ضمّة المضارع المجهول.

(4)



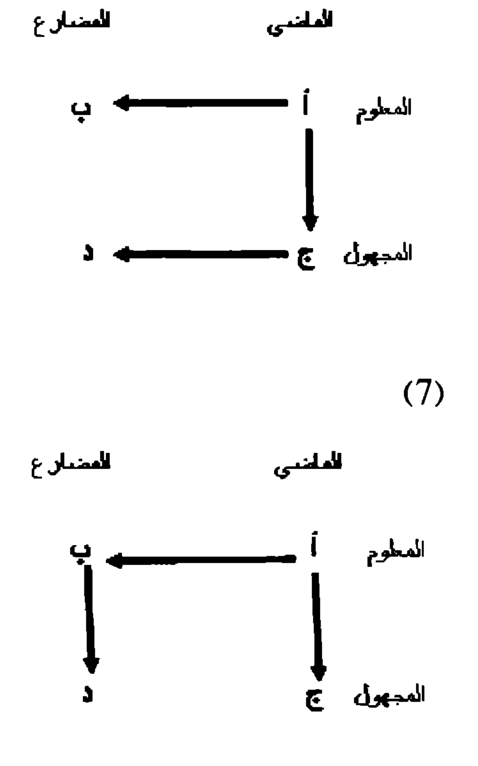
(5)



ويدعّم التمثيل (4) ما يظهر في التمثيـل (2) مـن كـوْن فتحـة البنـاء للمعلـوم الـتي تستقلّ في رفّ خاص لا تنخرط في التناوب، خلافا للفتحة الطافية والعنصر الموجود معهـا في الرفّ نفسه. وفضلا عن هذا، يقدّم الافتراض الأبوفونيّ تفسيرا لاشـتراك كـلّ مـن الماضـي المجهول والمضارع المجهول في الضمّة باعتبار أنّ الضمّة تقبل أن تكون سابقا أبوفونيا لـصورتِها كما في نحو **فعُل/ يفعُل**. وبناء عليه، يتمكّن الصرف الأبوفـونيّ مـن تحديـد اتجـاه الاشـتقاق التصريفيّ للفعل على أساس خوارزم المسار الأبوفوني المحـدّد في (3) الـذي صـاغه كـلّ مـن لوفينستام ومُحند كرسال (1993) انطلاقا من العربيـة الفـصيحة. وتّمـت البرهنـة علـى أنّـه

صيغة كلّية على المستويين الصوري والجوهري. وقد نجم عن هذا الافتراض، أنّ الصّرف الأبوفونيّ في اللغات الطبيعية محكوم بالصيغة (3) بصرف النظر عن تنوّع الأنساق الصائتية للّغات الطبيعيّة. فاللغات التي تشتمل على حركات مركّبة من عنصرين بسيطين أو أكثر، نذكر منها، للتمثيل لا الحصر، النسق الصائتيّ للفرنسية ونسق الألمانية، تراعي الصيغة الأبوفونية (3) التي تتنبّأ بأشكال التناوبات الحركية المعلّلة صرفيا[1] ويعكس التمثيل (6) التصوّر الأبوفوني لمسار الاشتقاق التصريفي للفعل في العربية الفصحى في مقابل (7) التي تعكس تصوّرا يفصل اشتقاقيا بين الماضي المجهول والمضارع المجهول.

(6)



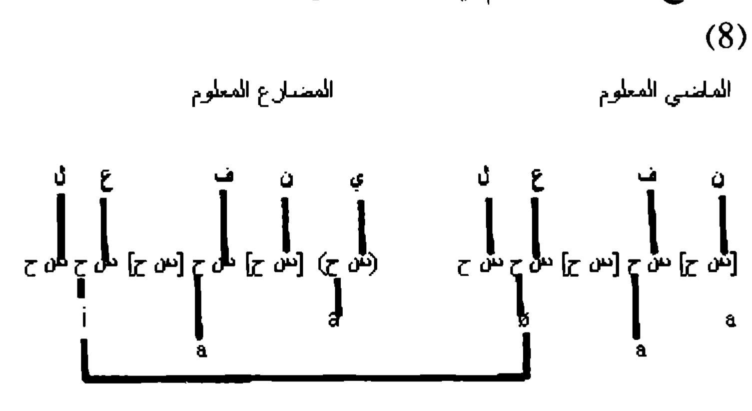
---

(1) انظر التفاصيل في أطروحة:
Philipe Ségérale., *Une Théorie généralisée de l'apophonie*, thèse de doctorat, (Paris, Université Paris 7, ,1995).

ما الذي يحدو بنا إلى تفضيل الاتجاه الاشتقاقي (6) على الاتجاه المنافس (7) الذي يقضي بأن المضارع المجهول مشتق من المضارع المعلوم؟

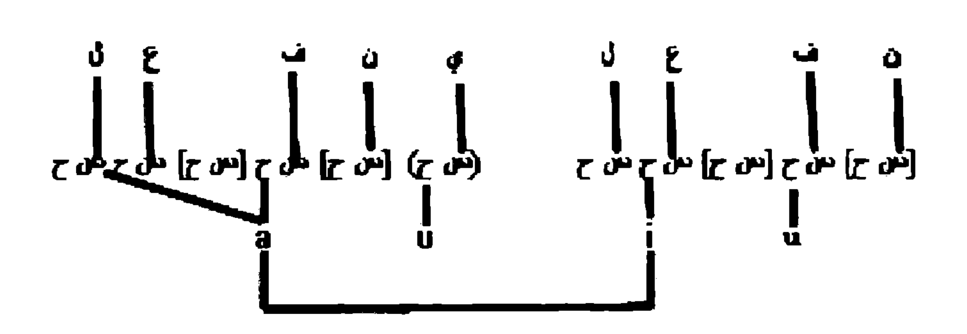
قد تقود المفاضلة المتسرّعة بين (6) و(7)، على أساس مدى مراعاة كلّ منهما قانونَ الأبوفونيا، إلى استنتاج أنّ البنية (7) مكافئة للبنية (6). بمعنى أنه سواء قمنا باشتقاق المضارع المجهول من المضارع المعلوم، كما يبيّن الرسم (7)، أم اشتققنا المضارع المجهول من الماضي المجهول، كما هو مُبيّن في(6)، فإنّ كلا المسارين يراعيان قانون الاشتقاق الأبوفوني المصاغ في (3). لكن إنعام النظر يكشف أن الاتجاهية الاشتقاقية (7) لا تقوى على الربط بين المضارع المعلوم ونظيره المبني للمجهول أبوفونيا في جميع الصيغ، بل يتأتّى لها ذلك مع مجموعة محدودة من الصيغ المزيدة. وهي: **فَعّل** (بتضعيف العين) **وفاعَل وأفْعل وفَعْلل**، وجميعها تشترك في أنّ مقطع حرف المضارعة يظهر فيها مضموما، متّصلا مباشرة بمقطع فاء الصيغة. أمّا الصيغ المزيدة التي يكون معها حرف المضارعة مفتوحا فلا تكوّن مضارعاتها المبنية للمجهول مُشتقّة أبوفونيا انطلاقا من المضارع المعلوم؛ وذلك بسبب أنّ فتحة المضارع المعلوم تنتمي لمقطع مفصول عن الجذع الفعلي بمقطع الإلصاق، وهذا سبب كاف لاستبعاد الاتجاهية الاشتقاقية (7). أمّا الاتجاهية (6) التي تقضي بأن يُشتّق المضارع المجهول من الماضي المجهول فتتيح اشتقاق جميع الصيغ الفعلية أبوفونيا والتنبؤ بحركة حرف المضارعة على أساس صوري بنيويّ. ولمزيد من التوضيح نورِد البنية (8) التي يتحقق فيها الربط الأبوفوني بين الماضي والمضارع المبنيين للمعلوم في صيغة **انفعل**.

(8)



تستدعي البنية (8) إبداء ملاحظتين: أولاهما أنّ مقطع الإلصاق [س ح] مربوط بنون المطاوعة، وأنّ حرف المضارعة (في بنية المضارع المعلوم) يظهر قبل مقطع الإلصاق وهو لهذا السبب غيرُ منظور من قبل الفتحة الطافية، فيتعذر عليها أن تكون في منزلة سابِقِه الأبوفونيّ، ممّا يفسّر غيابَ المقابل الأبوفوني للفتحة الذي هو الضمّ في مقطع المضارعة. إنّ الفتحة التي تحرّك حرفَ المضارعة ليست فتحة بناء المعلوم، هي إذن نسخة من الفتحةِ الطافية التي تُربط بمقطع خارجي يقع قبل مقطع الإلصاق، لأن فتحة البناء للمعلوم تُحرِّك الأصل الثاني من أصول الجذر (العين). إنّ سبب امتناع كون الفتحة الطافية سابقا أبوفونيا لحركة حرف المضارع، يعود إلى أنّ مقطع (...) ربط ياء المضارعة وحركتها ليس في مدى ميدان التناوب الأبوفوني مما يمنع الفتحة الطافية من أن تكون سابقا أبوفونيا، فلا تظهر ضمة في مقطع حرف المضارعة في البنية المقابلة. وفي المقابل تتناوب الفتحة الطافية أبوفونيا فتُولّد الضمّة مع حرف المضارعة متى ملأ هذا الأخيرُ مقطعَ الإلصاق [...]، أي المقطع المتصل مباشرة بمقطع فاء الصيغة؛ وهذا ما يحدث مع صيغة **يُفعِّل** ومثيلاتها من الصيغ التي يكون فيها حرف المضارعة ملتصقا بالجذع غير مفصول عنه بمقطع الإلصاق فيأتي مضموما جرّاء التناوب الأبوفوني. الملاحظة الثانية مؤدّاها أنّنا لو سلّمنا بأن المضارع المجهول مشتق من الماضي المجهول في البنيات التي يظهر فيها حرف المضارعة مربوطا بمقطع خارجي (...) مثلما هو حاصل في (8): نُفعِل، حيث تكون ضمّة الفاء متولّدة أبوفونيا عن الفتحة الطافية في الماضي المعلوم الموافق لها، فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه يتعلّق بمعرفة مصدر ضمّة ياء المضارعة في المضارع المجهول في هذه الحالة، هل هي آتية من ضمّة فاء الماضي المجهول؟ الجواب سيكون بالنفي، لأن المقطع الخارجي الذي يملؤه حرفُ المضارعة مقفل في وجه أيّ نشاط أبوفونيّ. وبهذا تكون الضمّة التي تحرّك حرف المضارعة مجرّد نسخة من الضمة الموجودة في الماضي المجهول. وذلك كما هو مُبيّن في (9).

(9)



يتبين من (9) أن الضمّة في مقطع الإلـصاق' لا تربطهـا آصـرة أبوفونيـة بـضمّة يـاء المضارعة التي تُربط بـالمقطع الخـارجيّ، مـا يُـشار إليـه بغيـاب الخـط الـرابط بـين الحركـات المتعالقةأبوفونيا، لا بسبب أنّ قانون الأبوفونيا يمنع التناوب الأبوفونيّ u/u - فهـذا التنـاوب مقبول أبوفونيا - بل بسبب رُسُوّ ياءِ المضارعة وحركتها في حيّز يوجـد خـارج مـدى الـربط الأبوفوني كما أوضحنا سلفا.

3- عناصر المسار الأبوفوني

بلْورنا في القسم السابق تحليلا يفكّـك البنيـة الـصرفية الداخليـة للفعـل العربـي إلى مكوّناتهـا الـصرفية المباشـرة وفـق الـشروط التمثيليـة لنظريـة الـصرف المـستقل القطـع (autosegmental theory) وفرضية الاشتقاق الأبوفـوني (apophonic derivation) الـتي تـزعم أن التناوبـات الـصائتية محكومـة بالقـانون المـشار إليـه في (3)، وقـدّمنا الـبراهين الصورية والتجريبيةالمتعلقة بتحليل المعطيات، التي تبرّر وجود الفتحة 'الطافية' وربطنا وجودهـا بكيفية اشتغال الاشتقاق الأبوفـوني في النظـام التـصريفي للفعـل العربـي. فنظـام التناوبـات الحركية المعلّلة صرفيا،يتيح الربط الاشتقاقي بين الصيغ المتصرّفة للفعل فضلا عـن أنّـه يـربط

الصيغ الفعلية المزيدة (باستثناء **تفاعل وتفعّل**) بالبنية الفعلية (1) في إطار الاشتقاق المعجميّ بموجب التناوبات الأبوفونية (10):

(10)

$i \leftarrow \emptyset$

$a \leftarrow i$

$u \leftarrow a$

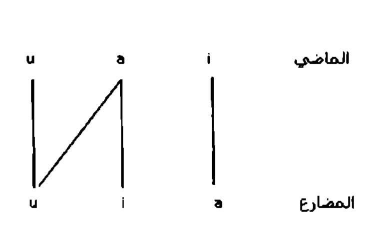
$u \leftarrow u$

ولرفع الالتباس المتعلّق بالعنصر [ø] الذي يظهر ملازما لجميع التمثيلات الصورية السابقة، يحسُن بنا أن نذكّر بالأسس التي يقوم عليها افتراض وجود هذا العنصر وحضوره في الرّف نفسه بجانب الفتحة الطافية.

1.3 العناصر الأولية للنظام الصائتي في العربية

من المعلوم أنّ النسق الصائتي للعربية يتكوّن من ثلاثة صوائت (أو حركات أوّلية) تُؤسّس قاعدةَ جميع الأنساق الحركية في اللغات الطبيعية، وهي الفتحة والضمة والكسرة. من وجهة نظرية صرفية تتيح الحركات الثلاث التناوبات المبيّنة في (11) لاشتقاق المضارع المعلوم من الماضي المعلوم.

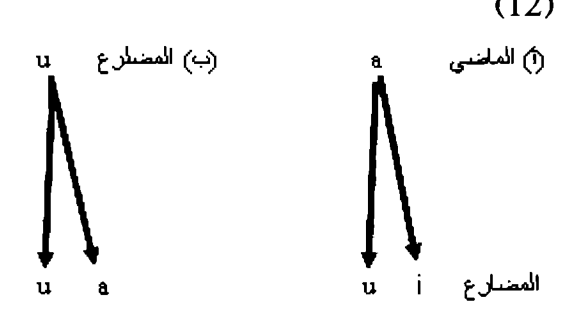
(11)



تبرز هذه الخطاطة كيف أنّ فتحة الماضي (والمقصود حركة العين) مربوطة بكلّ من الكسرة والضمة في صفّ المضارع. وبعبارة أخرى يتبين من (11) أنّنا بصدَد اشتقاقين بدخل

واحد (one input) وخرْجين (two outputs) مختلفين: i /a وa/u. ولـئن سـلّمنا بمـسار اشتقاقي معاكس ينطلق من المضارع فلن يؤدي هذا إلى التخلّص من واقع وجود دخْل واحـد مربوط بخرجين، إذ سنجد أنّ ضـمّة عين المضـارع تتنـاوب تـارة مـع الفتـحة كمـا في نحـو يَكتُب/ كَتَب، وتارة أخرى مع الضمة: يكْبُـر/ كَبُر. وتمثّل الخُطاطـة (12) ومـا يترتـب عنهـا من أمثلة للاستغلاق الأبوفوني (opacity) الذي يكون كلّما قبل التحليل الوضع الممثـل لـه في (11) وقد وضّحنا كيف أن تغيير اتجاه المسار الاشتقاقي مـن حالـة مـاض/ مـضارع إلى مضارع/ ماض لا يخلّصنا من هذا الاستغلاق وذلك كما هو موضّح في (12أ، ب).

(12)



فمثال (12أ) ضَرَب/ يضرِب، كَتَب/ يكْتُب. ومثال (12ب) يكتُب/ كَتَب، يَكْبُـر/ كَبُر. وإلى جانب الاستغلاق، يُبْدي التنـاوب الحركـيّ في الماضـي والمـضارع حالـة اسـتقطاب (polarity) تنأى بالاشتقاق الأبوفوني عن الشفافية المتوخاة. فسواء أكان منطلـق الاشـتقاق حركة عـين الماضي أم حركة عين المضارع، فإنّ الحاصلَ لا يـتغير: ضَـرَبَ/ يَـضْرِبُ، عَلِـمَ/ يَعْلَمُ، يَضْرِبُ/ ضَرَبَ، ويَعْلَمُ/ عَلِمَ؛ ونورد في (13) ما يمثل للاسـتقطاب المعـاين في علاقـة الماضي بالمضارع بصرف النظر عن اتجاه مسار الاشتقـاق.

(13)

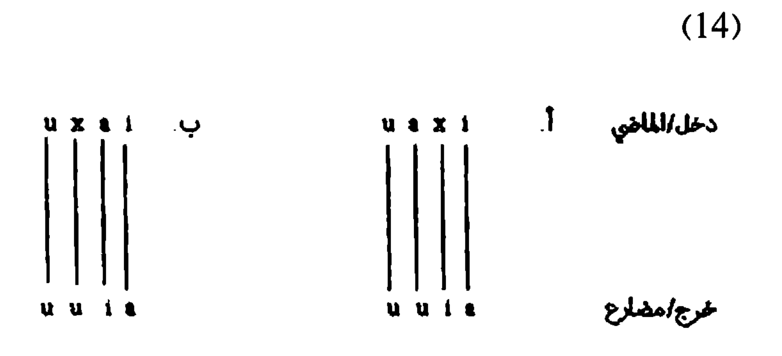
i ← a

a ← i

يتجلّى الاستغلاق الأبوفوني في وجود نسق يولّد أربعة فروع من ثلاثة أصول:/ u a i/، ممّا يعني أنّ النسق، المُمثّل له من خلال البنية (11) يشكو من علّتين هما: اللّاتناظر العددي بين النغمات الدخْل والنغمات الخرْج والاستقطاب الذي يتجسّد في كون الفتحة والكسرة يتناوبان في الاتجاهين المعاكسين وذلك ما يظهرُه التمثيل (13) أعلاه.

لقد اهتدى جان لوفينستام ومُحند كرسال (م.ن)، في إطار تقيّدهما بمقتضيات الصياغة الصورية للنحو في جميع مستوياته التمثيلية، إلى افتراض عنصر رابع بجانب الدخول الثلاثة يتيح رفع الاستغلاق، المبيّن في البنيتين (11) و(12أ)؛ ويمكّن من التخلّص من الاستقطاب القائم بين الفتحة والكسرة الذي تبرزه الاتجاهية الاشتقاقية (13). ففي حال وجود هذا العنصر الرابع - ولنرمز له، مؤقتا، بالعلامة x - يُرْفَع التباس (12أ) فيفكّ ارتباط دَخْلٍ واحد بخرجين ونصبح بصدد نظامين شفّافين، لا يشوبهما استغلاق واستقطاب. ويتعيّن اختيار أحدهما بناء على تعليل مقنِع. ونمثل في (14أ) و(14ب) للبنيتين المتنافستين الناجمتين عن إضافة العنصر المجهول القيمة: x - العنصر الرابع المفترض - في التناوب الأبوفوني.

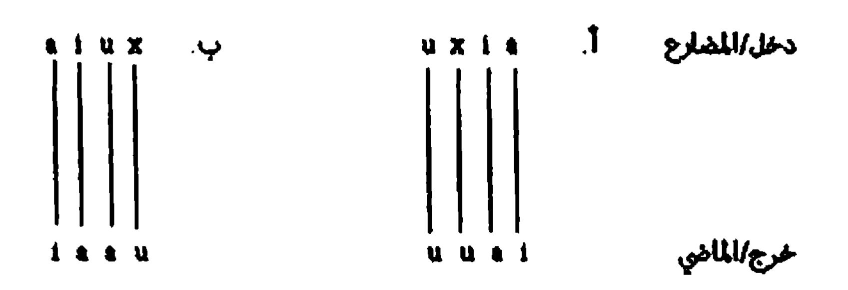
(14)



تخلو البنية (14أ)، مقارنة بالبنية (14ب)، من الاستقطاب المشار إليه في (13) مادام التناوب a/i في (14أ) لا يسير في اتجاهين متعاكسين، بيد أن (14ب) تبرز الوضع غير المرغوب فيه والمشار إليه في (13) حيث تتناوب الفتحة والكسرة أبوفونيا في اتجاهين

متعاكسين. ولئن فرضنا أن الاشتقاق الأبوفوني يتخذ من المضارع أصلا لاشتقاق الماضي، فإنّ النظام لن يتجنّب الاستقطاب المستهجن بين الفتحة والكسرة وذلك كما هو مُبيّن في (15) حيث منطلق التناوب حركة عين المضارع لا الماضي.

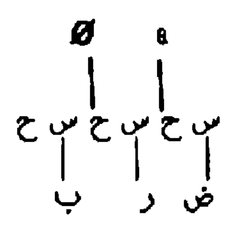
(15)



يُبيّن فشل كلّ من (14ب) و(15) في التخلّص من وضع الاستقطاب المُمَثّل له في (13)، أنّ العنصر x يتناوب حصريا مع الكسرة، وأنّ الفتحة لا يمكن أن تكون أصلا لاشتقاق الكسرة. وبهذا ينتظم نسق التناوب الأبوفوني وفق علاقة توافق محكومة بمبدأ "واحد بواحد" (one to one). ويعتبر هذا حجة لصالح كون الماضي أصلا لاشتقاق المضارع.

يترتب عن تبني (14أ)، أن فتحة عين كَتَب، المتصرّف في الماضي، والتي تتناوب أبوفونيا مع الضمة بحكم وجود يكتُب وانتفاء كل من يكتِب (بكسر العين) ويكتَب (بفتح العين)، مختلفة عن الفتحةَ التي في ضَرَب والتي يقابلها الكسر في المضارع: يضرِب. ففتحة عين ضَرَب فتحة لا تظهر في التمثيل الصرفي على أساس أن التمثيل الصرفي سابق للتأويل الأصواتي، وهي متحقّقة، في مستوى التمثيل النطقي، عن طريق انتشار فتحةِ فاء الفعل. ومعلوم أن مسوّغ هذا الانتشار هو خلو العنصر Ø من المحتوى الصوتي. وبناء عليه يأتي التمثيل الصرفي العميق لفعل "ضَرَب" على النحو الآتي:

(16)



تتيح البنية (16) تحديد قيمة X، حيث X = Ø، وبالاستناد، إذن، إلى (16)، نحصل على التناوبات التي أوردناها في (3) ونذكّر بها في (17).

(17)

u ← u ← a ← i ← Ø

تحدّد المتتالية التناوبية صيغة ما يُطلق عليه قانون الأبوفونيا الذي يتكوّن من أربعة عناصر تتيح أربعة تناوبات. بقيت مشكلة أخيرة يتعيّن النظر فيها تتعلّق بالقطعة المورفيمية [a – ø] التي تتكوّن من الفتحة الطافية (غير فتحة البناء التي تبرُز في طابق مستقل) فضلا عن العنصر الفارغ ø. يُعدّ هذا المورفيم أساسَ الاشتقاق الأبوفوني، فجميع الصيغ الفعلية المكسورة العين، مجرّدة أم مزيدة، مشتقّةٌ، على نحو ما، من البنية المورفيمية القاعدية (18).

(18)

[a - ø]



4- مورفيم الهيكل

في ضوء ما تقدّم يمكن القول إنّنا ركزنا تحليلنا على تسويغ القطعات المورفيمية النغمية (melodies)، ونعني التعليل البنيويّ للفتحة الطافية (غير المربوطة بموقع في الهيكل س ح (C V) ولفتحة البناء للمعلوم وللعنصر الفارغ صوتيا [ø]، لكنّنا لم نقل شيئا عن مورفيم الهيكل العروضي (prosodic template) وهو مفهوم لساني لا تجوز ترجمته بالصيغة كما وَرَدت في تحليل النحاة العرب القدماء، لأنه افتراض أعمّ يستقي مُسوّغات وجوده من القيود العامة على البنية الفونولوجية للغات الطبيعية، ولا يُعدّ تمثيلا وَصْفيا نابعا ومُبرّرا بمعطيات لغة خاصة. سأسعى في الصفحات التالية إلى أن أوضح الأبعاد النظرية والأمبريقية المتعلقة بهذا التمثيل والنقاش المتمخّض عن التباين في أسلوب التمثيل له صوريا.

4.1 الهيكل س ح مقابل الهيكل (X)

برزت فكرة الهيكل بادئ ذي بدء، بوصفه مستوى من مستويات التمثيل للبنية الفنولوجية للغات الطبيعية، في النظرية الموسومة باسم النظرية المستقلة القطع (autosegment) التي اقترحها جون كولدسميث John Goldsmith في أطروحته[1] لحلّ مُعضلة التمثيل للتمديد التعويضي[2] وللظواهر فوق القطعية التي تؤدّي وظيفة تمييزية، مثل ظواهر العلوّ النغمي (tonology). ويمكن القول إنّ افتراض الهيكل، بأشكاله الثلاثة

---

(1) انظر: John Goldsmith., *Autosegmental Phonology*, Ph.D. dissertation (Cambridge, MIT, 1976).

(2) من المفيد في هذا السياق التذكير بأنّ التمديد التعويضي (compensatory lengthening) ظل مستعصيا على النظرية القطعية لتشومسكي وهالي المعروضة في كتابهما الموسوم باسم *The Sound Pattern of English*. لا يملك هذا النموذج الوسائل لرصد ظاهرة التمديد التعويضي التي تقتضي الحذف وتمديد الحركة لتشغل موقع العنصر المحذوف المحاذي لها. سيؤدي إدخال بنية المقطع في التحليل الفونولوجي في نظرية القطعات المستقلة التي تعتمد تمثيلات متعددة الأبعاد إلى التكفّل بظاهر التمديد القطعي بوصفها ظاهرة عروضية (prosodic).

المختلفة، أسهم في توضيح الظواهر التي تستوجِب الإحالة على مفهوم الموقع الفونولوجي (position phonological) في علاقته بالمقطع، ونجملها فيما يلي:

- فونولوجية الوزن: المقطع الخفيف مقابل المقطع الثقيل.
- فونولوجية الكمّ: الطول (التضعيف) مقابل الحركات والصوامت القصيرة.
- المدّ التعويضيّ (compensatory lengthening).
- المماثلة التامّة.
- التخصيص الناقص للقطعات.
- القطعات الكامنة[1].

يعود لجون مككارثي (م.ن) فضلُ توظيف فونولوجية الهيكل لرصد مظاهر التكسير الصرفيّ في اللغة العربية، وقد لاحظ أنّ التعارضات العروضية (prosodic constrat) مُنتِجَة صرفيا ويتعيّن بالتالي التمثيل لها من خلال متوالية من المواقع الزمنية المخصّصة إما بالسمة س (= ساكن/ صامت) وإمّا بالسمة ح (= حركة/ صائت). وبناء عليه يتيحُ الهيكلُ المُتصوّر على هذا النحو التمثيل للخصائص العروضية (prosodic) بإبراز كمّ أو مدّة القطعات من طول وتضعيف، بحكم أنّ هذه الخصائص تؤدي وظيفة تمييزية في المستوى الصرفي. لنقارن مثلا بين كَتَب (katab) و كَاتَب (kaatab)، وبين كَتَب وكَتَّب (kattab). وسيقترح مككارثي (م.ن) قاعدة حشوية تولّد جميع هياكل الفعل في اللغة العربية، ويصوغها على الشكل المبيّن في (19).

---

[1] من أجل مزيد من التفاصيل والأمثلة التوضيحية المتعلقة بهذه الظواهر يُنظر في:
Michael Kenstowicz, *Phonology in Generative Grammar*, (Cambridge, Mass., Oxford: Blackwell, 1994)436- 395.ص ،



(19)

أ.

[(({س / س ح})) س ح (([+ قطعة])) س ح س]

ب.

ح ⟵ Ø / س ح س ـــــ س ح س

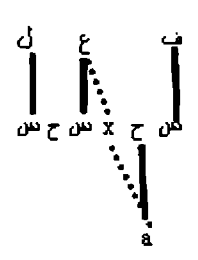
تطرح القاعدة (19) مُشكلتين: أولاهما أنها تولّد إضافة إلى جميع هياكل الفعل المجرّد والمزيد، هيكلا غير مُعاين في طبقة الأفعال في اللغة العربية، ونقصدُ الهيكلَ الوراد في (20).

(20)

[س ح س ح س ح س]

ويولّده الخوارزم (19أ) بتفعيل الإمكان الثاني في توسيع أقصى اليمين ( )، أي اختيار [س ح] كبداية بدل [س]، من دون تفعيل التوسيع الأوسط ([+قطعة]). فيكون الحاصلُ بنيةً لاحنةً ممّا يُحتّم تدخّل الشق (ب) من القاعدة (19) الذي يتكفّل بحذف حركة المقطع الثاني لمنع توالي ثلاثة مقاطع قصيرة داخل الجذع المعجمي. إنّ اللجوء إلى المصفاة (19ب) يُضعِف، في نظرنا، القاعدة (19) برمّتها لأنها عبارة عن عملية غير مُقيّدة بمبدأ نحويّ عام موضوع على الهيكل، فهذه العملية مسيّرة بالمنطق الداخليّ للآلة الصورية أكثر ممّا هي منبثقة من قيد نحوي تفسيريّ، على الرغم من إجرائيتها وما تتيحه من اقتصاد وأناقة في الوصف. أمّا المشكلة الثانية فتتمثّل في وجود موقع في الهيكل غير مخصّص بإحدى السمتين، وهو الموقع [+ قطعة] الذي يحتمل أنْ يُفعّل بقطعة س إذا حصل الاشتقاق بتوسيع داخلي، وذلك بانتشار قطعة صامتة من صوامت الجذر نحوَه كما في **فعّل**، ويحتمِل الموقعُ أن تُسند له قيمة ح (صائت) إذا تمّ الاشتقاق بانتشار حركة كما في **فاعل**. ولتوضيح هذا الإجراء نستعين بالتمثيل التالي حيث نعوض [+ قطعة] بالرمز**X**، حيث **X** = ح، س

(21)



4. 1. 1 انبثاق نظرية الهيكل ذي المواقع الغُفْل

تُبدي هذه البنيةُ ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، ومُفاده أنّ الموقع غير المخصّص: [+قطعة]، الذي عوّضناه بالرمز X يقبل أنْ يُربط بحركة كما يقبل أن يُملأ بقطعة ساكنة، ممّا يُتيح له رصدَ الطول القطعيّ؛ بصرف النظر عمّا إذا كانت نغمتُه حركةً (صائت) أم ساكنا (صامت). ومن المفيد التنبيه إلى أنّ البنيتين لا تتحقّقان بصورة تزامنية بسبب قيد يمنع أن يُربط الموقعُ الواحد في الهيكل بنغمتين في البنية الواحدة. وجليّ أن البنية (21) موضوعة لأغراض التوضيح ليس إلا، وليست تمثيلا ممكنا في الإطار الصوريّ المتبنّى. إنّ افتراض مواقع فونولوجية غير مُخصَّصة بإحدى السمتين القِطْعِيَتين إلى جانب مواقع مخصّصة أمرٌ مَعيب لأنّه مخلّ بمزيّة تجانس ألف باء التمثيل. وقد حدا هذا الخلل بكوكبة من اللسانيين إلى اقتراح هيكل في صورة متوالية من المواقع الزمنية الغُفْل[1] X ‏(X - slots). نذكر منهم على وجه الخصوص جونتان كاي وجان لوفينستام وجوليات لفين[2]، بذريعة وجود حالات لا يُعرف فيها ما إذا كان الموقع في الهيكل عبارة عن ساكن أم حركة. من ذلك ما يبرزه التمثيل (21) بخصوص اشتقاق كلّ من "فاعل" و"فعّل"، وتقدّم العبرية الطبرانية (Tiberian Hebrew) المثال النموذجي لفشل الهيكل س ح ونجاعة الهيكل الغُفل (X). ففي هذه اللغة السامية تسلك أداة التعريف سلوكين مُغايرين: فتنسخ القطعة الأولى من الاسم الذي تدخل

---

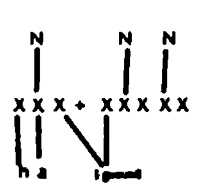
(1) من معاني كلمة غُفل في اللغة أنها تأتي لوصف ما لا علامة فيه، لا سمة عليه. وقد بدا لنا هذا اللفظ ملائما لترجمة مفهوم الهيكل غير المخصّص المواقع بإحدى السمتين س أو ح.

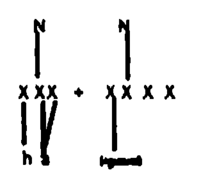
(2) انظر:

Jonathan Kaye & Jean Lowenstamm, « De la syllabicité». In:, F. Dell et al. (eds.), *Forme sonore du Langage* (Paris, Herman, 1984).

عليه فينتج عن ذلك تضعيفٌ، كما في نحو [ham - melek] اُلملكْ، وفي حالة كون القطعة الأولى من الجذع المعجمي ساكنا حلْقيا فإنّ التضعيف يُكبح ليتيح لحركة الأداة أن تتمدّد، وذلك كما في نحو [haa?iir -] اُلمدينةْ. إنْ نحن افترضنا أنّ هيكل الأداة متوالية غفل بثلاثة مواقع [x x x] فإنّ مواضعات ملء المواقع بالنغمات الموافقة ستتم على نحو سلِس؛ بمعنى أن الموقع الثالث يحتمل أن يُربَط بقطعةٍ بدايةِ جذعِ الكلمة إذا كانت القطعة التي يُستهل بها الجذع مُخَصّصة بالمصفوفة: [+صامت، - حلقي]، أما إذا كانت القطعة عبارة عن: [+صامت، +حلقي]، فإنّ النواة الحركية للأداة هي التي تنتشر نحو الموقع الثالث. ويوضّح التمثيل (22) هذا الأمر.

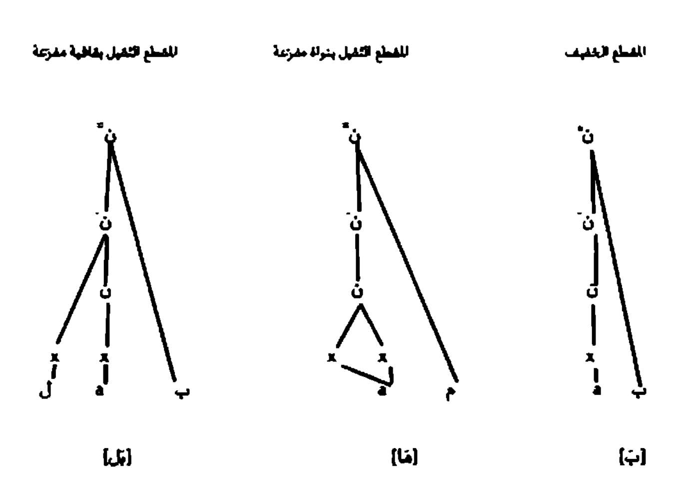
(22)





يعود لجوليات لفين Levin (م.ن) فضلُ اقتراح تمثيل بنيوي للمقطع يُطابق التمثيلَ للمقولات التركيبية الكبرى وفق مبادئ نظرية س - خط (X - bar) ممّا يُتيح للمقطع أن يكون إسقاطا لرأسه، أيْ نواته، ويُعدّ الاستهلال (onset) بمثابة مُخصِّص للرأس، ويكون ذيلُ المقطع (coda) نظيرا للفضلة في التركيب. وجدير بالذكر أنّ القافية، التي تنفي لفين أن تكون مكوّنا كليّا من مكوّنات المقطع، هي العجرة التي تُهيمن مباشرة على الرأس **ن** (نواة)، أي ن - خط. وفي المقابل يساوي إسقاط العجرة المقطعية ن - خطين، ويُعدّ هذا ممّا يُدرج في الخصائص الكلية للمقطع. وقد دافعت الباحثة، وقتئذ، على هيكل مُكوّن من وحدات زمنية غُفل ترمز لها بالرمز X وميّزت داخله بين مواقع جذرية وبين مواقع نووية مربوطة برأس إسقاط المقطع وذلك فق ما سبق توضيحه في الرسم (22). وتعكس التمثيلات الواردة في (23) الإسقاطات القصوى لمقاطع اللغة العربية وفق نظرية س - خط.

(23)



يُستنتج من الأشكال أعلاه أنّ المواقع في الهيكل ليس بحاجة لتخصيص قبلي كما تفعل نظرية الهيكل س ح بل إنها تفترض أنّ السمتين س و ح مُستنبطتان من البنية الشجرية للمقطع المصمَّمة وفق نظرية س - خط.

وُجّهت انتقادات كثيرة لنظرية الهيكل الغُفل ممّا حدا ببعض المدافعين عنها في أواسط ثمانينيات القرن الماضي من أمثال لوفينستام وجونثان كاي (المصدر السابق) - اللذين كانا من أبرز المساهمين للتخلي عنها والعودة إلى الهيكل س ح من منظور نظرية جديدة في المقطع لا تقرّ بوجود مقطع ثقيل، وترى أن الوزن يُشتقّ من سلسلة مُكوّنة من مقطعين قصيرين: [س ح س ح...] ولعلّ هذا ما يفسّر أنّ الهيكلَ المعتمد في الاشتقاق الأبوفوني للفعل العربي عبارة عن سلسلة من المواقع الزمنية المجمّعة تحت عجر المقطع القصير كما سبق وأن بيّنا. من بين الدواعي المؤدية إلى التخلّي عن الهيكل الغُفل، فشلُه في معالجة المدّ التعويضي، الظاهرة التي كانت خلف التشكيك في كفاية الهيكل س. ح. وسنعرض، فيما يلي، ما يبدو أنّه يكشف حدودَ نظرية الهيكل الغُفل لننتقل للحديث، باقتضاب شديد، عن الهيكل من منظور النظرية الوقعية (moraic) التي تقطع مع التصوّر القطعي للهيكل سواء لجأ إلى هيكل س ح أم اعتمد الصيغة المنافسة ذات المواقع الغُفل.

لو عُدنا إلى البنيتين التمثيليتين في (22) اللتين تُلخّصان جوهرَ معالجة المدّ التعويضي من منطلق فرْضية الهيكل الغُفل، فسيتبيّن بوضوح أنّ الموقع الذي يستقبل تارة التمديد الحركي وتارة أخرى التمديد الساكني في هُيَيكل الأداة، يقبل تأويلين أصواتيين مختلفين: التأويل الصائتي في حالة [haa -] والتأويل الصامتي في حالة [ham -] ويتعيّن أن يُسوّغ كلّ تأويل ببينة مقْطعية خاصة، فالتأويل الصائتي للموقع يجب أن تتيحه بنية مقطعية ذات نواة مفرّعة كما هو الحال في البنية المقطعية المُسْندة إلى [ما] في (23)، في حين أنّ التأويل الصامتيّ مسوّغ ببنية مقطعية ذات ذيل (coda) كما هو مُبيّن في التمثيل المقطعي المسند إلى [بَل]، حيث يظهر أن موقع الذيل لا يحتمل أن يُربط بنغمة صائتية (أي حركة). لقد أثارت لفين (م.ن) المشكلة التي يطرحها تأويل الصائت (ح) المربوط بموقع صامتي (س) في نظرية س ح لكلّ من كليمنس وكيزر[1] في معرض انتقادها لهذا النموذج، لكنّ المفارقة أن لفين تقترف هَنَةً بإتيانها بما تُنكرِه على صاحِبيها. ففي إطار نظرية المواقع الغُفل، التي تتبنّى تمثيلا شجريا للمقطع وفق هندسة س - خط للمقطع يمكن تأويل المدّ التعويضي بوصفه سيرورة انتشار النغمة الصائتية نحو موقع صامتي بحكم أنّه مربوط بالمكوّن المقطعي الذيل الذي لا يقبل إلا التأويل الصامتي. أما إذا كان الانتشار حركيا فإن الحركة تربط بالنواة المفرعة، وهذا الاختلاف لا يبرزه الموقع ذي المواقع الغفل مما يدفعنا إلى القول: إننا لو نظرنا إلى النظريتين المتنافستين: نظرية س ح ونظرية الموقع - الغُفل، فسنلحظ أنّهما متكافئتان.

2.4. الهيكل الوقْعي

يمكن القول إنّ مُجمل تصورات الهيكل التي استعرضناها في هذه الدراسة تصدُر عن خلفية قِطعية، بمعنى أنّ الهيكلَ وِجاهٌ (interface) لتوافقات بين مستوى القطعات، بوصفها حزمة من السمات الأصواتية الواردة في التحليل اللساني، وبين المستوى فوق

---

(1) انظر مزيدا من التفاصيل في:
George Clements & Samuel J. Keyser, *CV Phonology: A generative theory of the syllable*, (Cambridge: MIT press. 1983).

القطعي (suprasegmental) الذي ينتظم وفق قيود البنية المقطعية. فسواء تعلّق الأمر بالهيكل س ح في صورته الأولى، على النحو المعتمد في مككارثي (م.ن)، أم تعلق بالهيكل وفق نظرية المواقع الغُفل، أم بهيكل لوفينستام الذي يتيح رصد التناوبات الحركية المشروطة صرفيا، فإنَ النغمة، في النظريات الثلاث يجب أن تربط بموقع فنولوجي زمنيّ مُخصّص إما بسمة [+/ - صامتي] وإمّا عبارة عن موقع غير مخصّص، أي x، لتكتمل قِطعيتها. وقد أوضحنا أنّ هذه الموقع ينتمي لرفّ الهيكل ومربوط بأحد مكونات المقطع.

من زاوية نظر تأريخية، تعدّ دراسة مككارثي وبرينس الموسومة باسم الصرف العروضي[1]، دراسة قطعت جذريا مع التصوّر القطعي الذي ظل حاضرا في النظرية المستقلة القطع. وتتمثّل هذه القطيعة في رفض مستوى التمثيل الهيكلي بمختلف أشكاله التي تطرقنا إليها، لفائدة بنية مؤسّسة على الوزن، الذي يُرمَّزُ له بالوقْع أو المورا (mora). لم يعد مقبولا في هذه النظرية الحديث عن موقع قطعي في الهيكل بل أصبح الحديث عن وقع مُخصّص بمقولة عروضية (μ). تُشرف مباشرة على النغمات التي يجب أن تُسوّغ عروضيا ليتمّ تأويلها أصواتيا. يبرّر الباحثان أسلوب التمثيل للهيكل بمقولات عروضية خالصة تبريرا أمبريقيا وذلك بالإشارة إلى أن النحو الطبيعي للغات البشرية لا وجود فيه لعمليات فونولوجية تابعة لعدد القطعات في البنية التمثيلية، فموضوع التَّعداد ليس القطعات، بل الأوْقاع والمقاطع والأقدام، لأن تعداد القطعات مفتوحٌ، بيْد أنّه في العَروض مُقيّد بالمثنوية، فالعمليات النحوية بما فيها العمليات الفونولوجية لا تَعُدّ أكثرَ من عنصرين. ويحسُن التنبيه إلى أنّ للتَّعداد مظهرين: أ) مظهر يتعلق بكيفية اشتغال آلية العدّ في النحو. ب) ومظهر يتعلق بمعرفة العناصرالخاضعة للعدّ. فبالنسبة للمظهر الأول، يبدو أن اشتغال التعداد مُقَيَّد بالمحلية (locality)، فانطباق قاعدة معينة يقتضي منها حصْرَ العنصر الذي تعتبره موضوع الانطباق، وفحص العنصر المجاور بنيويا. هناك وفرة في الأمثلة المبيِّنة أن أقصى ما يعتبر واردا

---

(1) انظر مزيدا من التفاصيل في:
John McCarthy & Alan Prince. Prosodic Morphology (Cambridg: Linguistics Department Faculty Publication Series, 13, Massachusetts, Amherst, 1986 (1996))

بالنسبة لعملية يتحدّد في عنصرين ينتميان لمحلّ واحد. فقاعدة برينس المعروفة باسم "قاعدة النهاية" (end rule) تنطبق على طَرَف (edge) ميدان ما، وتأخذ بعين الاعتبار العنصر المتاخم للطَرَف. ومجمل القول إن العمليات لا تأخذ بعين الاعتبار، أثناء اشتغالها، أكثر من عنصرين. أما بخصوص طبيعة الموضوعات المعدودة، فمن باب مسلمات النظرية الفونولوجية أن القواعد لا تحسب القطعات. فالقواعد تتعرف على المقاطع والأوقاع والأقدام

5- استنتاجات وخلاصات

طرحنا في مستهل هذه المقالة مشكلة أوّليات التحليل اللساني لبنيات اللغات الطبيعية من خلال ما يحدث في مستوى التكوين الصرفي للفعل العربي، وكان منطلقنا بسط نظرية صورية (نموذج صوري) تنطلق من المورفيم بوصفه قطعة مستقلة في رفّ يتوازى عموديا مع رفوف مورفيمات أخرى منخرطة في التوليف. وقد حاولنا أن نبرز التعميمات التي يتيحها النموذج الصوريّ من خلال البحث في مُسوّغات النغمة العائمة (الفتحة الطافية) والعنصر الفارغ صوتيا [ø] وخصائص الهيكل العروضي. نريد فقط أن نضيف بأنّ أوّليات النظرية في نحو صوري بالمعنى التوليدي، أي نموذج للتمثيل للقدرة النحوية في قوالب متعدّدة، لا تطرح كمُسلمات (axioms)، بل هي فرْضيات حول البنية الداخلية للموضوعات النحوية ومن ضمنها الموضوعات الصرفية التي لا نعرف على وجه اليقين حقيقة وجودها وطبيعة خصائصها وكيفية تفاعلها مع الصوت والتركيب والمعنى. هذه الفرضيات تستمدّ مبرّراتها العلمية من علاقتها بالبيانات التجريبية وبحيثيات الصياغة الصورية التي يفترض أنها محايثة للموضوع وليست مُسقطة عليه. لقد بيّنا من خلال التمثيلات الصورية والنقاش النظري المحيط بها أنّ مقولتي المجرّد والمزيد لا يمكن أن تحيلا على واقع تجريبي في ظل نظريات لسانية تعيد النظر باستمرار في طبيعة أبجديات التوليف والقيود الموضوعة عليه. وبيّنا كيف تتمكن نظرية صورية من التنبؤ بالبنية الصامتية للاصقة المضارع وفرزها عن فتحة البناء للمعلوم، والتنبؤ بحركة عين الصيغة، وكيف تنجح في ردّ

جميع البنيات الفعلية إلى هيكل واحد يتضمن نواة وتوسيعات، وكيف أن الاشتقاق الصرفي في اللغة العربية لا يتم بين الصيغ الفعلية المعجمية بل بين الصيغ المتصرّفة للفعل. كما أننا وقفنا عند الخلفيات النظرية والتجريبية التي أملت تصوّرات معيّنة للهيكل العروضي في إطار نظريةقطعية وأخرى عروضية خالصة.

بعد هذا التوضيح، يجدر بنا أن نلتفت إلى بعض المآخذ، التي يمكن تسجيلها بخصوص تصوّر النظرية الأبوفونية للهيكل، نذكر منها: أنّ الهيكل في هذه النظرية ليس بنية مُقَيَّدة بما يكفي، وليست تجسيدا صوريا لما يمكن أن تكون عليه الجذوع المعجمية. ففي هذا الإطار لا نرى طريقة واضحة لرصد التمايز البنيوي بين الصيغتين السِلسليتين (concatenative) "تفاعل" و"تفعَّل" والصيغ الفعلية الأخرى ذات البنية الدمْجية غير السِلسلية. فالباحثان: كرسال ولوفينستام، يُشيران في دراستهما إلى الطابع السِّلْسلي للصيغتين، لكن الجهاز التمثيلي الذي يقترحانه لا يقوى على صوغ وصف بنيوي يعكس هذه الخَصيصة؛ ويستتبع هذا أنّ الهيكل في النظرية، يُسنِد للصيغتين المذكورتين تمثيلا لا يختلف هيكليا عن التمثيل المسند لصيغة "انفعل" التي تبدو سلسلية وما هي بذلك. فجميع الصيغ ذات السابقة المعجمية، سواء أكانت سلسلية أم لم تكن كذلك، تملك في هذا الإطار هيكلا واحدا - الهيكل (24) - حيث مقطع الإلصاق مُعَيَّن (غير شاغر). وثالثة الأثافي أنّ مقطع الإلصاق يمكن أن يُعَيَّن من قبل أصل من أصول الجذر، فيكون له الوضع الصوري للسابقة دون أن يكون سابقة، كما هو الحال في الصيغتين: **افعوعَل وافعنلل.**

(24)

[س ح]م ص س ح [س ح]م ش س ح س ح

أضف إلى هذا أنّ التوظيف الاعتباطي لكلّ من مقطع الإلصاق ومقطع الاشتقاق تترتّب عنه ظهور تمثيلات صرفية برأسين صرفيين، ممّا يخرق قيدَ أحادية الرأس. فهذا القيدُ سَرعان ما تُعلّق النظرية العمل به في حالات التمثيل لبنيات "استفعل" و"افعوعل" و"افعنلل"، حيث يُملأ مقطع الإلصاق ومقطع الاشتقاق بشكل متزامن، بدعوى أن جميع أصول الجذر يجب أن تُربط في الهيكل حتى ولو اقتضى الأمر ربط أحدها بمقطع الاشتقاق أو بمقطع

الإلصاق. وينجم عن هذا أن المبادئ (بمعنى القيود) الساهرة على سلامة التمثيلات تبدو وكأنها تطبق بصورة انتقائية.

قد تبدو الإشكالات المعروضة والتحليلات الصورية للمواكِب للمستجدّات مُتقادمة نسبيا، مقارنة بما يصدر حاليا في هذا المجال، بحكم أنها إشكالات تنتمي إلى العقدين الأخيرين من القرن الماضي. لكنّنا آثرنا إثارتها وعرضَها لسببين: أولهما أننا استعدنا التحليل الأبوفوني للفعل العربي في سياق إشكالي مغاير نسبيا لما قمنا به في دراسة سابقة، يجدها القارئ معروضة في كتابنا: "بنية الكلمة في اللغة العربية: تمثيلات ومبادئ"، ثانيهما أن المتتبع للمستجدات في هذا الميدان، سيلمس أن راهِنيتها لم يمسسها خَدش في سياق البحث اللساني العربي، الذي ما زالت سُلَطه تنظر بشيء من الريبة للسانيات الصورية والمعرفية وتعدّها ضربا من الفلسفات التي تخرج عن سياقها متى عَنّ لباحث عربيّ في اللغة أن ينظر فيها، والحال أن تأثيرها يتعاظم من خلال تقاطع اهتماماتها بما تشتغل به العلوم المعرفية والمنطق الرياضي والفلسفة. لقد انتبه علماء علم الأحياء إلى هذا التماثل الوثيق بين مبادئ التأليف النحوي والتأليف الجيني، مما حدا بعالِم المناعة Niels Jerne إلى أن يقدّم عرضه العلميّ في احتفال تسلّمه جائزة نوبل (1984) بعنوان لا يخلو من دلالة: النحو التوليدي لنظام المناعة (The generative grammar of Immune system). قد ينتفض البعض ضد هذا المنحى بالقول إن اللغة ظاهرة اجتماعية لكنّه ينسى ظاهرَ أنّها بشرية قبل أن تنقدح شرارة التنشئة الاجتماعية لتعطيها مضمونا خاصا.

أسال الاستدلال على هذه الأطروحة مِدادا كثيرا نجد عُصارته في آخر مؤلّفات تشومسكي (2016) الموسومة بعنوان لا يخلو بدوره من إشارات وتنبيهات: "أيّ نوع من المخلوقات نحن؟". حين تصبّ دراسة الكلمات والعبارات اللسانية في مجرى البحث عن جواب لهذا السؤال، تكون اللسانيات قد تقدّمت في مضمار العلوم التفسيرية.

فهرس المراجع

العربية

- ابن جنيّ، أبو الفتح عثمان. **شرح كتاب التصريف للمازني**، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، القاهرة،دار مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1954.
- ابن عصفور، أبو الحسن علي الإشبيلي. **الممتع في التصريف**، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1970.
- ابن يعيش، موفق الدين يعيش ابن علي. **شرح المفصّل للزمخشري**، بدون تحقيق، بيروت، عالم الكتب، بدون تاريخ.
- ابن يعيش موفق الدين يعيش ابن علي. **شرح الملوكي في التصريف لابن جنيّ**، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، المكتبة التجارية، 1973.
- الأستراباذي، رضي الدين. **شرح الشافية ابن الحاجب**، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد زفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1975.
- بلبول، محمّد. **بنية الكلمة في اللغة العربية: تمثيلات ومبادئ**، الرباط، مؤسسة فكر، 2008.
- بروكلمان، كارل. **فقه اللغات السامية**، ترجمة رمضان عبد التواب، الرياض، منشورات جامعة الرياض، 1977.
- جستس، دفيد. **محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية**، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الرياض، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1425هـ الموافق 2004م.
- رومان، أندريه. "في اختلاف جنس العدد وجنس المعدود المضاف إليه"، ضمن مؤلف جماعي: **مجالات لغوية: الكليات والوسائط**، عبد القادر الفاسي الفهري (محرّر)، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994.



- السغروشني، إدريس. **مدخل إلى الصواتة التوليدية**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1987.
- السغروشني، إدريس. "حول الاشتقاق"، ضمن مؤلف جماعي: **تقدم اللسانيات في الأقطار العربية**، عبد القادر الفاسي الفهري (محرّر)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991.
- شاهين، عبد الصبور. **المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية جديدة في الصرف العربي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1980.
- عبده، داود. **أبحاث في اللغة العربية**، بيروت، مكتبة لبنان، 1973.
- عبده، داود. **دراسات في علم أصوات العربية**، الكويت، مؤسسة الصباح، 1979.
- عبده، داود. "الماضي والمضارع أيهما مشتق من الآخر؟، مجلة **تكامل المعرفة**، العدد 9 الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984.
- الفاسي الفهري، عبد القادر. **البناء الموازي، نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1990.
- المدلاوي، محمد. "بنية الكلمة في اللغات الحامية - السامية: بعض القيود العروضية"، أكادير، مجلّة **دراسات**، العدد 5، منشورات كلية الآداب 1991.

الأجنبية

- Brame, M., Arabic Phonology: Implications for Phonological Theory and Historical Semitic, Ph.D. diss., Cambridge, 1970.
- Cantineau, J., La notion de «schème» et son altération dans diverses Langues sémitiques, Semitica, (1950) n 3, 73 - 83. Paris, L'Institut d'études sémitiques du collège de France.
- Chomsky, N., & Halle. M., The Sound Patterrn English, New York, Harper & Row, 1968.

Chomsky, N., What Kind of Creature Are We? New York, Columbia University Press, 2016.

Clements, G. N. & Samuel, J. Keyser, CV Phonology: A generative theory of the syllable, Cambridge, Mass, MIT press. 1983.

Cohen, D., Remarques sur la dérivation nominale par affixes dans quelques langues sémitique, Librairie d'Amérique et d'Orient, A. Maisonneuve, Paris, 1964.

Cohen, D., Etudes de linguistique sémitique et arabe, La Haye - Paris: Mouton, 1970.

Dell, F., Les règles et les sons, Paris, Herman, , 1973.

Dell, F. & J. R. Vergnaud, Les développements récents en phonologie: quelques idées centrales. in ; Forme sonore du langage, F. Dell et al. (Ed.), Paris, Herman, p. 1 - 42,1984.

Dell, F. & M. Elmedlaoui, Syllabic Consonants and Syllabification in Imdlawn Tashlhiyt Berber, Journal of African Languages and Linguistics 7: 105 - 131, 1985.

Goldsmith, J., Autosegmental Phonology, Ph.D. dissertation, Cambridge, MIT. 1976.

Guerssel, M. &, Lowenstamm, J., Classical Arabic Apophony, ms., 1993.

Guerssel, M. &, Lowenstamm, J., Ablaut in Classical Arabic measure I active verbal forms, in; Studies in Afroasiatic grammar, p. 123 - 134, 1996, The Hague: Holland Academic Gaphics.

Kaye, J. &. Lowenstamm, J., De la syllabicité, in ; Forme sonore du langage, F. Dell et al. (Ed.), Paris, Herman, p. 123 - 159, 1984.

Kaye, J., & Lowenstamm, J., & Vergnaud, J. R., Constituent structure and government in phonology, in: Phonology (1990), vol. 7, 193 - 231, Cambridge, Cambridge Universiy Press.



Accessed on 20 october 2008, at: https://doi.org/10.1017/S095.

- Kenstowicz, M., Phonology in Generative Grammar, Cambridge, Mass., Oxford: Blackwell, 1994.
- Levin, J., A Metrical Theory of Syllabicity, Ph.D. dissertation, Cambridge, MIT. 1985.
- Lowenstamm, J., CV as the only syllable type, in; Current trends in phonology, vol. 2, Durant, J. and Laks, B. (Ed.), Salford, 1996.
- Martinet, A.. Elément de linguistique générale, Paris ; Armand Collin; 1960.
- McCarthy, J., Formal Problems in Semitic Phonology and Morphology, Ph. D. diss. Cambridge, MIT, 1979.
- McCarthy, J., A Prosodic Theory of Non - concatenative Morphology, in: Linguistic Inquiry (1981), Vol.12, 373 - 418.
- McCarthy, J., & Prince. A., Prosodic Morphology, Linguistics Department Faculty Publication Series, 13, Massachusetts, Amherst, 1986 (1996).
- Roman, A., La Création lexicale en Arabe: Ressources et limites de la nomination ; Lyon ; PUL. 1999.
- Ségérale, Ph., Une Théorie généralisée de l'apophonie, thèse de doctorat, Paris 7,(1995).
- Watson, Janet C. E., The Phonology and Morphology of Arabic, New York, Oxford University Press, 2002.



نظرية المفاضلة وتجديد توصيف اللغة العربية: تفاعل قيود الصواتة والصرف والتطريز من خلال بعض ظواهر التناغم الصوتي.

د. محمد الفتحي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بفاس،

المغرب.

يعد تجديد توصيف اللغة العربية مدخلا أساسيا لتخطيط ملائم ومفيد لتنميتها وتهيئتها، وأن تخطيطا حديثا للغة يقتضي تجديد أدوات ومفاهيم ومقاربات توصيف نظام هذه اللغة. انسجاما مع هذا المعطى تتناول هذه الورقة انتظام مستويات اللغة العربية من خلال دراسة تفاعل قيود الصواتة والصرف والتطريز، وهي دراسة تندرج ضمن اللسانيات التطبيقية، وتؤطرها فرضيات النظرية التوليدية الحديثة، تقوم على تصور نظري إجرائي لا ينظر إلى قضايا المعجم والصواتة والصرف والتطريز منفصلة عن بعضها البعض، بل تنطلق من فرضية تقاطعها وتفاعلها وفق حساب لساني صرف قابل لوصف وتحليل وتفسير جديد، بتوظيف أدوات نظرية وإجرائية حديثة.

محورها تفاعل المستويات وانتظامها والعلاقات النسقية الرابطة بينها، انطلاقا من إشكالية أساسية نصوغها كالآتي:

كيف تتفاعل مستويات الصواتة والصرف والتطريز من خلال بعض ظواهر التناغم الصوتي في اللغة العربية ؟ تتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة:

ما مظاهر التفاعل بين قيود الصواتة والصرف والتطريز؟ ما السبيل إلى توصيف ذلك وتفسيره؟ أي أدوات نظرية وإجرائية من شأنها تيسير هذه العملية؟ كيف ينتظم

مستوى الصواتة والصرف والتطريز؟ ما هي القيود العاملة من خلال مسارات التناغم الصوتي؟ وكيف تشتغل القيود وتتفاعل؟ ما طبيعتها وما العلاقات الرابطة بينها؟ وما الآثار الناجمة عن تفاعلها؟ أي دخل (input) محتمل لعملية التناغم وكيف يمكن المفاضلة بين الاحتمالات الممكنة على مستوى الخرج (output)؟ وما هي التغيرات التي تطرأ على الأصل خلال هذه العملية صواتيا وصرفيا ومعجميا وتطريزيا وكيف تقوم؟

لمعالجة الموضوع ننطلق من مجموعة من الفرضيات تتعلق بالبنية المقطعية، بناء الجذر، انتظام الأبنية الصرفية وتفاعل المستويات، وفق فرضية تفاعل القيود (contraints interaction) ونعتمد في تناول هذه القضايا نظرية المفاضلة "optimality theory"[1].

1- نظرية المفاضلة: مفاهيم، مبادئ، أسس.

بلورت نظرية المفاضلة جهازا مفاهيميا جديدا، يساهم في تطوير وتجديد اللغة والواصفة في الخطاب اللساني المعاصر، وصاغت أدوات نظرية وإجرائية تمثل حلقة أساسية من حلقات تطور النظرية اللسانية الحديثة، إذ بقدر ما توجد بينها وبين النظرية المعيار قواسم مشتركة تتمثل في مفهوم النحوي الكوني، البنية السطحية، التوليد، التمثيل المجرد، فإنها تطور المشروع اللساني التوليدي، وتقدم تصورا مختلفا لبنية النحو ووظائفه، وتبلور نظرة جديدة لانتظام وهندسة مستويات اللغة، عمل القيود، مسألة التناغم والانسجام، الفصاحة، الثقل والخفة. مما يعطي للقضايا والظواهر التطريزية وضعا مهما في التحليل والوصف اللساني، ضمن ثنائية: المبادئ الكونية/ الخصوصية اللغوية. تمكن من تجديد توصيف اللغة من منظور حديث، يوفر أرضية لتطوير تخطيطها وإعدادها. وفي المقابل يمكن ذلك من اختبار الكفاءة

---

(1) من الأعمال المؤسسة لنظرية المفاضلة:

Joost dekkers.Frank vander L. Jeroen van de weijer. 2000. Optimality théory: phonology.syntax and acquisition.

McCarthy , j&P. Prince, A (1993b). « prosodic morphologie: constraint interaction and satisfaction ».

Prince , A&P. Smolensky(1993). « optimality theory: constraint interaction in Generative Grammar ». René Kagr. Optimality theory..1999.

والقدرة الوصفية والتفسيرية للنظرية و توسيع مجالها التطبيقي، والمشاركة في النقاش حول قضاياها وحدودها ونجاعة آلياتها في الوصف والتفسير.

تتناول نظرية المفاضلة قضايا التناغم الصامتي والمصوتي في اللغات الطبيعية من خلال تفاعل القيود وتنازعها تبعا لخطاطة القيود "the constraint schema"، وفق منظور هرمي، وهي لا تشتغل منعزلة عن بعضها البعض بل ضمن علاقة تفاعلية.كما تنشط بشكل متزامن تبعا لمفهوم التزامن المحلي[1] "local conjunction"، الذي يدعم قوتها. كما يتجلى البعد الهرمي في ترتيب القطع من حيث الجهارة، إذ ترتب في سلم مختلف الدرجات، فتقاس درجة انسجام القطعة في علاقتها بباقي القطع. ويتجلى في ترتيب الأشكال المولدة على مستوى الخرج، حسب درجة انسجامها وسلامة بنائها. من ثمة فمفهوم التناغم والانسجام في عملية التأليف بين القطع ليس محصورا في القطعة ذاتها وفي مكوناتها الداخلية فقط، بل يتعداه ليشمل الآثار الناجمة عن عملية التأليف من حيث التجانس، الخفة والانسجام، وتجنب التنافر والثقل. ليطرح سؤال أساسي: كيف توظف نظرية المفاضلة البنية الداخلية للقطع والمقاطع في توصيف وتحليل وتفسير التناغم والانسجام؟ وما هي الإبواليات التي تقترحها في تناول الظاهرة؟

تعتمد مجموعة من القيود الكونية، تصنفها إلى مجموعات[2]:

قيود وسم "markedness constraint": تمثل محددات وخصائص بنية الشكل المفضل، صواتيا، صرفيا، تطريزيا وتركيبيا.

قيود مطابقة "faithfulness constraint": تفرض المطابقة بين الدخل والأشكال المولدة منه على مستوى الخرج.

قيود التوازي "alignement constraint": تقتضي هذه المجموعة أن تحاذي هوامش المقولات الصرفية والتطريزية من الخرج، نظيرتها في الدخل.

---

(1) McCarthy ,J.(2002) Athematic guide to optimality theory.p17.

(2) McCarthy , j&P. Prince,A (1993b) « prosodic morphologie: constraint interaction and satisfaction ».p: 3- 34.

يجسد تفاعل القيود البعد والمبادئ الكونية في عملية التأليف في مستواها الصوتي والصرفي والتطريزي والتركيبي، وتعكس أيضا معطيات وملامح خصوصية اللغة. فما يمثل أعلى الترتيب في لغة ما، قد يحتل أسفل الترتيب في لغة أخرى:

(1)

اللغات	القيود
النحو الكوني	{ق1، ق2،ق3.......ق ن}
لغة "أ"	{ق 1>> ق2 >> ق>> 3.......ق ن}
لغة "ب"	{ق2 >>ق 3>> قن >> ق1}
لغة "ج"	{ق 2>> ق1 >> ق ن >> ق3[1]}

تبعا لهذه الفرضيات، فالقيود كونية، بينما ترتيبها هو نابع من اللغة الخاصة. وفق هذا التصور تمكن نظرية المفاضلة من إبراز البعد الكوني والطابع الخاص لعملية التأليف بين الأصوات عبر التفاعل بين القيود ومن خلال ترتيبها في إطار هرمي. لذا يشكل ترتيب القيود على ضوء تفاعلها عنصرا أساسيا في عملية الوصف والتفسير في هذه النظرية.

من مبادئ نظرية المفاضلة أن كل القيود قابلة للخرق ويصنف خرق القيد إلى نوعين، أحدهما مسموح به ويكون في حدود دنيا، وخرق فادح غير مقبول، وأن القيود التي تتعرض للخرق بشكل قوي من خلال الوقائع اللغوية، يتم وضعها في أسفل هرم الترتيب، أما القيود التي تشبع بشكل أفضل ولا تتعرض للخرق تكون حاكمة وبالتالي توضع في أعلى الترتيب[2]. وفق ذلك، فالتحاليل والأشكال المرشحة التي تستجيب للقيود الحاكمة تحظى بالأفضلية، أما تلك التي تخرقها فتستبعد لكونها تخل بسلامة البناء. ومع ذلك إذا ما أبدت أشكال مرشحة نفس الاستجابة للقيود الحاكمة يتم اللجوء إلى القيود الموجودة في أسفل الترتيب للحسم في عملية المفاضلة.

---

(1) يفيد الرمز >>، علاقة التحكم بين القيود، القيد المتواجد يمينها حاكم للقيد المتواجد يسارها.

(2) René Kagr.(1999) Optimality theory.p: 3- 25.

من هذا المنطلق تقدم نظرية المفاضلة كبرنامج بحث توليدي حديث محوره الأساس، تفاعل القيود لتحقيق سلامة البناء في النظام اللغوي، وفق حساب لساني دقيق، يراعي القيود التي تشبع وتلك التي تخرق ونوع الاستجابة والخرق وعدده. ويعيد بناء العلاقة بين مكونات النظام اللغوي وينظم هندسة مستوياته وفق علاقة التحكم "dominance"، والتفاعل، متجاوزا الوظيفة التأويلية التي يقوم بها المكون الصوتي لخرج المكون التركيبي في النظرية المعيار. ليصبح للمكون الصواتي والتطريزي دور حاسم في تفسير السيرورات اللغوية واقتراح مصفاة على شكل أدوات لتقويم سلامة البناء. ويعيد نموذج المفاضلة النظر في مسارات الانتقال من التمثيل المجرد إلى التمثيل الصوتي، بتجاوز الاعتماد على مسار أحادي تضبطه القيود، إلى مسارات متعددة تتيح توليد مخرجات عدة من دخل واحد، بطريقة حرة غير مقيدة، تستبدل القواعد والتمثيل الخطي بما يسمى في نظرية الربط العملي(نقل α)، فأقامت علاقة جديدة بين عناصر ثنائية الدخل/ الخرج، حيث يولد الدخل احتمالات مرشحة "candidate" عدة، تعمل القيود على اختيار أجودها، وفق مفهوم إشباع القيود والحد الأدنى للخرق[1]:

(2)

مُوَلِّد(Gen) (دخل أ) ⟵ الخرج: (خ1، خ2.....خ ن)

مُقَوِّم (Eval)(مرشح 1، مرشح 2.........) خرج محقق.

تتأسس نظرية المفاضلة على مجموعة من مبادئ[2]:

1- الخرق "violation": كل القيود قابلة للخرق، شريطة أن يتم ذلك في الحدود الدنيا.
2- الترتيب "ranking"، ترتب القيود على شكل هرمي، قائم على علاقة التحكم بينها، وفق مقتضيات الخصوصية اللغوية.

---

(1) Ibid. p: 8.
(2) McCarthy , j&P. Prince,A (1993b).ibid,p: 5.

3- التضمن "inclusiveness": تفاضل هرمية القيود بين مجموع المخرجات والاحتمالات الممكنة، بمراعاة سلامة التكوين.

4- التوازي "parallelism": أفضل إشباع لهرمية القيود بالنظر إلى جميع مكوناتها، وجميع الاحتمالات المرشحة.

تضبط الدخل من منظور المفاضلة أنساق القيود الكونية والتي يمكن إغناؤها بقيود إضافية[1]، ترتب ترتيبا يختلف من لغة إلى أخرى، وفق نوعية الاستعدادات النحوية لتلك اللغات نحو مقتضيات النحو الكوني.

تعتمد نظرية المفاضلة مجموعة من المفاهيم الأساسية، منها:

مفهوم الدخل "input"، وهو كل مكون لساني يمكن اعتماده أساس عملية اشتغال الوظيفة المولدة.

مفهوم الاحتمال المرشح: كل الاحتمالات كأشكال مولدة من الدخل، وكل التحاليل الممكنة،المرشحة للمفاضلة، تقوم بناء على نسق القيود والاحتكام للرصيد اللغوي[2] "invontory" للغة المعنية.

مفهوم الخرج المحقق actuel output: يمثل الاختيار الأفضل من بين الاحتمالات المرشحة لذلك.

يتم اختيار الخرج المحقق وفق شرط الحد الأدنى للخرق، والإشباع الأفضل لنسق القيود. مع ضمان تناظر وتطابق أقصى بين الدخل والخرج[3].

وفق هذا التصور يتأسس النحو على وظيفتين أساسيتين، وظيفية توليدية "generator fonction"، ووظيفة تقويمية "eval fonction"، الأولى تنتج وتولد

---

(1) عملنا في دراسة سابقة على إثراء نسق القيود المعتمدة في النظرية بقيود إضافية من خلال دراسة بعض قضايا النظام الصرفي للغة العربية:

محمد الفتحي. 2007. الأبنية في اللغة العربية. تفاعل الصرف والتطريز.

(2) McCarthy ,J.(2002) Athematic guide to optimality theory.p:69

(3) Ibid. p: 19.

الاحتمالات المرشحة انطلاقا من الدخل، أما الثانية فتعمل على تقويم سلامة بنائها، وتنتقي الخرج الأفضل.

2- التناغم الصوتي وتفاعل قيود التجهير والتهميس:

تقدم وقائع لغوية مختلفة، حالات عدة لأوجه وسيرورات التناغم الصوتي في اللغة العربية، قوامها تقريب صامت من آخر، من خلال عمليات كالتجهير "voicing" والتهميس "devoicing" على شكل مماثلة جزئية تخص سمة الجهر وسمة الهمس، وهو ما يندرج حسب القدماء ضمن:

"**تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام**"[1]. ذلك أن بعض الصوامت لا تختلف فيما بينها إلا من حيث الجهر والهمس، فتقتضي عملية المماثلة إجراء التهميس لجعل المجهور قريبا من المهموس، وإجراء التجهير لجعل المهموس قريبا من المجهور[2]، نصوغ القيد كالآتي:

(3)

إجراء تجهير صامت مهموس في سياق صامتي مجهور. **إجراء تهميس المجهور في سياق صامتي مهموس.**

يعبر عن هذه العملية في النموذج المعيار[3] عبر قواعد (نموذج مماثلة تراجعية):

(4)

[+مجهور] [_مجهور]	_	← /	[_مجهور]
[_مجهور] [+مجهور]	_	← /	[+مجهور]

---

(1) ابن جني، أبو الفتح عثمان، (1957). الخصائص، ج 2 ص: 141.

(2) كبور، عبد الله. (1995).وصف غير خطي لمماثلة الجهر في اللغة العربية.

(3) Chomsky, N & M. Halle. (1968) «the Sound Pattern of English».

أما في النموذج المستقل القطع[1] والهندسي[2] فتعتمد إجراءات الاقتراف، فك الاقتران، وعملية الامتداد، في مجال المقطع، الكلمة التطريزية مع الانضباط لشرط المجاورة. تتخذ العملية شكل مماثلة تامة (تذكر - اذكر) أو مماثلة غير تامة (ازتان - ازدان)، وفي كلتي الحالتين يتم تغيير قيمة ملمح الجهر. كما ينجم عن التهميس مماثلة جزئية (اجتزت - اجتست)، أو مماثلة تامة (نبذت - نبت). المحصلة مماثلة في اتجاهين يمين/ يسار "مماثلة تقدمية"، ويسار/ يمين، "مماثلة تراجعية". وأن هناك قطعة مؤثرة وأخرى هدف، وأن السمة محور العملية هي الثنائية جهر/ همس. وفق مبدأي عدم التماثل وعدم التجانس في تشكيل الجذر والبناء[3].

تقدم نظرية المفاضلة مجموعة من القيود تنتقي الاحتمال المفضل وتفسر طبيعة العملية والآليات التي تضبطها. ففي حالة التجهير يخرق قيد مطابقة الهمس، وقيد منع حذف ملمح، ويحدث العكس بالنسبة لحالة التهميس، فيخرق قيد مطابقة الجهر، وقيد منع حذف ملمح.

(5)

مقتضيات قيود المطابقة:

قيد مطابقة (الجهر): مطابقة الخرج للدخل فيما يخص معطى الجهارة.
قيد مطابقة (الهمس): مطابقة الخرج للدخل فيما يخص معطى الهمس.
قيد منع حذف ملمح: منع حذف ملمح من عناصر الدخل المشكلة للخرج.
قيد المطابقة العام: مطابقة الخرج للدخل في جميع خصائصه.

(1) هاري فان درهالست. نورفال سميث, الفونولوجيا التوليدية الحديثة. ترجمة مبارك حنون. أحمد العلوي, 1992, منشورات سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

(2) Clements ,George ,N(1985). The geometry of phonological feature.
Sagey,Elizabeth. C(1986). The representation of features ana relations in non – linear phonology.

(3) محمد الوادي. بناء الجذر في المعجم العربي.

تتجاوز الظاهرة حدود اللغة العربية، من ثمة تبدو مبادئ نظرية المفاضلة، بطابعها الكوني، أكثر ملاءمة، وإن كان تشخيص التحول يشكل نقطة اتفاق بين النظرية المعيار ونظرية التمثيلات ونظرية المفاضلة، فإن إيواليات المعالجة والتوصيف والتفسير مختلفة.

يخضع الصامت المجهور في بعض اللغات (روسية، ألمانية، هولندية، بولندية) لقيد منع صامت مجهور في نهاية المقطع، حيث (b/d/g تصبح (p/t/k)[1]. وهو قيد وسم تدعمه مجموعة من الوقائع اللغوية، وتجعله في رتبة عليا حاكما لقيد المطابقة، لما يفرضه من تغيير يطال نوع الملامح وقيمها، فتتنازع قيود الوسم والمطابقة، وفي اللغة العربية تقتضي عملية المماثلة التضحية بعدم المطابقة بين الدخل والخرج من خلال تعديل قيم الملامح ومنع توالي صامتين في مقطعين متواليين أحدهما مهموس والآخر مجهور، في حين تجمع بينهما مواضع نطق مشتركة،كما هو الحال بالنسبة للتاء والدال. إذ يقتضي تغيير قيمة ملمح

[الجهر] لتحقيق المماثلة.

(6)

/ازتهر/ ⟵ [ازدهر][2] :

/ازتهر/	المطابقة	منع حذف قطعة	منع حذف ملمح	إجراء التجهير	مطابقة(جهر)	مطابقة(همس)
☜ازدهر	*		*			*
ازتهر				*		
ازهر	*	*	*			*
اتهر	*	*	*	*	*	

(1) McCarthy ,J.(2002).ibid. p: 111.

(2) تفيد العلامة: *، خرق القيد، وتتعدد بتكراه، أما العلامة ☜ فتشير إلى الاحتمال المفضل من بين الاحتمالات المرشحة. وتشير العلامة/ / إلى هامشي التمثيل المجرد، أما العلامة .[.]فتحيل على التمثيل المنطوق والمحقق.

كما يحدث في مجموعة من اللغات، يحتل قيد الوسم المتعلق بمنع توالي ملمحي الجهر والهمس في قطعتين لهما نفس مواضع النطق[1]، مرتبة عليا، يحسم المفاضلة بين الأشكال المرشحة ويجعل الاحتمال الأول خرجا محققا وأفضل احتمال مرشح للمفاضلة. رغم أنه يخرق قيد المطابقة بين الدخل والخرج، نظرا لما يعتمد من تعديلات تمس الدخل، ويخرق قيد منع حذف ملمح، لأنه تم محو ملمح [الهمس]، وهو اختيار يشبع قيد مطابقة (الجهر)، أما الاحتمالات الأخرى فهي أقل انسجاما، حيث يوضع الاحتمال الثالث والرابع في أسفل الترتيب لخرقهما مجموعة من القيود إضافة إلى قيد حاسم تمثل في قيد أمن اللبس. ليصبح قيد إجراء التجهير في سياق محدد مسنودا بقيد أمن اللبس الذي يبعد أي احتمال مرشح للمفاضلة إذا ما سبب اللبس فضلا عن تدعيمه من قبل قيد منع الثقل. أما قيد المطابقة فيحتل أسفل الترتيب لكونه يتعرض للخرق دون أن تكون له قوة حسم المفاضلة بين الأشكال المولدة من الدخل، ويكون الترتيب كالآتي:

قيد أمن اللبس، قيد منع الثقل، قيد إجراء التهميس، قيد إجراء التجهير>>قيد المطابقة، قيد منع حذف ملمح، قيد مطابقة(الهمس)، قيد مطابقة (الجهر).

تبعا لهذا المعطى تختلف مقاربة ظاهرة التناغم الصوتي في اللغة العربية، وفق مفهوم القيود وتفاعلها عن المقاربة القائمة على فرضيات النظرية المستقلة القطع من حيث الأدوات والمفاهيم التي تمثل أحد عناصر اللغة الواصفة[2].

سيرورات المماثلة والإدغام.

يجسد الإدغام مظهرا من مظاهر التناغم الصامتي، يمر عبر مقتضيات مماثلة تطال الصوامت، قدم القدماء تبريرات نطقية لهذه العملية، واعتبروا تجاور المثلين كالنطق بالصوت

---

(1) René Kagr.(1999).ibid. p: 325- 327.

(2) كبور، عبد الله. (1995).وصف غير خطي لمماثلة الجهر في اللغة العربية.

الواحد مرتين من نفس الموضع، حيث يتم **ارتفاع اللسان عنهما دفعة واحدة من غير وقف على الأول، ولا فصل بحركة ولاروم**[1].

يترتب عن ذلك ثقل ملحوظ لتكرار المجهود العضلي المبذول في نطق الصوت مرتين، مما يسوغ الإدغام لينطق بالمثلين دفعة واحدة كما ينطق بالصوت المفرد. يطال الإجراء نفسه الصوتين المتقاربين. وذلك عبر إجراءات مفصلة، فعلى مستوى المثلين يسكن الأول إذا كان متحركا ويدغم في الثاني. وبالنسبة للمتقاربين، يتم تسكين الأول إن كان متحركا وتقريب أحدهما من الآخر، تقريب الأول من الثاني أو تقريب الثاني من الأول لنحصل على المماثلة لإجراء الإدغام. مما يحقق شرط التجانس والتقارب. لكن تتعذر العملية في مجموعة من الحالات، ففي الإلحاق للزيادة وظيفة صرفية تطريزية، تضبطها من منظور نموذج المفاضلة مجموعة من القيود، خاصة قيد المطابقة الصورية وهي تحقيق التطابق بين الخرج "الملحق" والدخل "الملحق به" وقيد التوازي والمحاذاة الذي ينص على أن يحاذي الهامش الأيسر/ الأيمن من الأصل، الهامش الأيسر/ الأيمن من الخرج. وهناك قيد أقصى الطرف الذي يقتضي وقوع الزيادة في أقصى هامش الدخل. وهي قيود تبرز مظاهر مختلفة لتفاعل مستويات الصواتة والصرف والتطريز ضمن هندسة قائمة على التفاعل.

(7)

[جلبب]= [فعلل]:

/ جلبب/	المطابقة	محاذاة الهامش الأيسر	محاذاة الهامش الأيمن	أقصى الطرف	استنساخ أقصى للأصل	إجراء الإدغام
☜جلبب						*
جلب	*	*		*	*	

[1] ابن الجزري، محمد الدمشقي. النشر في القراءات العشر.ج1، ص:278.

يتنازع في هذه الحالة قيد صواتي يقتضي الإدغام لتحقيق الخفة والانسجام، و قيود الصرف والتطريز التي تمنعه، وما دام الخرج المحقق والذي هو ضمن الرصيد المعجمي للعربية يرجح تفضيل خرق قيد إجراء الإدغام على خرق قيد المحاذاة والمطابقة، لنحصل على الترتيب التالي:

قيد المحاذاة، قيد المطابقة >> **إجراء الإدغام.**

يختلف هذا التوصيف عن التوصيف في النموذج المعيار والذي يعالج حالة الإدغام بتطبيق آليات الصواتة المستقلة القطع، كإجراء يفك اقتران المثل الثاني بحيزه الصامتي، ثم امتداد المثل الأول واقترانه بحيزين، وهي عملية تستلزمها مقتضيات مبدإ النطاق الإجباري[1].

تقاسم الصوامت في العربية مجموعة من الملامح ويتميز بعضها بملامح لا توجد في غيرها، الميم والنون لهما غنة ليست في الباء مثلا، وتتميز الراء بالتكرار، من ثمة قد يترتب عن الإدغام جراء المماثلة فقدان قطعة لبعض ملامحها الأساسية، ويترتب عن ضرورة تسكين المدغم وتحريك المدغم فيه حتى لا تتوالى السواكن، وهو ما يعبر عنه في نظرية المفاضلة بتفادي خرق متعدد لقيد ملء نواة المقطع، الذي يقتضي أن تكون جميع المكونات النووية للمقطع محققة وغير شاغرة[2]:

(8)

كل المواقع المقطعية يجب أن تملأ بمادة قطعية ولا تترك شاغرة: *

(1) Bohas, George.(1991) Le PCO, la composition des Racines et conventions d'Associations.

(2) Caroline Féry and Ruben Van de Vijver(2008) Syllable in optimality theory.Cambridge university press.p: 7. 99.

(9)

/ مَدَد/ ⟵ [مدّ]:

/ مَدَد/	منع الثقل	ملء النواة	أقصى الطرف	إجراء الإدغام	المطابقة
☞ مَدّ			*		*
مْدْد	*	**		*	
مَدَد	*			*	
مَدْد	*	*		*	

يخرق الشكل المفضل قيد ملء النواة مرة واحدة ويحقق الخفة عبر الإدغام الذي وقع في أقصى الطرف استجابة للقيد. بينما يخرق الاحتمال الثاني قيد ملء النواة خرقا فادحا، أما الثالث فلا يخرق ملء النواة لكنه يتضمن ثقلا نطقيا لعدم إجراء الإدغام. ويرتب الاحتمال الرابع في أسفل سلم الانسجام لأنه لا يشبع قيد الملء ولا قيد منع الثقل. لذا يبدو قيد إجراء الإدغام حاكما لقيد الملء النواة ولقيد المطابقة ضمن تفاعل مستويي الصواتة والتطريز:

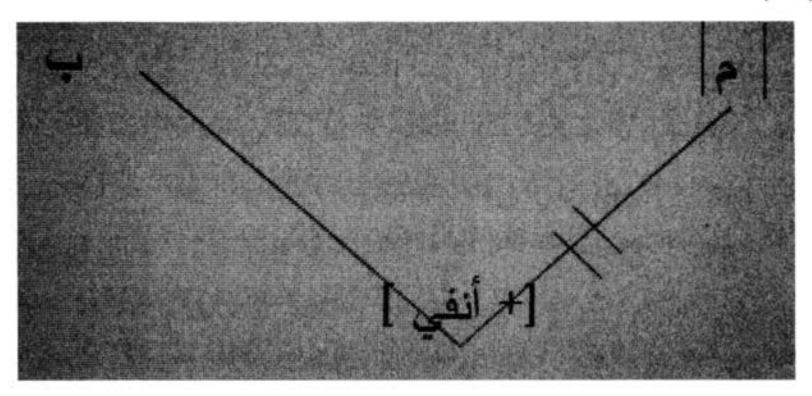
قيد إجراء الإدغام >> قيد الملء النواة، قيد المطابقة

للمماثلة التي هي أساس الإدغام شروط صوتية لها ارتباط بالبعد النطقي والخصائص الفيزيائية للصوت، وشروط سياقية تتحقق بالتجاور، في مقابل موانع صرفية وتطريزية تجسد تفاعل المستويات اللسانية.

رغم عدم توفر سياق الإدغام وشروطه يتيح تفاعل القيود توفيرها، لذا تنشط عدة قيود في سيرورات الإدغام، الإخفاء، القلب المتعلقة بالنون والميم. وهي مسارات صوتية متداخلة تشكل اختبارا للأدوات المعتمدة في وصفها وتفسيرها. فالنون يتميز بملمح: [طرفي]، [أنفي]، ويميز الميم بملمح: [شفوي]، [أنفي]. فماهي أوجه التغيير التي تطال سيرورة إدغام الميم والنون؟ وكيف تتفاعل القيود في توجيهها؟

وفق فرضية القدماء تتضمن الميم والنون ملامح أساسية، وملامح زائدة[1] تتمثل في سمة الأنفية، يتيح ذلك فرضيتين ضمن الإجراءات المستقلة القطع، فرضية امتداد الملمح [أنفي]، وفرضية إقصاء العناصر غير المتماثلة في القطعة المجاورة لتتحقق المماثلة وبعدها الإدغام. ينطبق هذا التحليل على حالة الإخفاء في اللغة العربية حيث تنتفي النون ويرسو ملمحها على الصامت اللاحق، يعبر عن هذا الإجراء كالآتي:

(10)



تصف الإيواليات المستقلة القطع حالة الإخفاء بتطبيق مبدأ النطاق الإجباري الذي يحظر تجاور عناصر متماثلة في نفس الطبقة، في هذه الحالة ينطبق على ملح النطق الشفوي في كل من الميم والباء، وتمتد الباء إلى الحيز المجاور، وعليه يرسو ملمح [+ أنفي] ليصير الإخفاء محو جزء من ملامح النون وإعادة اقتران ملمح الأنفية بالباء، بعد تطبيق مبدإ النطاق الإجباري فضلا عن إجراءات الاقتران، الفك، الامتداد ثم الرسو "anchrage"، من منظور نظرية المفاضلة الإخفاء بغنة سيرورة تفاعل مجموعة من القيود:

---

(1) ابن الجزري، المرجع نفسه،ج 1، ص: 278.

امبراطور/	المطابقة	مطابقة(انفي)	مطابقة(شفوي)	إجراء الإدغام	منع حذف ملمح
☜امبراطور				*	
براطور(م.ن)	*		*		*

إن الاحتمال الذي يعتمد إخفاء الميم في الباء ورسو ملمح الأنفية عليها أكثر انسجاما من الاحتمال الآخر، كما أن الاحتمال الذي يمكنه أن يلجأ إلى إبدال الميم باء أو إبدال الباء ميما مع عدم إجراء الإدغام يتسمان بثقل توالي مثلين، مما يتيح بناء ترتيب هذه القيود وفق ما يلي:

إجراء الإدغام، المطابقة (انفي)، المطابقة(شفوي(>> منع حذف ملمح، المطابقة.

يمثل الإدغام مظهرا من مظاهر التناغم الصوتي[1]، له مسارات مختلفة، تتجلى بالنسبة للميم والنون، في الإخفاء، الإدغام بغنة وبغير غنة، أو القلب في مقابل الإظهار. يوفر ذلك نطاق تفاعل مجموعة من القيود تختلف مراتبها في سلم الترتيب. فإذا كانت حالة الإظهار هي الأصل، لا تعرض الدخل لأي تغيرات، مما يمكن من الاستجابة لقيود المطابقة: مطابقة الملمح الأساس والزائد في كل من الأصل وما يولد منه، وقيد مطابقة (شفوي) بالنسبة لإظهار الميم حيث لا يتعرض لحذف، وقيد مطابقة (انفي) وهو ملمح يظل حاضرا في كل حالات الإدغام؛ في مقابل حالة إخفاء الميم التي تضحي بملمح(شفوي)، أما في حالة إخفاء النون فيتم محو الملمح (طرفي) معرضا هذا القيد للخرق[2]. خلافا لحالة إدغام المثلين وهي

(1) تقدم اجتهادات مختلفة في تناول الظاهرة، منها المستقلة القطع ومنها تلك التي توظف مفاهيم مقطعية وتطرزية: محمد التاقي التكرار الصامتي والتعاقب الصائتي في اللغة العربية.

(2) دافع روني كاجر عن البعد الكوني لهذه القيود:

René Kagr.(1999).ibid. p: 79- 81.

تخرق قيد المطابقة، وقيد منع حذف قطعة، لأن قطعة وهي المثل الأول تتعرض برمتها للحذف، بما في ذلك الملامح الأساسية والملامح الزائدة. وفي حالة القلب يشبع قيد المطابقة(انفي)، وتتحول القطعة إلى أخرى تتيح المماثلة لإجراء الإدغام، وفي جميع هذه الحالات تحتل القيود: قيد إجراء الإدغام، قيد المطابقة(انفي)، قيد المطابقة (طرفي)، قيد المطابقة(شفوي)، موقعا أعلى في سلم الترتيب بالمقارنة لقيد المطابقة بين الدخل والخرج، وقيد منع الحذف، الذي يتعرض للخرق عند فناء أحد المثلين في الآخر، أو إقصاء جزء من ملامحه كما في عملية الإخفاء والقلب، وهناك مستوى آخر لخرق قيد منع الحذف، يحدث عند تسكين المثل الأول، وهو عبارة عن حذف مصوت يحتل موقع النواة من المقطع.

التفخيم والترقيق كمظهر من مظاهر التناغم الصوتي.

يعد ترقيق الراء وتفخيمها من ظواهر التناغم الصوتي البارزة في اللغة العربية، أثارت الاهتمام في الدرس الصوتي العربي القديم واهتمام علماء القراءات القرآنية. ترتبط بسياق محدد يترتب عنه تأثير صوتي، يوفر معطيات غنية لتطبيق مجموعة من القواعد من منظور الصواتة المعيار، حيث وجود عنصر متحول وآخر مؤثر، وسياق مجاورة قد يكون صارما، وقد يكون الفاصل قطعة تسمح بالامتداد أو قطعة تمنعه، يعبر عن هذه العملية في النموذج المعيار عبر قواعد من قبيل:

(12)

[+ ممكرر] ⟵ [+ مكرر] / كسرة _

[+ تقدم ج اللسان] / _ كسرة

تجسد القاعدة مظهرا من مظاهر التناغم الصوتي، على شكل تقريب صامت من صائت، وقد تتخذ شكل تقريب صامت من صامت، فالوقائع اللغوية التي تمثل المخزون اللغوي تقدم عينات لترقيق الراء وتفخيمها وهي ساكنة أو مكسورة أي ضمن مقطع نواته شاغرة أو يشغله صائت له ملمح [+عال]، [-خلفي]، إذا كان أساس العملية في الدرس

القديم الرغبة في تحقيق السهولة والخفة في النطق وتجنب الثقل والتنافر، يظل هذا التصور وتصور النموذج المعيار محليا "local" يهتم بالتحول في مواضع بعينها، مع الجنوح نحو الوصف أكثر من التفسير. وتوظف المقاربة الصواتية الحديثة إيواليات دقيقة لمعالجة مسارات هذه العملية تتمثل في سياق المجاورة، الامتداد، الاقتران، الوجهة، في إطار تمثيلات المستقلة القطع. وتدخل الصواتة المتعددة الأبعاد مفاهيم تطريزية في عملية التوصيف، من خلال مراعاتها مجال العملية وارتباطاتها بالمقطع ومكوناته، كما يغنى النموذج الهندسي للملامح دراستها ضمن مجموعات وفصائل تقترن بمواقع الهيكل وبعجرة الجذر، بالإضافة إلى وجود عجرة التجويف (حلقي، فموي، أنفي)، وعجرة الملامح الختامية، وذلك ضمن هندسة تبرز الأعضاء المتدخلة في العملية باعتبارها امتدادا، وتوضح الملامح الأساسية المعنية بالتأثير أو التحول وموقعها ضمن التمثيل الهندسي، وبالتالي استخلاص القوانين التي تضبطها[1]. غير أن هذه المقاربات تعترضها صعوبات تعدد القواعد وشروط تطبيقها، وتعدد الوسائط «paramètres» التي تفرضها حالات الاستثناء وعدم الاضطراد، نظرا لتعدد سياقات ترقيق الراء وتفخيمها، وتنوع القطع المجاورة (صوامت كياء المد، الياء الساكنة، الصوامت المستعلية، الفتحة، الكسرة، الضمة)، واختلاف طبيعة المجاورة فهي تارة مباشرة وتارة غير مباشرة، فيرجح التأثير والتحول الملمحي ويقوى كلما احترم قيد المجاورة الصارمة.

تستفيد نظرية المفاضلة من النماذج السابقة وما توفره من معطيات تتعلق بالبنية الداخلية للقطع وسيرورات التغيير التي تطالها على مستوى الملامح، أخذا بعين الاعتبار العلاقات النطقية بين الراء والكسرة والياء، إذ يلاحظ دور الملمح [طرفي] بالنسبة للراء والياء، ونشاط تقدم جذر اللسان والملمح [+عال]، [-خلفي] بالنسبة للكسرة، عند الترقيق. بينما يسجل في حالة التفخيم تأثير الفتحة والضمة من خلال الملمح [+خلفي]، وملمح الاستعلاء ونشاط ظهر اللسان: [+تراجع ج اللسان]، وفي كلتا الحالتين ينشط قيد المطابقة، قيد مطابقة(تقدم ج اللسان)، قيد مطابقة(تراجع ج اللسان).

---

(1) محمد العلوي.(2015)، نظرية هندسة السمات الصواتية. نحو تنظيم هرمي لمكونات الفونيم.

يتخذ التناغم في هذه الوقائع شكل تناسب صوتي يتيح خفة في النطق، وهو نطاق تفاعل مجموعة من القيود. يستدعيها قيد إجراء التفخيم، وقيد إجراء الترقيق.عند الترقيق يستجاب لهذا القيد، لكن يتم خرق إجراء التفخيم إذ يلاحظ بينهما علاقة تنازع واضحة، فإشباع أحدهما يخرق الآخر،ويخرق قيد مطابقة (تراجع ج اللسان)، وهناك أيضا قيد منع الترقيق المتمثل في وجود صامت له ملمح الاستعلاء، وفي حالة التفخيم يستجاب للقيد الذي يتطلبه، بينما يتم خرق المطابقة بين الدخل/ الخرج، وقيد المطابقة (تقدم ج اللسان). يواجه نموذج القيود أيضا صعوبات إزاء تعرضها لحالات عدم اطراد اشتغال النسق، ووجود سيرورة خاصة[1] 'rocesse specific' توقفها، لكونها تعالج مسارين، الأول يرجح تعديل الدخل وخرق قيد المطابقة صيانة لما تقتضيه قيود الوسم إجراء الترقيق، إجراء التفخيم" التي تتضمن خصائص وشروط تتعلق بالبنية الصوتية، وأنها تكشف التأرجح بين ترجيح قيود الوسم فتكون حاكمة وفي أعلى هرم الترتيب، أو ترجح قيود المطابقة فتوقف عملية الترقيق لوجود موانع ترجح الحفاظ على الدخل دون تغيير فيحتل قيد المطابقة أعلى هرم الترتيب متحكما في قيد الوسم.

الانسجام والتناغم الصوتي من خلال عمليات الحذف والاجتلاب.

تتخذ عمليات الحذف والاجتلاب في اللغة العربية مظهرا من مظاهر التناغم الصوتي، لها أبعاد قطعية متعلقة بمحتواها الصوتي والصواتي، وأبعاد مقطعية تطريزية بالنظر إلى الأحياز التي تشغلها هذه العناصر في المجالات والمكونات التطريزية، جراء التغيرات الطارئة عليها.كما لها أبعاد صرفية حسب طبية العنصر المجتلب من حيث وظيفته الصرفية والمعجمية، مما يشكل نطاق تفاعل قيود مستويات الصواتة والصرف والتطريز. من الوقائع اللغوية التي تندرج ضمن هذا المحور، التقاء الساكنين، اجتلاب همزة الوصل ومنع تتابع الصوائت «hiatus» بشكل مخل بسلامة البناء.

---

(1) McCarthy ,J.(2002).ibid. p: 98.

تتيح معاينة وقائع لغوية تتعلق بهمزة الوصل في العربية، استخلاص منع بدء الكلمة بمقطع نواته شاغرة،أي منع البدء بمقطع يخرق قيد ملء النواة 'fill onset'، يتم إنقاذه من خلال استراتيجية اجتلاب 'insertion' عنصر يخفف من خرق القيد الموضعي، وذلك في أقصى الطرف، أي بمحاذة الهامش الأيمن من الكلمة. يترتب عن هذا المعطى أن قيد ملء النواة حاكم لقيد منع الاجتلاب[1] 'dep' وفق الترتيب التالي:

قيد ملء النواة >> قيد منع الاجتلاب

وفق هذا التحليل تجتلب همزة الوصل لتخفيف حدة خرق قيد مقطعي في الموقع الاستهلالي من المقولة الصرفية المتمثلة في هذه الحالة في الكلمة، تبعا لذلك فإن لهذه الهمزة وظيفة صواتية تطريزية، تكشف تفاعل مجموعة من القيود، ذات طبيعة مختلفة:

(13)

/ نْكَسَر/ ⟵ [إِنْكَسَر]:

/ نْكَسَر/	المطابقة	قيد التجزئ	منع الاجتلاب	ملء النواة	قيد الصدر	أقصى الطرف
☜إِنْـــكَسَر	*		*	*		
<نْ>كَسَر		*		*		
نْكَسَر				*		
أ نْكَسَر	*		*	**!	*!	
ِنْكَسَر	*		*	*		

وفق أدوات ومفاهيم التوصيف والتحليل اللساني لنظرية المفاضلة، يبرز المثال تنازع مجموعة من القيود في تقويم الاحتمال الأفضل من بين مجموعة من الاحتمالات المرشحة لذلك والمولدة بحيرة من الدخل. وتؤكد وقائع اللغة العربية أن الخرج المحقق هو الشكل الذي يتضمن اجتلاب همزة الوصل، يجسد هذا المعطى الاحتمال الأول وهو يحمل إشارة الفوز

(1) Ibid. p: 130.

بالأفضلية (☜)، لكن عملية الاجتلاب جعلته يختلف عن الدخل المجرد من تلك الزيادة، الشيء الذي جعله يخرق قيد مطابق الدخل. كما يخرق قيد عدم الاجتلاب الذي هو من عدة القيود الأساسية التي تشتغل بها نظرية المفاضلة، ورغم أنه يبقي على خرق ملء النواة فإنه يظل خرقا طفيفا مقبولا، فخرقه في هذه الحالة أفضل من خرقه في المقطع الاستهلالي من الكلمة، الذي هو قيد يحتل رتبة عليا في هرمية ترتيب القيود. الاحتمال الثاني يخرق قيد التجزئ "parse" الذي يقتضي أن تجزأ مقطعيا كل القطع والمكونات التطريزية وإلا كانت عرضة للحذف، ويخرق أيضا قيد المطابقة وقيد ملء النواة.

الاحتمال الثالث مطابق للدخل غير أنه يقصى بسبب خرقه لقيد ملء النواة الموضعي. يستبعد أيضا الاحتمال الرابع الذي اجتلب صامتا فقط عبارة عن همزة ساكنة، فخرق قيد ملء النواة وقيد ملء النواة خرقا فادحا تمت الإشارة إليه بتكرار علامة الخرق وكذلك علامة(!) تفيد فداحة الخرق. لم يحظ الاحتمال الأخير بالأفضلية ورتب أسفل سلم الانسجام، فهو اكتفى باجتلاب مصوت فقط تكرر معه خرق ملء[1] الصدر وخرق ملء النواة في الموقع الاستهلالي

من الكلمة. تبعا لذلك تقوم سلامة البناء على حساب لساني عددي ونوعي مرتبط بتفاعل قيود الوسم وقيود المطابقة.

لقد حظي وضع همزة الوصل بالاهتمام والنقاش قديما وحديثا، نظرا لاعتبارات تطريزية وفق ما يستفاد من الجدول السابق نعتبرها زيادة لها وظيفة صواتية مقطعية، هي على شكل مقطع. ص مص.

ضمن هذا التصور يرتبط مسار التقاء الساكنين في العربية بتوالي صومت دون أن تفصل بينها صوائت، تجعلنا أمام توالي أحياز مقطعية عبارة عن صدور "onsets"، يترتب عنها خرق قيد ملء النواة، فيتم اجتلاب مصوتات للحيلولة دون الخرق، مما يترتب عنه خرق المطابقة الذي يبدو أنه يحتل أسفل رتب سلم القيود. نعبر عن هذا المعطى كالآتي:

قيد ملء النواة >> قيد منع الاجتلاب، قيد المطابقة

---

(1) Ibid.p: 130.

يظهر قيد منع الاجتلاب في تفاعل مع قيد منع الحذف 'max'، فعملية بناء المقولات الصرفية والوحدات المعجمية، تعتمد الاجتلاب أحيانا، كما تعتمد الحذف الذي يطال صامتا أو مصوتا أو هما معا، مما يوازي حذف مقطع برمته.

تناولت عدة أعمال حديثة توالي المصوتات في مجموعة من اللغات والقيود التي تضبطها، في العربية أيضا لا تخضع الحركات لتوزيع حر، بل تقبل تعاقبها في تتابع حركتين قصيرتين على شكل مصوت طويل، ما عدا ذلك يعد إخلالا بسلامة البناء. ووفق فرضية قالب تطريزي على شكل سلسلة المقاطع.ص مص. توالي المصوتات يعرض قيد ملء الصدر للخرق، إذ يقتضي هذا القيد أن يكون موقع الصدر في كل مقطع غير شاغر، وتعدد الحركات يفيد توالي مصوتات عبارة عن أنوية للمقطع بدون صدور مقطعية. في هذا الإطار يتم اعتماد مجموعة من الاستراتيجيات لتخفيف الخرق، عبر تحويل أحد المصوتات علة وهو ما يندرج ضمن وقائع القلب والإعلال. نتناول في هذا السياق مثالا لعدم جواز الإعلال والاستغناء عن العلة، نظرا لما يترتب عن ذلك من إخلال بسلامة البناء:

(14)

/ مقاومة/	المطابقة	إجراء الإعلال	منع الاجتلاب	ملء النواة	ملء الصدر	منع الحذف
☜مُقاوَمة		*	*			
مُقاامَة	*				**!	
مُقامَة	*				*	*

يرتب الاحتمالان الأخيران في أسفل سلم الانسجام لونهما يخرقان القيود بشكل كبير، فالشكل الأخير لا يحقق المطابقة مع الدخل ويستغني عن العلة ويبعد لأنه يخل أيضا بشروط أمن اللبس. أما الاحتمال الثاني فيتضمن تولي مصوتات تسبب خرقا فادا لقيد ملء النواة، فيرجح الاحتمال الأول للفوز بالمفاضلة لكونه يبدي استجابة أفضل لنسق القيود الضابطة لسلامة البناء. كما يتضح من وجهة نظر التحليل القائم على مفاهيم وأدوات نظرية المفاضلة أن اجتلاب همزة الوصل، وعدم جواز الإعلال أحيانا، أو اجتلاب مصوت لتفادي

تتابع الصوامت المعبر عنه في الدرس القديم بمنع التقاء الساكنين سيرورات صواتية تشكل نطاق تفاعل مجموعة من القيود وتخضع لنفس إيواليات التوصيف والتحليل.

تطور المقاربات وتجديد لغة التوصيف اللساني.

تتنوع ظاهرة التناغم الصوتي في اللغة العربية، وتختلف من حيث طبيعتها ومظاهرها وسيروراتها الصوتية والصواتية، تعتمد مسارات عدة، تتضمن الإدغام، القلب، الإخفاء، الترقيق، التفخيم، الإمالة، التجهير، التهميس، الحذف، الاجتلاب. وتتخذ شكل مماثلة قد تكون تامة كحالة الإدغام، أو جزئية (حالة الترقي)، وقد تطال القطعة برمتها أو بعض ملامحها، وقد تمس الصوامت أو الصوائت أو هما معا.

لقد شكلت موضوع اهتمام الدرس الصوتي العربي القديم من خلال خطاب لساني يقدم توصيفا يتميز بجهازه المفاهيمي ومرجعياته اللغوية وأدواته في التحليل والتفسير. إذ عمل القدماء على تصنيف هذه الظاهر وتحديد طبيعتها وشروطها وأسبابها وعملوا على تقديم تبريرات صوتية لسيروراتها، كما تناولوها ضمن تصور متكامل لهندسة مستويات التحليل اللساني بأن وضعوها ضمن مجال التصريف وهو ما يسميه جورج بوهاس (التصريف 2) [1] بوصفه مقابلا لمفهوم الصواتة حاليا. ولقد أقام بعض اللسانيين مقارنة بين تلك المقاربة والتحليل المعتمد في الصواتة التوليدية المعيار. ووظف الدرس الصواتي والصرفي الحديث آليات مختلفة قوامها تعدد أبعاد ومستويات التمثيلات.

وإذا كان التناغم مفهوم صوتي يجسد تبادل التأثير والتأثر بين عناصر ومكونات المستويين الصواتي والصرفي في سياقات محددة بغية تحقيق التقريب بين الأصوات على مستوى القطع والملامح، وتحقيق التجانس والانسجام في عملية التأليف بينها، وتفادي التنافر والثقل. تقدم نظرية المفاضلة أدوات دقيقة تجدد توصيف وتفسير عملية التناغم وتعدد مستوياتها، وفق حساب لساني مضبوط يشكل تطورا مهما في مجال الصواتة الحديثة سواء

---

(1) Bohas, G. (1982) contribution à l'étude de la méthode des Grammairiens Arabes en Morhologie et en phonologie: d'après certains Grammairiens tardifs.p: 27.

بالنظر إلى النموذج المعيار أو النموذج المستقل القطع. فإن كانت الصواتة المعيار توظف القواعد والحدود وعمليات الاجتلاب والحذف والتحويل الذي يطال الملامح والقطع، تعتمد المقاربة المستقلة القطع مفهوم التمثيل المتعدد الطبقات، فتخصص لكل من اللحن الصامتي، اللحن الصائتي، القالب، الزوائد، طبقات مستقلة، ويعمل النموذج التطريزي وفق مفهوم تفاعل المستويات الصواتية والصرفية والتطريزية، على تخصيص طبقات مستقلة لوحدات وعناصر المكون التطريزي الذي يضم المقطع وموكوناته المتمثلة في الصدر، النواة، القفل، القافية، باعتبار عمليات التناغم بقدر ما ترتبط بالقطع والملامح، لها أبعاد تطريزية لكونها تجرى في مجالات وعناصر المكون التطريزي كالمقطع والكلمة التطريزية وفق هرمية محدد، اقترح مكارثي (1988-1986) McCarty هرمية تضم المورة، المقطع، التفعلة والكلمة التطريزية:

(15)

W
|
ع
|
Ó
|
μ

كما برهن فودج Fuddge منذ 1969 على أن كل تعبير لساني ينتظم في نمطين من التنظيم الصرفي، الأول صرفي تركيبي والآخر صواتي. ووسعت سلكورك (1981 - 1986 - 1990) نطاق هذه الهرمية فبرهنت على البناء الهرمي للمجالات التطريزية باعتباره مستقلا عن الهرمية الصرفية التركيبية يضم بالإضافة إلى العناصر السابقة، الجملة الفونولوجية، المركب التنغيمي والملفوظ الفونولوجي[1]. مما يشكل إغناء وتجيدا للوصف اللساني. يدعم ذلك فرضيات الصرف التطريزي التي تتأسس على انتظام عناصر المستوى

---

[1] هاري فان درهالست. نورفال سميث، المرجع نفسه، ص: 42.

الصوتي والصواتي في بناء هرمي صرفي تطريزي يضبط عملية التأليف بين الأصوات ومختلف التغيرات الطارئة عليها.

تكشف هذه الإمكانيات الوصفية أن عملية التناغم امتداد متعدد الأبعاد، قبلي، بعدي، أحادي الاتجاه، ثنائي الاتجاه، قد يكون بين صامتيا، بين صائتيا، وبين الصوامت والصوائت. وقدمت نظرية هندسة الملامح توصيف مختلفا للظاهرة بالنظر للتصور الهندسي الجديد للتمثيل وعناصره ومكوناته التي تشمل مجموعة من العجر كعجرة الهيكل، عجرة الجذر، عجرة الفصائل وعجرة الملامح الختامية، ويظهر المستوى من التمثيل الذي تتم فيه عملية التناغم، وعمليات المماثلة والتقريب وفق ضوابط تتمثل في الشروط conditions، المبادئ principes، والوسائط الخاصةparamètres. يعد هذا التوصيف تصورا توليديا حديثا، ينبني على نظرة هندسية للملامح، قائمة على بناء هرمي متعدد المستويات، تنتظم فيه الملامح كأصناف مترابطة وفق مفهوم الفصائل والعجر، ينظر إلى القطع من حيث خصائصها النطقية والفيزيائية، فتصنف إلى فصائل تبعا لمتغيراتها إزاء العمليات الصوتية المتعلقة بالمماثلة والانسجام والتناغم لتحقيق سلامة البناء، وبذلك إذا كان هذا النموذج يقترب من النموذج المستقل القطع باعتماده إيواليات الاقتران، الامتداد، حظر تجاور المثلين، الوجهة، فأنه يقترح تمثيلا هندسيا للملامح وفق تصنيف قائم على مفهوم الفصائل وبذلك يختلف عن النموذج المعيار القائم على القطع، الحدود، القواعد، السياق، ومصفوفات الملامح. في حين تعمل نظرية المفاضلة على بلورة توصيف مختلف قائم على مفهوم القيود وتفاعلها وتفاعل المستويات اللسانية.

خلاصة:

تتخذ ظاهرة التناغم الصوتي في اللغة العربية أبعادا متنوعة، عبارة عن سيرورات processus، تقتضي عمليات مختلفة، حصرنا الاهتمام في هذه الورقة في بعض حالات المماثلة والإدغام، حالات التجهير والتهميس، الترقيق والتفخيم والحذف والاجتلاب، كمسارات مختلفة، لكنها تعتمد إجراءات متماثلة، هدفها تقنين توالي الصوامت وتوالي المصوتات. وانتهينا إلى أن هذه الوقائع تشكل مجالا خصبا لتفاعل القيود التي تعمل على ضبط سلامة البناء. وهي بذلك أيضا، نطاق تفاعل مستويات الصواتة، الصرف والتطريز، توفر نظرية المفاضلة لغة واصفة جديدة من حيث المفاهيم والمصطلحات والمبادئ والأسس، تجسد حلقة مهمة من حلقات تطور التوصيف اللساني في الدرس الصواتي والصرفي الحديث. من خلال الانتقال من المقاربة القائمة على القواعد والتمثيل الخطي من منظور النموذج التوليدي المعيار، والمقاربة المتعددة الأبعاد في إطار الصواتة المستقلة القطع والصواتة العروضية. إلى تصور نظري ومنهجي يقوم على تفاعل القيود. ورغم تشعب أبعاد ظاهرة التناغم الصوتي في اللغة العربية واختلاف مساراتها، فهي وفق نظرية المفاضلة تخضع لنفس الأدوات بوصفها ظاهرة موحدة من حيث طبيعتها ومن حيث الآليات المتحكمة فيها. وأنها تجسد أرضية خصبة لتجديد توصيف قضايا وظواهر النظام اللساني للغة العربية. ويتيح ذلك من جهة ثانية اختبار الأدوات النظرية والمنهجية لنظرية المفاضلة، والعمل على توسيع مجالها التطبيقي، والمساهمة في إثرائها وإغنائها، لذا يشكل تجديد توصيف اللغة العربية، مدخلا أساسيا لتطوير تخطيطها والارتقاء بتهيئتها وفق المتطلبات الوظيفية المتجددة.

مراجع باللغة العربية

- ابن الجزري، محمد الدمشقي. النشر في القراءات العشر. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان, (1957). الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت. لبنان.
- جورج ن، كليمنتس، صامويل ج.كايزر. في نظرية المقطع في الفونولوجيا التوليدية. ترجمة مبارك
- حنون وأحمد العلوي. مجلة العرب والفكر العالمي. العدد 29/ 1992.
- حنون، مبارك. (1994). "المد والسكون". مجلة التواصل اللساني، المجلد 6، العددان 1 - 2.
- كبور،كريم الله. (1987)"الأبعاد النظرية لظاهرة الانسجام الصوتي في اللغة العربية". وقائع الندوة الدولية الأولى للسانيات بالمغرب. الدار البيضاء.
- كبور، عبد الله. (1995).وصف غير خطي لمماثلة الجهر في اللغة العربية. أبحاث في اللسانيات العربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك الدار البيضاء.
- محمد العلوي.(2015)، نظرية هندسة السمات الصواتية. نحو تنظيم هرمي لمكونات الفونيم.
- محمد التاقي(1992). التكرار الصامتي والتعاقب الصائتي في اللغة العربية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال.
- محمد الوادي(1992). بناء الجذر في المعجم العربي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس.
- هاري فان درهالست. نورفال سميث, الفونولوجيا التوليدية الحديثة. ترجمة مبارك حنون. أحمد العلوي, 1992, منشورات سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

مصادر ومراجع باللغة الفرنسية والإنجليزية.

- Bohas, G.(1991) Le PCO, la composition des Racines et conventions d'Associations,
- BEO, XL III.
- Bohas, G. (1982) contribution à l'étude de la méthode des Grammairiens
- Arabes en Morhologie et en phonologie: d'après certains Grammairiens tardifs.Presse universitaire, Lille.
- Chomsky, N & M. Halle. (1968) « the Sound Pattern of English » New York: Harper and Row.
- Clements ,George ,N(1985). The geometry of phonological feature. Phonology yearbook 2 (1985) pp: 225 - 252.
- Joost dekkers.Frank vander L. Jeroen van de weijer. (2007) Optimality ambri: phonology.syntax and acquisition. Oxford linguistics.
- McCarthy , j&P. Prince,A (1993b) « prosodic morphologie: constraint interaction and satisfaction ». Retgers university center for cognitive science.
- Sagey,Elizabeth. C(1986). The representation of features ana relations in non - linear phonology. P.H.D Thesis. MIT.
- McCarthy, J. « prosodic organisation in morphology » M. Aronoff &.oehrle(eds),language sound structure(1984). ,pp.299 - 317.
- McCarthy ,J.(2002) Athematic guide to optimality theory.cambridge university press.
- Prince , A&P. Smolensky(1993). « optimality theory: constraint interaction in Generative Grammar » .(1993).rutgers university , center for cognitive science.
- René Kagr.(1999) Optimality theory. ambridge university press.

اللغة العربية والدلالة المعرفية

الفضاء في اللغة نموذجا

أ.د.أبو بكر العزاوي

المغرب

قبل الحديث عن الدلالة المعرفية (La sémantique cognitive) وصلتها باللسانيات العربية، لابد من التعريف بالعلوم المعرفية بشكل عام، واللسانيات المعرفية بشكل خاص. العلوم المعرفية هي العلوم التي تدرس موضوع "المعرفة" (la cognition) وليس موضوع المعارف (les connaissances)، والفرق بينهما كالآتي: المعارف (أي الفيزياء والأدب والموسيقى والتاريخ والفلسفة...) مكتسبة ولا يشترك فيها جميع الناس، أما المعرفة (أو المعرفية كما يسميها البعض)، فجزء منها فطري وجزء مكتسب. والعلوم المعرفية تشمل المنطق والرياضيات واللسانيات وعلم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب والمعلوميات وغيرها. وهذه العلوم تدرس "المعرفة" أي الكفاءة المعرفية وكيفية تنظيم المعلومات في الذهن البشري وتخزينها وكيفية اشتغالها وفهم المشكلات وحلها واتخاذ القرارات اللازمة بشأنها، وقد ظهرت هذه العلوم مع الثورة المعرفية التي ظهرت في أواخر القرن الماضي. وتدرس هذه العلوم مواضيع من قبيل اللغة والإدراك والفهم والفضاء والحركة والمَقوَلة والاستعارة والذاكرة والاستدلال وغيرها.

واللسانيات المعرفية علم من العلوم المعرفية، وفرع من فروع اللسانيات الحديثة، وترتبط هذه النظرية، من منظور تاريخي، بمجموعة من الدراسات والأبحاث التي ظهرت في منتصف السبعينيات على يد لسانيين وعلماء نفس أمثال إليانور روش (E.Rosch) 1977، وجورج لايكوف (G.Lakoff) 1982، ولايكوف ومارك جونسن (1980)

ولانكــــاكير (Langacker) 1987، وتــــالمي (L.Talmy) 2000، وجيـــل فوكـــونيي (G.Fauconnoer) 1984 وكلود فاندلواز (C.Vandeloise) 1986 وآخرين.

وكلها أعمال وبحوث ودراسات تلتقي، رغم اختلافها، حـول مجموعـة مـن المبـادئ المعرفية والأسس النظرية والمنهجية التي تعتبر اللغة ظاهرة معرفية بامتياز، أي تعتبرهـا ظـاهرة ذهنية نفسية إدراكية، ولا يمكن فهمها إلا في ارتباطها وعلاقتهـا بـالظواهر المعرفيـة والذهنيـة الأخرى المرتبطة بطبيعة المَقوَلة (Lacatégorisation) البشرية الطبيعية، وبمختلف الوسـائل والآليات والاستراتيجيات التي تحدد علاقة الإنسان بعالَمه الذي يعيش داخله.

والفرضية الأساسية الـتي تقـوم عليهـا اللـسانيات المعرفيـة تتمثـل في أنهـا تنفـي أن يشتمل الذهن على ملكة لغوية مستقلة، (أو نحو كلي مستقل)، وهذا يناقض مـا تـذهب إليـه اللسانيات التوليدية التحويلية وزعيمها نعام تشومـسكي، ومـع ذلـك، فـإن رواد اللـسانيات المعرفية لا ينفون بتاتا أن جزءا من الملكة اللغوية عنـد الإنـسان (أو مـن قدرتـه اللغويـة) هـو فطري، ولكنهم ينفون أن يكون هذا الجزء منفـصلا ومـستقلا عـن بقيـة الأجـزاء والعناصـر المعرفية والإدراكية الأخرى.

وتقوم اللسانيات المعرفية على فرضـيات أخـرى، ومنهـا أن معرفـة اللغـة تنشأ مـن استخدامها.

واللسانيات المعرفيـة هـي التيـار اللـساني الـسائد حاليـا، فقـد تجـاوزت اللـسانيات التوليدية التحويلية واللسانيات الوظيفية، وقد ظهـرت في الوقـت الـذي ظهـرت فيـه الثـورة المعرفية والثورة الرقمية واقتصاد المعرفة ومجتمع المعلومات.

وتقوم اللسانيات المعرفية أيضا على مبدأين اثنين:

- عدم استقلال التركيب عن الدلالة.
- عدم استقلال اللغة عن الذهن والعالم.

والدلالة المعرفية التي هي موضوع بحثنا هذا فرع من فروع اللـسانيات المعرفيـة، وقـد جاءت ثورة على الدلالة البنيوية والدلالـة التوليديـة التحويليـة بالخـصوص، وركـزت علـى جوانب لم تلتفت إليها النظريات الدلالية السابقة.

ومن المواضيع التي تطرقت إليها الدلالة المعرفية: الاستعارة والفضاء في اللغة والمقولة وغيرها، وسنخصص بحثنا هذا لدراسة مسألة الفضاء في اللغة، ودلالة العبارات الفضائية في اللغات الطبيعية، وما أثاره هذا الموضوع من قضايا وإشكالات.

الفضاء في اللغة:

لقد عرفت الدراسات والبحوث المتعلقة بدلالة العبارات الفضائية (فوق، تحت، يمين، شمال، أمام، خلف...) تطورا ملحوظا في أوربا وأمريكا، بل إن هذه الدراسات شكلت أحد المباحث الأساسية والمتميزة في الدلالة المعرفية الحديثة. وفي هذا الإطار أثيرت مجموعة من القضايا والتساؤلات المهمة، سواء ما ارتبط منها بمفهومي المعنى والدلالة بصفة عامة، أو ما تعلق بدلالة الحروف والظروف المكانية والعبارات الفضائية[1].

ويهمنا من هذه الأسئلة ما يتعلق بالفضاء في اللغة الطبيعية (L'espace dans lalangue)، والإمكانيات التي تتوفر عليها اللغات البشرية للتعبير عن الفضاء، وتحديد مواقع الأشياء ومواقع المتكلمين، وتعيين الخصائص الفضائية للأشياء المراد موقَعتها، أي تحديد موقعها ومكانها، وبعبارة أخرى: كل التساؤلات التي يكون موضوعها علاقة الإنسان بالفضاء.

ويمكن أن نذكر من هذه الأسئلة ما يلي: كيف نصف الفضاء اللغوي؟ وكيف نحدد مكان شيء معين وموقعه؟ وكيف نصف الخصائص الفضائية للأشياء المقصودة (شكلها وامتدادها في الفضاء)؟ وما هي المناهج المثلى لدراسة الفضاء اللغوي؟ هل نعتمد المناهج الهندسية والرياضية أم نعتمد المناهج اللسانية المعرفية الوظيفية؟ وهل الفضاء اللغوي مماثل للفضاء الهندسي؟

---

(1) اعتمدنا بخصوص كثير من الأفكار الواردة في هذا البحث، بشكل أساسي على ما ورد في الفصول الأولى من كتاب كلود فاندلواز المعنون بـ (الفضاء في الفرنسية)، وهو كتاب ترجمناه إلى العربية منذ ما يقرب من 20 سنة، ولم ينشر حتى الآن، وسينشر قريبا إن شاء الله، واعتمدت أيضا على المحاضرات التي كنت ألقيها على طلبة الإجازة (فرع اللسانيات)، بجامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال، في مادة الدلالة المعرفية منذ 1991، واعتمدنا على مراجع أخرى.

ولماذا نستعمل ببساطة، وبشكل عادي ومألوف عبارة مثل (الحصاة أمام المنزل)، ونقبل (أو لا نقبل) بصعوبة بالغة جدا عبارة من قبيل: (المنزل خلف الحصاة)؟... إلخ.

هذه الأسئلة وغيرها، تبين لنا تعدد الجوانب المتعلقة بدراسة الفضاء اللغوي، وتعقيدها في آن واحد، وتبين لنا العلاقة الثلاثية القائمة بين الإنسان واللغة والفضاء، فاللغة، كما يقول جون لاينز (J.Lyons): "تعكس التركيب البيولوجي للإنسان، ومسكنه الطبيعي الأرضي، وطريقة تنقله، بل حتى شكل جسده وخصائصه (...)، إننا نحيا ونتنقل بطريقة عادية فوق سطح الأرض (وليس في الماء أو الهواء)، ونحن نقوم بذلك بشكل عادي وفي وضع منتصب، وهذا يمنحنا وسائل تعيين أحد أبعاد فضاء ثلاثي الأبعاد، ويمنحنا في الوقت نفسه نقطة الصفر الثابتة والمحددة على سطح الأرض"[1].

ولهذا فإن العلوم كلها عالجت موضوع الفضاء، فقد درس في الهندسة والرياضيات والمنطق والفيزياء والفلسفة واللسانيات المعرفية وغيرها من المعارف والعلوم، وبالنسبة للغة، فإننا نجد الفضاء في الحروف والظروف والأدوات والأفعال والصفات والاستعارات، وبعبارة أخرى، نجده في جل الظواهر اللغوية بشكل أو بآخر.

الفضاء اللغوي ومناهج التحليل:

عندما تطرح مسألة دراسة الفضاء في اللغة الطبيعية، فإن الأسئلة التي تفرض نفسها علينا في البداية هي كالآتي:

ما المقاربة التي يمكن أن نعتمدها في دراسة الفضاء اللغوي؟ وما المنهج الذي يمكن أن يقدم لنا وصفا أفضل للعبارات الفضائية؟ إن ما يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة هو أن المناهج المثلى لدراسة الفضاء في اللغة هي المناهج الهندسية والرياضية والمنطقية بوصفها مناهج علمية صارمة، وبوصفها تتيح لنا إنجاز دراسات وصفية دقيقة وموضوعية[2]، وعندما

---

(1) انظر الفصل الذي يحمل عنوان (العبارات الفضائية) من كتاب جون لاينز: (الدلالة اللسانية):
J. Lyons: la sémantique linguistique, Ed. larousse, Paris. 1989, P: 311.

(2) انظر كتاب (الفضاء في الفرنسية) الصفحة: 11.

نستعمل عبارتي (المنطق) أو (الهندسة)، فنحن لا نقصد منطقا خاصا بعينه، أو هندسة معينة، ولكننا نقصد المناهج العامة، ونقصد الأوصاف والمقاربات التي تعتمد المفاهيم الهندسية والطبولوجية والمنطقية العامة، أي التي تتوسل بأدوات فضائية محضة مثل مفاهيم المسافة (La distance) والاتجاه (La direction) والبعد (La dimension)... إلخ.

إن وصفا يعتمد المفاهيم والمناهج الهندسية والرياضية والمنطقية يسعى إلى أن يكون مجردا وموضوعيا، ويسعى بالتالي إلى أن يكون مستقلا عن المتكلم والسياق، ومستقلا كذلك عن وظيفة الأشياء الموقعة في الفضاء[1].

ويمكن أن نشير هنا إلى أعمال كوبر (S.G.Cooper) (1968) وليتش (G.leech) (1969) وبنيت (Bennet) (1975) وكلارك (H.H.Clark) (1973) وهاوكينس (Hawkins) وغيرهم ممن يتبنى هذا الموقف، فهؤلاء يدرسون الفضاء في اللغة بالطريقة التي يدرس لها الفضاء في الهندسة أو الرياضيات أو الفيزياء وغيرها من العلوم الدقيقة، ويعتمدون نفس المفاهيم والأدوات العلمية والإجرائية المعتمدة في تلك الحقول العلمية والمعرفية.

إننا نسلم بأهمية المفاهيم الهندسية والرياضية والمنطقية في دراسة الفضاء اللغوي، إلا أن البحوث والدراسات اللغوية التي تعتمد هذه المناهج العلمية دون غيرها، والتي تكتفي باستعمال المفاهيم المشار إليها آنفا (المسافة، الاتجاه، البعد)، تبقى قاصرة وغير كافية، ولا تقدم لنا معونة كبرى في إبراز خصائص الفضاء اللغوي، ولا في تحديد دلالة العبارات الفضائية والظروف المكانية، ولا تبين لنا ما الذي يمكن أن نستفيده من دراسة استعمالاتها بخصوص الطريقة التي تبنين (structurer) بها الفضاء.

والشيء نفسه نقوله بالنسبة لمفهوم التضمن (L'inclusion) الذي تعتمده المقاربة المنطقية لوصف الحرف (في) في اللغة العربية، أو ما يقابله في اللغات الأجنبية (dans, in,...)، ومعلوم أن هذه الأداة تفيد الظرفية والوعائية.

---

(1) المرجع السابق.

لقد حاول مجموعة من اللسانيين، وخاصة الذين يشتغلون في إطار اللسانيات المعرفية بشكل عام، والدلالة المعرفية (La Sémantique cognitive) بشكل خاص[1].

بيان أن المقاربة الهندسية الرياضية المنطقية قاصرة وغير مناسبة لدراسة الفضاء في اللغة الطبيعية، وأن المقاربة اللسانية المعرفية الوظيفية التي تعتمد مفاهيم لسانية معرفية من قبيل: (المتكلم هو مركز الإحالة، التسرب إلى الإدراك، خط النظر، خصائص الأشياء الموقعة....) هي الأجدى والأفضل، وهي الأنسب لدراسة الفضاء اللغوي.

وقد قدم اللساني البلجيكي كلود فاندلواز في كتابه (الفضاء في اللغة الفرنسية) نموذجا جيدا، لهذه المقاربة اللسانية المعرفية الوظيفية. وكتابه هذا هو أطروحته للدكتوراه التي أشرف عليها اللساني الفرنسي المعروف جيل فوكونيي (G.Fauconnier) أحد رواد اللسانيات المعرفية، وصاحب نظرية الفضاءات الذهنية (Espace mentaux). وكلود فاندلواز هذا لساني وباحث في الرياضيات والهندسة، وقد استفاد من تخصصه في هذين العلمين: اللسانيات والرياضيات، واستفاد أيضا من أعمال رواد اللسانيات المعرفية بشكل عام، ومن الذين تخصصوا في دراسة الفضاء اللغوي بشكل خاص، فاهتدى إلى اقتراح نموذج لساني معرفي لدراسة الفضاء في اللغات الطبيعية، وهو نموذج يعطي الأولوية للمفاهيم اللسانية الوظيفية التي أشرنا إليها من قبل، أما المفاهيم الهندسية والمنطقية فلا يتم إهمالها بتاتا، ولكنها مفاهيم ثانوية أو تأتي في المرتبة الثانية (ونقصد طبعا مفاهيم المسافة والاتجاه والبعد والتضمن).

وسنحاول الآن أن ندرس المفاهيم الهندسية من خلال تطبيقها على اللغة العربية.

ونبدأ بمفهوم البعد (La dimension)، والمقصود هنا تبيين أبعاد الموضوع الحرفي. ونميز - تبعا لهذا - بين الحرف ذي البعد الواحد (unidimensionnel)، مثل الحرف (at) في اللغة الأنجليزية والحرف (à) في اللغة الفرنسية، وبين الحرف الثنائي مثل (على/ فوق" في العربية و "on" في الأنجليزية، و"sur" في الفرنسية)، والحرف الثلاثي الذي له ثلاثة أبعاد (الطول

---

[1] انظر أعمال كلود فاندلواز بالنسبة للغة الفرنسية، وأعمال أبو بكر العزاوي بالنسبة للغة العربية (هناك مقالات منشورة وأخرى مخطوطة).

والعرض والارتفاع)، ونجده ممثلا ب - "في" في اللغة العربية و "in" و "dans" في كل من الأنجليزية والفرنسية. ونجد هذا التحليل عند كلارك (H.H. Clark) في دراسته (الفضاء والزمن والدلالة والطفل) المنشورة سنة (1973) التي شكلت نقطة انطلاق أساسية بالنسبة لدراسة العلاقة بين اللغة والفضاء[1].

والحقيقة أن ما ذهب إليه كلارك غير صحيح، فكل حرف من الحروف الأحادية والثنائية والثلاثية أي (in, on, at) بالنسبة للغة الأنجليزية، أو ما يقابلها في اللغات الطبيعية الأخرى، يمكن أن يستعمل استعمالات عديدة، يكون في بعضها أحادي البعد، ويكون في بعضها الآخر ثنائيا أو ثلاثيا. يمكن أن نستدل على ذلك بالأمثلة التالية[2]:

1 - الراهب في الصف.

2 - البقرة في المرعى.

3 - الحلي في الصندوق.

فالموضوعات الحرفية الواردة في هذه الأمثلة (الصف، المرعى، الصندوق) مختلفة من حيث عدد أبعادها، مع أن الحرف المستعمل فيها هو نفس الحرف (في)، فالموضوع الحرفي في الجملة الأولى (أي الصف) أحادي البعد، وفي الجملة الثانية (أي المرعى) ثنائي، وفي الجملة الثالثة (أي الصندوق) ثلاثي الأبعاد. وإذن التقسيم الذي اقترحه كلارك بين الحروف، والذي يقوم على مفهوم البعدية (La dimensionnalité) غير صحيح وغير ملائم، ولا يصف لنا بدقة استعمالات الحروف والأدوات والعبارات الفضائية، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن مفهوم البعد (La dimension) مفهوم ثانوي وهامشي، ولا يفيدنا كثيرا في وصف الفضاء اللغوي.

ننتقل الآن إلى مفهوم هندسي آخر، وهو مفهوم أساسي بالنسبة لمن يريد أن يدرس الفضاء. إنه مفهوم المسافة (La distance). وقبل ذلك، لابد من الحديث عن مسألة

---

(1) انظر بحث كلارك:

Clark. H.H: (Space, time semantics: and the child) in Moore (T.E), ed, 1973

(2) فاندلواز: الفضاء في الفرنسية، ص: 14.

الموقعة الفضائية (localisation spatiale) والعلاقة الفضائية وعنصري هذه العلاقة، وهما الهدف (La cible)، وهو الشيء الذي نريد تحديد موقعه في الفضاء، والعنصر الثاني هو المصدر (Le site)، وهو الشيء الذي نعتمد عليه لتحديد موقع الهدف، وعادة ما يكون كبيرا ومدركا ومعروفا[1].

والعلاقة الفضائية تتكون من هذين العنصرين: الهدف والمصدر، ولابد منهما في كل موقعة فضائية.

ويمكن التمثيل لهذا بالرسم التالي:

أ ——————— ب

وعلى منوال هذا الشكل تكون المَوقَعات في الهندسة والرياضيات، وتحدد المسافات هنا بشكل موضوعي ومجرد، لأنها تستعمل أدوات قياس معلومة ومحددة مثل الميتر (m) والكيلومتر (km) وغيرها.

لكن السؤال الذي يطرح هنا هو كالتالي: هل ما يجري في اللغة الطبيعية مماثل لما يجري في الهندسة؟ هل تحديد المسافة في اللغة الطبيعية يكون تحديد موضوعيا ومجردا؟ أي إنه يكون مستقلا عن المتكلم والسياق والموضوعات.

وإلى أي حد يسعفنا مفهوم المسافة - باعتباره مفهوما هندسيا - في وصف الفضاء اللغوي؟

نحن متفقون على أن تحديد المسافة في الهندسة يكون موضوعيا ومجردا، ونعتمد في ذلك أدوات القياس المعلومة، لكن هل ما يجري في اللغة هو ذاته الذي نجده في الهندسة؟ وما الفرق بين الفضاء في اللغة والفضاء في الهندسة والرياضيات؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة، أو عن بعضها، ولو بإيجاز من خلال دراسة عدد كبير من الجمل والأمثلة في اللغة العربية، ومن خلال المقارنة بين ما نجده في الهندسة وما نجده في اللغات البشرية وإظهار ما بينهما من فروق.

---

(1) المصدر السابق، ص: 34.

وأول ما نشير إليه بهذا الصدد هو ما يلي: في الهندسة لابد من ذكر عنصري العلاقة الفضائية: الهدف والمصدر: (أ) و (ب) إذا أردنا تحديد المسافة بينهما، ولابد أيضا من قياس المسافة بشكل موضوعي ومجرد، لنستنتج بعد ذلك ما إذا كانت المسافة بين (أ) و(ب) قريبة أو بعيدة.

والسؤال هنا هو كالتالي: هل هذا ما يحصل في اللغة البشرية؟ لنأخذ المثال التالي:

4 - أين المسجد؟

5 - المسجد قريب.

ونلاحظ هنا أن المصدر لم يذكر في الجواب، وإنما ذكر الهدف (وهو المسجد)، والهدف هو ما نبحث عنه، ونريد تحديد موقعه في الفضاء، والمصدر هو الذي يساعدنا على تحديد موقع الهدف، إذن ذكر الهدف في الجواب ولم يذكر المصدر. ونحن نقول: إن كل موقعة فضائية (localisation spatiale) لابد فيها من ذكر المصدر والهدف، وبدون ذكر المصدر لا يمكن تحديد موقع الهدف.

إذن هذه هي الملحوظة الأولى، والفرق الأول، بين ما يجري في الهندسة وما نجده في اللغات الطبيعية. ففي الهندسة لابد من ذكر الهدف والمصدر دائما وأبدا، أما في اللغة الطبيعية فقد يذكر المصدر أو لا يذكر، والغالب والشائع أن لا يذكر، ويكتفي بذكر الهدف، أي الموضوع أو الشيء الذي نبحث عنه، ويهمنا تحديد ومعرفة موقعه داخل الفضاء الذي نوجد فيه، نعم، يمكن أن يذكر المصدر أحيانا، فنقول: (المسجد قريب من هنا)، ولكن هذا نادرا ما يحصل، والشائع هو الاكتفاء بذكر الهدف.

الأمر الثاني هو أن المسافة في هذا المثال غير محددة بشكل موضوعي ودقيق ومجرد، وإذا لم تكن المسافة محددة بشكل مجرد وموضوعي، فمعنى هذا أنها محددة بشكل تقريبي ونسبي وذاتي. والوصف الأخير هو ما يهمنا بالخصوص، فتحديد المسافة في المثال السابق، تحديد ذاتي لا موضوعي، أي أن تحديد المسافة كان ينطلق من ذات المتكلم.

ولهذا وجدنا فاندلواز يقول: إن المتكلم غالبا ما يكون هو مصدر الإحالة، أي هو المصدر (le site). وهذا أول مفهوم أساسي من مفاهيم المقاربة اللسانية المعرفية التي ينبغي

أن تعتمد في دراسة الفضاء في اللغات الطبيعية. فالبنية العميقة للمثال السابق (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا المصطلح الذي ينتمي إلى الشبكة الاصطلاحية للنحو التوليدي التحويلي) هي ما يمكن التعبير عنها بجملة من قبيل: (المسجد قريب مني، أي من المتكلم) أو (المسجد قريب من هنا)، أي من الموقع الذي يوجد فيه المتكلم والمخاطب. فالمصدر هو ذات المتكلم أو موقعه، وهو مصدر ذاتي، وغير موضوعي.

طبعا الإجابات التي يمكن أن يقدمها المجيب للسائل عديدة ومتنوعة، كما أشار إلى ذلك فاندلواز، ونورد بعضها كما يلي[1]:

6 - المسجد قريب.

7 - المسجد قريب من هنا.

8 - المسجد قريب بالقياس إلى المكان الذي نوجد فيه.

إذا درسنا هذه الأمثلة، فسنلاحظ وجود فروق بارزة بينها، ففي الجملة الأولى لم يذكر المصدر، والتحديد هنا ذاتي بشكل كبير، فالمتكلم هو مركز الإحالة وهو المصدر الذي يحدد الهدف. والمثال الثاني أقل ذاتية من الجملة الأولى، فقد اشتمل على عبارة إشارية إحالية، وهي المتمثلة في ظرف المكان (هنا). ولكن المتكلم يظل هو المصدر في هذه الجملة أيضا، والعبارة الإشارية أو ظرف المكان، تحيل إلى موقع المتكلم. والمثال الثالث أقل ذاتية من المثالين السابقين، ويكون التعبير أكثر ذاتية كلما كان بسيطا ومختصرا، أما إذا كان طويلا ومعقدا، كما هو الشأن بالنسبة للجملة الأخيرة فإن الذاتية تقل.

فالقرب، في الأمثلة السابقة، لا يحدد بشكل موضوعي ومجرد، أي أننا نقيس المسافة بالمتر والكيلومتر، وإنما نحدده بشكل ذاتي، فالقرب المقصود هنا هو القرب من المتكلم، أو من موقعه، أي من المكان الذي يوجد فيه، والمتكلم هنا هو المصدر، وهو مركز الإحالة، ويمكن رسم هذه العلاقة الفضائية على الشكل التالي:

المتكلم ⟵⟶ المسجد

---

[1] نفسه، ص: 37.

والذاتية تتجلى هنا في أن المتكلم أصبح أحد طرفي العلاقة الفضائية، والقرب المذكور في الجمل السابقة، وخاصة في المثال الأول، هو من منظور متكلم بعينه وبذاته، متكلم يتموقع في زمان ومكان محددين، وفي سياق محدد، فالمسجد قريب من هذا المتكلم، أو قريب من موقعه ومكانه، وليس قريبا بشكل مطلق، أو قريبا بشكل موضوعي ومجرد.
ولنأخذ أمثلة أخرى:

9 - الرباط بعيدة.

10 - باريس قريبة.

ونفترض أن منتج الجملة الأولى غير منتج الجملة الثانية، ونفترض أيضا أن المنتجين لهذه الجمل هم أشخاص مغاربة. والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو كالتالي: كيف تكون الرباط بعيدة وهي مدينة مغربية، وتكون باريس قريبة وهي توجد في بلد آخر، بلد بعيد عنا نحن الذين نسكن المغرب. لو أننا اعتمدنا مفهوم المسافة باعتباره مفهوما هندسيا وأساسيا، وقسنا المسافة بشكل موضوعي ومجرد لوجدنا أن باريس هي الأبعد، وأن الرباط هي الأقرب. فلو افترضنا أن المتكلم الذي أنتج الجملة الأولى يسكن في بني ملال، فكيف تكون الرباط بعيدة بالنسبة إليه والمسافة تقريبا هي 270 كلم. ولو افترضنا أيضا أن منتج الجملة الثانية يسكن في الرباط أو البيضاء، ومع ذلك يقول إن باريس قريبة.

الجواب عن هذا السؤال/ الإشكال هو كالتالي: تحديد الفضاء في اللغة مختلف كل الاختلاف عن وصف الفضاء في الهندسة والرياضيات والمنطق، وصف الفضاء في اللغة الطبيعية يكون ذاتيا، ويعتمد على ذات المتكلم وإدراكه ووضعه الجسدي وموقعه الفضائي، ووضعه الاجتماعي وإمكاناته المادية وخصائص الأشياء الموجودة في العالم الخارجي وغير ذلك.

المتكلم هو مركز الإحالة وهو المصدر بالنسبة لعملية الموقعة الفضائية، أما وصف الفضاء في الهندسة فهو مجرد وموضوعي ومستقل عن كل شيء، وتحديد القرب أو البعد يكون بقياس المسافة بشكل موضوعي.

إذن القرب هنا غير القرب هناك، القرب في اللغة ذاتي والقرب في الهندسة موضوعي.

وإذا عدنا إلى المثالين السابقين، فإذا كان المتكلم ثريا وميسور الحال، فإنه سيقول إن باريس قريبة، لأنه سيركب الطائرة وسيصل إلى هذه المدينة في غضون ساعتين، فباريس قريبة من منظور هذا المتكلم، أي متكلم بعينه وذاته، وليست قريبة من جميع المتكلمين، ومتكلم آخر، إذا كان معوزا وفقيرا، ولا يتوفر على الإمكانات المادية والمالية اللازمة، فإن الرباط بعيدة بالنسبة إليه، ولا مجال بتاتا للحديث عن الذهاب إلى باريس أو لندن، وقد يكون هذان الشخصان موجودين في مكان واحد، وفي نقطة مكانية واحدة.

ويقول أحدهما إن الرباط قريبة ويقول الآخر إنها بعيدة، فهي قريبة من منظور هذا المتكلم وبالنظر إلى إمكاناته الذاتية، وبعيدة من منظور المتكلم الآخر، بالنظر أيضا إلى قدراته وإمكاناته. الفضاء اللغوي غير الفضاء الهندسي، والقرب اللغوي غير القرب الهندسي.

نستخلص من هذا ما يلي: عندما يتعلق الأمر بوصف الفضاء في اللغة، فإن المتكلم غالبا إن لم نقل دائما، يكون مصدر الإحالة، وتحديد المسافة يكون من منظوره الشخصي وموقعه الفضائي، وبالنظر إلى إمكاناته الجسدية والمادية والاجتماعية. وعليه فإن التحديد يكون ذاتيا، وقياس المسافة يكون هو الآخر ذاتيا وتقريبيا، ولا يكون بتاتا موضوعيا ومجردا، ومن هنا فإن مفهوم المسافة مفهوم ثانوي وهامشي.

وهذا هو الفرق الجوهري والأساسي بين الفضاء في اللغة، والفضاء في الهندسة والرياضيات. الفضاء في الهندسة مستقل عن المتكلم والسياق والأشياء المراد موقعتها وتحديد مكانها في الفضاء.

ولنأخذ مثالين آخرين، ودائما في سياق الحديث عن قرب المسافة أو بعدها، وهما:

11 - الثعلب قريب من الأرنب.

12 - الثعلب قريب من الدجاجة.

فنحن استعملنا عبارة (قريب من) في الجملتين معا، وهذا يعني أن المسافة قريبة بين الثعلب والأرنب في المثال الأول (11)، قريبة أيضا بين الثعلب والدجاجة في المثال (12)،

وأن الأمر يتعلق بنفس المسافة، أو يتعلق بمسافات متقاربة، ويعني في نفس الوقت أن المسافات قصيرة لأن المثالين يتحدثان عن القرب بين الهدف والمصدر، فهل هذا صحيح؟ الجواب: لا. لو كان الأمر يتعلق بالهندسة، وقلنا إن (أ) قريب من (ب)، وقريب كذلك من (ج)، لوجب أن تكون المسافة قصيرة بين (أ) و(ب) من جهة، وقصيرة بين (أ) و (ج) من جهة ثانية، ولوجب أيضا أن تكون هذه المسافات متماثلة، أو على الأقل متقاربة، فلا يمكن أن يكون الفرق كبيرا بين المثالين (11) و(12).

لكن عندما يتعلق الأمر بالفضاء اللغوي فالأمر مختلف، والفرق كبير بين المثالين، والقرب في المثال الأول غير القرب في المثال الثاني، وهذا راجع إلى معرفتنا بخصائص الأشياء التي نريد تحديد موقعها، ووصف الفضاء في اللغة له ارتباط بالمتكلم والإدراك ومعرفة العالم ومعرفة الأشياء وخصائصها ووضع الجسم وغير ذلك، فخصائص الثعلب ليست هي خصائص الدجاجة، الثعلب سريع والدجاجة بطيئة، والأرنب أيضا سريع.

هناك خاصية مشتركة بين الثعلب والأرنب وهي السرعة، فلو قلنا: (الثعلب قريب من الأرنب) لوجب أن تكون المسافة مترا أو مترين أو ثلاثة أمتار، وإلا كانت المسافة بعيدة لأن الأرنب حيوان سريع، ولن يستطيع الثعلب الإمساك به، والقرب والبعد هنا يحدده سهولة الإمساك بالفريسة أو صعوبته، ولا تحدده المسافة الهندسية الموضوعية. وبالنسبة للمثال (12)، فقد تكون المسافة الحقيقية بعيدة، ومع ذلك نقول إن الثعلب قريب من الدجاجة لأنه سيصل إليها في وقت وجيز ويمسك بها، فقد تكون في أعلى الجبل وهو في السفح، ومع ذلك، فهي قريبة منه بمجرد أن يراها، لأنه سريع وهي بطيئة، وبمجرد رؤيته لها تكون في متناوله، والذي يحدد المسافة هنا هو خصائص الأشياء والموضوعات (les objets) الموجودة في العالم، ومعرفتنا بها، وسهولة الامتلاك، وسهولة الوصول أو صعوبته، وهذا هو الذي يحدد القرب والبعد.

وهذا هو الفرق الثاني بين الفضاء اللغوي والفضاء الهندسي، فلابد من أن نأخذ بعين الاعتبار، في وصف الفضاء في اللغة الطبيعية، خصائص الأشياء في الواقع الخارجي،

فالعبارة المستعملة في المثالين هي نفسها: (قريب من)، والوصف هو هو (أ أقرب من ب)، ولكن المسافة الموضوعية في الخارج مختلفة نظرا لعاملي السرعة والزمن.

قبل الانتقال إلى مفهوم آخر، نطرح السؤال التالي[1]:

ما هي خصائص الهدف؟ وما هي خصائص المصدر؟ في الهندسة الهدف والمصدر موضوعان فارغان، أو رمزان من رموز المنطق والرياضيات، ولا فرق بينهما من حيث الخصائص والسمات، وكل رمز يصلح لأن يكون هدفا أو مصدرا، لكن الأمر مختلف في اللغة الطبيعية، ومرد هذا إلى اختلاف الموضوعات في العالم الطبيعي، واختلاف سماتها وخصائصها، الموضوعات في اللغة الطبيعية، والواقع مملوءة وليست فارغة.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو كالتالي: هل كل العناصر والموضوعات تصلح لأن تكون هدفا ومصدرا؟ أم أن بعضها يمكن أن يكون هدفا، وبعضها الآخر يمكن أن يكون مصدرا؟ الجواب هو أن بعض الموضوعات تصلح لأن تقوم بوظيفة المصدر، وبعضها الآخر صالح لأن يقوم بوظيفة الهدف، وهناك عناصر قد تكون هدفا أو مصدرا بحسب السياق. فالمسألة نسبية وسياقية في الوقت نفسه، ويمكن ربط هذا بالفرق والاختلاف الموجود بين اللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية الرمزية[2].

خصائص الهدف والمصدر:

هناك اختلاف كبير بين خصائص الهدف وخصائص المصدر، ويمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

أ- الهدف صغير والمصدر كبير.

ولنوضح هذا من خلال الأمثلة التالية:

---

(1) نفسه، ص: 34.

(2) ارجع إلى أعمال جان بليز غريز وأزفالد ديكرو، وارجع بالخصوص إلى كتاب (اللغة والمنطق) وكتاب (من المنطق إلى الحجاج) لأبي بكر العزاوي.

(13) - أين هي الإبرة ؟

- الإبرة قريبة من الكرسي.

(14) - أين هو المسجد؟

- المسجد وراء العمارة الكبيرة.

إذا نظرنا في هذين المثالين، فإننا نلاحظ أن الهدف، وهو الإبرة في المثال (13) والمسجد في المثال (14)، صغير بالمقاربة مع المصدر الذي هو الكرسي في الجملة الأولى، والعمارة في الجملة الثانية، ولأن الهدف صغير، ولا ندركه، فنحن نحدد موقعه بالاعتماد على المصدر الذي هو ضخم ومدرك، ويسهل تمييزه. ومن الطبيعي، وهذا بحسب المنطق الطبيعي (La logique naturelle)[1]، أن نعتمد على الموضوع الكبير لتحديد موقع الموضوع الصغير، وليس العكس، فالشيء الصغير والدقيق هو الذي يصعب إدراكه وتمييزه، وهو الذي نريد تحديد مكانه وموقعه.

وإذا عكسنا الأمر، فإن الجملة التي أنتجناها تكون لاحنة أو تكون غير طبيعية.

لنتأمل المثال التالي:

(15) - أين هو المسجد؟

* - المسجد وراء العصا.

هذه الجملة لاحنة، لأن العصا، وهي المصدر في هذه الجملة أصغر من الهدف، الذي هو المسجد، والعصا لا يمكن أن تخفي المسجد بحيث يتعذر إدراكه وتمييزه. العصا في هذا السياق، هي التي قد يمتنع علينا إدراكها ورؤيتها، وهي التي سنبحث عنها وليس العكس. ويكفي أن نغير ترتيب الموضوعات في هذا المثال ليصبح الوضع مستقيما، والأمر طبيعيا، فيكون المثال على الشكل التالي:

---

(1) هناك نماذج عديدة للمنطق الطبيعي، تم اقتراحها من قبل جان بليز غريز وجورج لايكوف ولورنزن وازفالد ديكرو وآخرين، في إطار المنطق واللسانيات وعلم النفس وغيرها من العلوم، ارجع إلى كتابي د أبو بكر العزاوي الواردين في الهامش (11).

(16) - أين العصا؟

- العصا وراء المسجد.

وهذه جملة عادية وطبيعية، فالمسجد قد يخفي العصا، وتصبح رؤيتها ممتنعة، ولابد من مصدر بارز وكبير لتحديد موقعها.

فالمسجد هو الهدف في المثال (14) لأنه صغير بالقياس إلى المصدر الذي هو العمارة، وهو مصدر في المثال (16) لأنه اكبر من الهدف الذي هو العصا، وهذا هو ما كنا نقصده بقولنا: إن الموضوع نفسه قد يكون هدفا أو مصدرا بحسب السياق.

ب- المصدر معروف ومدرك والهدف غير معروف وغير مدرك، وسنعتمد هنا على المدرك والمعروف لتحديد موقع الهدف الذي هو غير مدرك. والمثالات (13) و(16) يوضحان هذا بشكل كبير. فالإبرة عنصر صغير ودقيق، ومن الصعب إدراكه وتحديد موقعه. وستكون الإبرة هدفا في كل الجمل وكل السياقات، أما المسجد، فقد يكون هدفا، كما هو الشأن بالنسبة للجملة (14)، وقد يكون مصدرا في سياق آخر.

ففي جملة من قبيل:

17 - أين الكرسي؟

- الكرسي وراء المسجد.

إذن السياق هو الذي يحدد، وهو الفيصل في مثل هذه الحالات، فالمسجد، في هذه الجملة، هو الأكبر وهو المدرك، وهو الذي سيكون مصدرا في هذه العلاقة الفضائية. وهو الذي سيساعدنا على تحديد موقع الهدف (أي الكرسي).

ج- الهدف متحرك والمصدر ثابت.

إن الشيء الذي نبحث عنه ولا ندركه، أو يصعب إدراكه، يكون متحركا، فهو ينتقل من مكان إلى مكان، وهنا لابد من التمييز بين واقعين: فقد يكون الهدف هو من يقوم بفعل الحركة، أي بذاته، وينطبق هذا على الذوات المتحركة من طيور وحيوانات صغيرة وحشرات وغيرها، وقد يكون الهدف غير متحرك بذاته، ولكنه ينتقل من مكان إلى مكان آخر لسبب من الأسباب.

ونوضح هذا بالمثالين التاليين:

(18) - أين القلم؟

- القلم فوق المكتب.

(19) أين الببغاء؟

- الببغاء في المطبخ.

فالهدف في المثال الأول غير متحرك بذاته، قد يوضع فوق المكتب أو على الحصير أو في المحفظة، أما الهدف في المثال الأخير، وهو طائر الببغاء، فهو يتحرك من تلقاء ذاته، وينتقل من مكان إلى مكان، أما المصدر فيكون ثابتا بشكل دائم (المسجد، الشجرة، المنزل...)، وقد يكون ثابتا بشكل مؤقت (السيارة مثلا) في جملة من قبيل: (المفاتيح في السيارة).

وعلى العموم، فإن الهدف يكون صغيرا، ومتحركا، وغير معروف ولا مدرك، والمصدر يكون كبيرا ومدركا وثابتا. وفي الموقعة الفضائية، فنحن ننطلق من الكبير والمدرك والثابت لتحديد موقع العنصر الصغير والمتحرك وغير المدرك.

لقد بينت الأمثلة السابقة أن مفهوم المسافة مفهوم هامشي وغير كاف، ولا يسعفنا كثيرا بخصوص وصف الفضاء في اللغة الطبيعية. وهذه الملحوظة أشرنا إليها سابقا بخصوص مفهوم البعد (La dimension).

وننتقل الآن إلى المفهوم الأخير، من المفاهيم الهندسية. إنه مفهوم الاتجاه (la direction)، لقد ذكرنا سابقا، أن المتكلم هو مصدر الإحالة في عملية الموقعة الفضائية. ونريد أن نقف الآن عند أمر آخر، وهو الوضع الجسدي للمتكلم، وهو إدراكه وخط نظره، وهذا له صلة وثيقة بمسألة تحديد الاتجاه، ونطرح هنا الأسئلة التالية:

ما هو الوضع الجسدي للمتكلم؟ وهل هو ينظر في هذا الاتجاه أو ذاك؟ وما الذي يتسرب إلى إدراكه؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن أن تطرح في هذا السياق.

عندما ندرس الاتجاه في الهندسة والرياضيات، فإن الأمر يحدد بشكل موضوعي ومجرد، فنحن عندما نستعمل العبارات الفضائية: (أمام، خلف، قدام، وراء...) لتحديد

الاتجاه في الفضاء، فإن هذا يتم بشكل مجرد، فإذا قلنا إن (أ) أمام (ب)، فمعنى هذا أن (ب) يوجد خلف (أ).

والعلاقة تناظرية (Symétrique) بينهما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن تحديد الاتجاه يكون مستقلا عن المتكلم والسياق والموضوعات المراد موقعتها فضائيا.

أما في الفضاء اللغوي، فالأمر مختلف، وتحديد الاتجاه يكون ذاتيا، وبالنظر إلى الوضع الجسدي للمتكلم، وبالنظر إلى ما يدركه ويراه، التسرب إلى الإدراك (l'accés à la perception) وخط النظر (la ligne du regard) هما المفهومان المحددان للاتجاهات الفضائية (الأمام، الخلف، الوراء....)، وليس مفهوم الاتجاه بمعناه الهندسي. فما أراه وأدركه فهو أمامي، والذي لا أراه ولا أدركه فهو خلفي وورائي، والذي يوجد "فوق" فهو كذلك، لأني أراه وأدركه، والذي يوجد "تحت" فهو كذلك، لأني لا أراه ولا أدركه، إذن مفهوم (التسرب إلى الإدراك) وهو مفهوم لساني معرفي وظيفي هو المفهوم الأساسي والمركزي بالنسبة لوصف الفضاء في اللغة الطبيعية، وهو الذي يحدد الاتجاه (أمام، خلف، وراء....)، وليس المفهوم الهندسي.

وهناك مثال كنت أقدمه لطلبتي في مادة (الدلالة المعرفية) وهو كالتالي: أنتم أمامي لأني أنظر إليكم، وأنا أمامكم لأنكم تنظرون إلي، فكلانا ناظر ومنظور. فإذا استدرت على اليمين، فأنتم عن شمالي، وإذا استدرت على الشمال، فأنتم عن يميني، وإذا استدرت بشكل كامل، فأنتم ورائي لأني لم أعد أراكم، ولأنكم لا تتسربون إلى إدراكي ونظري، ولكني أظل، في كل هذه الحالات، أمامكم لأنكم تنظرون إلي، وتدركونني إدراكا بصريا، إذن فالذي يحدد الأمام والخلف والوراء هو خط النظر والتسرب إلى الإدراك، ولو درسنا هذه المسألة هندسيا لقلت: إذا كنت أمامكم فأنتم خلفي، وإذا كنت خلفكم فأنتم أمامي، ولا علاقة لتحديد الاتجاه بمسألة الإدراك، أو بمسألة الوضع الجسدي للمتكلم، وهذا أيضا فرق كبير، وفرق جوهري وأساسي بين وصف الفضاء في الهندسة، ووصف الفضاء في اللغة الطبيعية. وهناك أمر آخر، فإذا كنت أمامي من الناحية الهندسية والموضوعية، وكان هناك حاجز (جدار أو غيره) يحول دون رؤيتك وإدراكك، فأنت في الوراء: أنت أمامي هندسيا وواقعيا، ولكنك

ورائي لغويا وإدراكيا. وقد فسرت قوله تعالى، في سورة الكهف ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾(الكهف الآية 79) بنفس الطريقة، فالمفسرون كلهم كانوا يقولون إن "ورائهم" بمعنى "أمامهم"، ولكنهم لا يبينون السبب: لماذا استعمل القرآن الكريم كلمة (وراء) في الآية، ولم يستعمل كلمة (أمام)، ففسرت هذه الآية على الشكل التالي: لما كان الملك أمامهم وكانوا لا يدركونه، عومل الذي في الأمام معاملة الذي في الوراء، بجامع عدم الإدراك، وبعبارة أخرى، فإذا كان الذي في الأمام لا يدرك، فهو كالذي في الوراء، ووجه الشبه بينهما، ونقطة الاشتراك، هي عدم الرؤية وعدم الإدراك، وهذا هو السر في استعمال القرآن الكريم لكلمة (وراء) في هذا الآية، فهم لا يدركون الملك، ولا يعرفون أنه أمامهم، وأنه يأخذ كل سفينة غصبا، إذن فهو كالذي في الوراء، لأن الذي يوجد في الوراء لا يرى ولا يدرك، إذن فعدم الرؤية وعدم الإدراك، وعدم المعرفة هو الذي سوغ استعمال كلمة (وراء) في هذا السياق، وعدم الإدراك كعدم المعرفة، وقد اجتمع كل هذا في الآية المذكورة آنفا.

ولنأخذ أمثلة أخرى توضح قصور المقاربة الهندسية، بخصوص وصف الفضاء في اللغة الطبيعية.

(20) - الحمامة أمام الطفل.

(21) - الطفل أمام الحمامة.

فلو تعاملنا مع هاتين الجملتين من منظور هندسي محض، لكانتا جملتين مقبولتين معا، ولكن الجملة الأولى، في الواقع، هي الجملة السليمة والعادية، أما الجملة الأخرى فهي لاحنة من وجه نظر الاستعمال اللغوي، فمفهوم خط النظر هو الذي أجاز لنا استعمال جملة (الحمامة أمام الطفل) باعتبار أن الطفل هو الناظر، والمنظور هو الحمامة، وهو نفس الذي يجعل استعمال الجملة الأخرى (الطفل أمام الحمامة) ممتنعا، أو لا يمكن قبوله إلا بصعوبة بالغة وفي سياقات مصطنعة.

ومن جهة أخرى، فإن العلاقة هنا لا تناظرية (asymétrique)، فإذا استعملنا جملة (الحمامة أمام الطفل)، وهي جملة سليمة ومقبولة، فلا يمكن أن نقول: (الطفل خلف الحمامة)، فهذه جملة لاحنة وغير مقبولة.

ولنأخذ مثالين آخرين لمزيد من التوضيح والتفصيل:

(22) - الطائر أمام الوزير.

(23) - الشبكة أمام السرطان.

مفهوم الاتجاه في العبارتين يرتبط بالأداة أو الظرف المكاني (أمام)، لكن كيف نفسر اختيارنا لهذه الأداة؟ وهل مفهوم الاتجاه الهندسي مناسب لوصف الجملتين؟

في المثال (22)، نجد أن مفهوم الاتجاه محايد، ومفهوم خط النظر يحدد الاتجاه، والوزير هو الناظر، والمنظور هو الطائر، وهذا المفهوم هو الذي يبرر اختيار واستعمال العبارة الفضائية (أمام) في هذا المثال، أما في الجملة الثانية (23)، فإن الذي يحدد الاتجاه ليس هو خط النظر، وإنما هو اتجاه الحركة، فالشبكة موضوعة أمام السرطان، وهذا الأخير يتحرك نحوها ويسير باتجاهها.

إذن الذي يحدد الاتجاه في المثالين هو خط النظر واتجاه الحركة. وهذا يدفعنا إلى الوقوف عند مفهوم آخر، إنه مفهوم التوجيه (l'orientation). ومفهوم التوجيه العام هو تشابه عائلي، باصطلاح لودفيغ فتجنشتاين (L.Vittgenstein)، ويمكن أن يمثل له بواسطة أي شكل من أشكال التأليف لسماته، ولكن أي سمة من هذه السمات لا يمكن أن تكون شرطا ضروريا وكافيا لاستعمال الكلمة التي تصفها. فمفهوم التوجيه هو مفهوم مرن، وهو تشابه عائلي[1] (Ressemblance de famille) يتضمن مجموعة من السمات: التسرب إلى الإدراك، خط النظر، الاتجاه، الحركة (le mouvement).. إلخ، وتختار هذه السمة أو تلك بحسب السياق، وهذه السمة هي التي تسوغ اختيار العبارة الفضائية المقصودة، وهي التي تسمح باستعمالها في المثال المدروس.

هذا كله يبين أن مفهوم الاتجاه باعتباره مفهوما هندسيا غير صالح أو غير كاف، وهو مفهوم ثانوي لا يفيدنا كثيرا في وصف الفضاء في اللغة الطبيعية، وينطبق عليه ما ينطبق على المفاهيم الهندسية الأخرى (المسافة، البعد).

---

(1) انظر كتاب فتجنشتاين (أبحاث فلسفية)، 1921، وانظر الاستعمالات الحديثة لمصطلح (التشابه العائلي)عند فاندلواز وجورج كلايبر وآخرين.

التحليل اللساني الوظيفي:

إن الفضاء اللغوي يرتبط بتصور الإنسان للعالم، وبقدرته وبإمكاناته للتعبير عن الأشياء التي تحيط به، ويرتبط خصوصا بذاته وحواسه وإدراكه ومعرفته بخصائص الأشياء والموضوعات. فنحن حين نريد موقعة (localisation) شيء ما في العالم، فإننا نصبح حينئذ مصدر النسق الإحالي الذي نصفه، وبعبارة أخرى، يشكل المتكلم مركز الإحالة الفضائية، ويكون التسرب إلى الإدراك، أو خط النظر هو المحدد للاتجاه، وتحديد المسافة، أو القرب والبعد، يتم بالاستناد إلى أمور لها صلة بموقع المتكلم وخصائص الأشياء والموضوعات وغيرها.

إذن المقاربة الهندسية غير صالحة لدراسة الفضاء اللغوي، والمفاهيم الهندسية (المسافة، الاتجاه، البعد) ثانوية وهامشية، ولهذا كان لابد من القيام بتحليل لساني وظيفي معرفي يعتمد مفاهيم لسانية معرفية وظيفية في وصف الفضاء اللغوي، هذا التحليل الذي يحاول إيجاد المفاهيم المعرفية (cognitives) المرتبطة بالإدراك والمعرفة والعالم وغير ذلك، هو ما حاول كلود فاندلواز القيام به في كتابه (الفضاء في الفرنسية)، والذي قدم فيه نموذجا للتحليل اللساني الوظيفي للفضاء اللغوي يقوم على مجموعة من المفاهيم مثل: خط النظر، التسرب إلى الإدراك، التوجيه، اللقاء المحتمل، شكل الجسم الإنساني، المتكلم مركز الإحالة، ثنائية وعاء/ محتوى... إلخ.

وبعبارة موجزة، فإن اللغة الطبيعية - كما يقول فاندلواز - تستجيب للوصف الوظيفي لعالم متحرك أكثر مما تستجيب للوصف الصوري لعالم سكوني ثابت.

فهرس المصطلحات:

Accès à la perception	التسرب إلى الإدراك
catégorisation	المقولة
cible	الهدف
Cognition	المعرفة
cognitif	معرفي
Conditions nécessaires et suffisantes	شروط ضرورية وكافية
Dimension	البعد
Direction	الاتجاه
Distance	المسافة
Espace dans la langue	الفضاء في اللغة
Expressions spatiales	عبارات فضائية
Expressions déictiques	عبارات إشارية
Forme du corps	شكل الجسد، وضع الجسد
géométrie	هندسة
Ligne du regard	خط النظر
Linguistique	لسانيات
Localisation	موقعة
Localisation spatiale	موقعة فضائية
Locuteur	متكلم
Logique	منطق
Métaphore	استعارة
Métaphore conceptuelle	استعارة تصورية

Mouvement	الحركة
Orientation	توجيه
Perception	إدراك
Raisonnement	استدلال
Référence	إحالة
Relation spatiale	علاقة فضائية
Ressemblance de famille	تشابه عائلي
Sciences cognitives	علوم معرفية
Sémantique	علم الدلالة، دلالي
Sémantique cognitive	الدلالة المعرفية
Site	المصدر

فهرس المراجع

المراجع العربية:

- العزاوي أبو بكر: "الكليات الاستعارية"، **مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية**، العدد: 2، 1987.
- العزاوي أبو بكر: "نحو مقاربة حجاجية للاستعارة"، **مجلة المناظرة** الرباط، العدد: 4، 1991.
- العزاوي أبو بكر: "الفضاء في اللغة"، **المشكاة**، العدد: 25، 1997.
- العزاوي أبو بكر: "**مدخل إلى الدلالة المعرفية**" (كتاب مخطوط).
- العزاوي أبو بكر: "**اللغة والحجاج**"، الأحمدية للنشر، البيضاء، 2006.
- العزاوي أبو بكر: "**الخطاب والحجاج**"، الأحمدية للنشر، البيضاء، 2007.
- العزاوي أبو بكر: "العنوان والإطار: مقاربة معرفية"، **مجلة فكر**، الرباط، العدد: 6، 2007.
- العزاوي أبو بكر: "**اللغة والمنطق**"، طوب بريس، الرباط، 2014.
- العزاوي أبو بكر: "**من المنطق إلى الحجاج**"، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2016.
- غيتمانوفا الكسندرا، **علم المنطق**، دار التقدم، موسكو، 1989.
- فاندلواز كلود: **الفضاء في اللغة الفرنسية**: ترجمة وتقديم أبو بكر العزاوي (قيد النشر).
- مفتاح محمد: **النص: من القراءة إلى التنظير**: إعداد وتقديم أبو بكر العزاوي، شركة المدارس البيضاء، 2000.



المراجع الأجنبية:

- Azzaoui. B: Argumentation et enonciation, Top Presse, Rabat, 2014.
- Clark. H.H (1973): « Space, Time, semantics and the child », in Moore, (T.E), Ed.
- Ducrot. O et all (1980): les mots du discours, ed, Minuit, Paris.
- Fauconnier.G (1984), Espaces mentaux, Minuit, Paris.
- Jackendoff. R(1983): Semantics and cognition, Mit, Press.
- Lakoff. G et Johnson. M (1984): Les métaphores dans la vie quotidienne, Ed. Minuit, Paris.
- Langacker. R.W (1982): Foundations of cognitive grammar université de Californie, san diego.
- Lyons. J (1989) La sémantique linguistique, Ed. Larousse, Paris.
- Moore. T.E (Ed) ; (1973): Cognitive Development and the Acquisition of language, New york, Academic Press.
- Vandeloise. C (1986): L'espace en français, Editions du Seuil, Paris.



مركزية اللسانيات ضمن نظرية المعرفة وفلسفة العلوم

د. عبد الرحمن محمد طعمة

مدرس اللسانيات العصبية العرفانية وعلوم اللغة

قسم اللغة العربية، آداب القاهرة، مصر

" إن الاكتشاف الأعظم الذي شهده جيلي، الذي يمكن أن يُقارَن بالثورة الحديثة في الطب، مثل ثورة البنسلين، هو معرفة البشر أن بمقدورهم تغيير حياتهم عبر تغيير مواقفهم الذهنية."
الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس**، من رواد المدرسة البراجماتية، وفلسفة الدين.

مقدمة:

قاد الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626م) ثورة علمية ضد الفكر الأرسطي، ودعا إلى (أورجانون Organon) جديد يخلص العقل الإنساني من جنوح الميتافيزيقا، يعتمد الباحث فيه على الملاحظة والتجريب، ويبتعد عن المنطق الأرسطي القائم على القياس فقط، وثار ضد أفلاطون أيضا، واُشتُهر بعبارته: "الفلسفة المدرسية مليئة بالثرثرة"؛ فقد كان يريد من الإنسان أن يتعلم من خلال النظر إلى الطبيعة، لأن ما يظهر للإنسان من أول وهلة هو مجرد مخططات عملية تحجب حقيقة الأشياء وجوهرها وعمقها، وكان الحل في رأيه كامنا في المنهج الاستقرائي، ودعا إلى وجوب تبني العقل له في تحليل الوجود كله؛ فالأساس العلمي لدراسة الظواهر الوجودية المحيطة بنا هو الأساس المتين الذي ينبغي أن تنبني عليه الفلسفة العقلية كلها، عوضا عن التجريدات

اللفظية والمعممات وعبارات القياس الغامضة... إلخ. وتقسيمه للعلوم بحسب القوة الإدراكية عند الإنسان مشهور ومعروف:

- **الذاكرة**: موضوعها التاريخ العام.
- **المُخيّلة**: موضوعها الشعر (وهنا يلتقي معه حازم القرطاجني).
- **العقل**: موضوعه الفلسفة بمختلف تفرعاتها.

ونظر إلى **المعرفة** بوصفها التجربة الحسية التي يمكن إثراؤها بالملاحظات والمشاهدات والتجارب العملية، ليجمع بين **الذاتية** (من خلال استبعاد الأهواء والأحكام المسبقة) **والموضوعية** (من خلال رد العلوم إلى الخبرة والتجربة العملية والمنهجية القويمة).

ويشمل **الاستقراء** عند بيكون جمع الأمثلة والمتشابهات بحسب طبيعة إدراكنا لها، ثم تنظيم هذه الأمثلة وتبويبها وتصنيفها، من ثم تحليلها وتفصيل النتائج[1].

وبيكون هنا أيضا يخالف "رينيه ديكارت" (1596-1650م) - أبو الفلسفة الحديثة ومؤسس الهندسة التحليلية ونظام الإحداثيات - الذي تبنى منهج **الاستنباط**؛ بمعنى الانتقال من فكرة بديهية إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة. لكن هنا يجب أن نبين حقيقة فلسفية مهمة جدا؛ فإذا كان لدي ظاهرة أو شيء معرفي مبني على **الاستقراء Inductive** في مواجهة ظاهرة أو شيء معرفي آخر مبني على **الاستنباط deductive** فإن العلم يقرر بقوة اختيار **الاستنباط** Deduction مباشرة، **لأن الاستنباط هو بناء عقلي منطقي رصين قائم على قواعد الاستدلال المنطقي**، ولأنه يستحيل وجوديا أن تستقريَ كل الظاهرة المدروسة في الطبيعة، ولأنه يستحيل أن تجد ظاهرة في العلوم الطبيعية يمكن ملاحظتها تجريبيا إلى أعماق التاريخ، أو يمكن استقصاؤها إلى الحد اليقيني. وبذلك فإن كلا المنهجين يكملان بعضهما، وما يُفقد من هذا يُستكمل من ذاك؛ فالعلم ذو بناء دائري تكاملي كما أوضح بياجيه.

فإذا انتقلنا بالزمن قليلا إلى "كانط" Immanuel Kant (1724-1804م) - الفيلسوف الألماني الشهير - بنقده للعقل العملي وللعقل المجرد وللعقل المحض، ومحاولاته

---

[1] راجع للمزيد من التفاصيل (فرانسيس بيكون وأدوات البراعة):
Lewis, Rhodri: Francis Bacon and Ingenuity, Renaissance Quarterly 67.1, Pp113-163, 2014.

لتهذيب الميتافيزيقا بتطبيق نظرية المعرفة عليها... إلخ، فعلى الرغم من جنوحه أحيانا في أطروحاته، غير أن منهجه عن الدراسة العلمية (الجمعية والفردية بين الطبيعيات والإنسانيات) Nomothetic and Idiographic approaches to the Entity [(1)] عموما كان عبقريا ومتفردا - فالبراهين العقلية عنده هي التي تُستمد من ظواهر الطبيعة، لأن العقل في مذهب كانط لا يعرف إلا الظواهر الطبيعية Phenomena ولا ينفذ إلى حقائق الأشياء في ذواتها، أو ما يسمى بالجوهر الباطن (Noumena). ومشروعه الكبير المكون من:

نقد العقل الخالصKritik der reinen Vernunft

ونقد العقل العملي Kritik der praktischen Vernunft، وهو المتعلق بالأخلاقلاونقد القدرة على التحكيم Kritik der Urteilskraft، وهو المتعلق بالجمال والغاية يحتاج إلى إعادة نظر وصياغة بينية معاصرة في علم المناهج والظاهراتية المحدَثة. لتفيد منه اللسانيات في بحثها العميق حول فلسفة الذهن والعرفان، التي تشغل كل الساحات العلمية المعاصرة بلا استثناء.

وفيما يلي من صفحات، سأحاول تقديم خلاصات موجزة حول ما أريد الحديث عنه في هذه الدراسة، ضمن هدفي العام من تأطير اللسانيات المعاصرة بدمجها في بينيات العلوم وفلسفاتها وقضاياها الشديدة التنوع والتشابك.

أولا: مناقشة موجزة لبعض الأسس الفلسفية لنظرية المعرفة وعلاقتها باللسانيات:

أود أن أوضح أنني أؤيد بقوة مسألة قابلية كل شيء للتفنيد وإعادة البحث، وهو أمر شائع في الأدبيات العلمية عموما، وأكتفي هنا بالإشارة إلى العالم "توماس براون" الذي وضع مؤلفا ضخما معروفا باسم **Pseudodoxia Epidemica or Enquiries into very many received tenets and commonly presumed truths**

(1) راجع تفاصيل هذه المسألة في مقدمة كتابنا البناء العصبي للغة.. دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة الأردنية، طـ 1، 2017.

(تساؤلات حول الكثير من المعتقدات السائدة والحقائق المفترضة الشائعة)، تناول فيه الأخطاء الشائعة والمبتذلة vulgar errors حتى عصره. وقد ظهر أول مرة عام 1646م، وصدرت منه طبعات خمس متتالية، حتى عام 1672م. وقد اعتمد براون فيه على طريقة "فرانسيس بيكون" القائمة على الملاحظة التجريبية التحليلية لظواهر الطبيعة كما سبقت الإشارة. ومثل هذه المحاولات العلمية الجادة كانت إرهاصاتٍ لما قام به الفيزيائي الأمريكي "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996م) في القرن العشرين، عندما قدم لنا مشروعه الرائد عن **بنية الثورات العلمية** الشهير عام 1962[1].

1 - فتجنشتين وفلسفته اللسانية:

وفقا لمهندس الطائرات النمساوي وفيلسوف اللغة العبقري "لودفيج فتجنشتين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951م) **فإن العالم يتُجُ تجريبيا من خلال الجُمل.** وكان اتجاهه للفلسفة من خلال قراءته لمقالة عن إعادة تمثيل حادثة سير وقعت أمام محكمة باريس[2]، وهي قصة شهيرة في تاريخ العلم توضح كيف أن المحكمة قامت بإعادة الأحداث التمثيلية من خلال مجسمات للمتاجر والمحلات والسيارات... إلخ، لأن العلاقات بين هذه الأشكال تتفق مع تلك العلاقات القائمة بين المواضيع الواقعية. فماذا يمكن أن يحدث إذا ما طلب المرء تصوير الواقع عبر أشكال ومجسمات؟ أفلا يمكن تحقيق ذلك بالطريقة نفسها بمجسمات الفكر؛ نعني بالطبع الكلمات؟ ومن هنا أتته **فكرة إنتاج العالم من خلال الجُمل**: فكلماتها وبنيتها تعيد إنتاج الواقع، لأن الأسماء تعبر عن أشياء هذا العالم وموجوداته، وتمتلك معانيها عن طريق علاقاتها داخل الجملة، وإذا ما اتفقت الأسماء وأبنية الجمل مع

---

(1) هناك وثائقي شهير من خمس حلقات، يحكي تاريخ إعمال العقل قليلا في نواميس هذا الكون، ويحكي شيئا من أصول المقولة الشهيرة Nullius in verba التي تعني حرفيا Take nobody's word for it مطالبةً بفهم العالم قليلا بعيدا عن النقول والتكرار غير الجدي. وخلاصة هذه المقولة حرفيا أيضا ووفقا لكل القواميس تقريبا to verify all statements by an appeal to facts determined by experiment راجع الوثائقي على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=RA43bbt8znQ

(2) للتفاصيل: دونالد جيليز: فلسفة العلم في القرن العشرين، أربعة موضوعات رئيسية، ترجمة ودراسة حسين علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 2010، ص 411 وما بعدها.

الأشياء ونظامها في الواقع، فحينها نقول إن الجمل صحيحة... إلخ[1]. وقد ألهمت أفكاره هذه ما ظهر لاحقا تحت اسم (**حلقة فيينا**: مؤسسة إرنست ماخ" من فلاسفة ألمانيا والنمسا... إلخ، والإبستمولوجيين المعنيين)[2]، الذين كانوا يبحثون عن **لغة توتاليتارية** (شمولية) معيارية، تتخلص من ألفاظ السخرية والاستعارات... إلخ، وهو أمر غير عقلي ولا يتماشى مع الواقع، ولذلك فقد فشلوا فشلا ذريعا بالطبع، **فالاستعارة** هي جوهر العمل الدماغي؛ وهي رأس باب العرفان والذهن في **الجيل الثاني من العلم المعرفي** - كما يقول جورج لايكوف - الذي بلور **النظرية العصبية للاستعارة**. والبحث التجريبي أثبت، بلا ريب، دورها المركزي في التفكير الاستدلالي البشري، القائم على المزج، وفي الاستعمال المخصوص للغة من قبل الإنسان. أما التطور الممتاز لأفكار فتجنشتين فقد كان على يد المدرسة اللسانية الأمريكية: سيرل وأوستين في نظرية أفعال الكلام. وسنتحدث عن "سيرل" في فقرة خاصة نهاية الدراسة.

وكان يقول في كتابه الأشهر "التراكتاتوس" إن أبحاثه "تتجاوز أسس المنطق إلى دراسة جوهر العالم" وهذا الكتاب شهير جدا، وقد ظهر في طبعته الأولى عام 1918 بعنوان: الأبحاث المنطقية والفلسفية، ثم أعيد طبعه في نسخة مزدوجة اللغة عام 1922 تحت العنوان المعروف:

Tractatus Logico - Philosophicus؛ وهو كتاب لا تبلغ عدد صفحاته المائة، مُرَقَّمَة ومُقسَّمَة إلى جمل وفقرات بنظام لافت للنظر، تجعل من جمله قطعة نبوئية مرقمنة أشبه بجمل الإنجيل، كما يقولون في أوروبا، وأشبه كذلك بممارسة كيركجاردية ساخرة[3].

---

(1) فكرة الحقيقة اللغوية المحض، لكن مسألة التطابق هذه أو التوافق فيها نظر وكلام، لأنه وفقا للمحاكاة والتخييل والغرابة، كما أوضح حازم القرطاجني مثلا، فإن الإبداع والمزج الاستعاري... إلخ، لا يطابق الواقع، لأنه غير محدود الماهية، بل إن هناك عملياتٍ من التحسين الدائم، كما ستأتي بعض التفاصيل.

(2) للمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، راجع فلسفة العلم في القرن العشرين، موقف جامعة فيينا من الميتافيزيقا، ص 422 وما بعدها.

(3) نسبة إلى سورين كيركجارد Søren Kierkegaard (1813-1855 م)، الفيلسوف واللاهوتي الدانمركي، الذي كان لفلسفته تأثير على الفلسفات الوجودية التي توصف على الأقل بأنها تتماشى مع اللاهوت المسيحي، عكس الوجودية=

وقد جاء رد الفعل على الكتاب في كامبريدج وفي العالم الفلسفي لأوروبا الغربية مفعما بالحماس والاهتمام. غير أننا يجب أن نلفت الانتباه إلى أن البحث في الآليات اللاواعية هو بحث في ذلك الجزء غير الظاهر من الجبل الجليدي، كما يذهب إلى هذا "لايكوف" و"جونسون" وغيرهما، فهذه الآليات هي محض عمليات انقداح **Firing** عصبية ذات بزوغ **Rise** لصور ذهنية، على حد تعبير "أنطونيو داماسيو" Antonio Damasio [1]؛ فالعالم الخارجي كما يدركه الدماغ ليس هو العالم الحقيقي كما خلقه الله بماهياته وجوهره، فهو غيب مشهود[2]، ولذلك تفصيلات ناقشناها في كتابنا: البناء العصبي للغة، نحونا فيها نحو النموذج

=الملحدة للفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر. وقد كان شديد التأثر بمنهجية سقراط القائمة على الحوار والبعد عن التلقين السفسطائي، ومبدأه أن الحقيقة موجودة والمعرفة ممكنة، يجب فقط البحث عنها... إلخ.

(1) برتغالي أمريكي شهير وطبيب الأمراض العصبية السلوكية، وله أبحاث حول كيفية نشأة الفكر من خلال المشاعر والعواطف؛ فالعاطفة والشعور عنده هما محوران أساسيان في السيرورات التنظيمية للحياة لدى جميع المخلوقات الحية تقريبًا. وهو مؤلف كتاب (خطأ ديكارت)، وكتاب (الشعور بما يحدث)، الذي وصفته النيويورك تايمز بأنه أحد أفضل قصص الدماغ في هذا العصر.

(2) أحب هنا أن أشير إلى تدوينة مهمة للصديق الدكتور طارق المالكي بتاريخ 5 يناير 2017، مع بعض التصرف؛ فقد لاحظ "لايكوف" خصوصا أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل إن الإنسان قد قام ببناء علومه المختلفة (المنطق والرياضيات واللسانيات... إلخ) على أساس استعاري مزجي، خلافا لنظرية **المُثُل الأفلاطونية**، التي تدعي أن عناصر التفكير البشري توجد مستقلة عنا؛ أي إنها توجد في عالم المُثُل، الذي يحتوي على أمثلة ونماذج مستقلة في وجودها عنا؛ فالأرقام مثلا استوحاها الإنسان عن طريق عملية التذكر من عالم المثل؛ ومن ثم فالرقم (واحد) هو حقيقة مستقلة عن لحظة الإبداع العقلي !! وظلت هذه الأسطورة تغذي المخيلة البشرية قرونا عدة حتى القرن التاسع عشر الميلادي، عندما جاء العالم "بروير" المطرود من حلقة "هلبرت"، وقد اقترن اسم هذا العالم بالتيار الحَدْسي أو البنائي، وسُمي بالبنائي باعتبار أنه إذا أردتَ أن تبرهن على وجود شيء ما فما عليك إلا أن تبنيه أو تُنشئه إنشاءً، والبناء هو مجموعة من المراحل الذهنية التي تفضي إلى بناء الشيء؛ أي إلى وجوده. وما يمكن أن يُفهم من كل ذلك هو أن الوجود المُدرَك بالحس هو شيء يبنيه الدماغ البشري؛ فالرقم واحد هو شيء صنعه الإنسان في دماغه. وقد ظلت أفكار "بروير" مجرد ***أفكار فلسفية لا يجمعها نسق برهاني***، خصوصا أن "بروير" يحتاط من الصورنة ولا يعطيها الحق في إنشاء الحقائق؛ فاللغة الرياضية عنده ما هي إلا وسيلة اتصال، وليست وسيلة خلق وبناء، لذلك فالمنطق عنده يأتي في الدرجة الثانية. حتى جاء تلميذه الوفي "هايتين" فأعطى لأفكار "بروير" لباسها المنطقي الصارم على طريقة حلقة "هلبرت". ثم انتقلت أفكار "بروير" إلى لايكوف، فأصبحت تمثلات الأشياء التي تحيط بالإنسان، أو تلك التي يعقلها، ما هي في واقع الأمر إلا بناءات نظرية عن طريق آلية الاستعارة. وفي ظل هذا المفهوم الجديد **أصبحت الاستعارة نوعا من الحساب، بعد أن كانت نوعا من الاستلهام**، وهذا هو ما يمثل فحوى ما قدمه "لايكوف" في كتابه الأخير philosophy in the flesh (الفلسفة الواقعية أو المادية).

الإمبريقي غير المغرق في الفلسفة، من أجل فهم شيء من هذا الأمر، وفقا للمعطيات المتحققة من خلال الأدوات والقياس... إلخ.

ولذلك يقول السيميائي الفرنسي الشهير إميل بنفينيست 'Benveniste Emile (1966): إننا لن ندرك الإنسان يوما بمعزل عن اللغة، ولن نراه يستحدثها، كما أننا لن ندرك الإنسان منكفئا على ذاته ومُعملاً عقله في تبيان وجود الآخر. إن ما سنجده في هذا العالم هو الإنسان المتكلم؛ إنسان يُكلم آخرَ، ويدل الكلام على تعريف الإنسان بعينه'[1]. فكل اللاوعي، وكل المزج الاستعاري، وكل ما جعل من الحضارة والفلسفة والثقافة ما هي عليه في عصرنا هو بزوغ لغة البشر بطريقة ما زال الغموض يكتنفها في دراسات الأعصاب التجريبية.

2 - الأبعاد الإبستمولوجية للنموذج اللساني المعاصر:

كثير من النظريات اللسانية المعاصرة، أو ما يمكننا تسميته (ما بعد تشومسكي)، تميل إلى وصف نضوج البنية الفطرية للخلايا المسئولة عن نضوج القواعد التركيبية المُحدِّدة ل - 'الغريزة اللغوية' لدى البالغين من الجنس البشري، خصوصا المساحات المتطورة في قشرة الدماغ، وبالتالي فإن **'الكفاءة الفطرية للغة'** هي الأمر الحاسم الأكثر أهمية، ويمكن عدها **البيئة البيولوجية الخام** التي تعتمد عليها كل أشكال نمو هذه 'الكفاءة اللغوية' عبر التفاعل مع البيئة الخارجية ومحيط الموجودات، لأنه غالبا ما توجد علاقات شديدة القوة بين عملية التطور الأولى للغة وما تلاها من تداعيات لتوليد لغات أخرى، بحسب فرضية توحيد الشكل Uniformation Hypothesis كما عند السير لايل Lyell في الجيولوجيا أو داروين الذي تأثر بلايل في الأحياء وطبّق نظرياته الجيولوجية التطورية في البيولوجيا؛ تلك الفرضية التي تقول إن العمليات الفاعلة لتطور اللغات عبر التاريخ هي نفسها التي قامت بدور حيوي في عملية خلق اللغة Genesis of Language، وهو ما لوحظ عند تطور ال - Pidgin،

(1) Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard, 2004, T.I, P 259.

وهي لغة الإنسان خليط الأوروبي - إفريقي إلي ما يعرف بال - Creole، وهي خليط اللغات الأوروبية وحدها.

لكن الأزمة هي عدم تحديد الوجود الفيزيقي لمثل هذه القواعد داخل بيئتها البيولوجية الدماغية، أو معرفة النموذج الجيني الأمثل لتطبيق هذا النوع من التوالد والتطور، فقط ما نسجله هو نشاط التدفق الدموي والموجات الكهرومغناطيسية، تماما كما حالة الكون الفسيح الذي لا نستطيع معرفة شيء عنه سوى موجات وانبعاثات إشعاعية ونشاط كهرومغناطيسي... إلخ. والسؤال الكبير الذي يطرحه العلماء والباحثون[1] هو كيف يمكن لنظام غاية في التعقيد، مثل 'اللغة'، أن يحافظ على وجوده واستقراره في آن، بل ويتعرض هذا النظام إلى تغيرات مستمرة دون أن ينهار كذلك؟ رغم أنه يتوزع على ملايين المستخدمين من متكلمي البشر، على تنوع أجهزة التعبير لديهم وتباينها الكبير، فضلا عن أنهم لا يعرفون قوانين عمل هذا النظام، بل ولا حتى كيفية السيطرة عليه أو التحكم به التحكم الأمثل؟ والرؤية التي أحاولُ أن أرجع إليها الإطار العام لمثل هذا التعقيد في النظام كله تتمحور حول آليات عمل الكون بجميع أنماط الوجود فيه (الحي وغير الحي وشبه الحي) في عالم (الأمر) الإلهي الخاضع برمته إلى سيرورة التوالد الذاتي، وهي نظرية كبيرة ومعقدة أعمل عليها منذ سنوات.

إن الظواهر الكمية التي تحدث في العالم الذري (عالم الميكرو Micro)، لو أردنا أن ننقلها كما هي لتحدث في العالم الكبير (الماكرو Macro)، لأصبح عالمنا الحسي المرئي مثل عوالم ألف ليلة وليلة، أو قصص هاري بوتر الحديثة، لأن العالم الذري مفعم بسيرورات الحياة المختلفة، بينما العالم المادي الأوسع لا نرى فيه سوى الانهيار والدمار لكل الظواهر، أو إن شئنا الدقة، تسيطر عليه نماذج الانهيار. وكل ما يمكنك أن تدرجه داخل دائرة الخيال يمكن أن يتحقق على المستوى الميكروي أو النانوي أو ما تحت الذري في مملكة الكوانتم الخفية.

---

(1) للدكتور عبد الحميد المالكي وفريق البحث في مختبر بنغازي للسيميائيات محاولات مهمة، على الصعيد العربي، عن حواسيب الكوانتم والسيميائيات البيولوجية Biosemiotics... إلخ.

إن جُل النشاط العصبي للدماغ البشري هو نشاط كهربي محض، مع مساعدات النواقل الكيميائية Chemical Transmitters؛ ومعروف الآن أن عالم الكوانتم يجمع بين المجال وشحنته الناقلة وبين الكتل المادية المميزة لعالمنا الحسي، ليصل العلماء إلى أن **المجال** هو أساس العمل لمعظم الظواهر الممكنة[1]، وقد بدأ التنبؤ بكل هذا المجال وآثاره وتوابعه من خلال **ملكة الخيال** التي عدها أينشتاين **أم ملكات العقل**. وما النشاط اللغوي داخل الدماغ سوى نمط مجالي كهروكيميائي، تم قياسه وتسجيله عبر آليات الأشعة الوظيفية المتطورة، ومن خلال الرسم الكهربائي للدماغ EEG... إلخ، فهو إذن واقع داخل الإطار الكمومي، ويجب أن يُبحث هناك، لا أن يُدرج فقط في الظواهر الصوتية والتركيبية والصرفية... إلخ. وقد ظهرت بالفعل فرضية غاية في الخطورة، تُعرف باسم فرضية **الانخفاض المادي المنسق، لكل من هاميروف - بنروز**

Hameroff - Penrose Orchestrated Objective Reduction (Orch - OR) Theory and Quantum Consciousness

وهي فرضية ذات تفاصيل شديدة التعقيد، نطرحها في بحثنا عن التوالد الذاتي.

إن لغة البشر، محور الأنظمة التواصلية في الكون بلا منازع، قد مرت بالتطور من خلال الانتقال من مرحلة الصورة الذهنية إلى المرجعية الرمزية، ثم جاء تحول آخر عندما تحول الرمز إلى أنظمة الكتابة بتنوعاتها، والآن نعود إلى حوسبة الصورة الذهنية من جديد؛ فأينشتاين مثلا كان يتحدث عن أن كل ما يمر به من أفكار يأتي في مخيلته أولا، قبل أن يندمج في مشكلة كيفية التعبير عن هذا برموزه الرياضية، لكننا يجب أن نلاحظ أن اللغة الرياضية هي لغة صناعية، وليست لغة طبيعية، وأنه عندما يتخيل ما يتخيله، هو ونحن وغيرنا، فستجد أننا نستخدم المونولوج الداخلي، وأن صوت اللغة هو المحرك لهذه التصورات والمفاهيم... إلخ، وبدونها لن يحدث أي شيء يُذكر من أنظمة التواصل والتفاهم!!

---

[1] للتفاصيل حول المجال وتجلياته بين مختلف العلوم، راجع: بن محمد القسطاني: ما هو المجال؟ الأمم حيوانات واسعة ينسجم تنظيمها مع بيتها.. 'بودلي' على مدونة محمد عابد الجابري، الرابط:
http://www.aljabriabed.net/n22_04kastan.htm

3 - نماذج تحليلية للتوضيح:

أُشتُهر "فريجه" بطرحه تساؤلا حول إمكانية أن يكون للجملة معنى دون أن يكـون لهـا إشارة خارجية معينة، من مثـل أجـزاء القـضايا الـتي تحمـل المعنـى ولا تحمـل إشـارة إلى أي موجود خارجي؛ فمثلا إذا قلت: (جاء الملك "أوفيد" إلى القاهرة مـن أجـل الاحتفـال باليوبيـل الذهبي...) فإن عدم الوجود الفعلي للكيان "أوفيد" في الواقع المدرَك يفقد هذه الجملة **طبيعتهـا الإشارية**، ولذلك فقد وضع فريجه مبدأ رياضيا يقرر فيه أن الجمل علـى شـكل **f(a)** تكـون حاملة للإشارة فقط في حالة واحدة، هي إذا كان العنصر **(a)** يحمل إشـارة[1]. وذلـك معنـاه أنه إذا كان جزء من التعبير اللغوي مفتقدا لإشارته العينيـة، فـإن كـل التعـبير يفتقـد إلى هـذه الإشارة. ويمثل هذا عند فريجه ما أطلق عليه التبعية الداليـة **functional dependence** من خلال إشارة الجملة إلى إشارة الأسماء الرئيسية الظاهرة فيها[2].

إن فريجه يتحدث عن الواقعية التمثيلية في عالم الأعيان؛ فالعالم موجود - بالـضرورة - بصورة مستقلة عنا وعن مخيلتنا، وقبل حتى أن يتطور الدماغ البشري ليصبح علـى مـا هـو عليه، وبمقتضى حال الأشياء في هذا العالم يتحدد مدى صـدق/ أو كـذب مـا نـتلفظ بـه مـن أشياء؛ بمعنى أن قضية الصدق والكذب تتقيد **بالمحيط الإشاري** من حولنـا، وعليـه كانـت أي فكرة موضوعية مطروحة هي مجرد **معنى الجملة المستقل عن إشـارة تعبيراتهـا** المكونـة لهـا، ولكن إذا أدخلنا عامل الصدق بوصفه متغيرا دلاليا محوريـا فـإن الإشـارة هنـا تـصير متطلَّبـا حتميا، فلا بد من تحقيق التطابق في هذه الحالة. ومـن خـلال هـذا الطـرح نـستطيع أن نتـبين كيفية الفصل الذهني بين الواقع وسلطان المتخيل في بلاغيات الصور ضمن القصائد الملحميـة - على سبيل المثال - وما شابهها من تخييل أسطوري حادث في العقل، لأنـك في مثـل هـذا النمط من التفكير لا تبحث عن إشارة خارجية تعبيرية بقدر مـا ينـشغل دماغـك بخلـق عالمـه الخاص من التصورات البديعة من خلال تفاعل الكلمات وتسلسلها، ولذا نرى "جـون سـيرل"

---

(1) للمزيد من التفاصيل، عصام جبيل: اتجاهات معاصرة في نظرية المعرفة، دار المسيرة، الأردن، طـ 1، 2012، ص 220.

(2) اتجاهات معاصرة في نظرية المعرفة، ص 223.

يقول[1]: "هناك ظواهر مستقلة عن العقل في العالم، من بينها أشياء من قبيل ذرات الهيدروجين، واللوحات المعمارية، والفيروسات والأشجار والمجرات، وواقع هذه الظواهر مستقل عنا. ولقد وُجد الكون منذ فترة طويلة قبل أن يوجد أي إنسان، أو قبل أن يظهر فاعل آخر له وعي، وسيوجد لفترة طويلة بعد أن نرحل جميعا من على مسرح الحياة. ليست كل الظواهر في العالم مستقلة عن العقل؛ خذ مثلا المال، والملكية، والزواج والحروب وألعاب كرة القدم وحفلات الكوكتيل، تجدها جميعا تعتمد بالنسبة لوجودها على فاعلين بشر واعين، بطريقة تختلف عن وجود الجبال وأنهار الجليد والجزيئات".

ثم يستكمل الفكرة بقوله[2]: "نفترض أننا عندما ننظر إلى أشياء مثل الأشجار والجبال ندركها إدراكا نموذجيا، ونفترض أننا عندما نتكلم فإننا **نستعمل الكلمات استعمالا نموذجيا للإشارة إلى الأشياء في عالم لا يوجد مستقلا عن لغتنا**، ونفترض أننا عندما نفكر فإننا نفكر غالبا في أشياء واقعية، زد على ذلك أن ما نقوله عن مثل هذه الأشياء يكون **صادقا أو كاذبا** اعتمادا على ما إذا كان يناظر الطريقة التي توجد بها الأشياء في العالم. وعلى هذا النحو تشكل الواقعية الخارجية أساس وجهات نظر فلسفية أساسية أخرى، جرى إنكارها مرارا وتكرارا - النظرية الإشارية في التفكير واللغة referential theory of thought and language ونظرية التناظر في الصدق."

فالتوق إذن إلى تحقق الصدق التعبيري هو توق فطري يرتبط بأدوار التقرير والحكم في الحياة عموما، **لأن استطيقا البلاغة التخييلية** Aesthetics of imaginary Rhetoric شيء، والصدق التعبيري شيء آخر، ورأيي أنه لا تعاند بينهما على جهة الإجراء والتحقيق، وللقرطاجني تحليلات ماتعة حول هذه المسألة[3].

---

(1) جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع.. الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، مصر، العدد 1812، ط 1، 2011، ص 55.

(2) العقل واللغة والمجتمع، ص 56.

(3) تناولنا كثيرا من هذه الأمور وحللناها في بحثنا: تداولية المعنى عند حازم القرطاجني: الأسس المنطقية والتناول اللساني، أعمال مؤتمر حازم القرطاجني وقضايا تجديد الرؤية والمنهج في البلاغة العربية القديمة، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المملكة المغربية، 14 – 16 نوفمبر، 2017.

وأريد هنا أن أشير إلى نص مهم للأنثروبولوجي إدموند ليتش Edmond Leach، يقول[1]: "أفترض أن البيئة الاجتماعية والمادية لطفل صغير يتم إدراكها بوصفها سلسلة متواصلة، وهي سلسلة لا تتكون من أشياء منفصلة. والطفل في الوقت المناسب يتعلم فرض ما يشبه الشبكة التمييزية على هذه البيئة، ويكون الهدف منها هو فهم أن العالم مكون من عدد كبير من الأشياء المنفصلة، وأن لكل شيء فيه اسما منفصلا خاصا به. فهذا العالم هو تمثيل لتصنيفات لغتنا، وليس العكس، ولأن لغتي الأم هي الإنجليزية، يبدو بديهيا لي أن الأدغال والأشجار شيئان مختلفان، وما كنت لأفكر بذلك لو لم أتعلم أن الأمر كذلك".

وهو نص مهم لأجل فهم كيفية خلق الذهن البشري للعالم بداخله من خلال حدود إدراك الموجودات داخل العالم عبر وسيط اللغة، وأضيف هنا - مرة أخرى - أن كل إدراكنا لهذا الوجود لا يعني أن هذا الوجود هو ما هو عليه بالفعل في الكون، بل يعني أنه هو ما هو عليه في أذهاننا، لأنني أدخل الأمر دوما في دائرة (الغيب المشهود)، لعدم قدرتنا على الاستيعاب الكلي للعالم، أو حتى فهم جوهر الأشياء المحيطة وماهيتها الحقيقية، وهو أمر يدخل ضمن أكبر ألغاز هذا الكون.

ومفهوم السلسلة المتواصلة هذا عند "ليتش" يشبه عملية (تدفق الذرات) في عالم الفيزياء؛ فالعالم - عند ليتش - ليس له بناء ذاتي، بل إنه يكتسب بناءَه من خلال تصورات البشر عنه بتأثير من لغتهم، وقد نتفق جزئيا مع هذا الطرح، فليس معنى أن اللغة تقوم بتقسيم البناء الضخم للعالم إلى توليفات مختلفة من أشياء متفرقة، وتقوم بتصنيف الظواهر والخبرات... إلخ، ليس معنى هذا أنه لولاها لما وُجد العالم أو ما يحويه من أشياء، لأن العالم - كما سبق الكلام عند سيرل وغيره - موجود بالضرورة وبالفعل قبل وجودنا بملايين ملايين السنين، غاية الأمر أن للغة دورا محوريا يخص جنسنا نحن البشر بالتحديد، لأجل البقاء والاستمرار والتواصل والفهم وتأسيس الحضارة... إلخ. ويحضرني هنا مثال مهم

---

[1] روجر فاولر: النقد اللساني، ترجمة عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، طـ 1، بيروت، 2012، ص 53 وما بعدها. وقد نقل "فاولر" نص "ليتش" من كتابه

Anthropological Aspects of Language: Animal Categories and verbal abuse, P 34.

عرضه اللساني الشهير جورج لايكوف Lakoff[1]، وهو أن الكلمات لا يمكن أن تسبق المفاهيم؛ فحيوان آكل النمل (النضناض) (Echidna) Anteater سُمي بهذا الاسم لأنه يقوم بهذا الفعل؛ فهذه وظيفته في الطبيعة، وهو غير ملزم بأكل النمل لمجرد أن هناك مادةً معجميةً في النظام اللغوي تُملي عليه ذلك !! وغير هذا الكثير من ظواهر البيئة، فليس من المعقول أن الناس لم يعرفوا الظواهر إلا بعد أن زودتهم اللغة بالكلمات المعبرة عنها.

لقد دعا فتجنشتين إلى التعبير عن قضايا اللغة بشكل واضح ودقيق، ولذلك فهو يمثل تيارا فلسفيا يؤسس الفهم الحقيقي للفكر وللعالم على القضايا الصادقة المتمثلة في قضايا العلم الطبيعي، في حين يتمثل دور الفلسفة في تحليل هذه القضايا وتوضيحها[2]. فالوظيفة المثلى للفلسفة مرتبطة بالتحليل اللغوي، وهنا تشبّه الروائية 'إريس موردوخ' I.Mordoch اللغة بالزجاجة التي ننظر من خلالها إلى الواقع الخارجي، ذلك الواقع الذي يزداد تعقيدا يوما بعد يوم، ومع كل هذا تتعقد أنظمة اللغة وترتبك، لتصبح أهم مشكلات الفلسفة المعاصرة.

وهنا تقوم الفلسفة التحليلية على مجموعة أسس مهمة، نختصرها[3]:

- للغة دور فعال في الفلسفة، فترجمة المسائل الفلسفية إلى حدود وقضايا لغوية هو أفضل طريقة للمناقشة (والنمذجة والصورنة في اللسانيات خير مثال يمكن ضربه هنا).
- تجزيء الإشكالات والقضايا إلى العناصر المكونية الأساسية، وقد سمى فتجنشتين هذا بالقضايا الأولية أو الذرية elementary or atomic propositions.

---

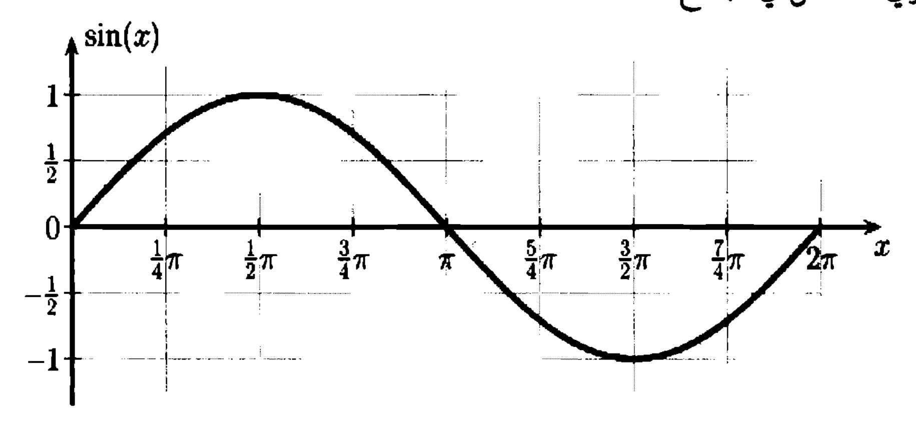
(1) Jackendoff, Ray: Foundations of Language; Brain, Meaning, Grammar and Evolution, Oxford Univ Press, 1st ed, 2009, P 27. المثال طرحه 'جاكندوف' في حديثه عن معرفة اللغة

(2) بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة.. قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010، ص 156.

(3) الفلسفة وقضايا اللغة، ص ص 66 – 67.

- التركيز على الطابع المعرفي، من خلال الكشف عن المحيط الخارجي وفهمه، باعتماد المنطق والحجة والبرهان والتجريب، من أجل التحقق من صدق القضايا.

وعلى جهة الإجمال، فاللغة هي التي تمد الفيلسوف بالمفردات والجمل والمعاني التي تساعده على بلورة أفكاره وتمثلاته، وبناء استدلالاته - كما سبق الحديث عن أينشتاين - وهنا نستذكر اهتمام "تشارلز بيرس" Charles Pierce بموضوع اللغة من زاوية المعنى، في مقالته (كيف نجعل أفكارنا واضحة) [1] [1878م]؛ حيث أوضح أن وظيفة الفكر تكمن في إنتاج عادات للفعل، ولا يوصف الفكر بأنه فكر إذا لم يكن حاملا للمعنى، وهذا المعنى هو العادات المتضمَّنة الدافعة إلى الفعل، سواء كانت واقعة أم متوقعة. والحراك الاجتماعي يُظهر - بجلاء - أن تطور اللغة شبيه بمنحنى (دالة الجيب) Sine of a curve [انظر الصورة المرفقة[2]] الذي يتزايد ويتناقص، وفي حال اللغة يحدث التزايد والتناقص بحسب الإبداع الفكري الحاصل في المجتمع.



ثانيا: فلسفة اللغة والبحث المعرفي:

ارتبط البحث في معرفية اللغة وذهنية تصور العالم بأطروحات فلسفية عميقة كثيرة، لا مجال لعرضها كلها، لكنني سأختار - في هذا البند - نموذجين لعالمين باعد بينهما الزمن والمكان، هما "جون لوك"، و"جون سيرل".

---

(1) للمزيد من التفاصيل، الفلسفة وقضايا اللغة، ص 69 وما بعدها.

(2) This is a file from the **Wikimedia Commons**. Commons is a freely licensed media file repository.

1 - 'جون لوك' والطرح الإبستمولوجي لنظرية الذهن وفهم العالم:

'جون لوك' John Locke [1632 - 1704 م] هو فيلسوف إنجليزي، يعد رائد النظرية التصورية في علوم الدماغ قديما، وهو كذلك رائد فهم النظرية الإدراكية (الحسية) التي تطورت لاحقا لتصبح (عرفانية النموذج العصبي)؛ فهو فيلسوف تجريبي حسي، من أهم أعماله مقال عن الفهم الإنساني، شرح فيه نظريته حول الوظائف التي يؤديها الذهن عند التعرف على العالم.

وقد كان من أشد مناوئي 'ديكارت' في تمسكه هو وأتباعه بالنزعة الفطرية للعقل، وشعاره الشهير أن (**طبيعة الأفكار طبيعةٌ فطريةٌ**) وليست مطبوعة على العقل بطبيعتها، لأنها ليست معرفة بالنسبة للأطفال والبلهاء وغيرهم[1]، ولعله يتوافق في هذا مع النص القرآني البديع: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل 78)، فالآية تشير - ببراعة - إلى مراحل الإدراك الحسي الواجبة داخل الذهن لأجل إدراك العالم والتفاعل معه، من ثم الوصول إلى إشراقة العرفان بالنهاية (المعرفة المنطقية الواضحة). ولذا فإن لوك لا ينشغل بفحص الذهن البشرى ذاته، من حيث تركيبُه العضويُّ، أو من حيث العملياتُ العقليةُ التي يقوم بها، بل ينطلق مباشرة نحو فحص عناصر المعرفة في الذهن البشرى، من إحساسات وإدراكات وأفكار وكلمات، ويذهب إلى أن كل الأفكار أصلها في الحواس، باعتبارها المصدر الأول لتلقي الانطباعات والإدراكات. والأفكار عنده هي ما يشكل كل المعرفة الإنسانية، ولذلك ينطلق نحو البحث في (كيفية حضورها إلى الذهن) ولا يجد سبيلا تأتى به الأفكار إلى الذهن البشرى إلا من خلال الإدراكات، التي مصدرها الحواس. ولأن لوك قد رفض نظرية الأفكار الفطرية - كما أسلفنا - فقد ذهب إلى أن كل أفكارنا ترجع إلى **الخبرة التجريبية الحسية**، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمسك بمعنى واحد فقط للفطرية؛ فليست الأفكار هي الفطرية عنده، بل إن **ملكات الذهن** من التذكر والتخيل والدمج بين الأفكار وبعضها، وكذلك الرغبة

---

[1] سمير شيخاني: صانعو التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1991، 1/ 380.

والإرادة... إلخ[1]، هذا هو ما يشكل - في مجموعه - **فطرية الذهن**، التي يولد الإنسان بها، وتُبرمج في جهازه الجيني العصبي.

ويذهب في كتابه (**مقال في الفهم الإنساني**) [1690م] إلى أن الفهم هو الملكة التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية، ولذلك فإن البحث فيها له الأولوية القصوى؛ ذلك لأنه كما أن العين هي وسيلة الإنسان لرؤية الأشياء، فإن الفهم هو وسيلته في الإدراك والمعرفة، وقبل أن ينشغل الفيلسوف بإنتاج أي نوع من المعرفة، فإن الأولى به البحث في الفهم، الذي هو أداة المعرفة، وهكذا يفتح لوك مجالا جديدا للبحث الفلسفي يختلف عن مجالات الفلسفة التقليدية؛ حيث كان كل مذهب فلسفي سابق عليه يبدأ مباشرة بالبحث في قضايا الوجود وطبيعة الإنسان ومفهوم الحقيقة وواقعية العالم الخارجي، وبالطبع فإن هذا الفهم لن يكون ولن يتحقق بدون اللغة البشرية، التي تمثل - جدليا - المحرك الأساسي للفكر الإنساني.

وقد قسم **العمليات الذهنية المرتبطة بالأفكار البسيطة** إلى: الإدراك الحسي، والاستبقاء retention، والمقارنة والدمج والتسمية، والتجريد Abstraction، وله تحليلات عميقة حول **الأفكار** المركبة يمكن مراجعتها في مظانها؛ وباختصار، فالأفكار المركبة ليست مجرد صور ذهنية عن الأشياء مثلما هو الحال مع الأفكار البسيطة، التي تنتقل بالإدراك الحسي من حيز الأعيان إلى حيز الأذهان، وتتحول إلى طبيعة ذهنية مخزَّنة في الدماغ، بل هي من إنتاج الذهن نفسه بتفاعلات عالمه الداخلي المعجز. وليس معنى كونها من إنتاج الذهن أنها مجرد أوهام، بل هي حقيقية، ويكمن الاختلاف بينها وبين الأفكار البسيطة في أن الأفكار البسيطة تشير مباشرة إلى الأشياء، ذلك لأن الإحساس المباشر هو مصدرها، بينما لا تشير الأفكار المركبة إلى إحساسات، إنما تشير إلى أفكار بسيطة أخرى، فالأمر عبارة عن مركبات تسلسلية منبنية بعضها فوق بعض داخل عالم الذهن الكبير. وفي أعماق العقل طائفة

---

(1) للتفاصيل، خضر عواد الخزاعي: قراءة في أوراق فلسفية.. جون لوك بين فلسفة العقل وحرية الفكر، مقالة منشورة على موقع مؤسسة النور للثقافة والإعلام، بتاريخ 12/ 06/ 2014:
http://www.alnoor.se/article.asp?id=246228

كبيرة من هذه الأفكار المركبة. ورأيي الخاص أن النمط البنائي لهذا الهيراركي المعقد يتغذى ويتخذ منطقه وفحواه من خلال اللغة في دماغ البشر، فبدونها لا تنشأ أفكار بسيطة أو مركبة، بل سيتحول الأمر إلى غريزة وفطرة، كالحيوانات، بمعنى نشوء مجموعة من الأفعال المنعكسة التي تثار بالتفاعل مع الطبيعة، دون أي فهم أو استيعاب للمضامين الوجودية المعقدة. بكلمات أخرى، الأفكار المركبة الأساسية التي جعلت من أدمغتنا أدمغة عرفانية بامتياز، تجاوزت مرحلة الإدراك وانتقلت إلى العرفان الأعلى، إنها ليست حاضرة في الشيء المحسوس نفسه، بل إن الذهن يستخلصها من المحسوسات، مثل الجوهر والأعراض، والسبب والنتيجة، والزمان والمكان والحركة، فالأفكار المركبة تنشأ بوصفها نتيجة تفكير متداع حول العلاقات بين ما يتلقاه الذهن من أفكار بسيطة، فالسببية مثلا هي علاقة بين شيء وآخر، يدركها الذهن حال اشتغاله عندما يفكر حول الشيئين معا، والعلية كذلك، إلى آخر ما يمكن وضعه تحت هذا الإطار.

والحقيقة أن الحديث عن فلسفة الذهن عند لوك أمر يحتاج إلى بحث منفصل، وإنما اكتفيت في هذا العرض الموجز بالإشارة إلى أهم آرائه التي لا تنبغي أن تغيب عن عقل اللساني العرفاني في بحثه عن مركزية اللغة واللسانيات ضمن أطر المعرفة والفلسفة عموما.

2 - جون سيرل وأفعال الكلام (تطور فهم المعنى):

"جون سيرل" John R. Searl (1932 - ...) هو فيلسوف أمريكي معاصر، على الرغم من عدم لقائه مع فتجنشتين، الذي عاش في كمبريدج، وتوفي (1951م)، أي قبل عام من وصول سيرل إليها عام 1952م، فقد تأثر بأفكاره من خلال أستاذه "أوستين"؛ لأن أوستين يتقاسم الكثير مع فتجنشتاين[1]. وقد اكتسب سيرل من فلاسفة أكسفورد السمات الأساسية التي تميز تفكيره، على حد تعبير الدكتور صلاح إسماعيل[2]، وجوهر ما قدمه

(1) من المعروف تاريخيا أن كمبريدج كان يسيطر عليها الأفلاطونيون، وأكسفورد كان يسيطر عليها الأرسطيون.

(2) العقل واللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص 17.

سيرل وأستاذه أوستين هو أنهما قد نقلا المقاربات الإبستمولوجية من البحث في حقيقة اللغة المحض إلى جعلها مدخلا للسياق الاجتماعي التواصلي.

وسيرل فيلسوف تحليلي يرى أن الفلسفة التحليلية تُعنى بالأساس بقضية تحليل المعنى، وهو - بالطبع - ينحدر في أصول أطروحاته إلى التجريبيين الإنجليز، لوك وباركلي وهيوم، كما يتماس مع الفلسفة الترانسندنتالية[1] transcendental عند كانط، لكن سيرل قد احتفظ بسمات تحليلية تميز فيها وانفرد بها عن غيره، يمكن اختصارها في[2]:

1- اللغة عنده هي قدرة بيولوجية عصبية كامنة في الدماغ، ذات خلفيات نفسية، وهذا ما يميزنا عن غيرنا من الكائنات الأخرى.

2- موقفه كان سلبيا إزاء دور الإبستمولوجيا في الفلسفة المعاصرة. فعنده موقع الصدارة ليس للإبستمولوجيا، وفقا لديكارت، بل لفلسفة العقل، أو الفلسفة الأولى first philosophy كما سماها؛ بمعنى أن الموضوعات المرتبطة باللغة والمعرفة والأخلاق والاجتماع والعقلانية وحرية الإرادة... إلخ، تُفهم كأحسن ما يكون الفهم عن طريق فهم الظواهر العقلية.

3- حاول بناء نظرية فلسفية كلية خاصة به.

4- نظر بعين الاعتبار إلى الحس المشترك ونتائج العلم الحديث، بوصفها رخصة للحديث بحرية ضد أنواع متباينة من اللغو الفكري داخل الفلسفة وخارجها، على حد سواء.

---

(1) يمكن مراجعة أصول هذه الفلسفة في كتاب (نقد العقل المحض) لكانط، وهي معروفة باسم الفلسفة المتعالية، وقامت على الاعتقاد بأن المعرفة ليست محصورة في الخبرة والملاحظة، ولا هي مشتقة منهما وحدهما. وقد عارضت بهذا الفلسفة التجريبية التي تنص على أن المعرفة تنبثق من الخبرة. وعموما فإن أصول الفلسفة التحليلية تعود إلى كتابات "جوتلوب فريجه" (1848-1925م)، و"برتراند رسل" (1872-1979م) و"جورج مور" (1873-1985م) وبالطبع فتجنشتين. ويعد المتخصصون "فريجه" الأب المؤسس لهذه الفلسفة التحليلية بنشره لكتابه (أسس الحساب) عام 1884م، عندما قرر أن الطريق إلى بحث طبيعة العدد هو تحليل الجمل التي تظهر فيها الأعداد. للتفاصيل: العقل واللغة والمجتمع، ص 17 وما بعدها. كما يمكن الرجوع إلى:

Anthony Kenny: Frege; an Introduction to the founder of Modern Analytic Philosophy, Oxford, Blackwell, 1st ed, 2000. P 211.

(2) العقل واللغة والمجتمع، ص ص 18-19، بتصرف واختصار.

5- على الرغم من تأثره بالتحليل اللغوي في مدرسة أكسفورد، فإن كتابه (أفعال الكلام) انتقل به وبنا خطوة كبيرة، كانت اللغة إحدى مكوناتها، في القفز نحو الفهم الأمثل للعالم، لأن نظريته حوت معالم ومكونات أخرى منوعة حول القصدية والوعي ونقد الذكاء الصناعي والواقع الاجتماعي والعقلانية... إلخ.

ومن أهم أطروحاته حول فلسفة الذهن وأفعال الكلام اهتمامه **بالواقعية الخارجية**، وهي عنده تتلخص في أن العالم (الوجود بما يحويه أو الواقع أو الكون) يوجد وجودا مستقلا عن تمثيلاتنا له representations، التي تعني الطرق المترابطة التي يملكها الكائن البشري لأجل تقريب ملامح العالم من عالم الذهن والتصورات، وأهم هذه الطرق: الإدراك الحسي، والتفكير، واللغة، والمعتقدات، والرغبات، ويمكن إضافة الصور، والخرائط، والرسوم البيانية... إلخ، ويصنف هذه التمثيلات إلى مجموعة ذات **قصدية باطنية** intrinsic intentionality (المعتقدات والإدراكات الحسية) وأخرى ذات **قصدية مشتقة** derived (الخرائط والجمل)[1].

ومن الأدوات التحليلية المهمة التي أحب أن أشير إليها في هذا المقام استخدامه **لبرهان الخُلف أو الرد إلى المُحال reductio ad absurdum (reduction to absurdity)**، وهو برهان غير مباشر لأجل الرد على إبطال قضية ما عن طريق بيان فساد النتيجة اللازمة عنها، بمعنى سلوك طريق غير مباشر لأجل تفنيد قضية ما من خلال البحث عن تضمنها لشيء باطل أو محال عقلا، من ثم نلاحظ تناقض النتائج الصادرة عن القضية[2]. ويصل 'سيرل' هنا إلى نتيجة تحليلية مهمة جدا[3]: **(إذا كان كل ما يوجد للمعنى هو نماذج من المثير والاستجابة، فسيكون من المستحيل تمييز المعاني التي تكون قابلة للتمييز في الواقع، وهذا هو برهان الخلف).**

---

(1) John Searle: Construction of Social Reality, New York and London, the free press, 1st ed, 1995, P 150.

(2) يمكن مراجعة تفاصيل المسألة وأمثلتها، العقل واللغة والمجتمع، ص ص 24-26.

(3) العقل واللغة والمجتمع، ص 27.

* **أفعال الكلام بين سيرل وأوستن، ولمحة من جرايس:**

كانت أولى ملاحظات أوستن عن نظرية بديلة للغة أن هناك فئة من الملفوظات enunciations تحمل المعنى لكنها لا توصف بالصدق أو بالكذب؛ فالذي يقول: أنا أعد أن أراك غدا، لا يقدم تقريرا عن الوعد، والذي يقول: أقبل هذه الفتاة زوجة شرعية لي، لا يصف الزواج أو يكتب عنه تقريرا، ومثل هذا النوع من الجمل يدخل فيما أطلق عليه **حالات الفعل**، وأشتهرت لاحقا بمصطلح **المنطوقات أو الملفوظات الأدائية performative utterances** في مقابل **المنطوقات التقريرية Constative utterances**. ونشأ عن هذا التقابل بينهما ملمحان رئيسيان في **التداولية الحديثة**[1]:

1- المنطوقات التقريرية توصف بأنها صادقة أو كاذبة، خلافا للأدائية التي لا يمكن الحكم عليها بهذا، لكن المنطوقات الأدائية لها صفة أخرى هي **الملاءمة/ عدم الملاءمة**، بمعنى أنها إما أن تكون ملائِمَة felicitous أو غير ملائمة infelicitous. وذلك بالاعتماد على كونها منجزة إنجازا صحيحا كاملا أو لا.

2- المنطوقات الأدائية ليست مجرد أقوال، بل هي أيضا أفعال لأشياء. أما التقريرية فهي مجرد أقوال وتقريرات.

ثم غيّر أوستن آراءه بعد ثبوت أن كثيرا من المنطوقات الأدائية يوصف بالصدق وبالكذب، مثل التحذير، ثم إن التقريرات أدائية أيضا، وإذا وضع المرء عبارة ما وأقام عليها الدليل الملائم صارت عبارة "ملائِمة"... إلخ. من ثم انطلق نحو نظرية عامة في أفعال الكلام، بجمع الأمثلة، ثم تصنيفها، وفهرستها، والتحديد الدقيق لمعانيها... إلخ. ثم جاء سيرل بعده لأجل إكمال الإطار النظري المطلوب لهذه النظرية كما يقول الدكتور صلاح إسماعيل، وأوضح فيه اتحاد الأبعاد الثلاثة المتضمَّنة في الفعل الكلامي، وهي المنطوق والمعنى والفعل utterance, meaning and action، لتنتقل اللغة من الفلسفة العامة إلى فلسفة الفعل.

وأفعال الكلام عند سيرل هي أقل الوحدات في التواصل اللساني عموما، ومن خلال تطويره لنظرية أوستن أفاد من إسهام جرايس Grice (1913-1988)، خصوصا

---

(1) العقل واللغة والمجتمع، ص 30.



أعمالـه المبهـرة حـول القـصدية في المعنـى، والمبـادئ العقليـة للتعـاون الحـواري Conversational co - operation والاستلزام الحـواري implication، مـن ثـم نـراه يطرح أسئلة من قبيل: كم عدد أنـواع الأفعـال المتـضمنة في الكـلام illocutionary acts، ومن مثل: كم عدد الطرق الممكنة لكي يـربط المتكلمـون المـضامين القـضوية بـالواقع في أداء الأفعال التي تعـبر عـن مقاصـد متـضمنة في القـول illocutionary intentions، مـن ثـم وصل إلى الأنماط الخمسة للفعل المتضمن في الكلام، المشهورة المعروفة، من خلال تحليل بنيـة هذه المقاصد[1]: **الأفعال التوجيهية** directive acts، **والتوكيديـة** assertive، **والإلزاميـة** commisive، **والتعبيرية** expressive، **والتصريحية** declarative.

وبهذا يحتل الفيلسوف الأمريكـي 'جـون سـيرل' موقـع الـصدارة بـين أتبـاع أوسـتين ومريديه؛ فلقد أعاد تناول نظرية أوستين وطور فيها بُعدين من أبعادها الرئيسية هما: المقاصد والمواضعات. ولا يهتم سيرل إلا بالأعمال المتضمَّنَة في القـول. ويتمثـل إسـهامه الرئيـسي في التمييز - داخل الجملة - بين ما يتصل بالعمل المتضمَّن في القـول في ذاتـه، وهـو مـا يـسميه (واسم **Marker القوة المتضمنة في القول**)، وما يتصل بمضمون العمـل، وهـو مـا يـسميه (**واسم المحتوى القَضَوي**)؛ فقولنا مثلا: (أعدك بأن أزورك قريبا) يعبر عن نية الوعد بالزيارة، الذي يتحقق بفضل قواعد لسانية تواضعية تحدد دلالة هذه الجملـة. وهـذه النيـة تمثـل واسـم القوة المتضمنة في القول، كما يعبر عن إبلاغ مقصده هذا (نية الوعد) من خـلال إنتاجـه لهـذا التركيب اللغوي، وهذا ما يمثل (واسم المحتوى القضوي)؛ ومن هنا نستطيع القـول إن للقائـل مقصدين[2]:

- الوعد بالزيارة.

---

(1) راجع تفاصيل وأمثلة حول هذه الأفعال ومعانيها وإشاراتها في: محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغـوي المعاصـر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2011، ص ص 51-52. وقارن بالعقل واللغة والمجتمع، ص 32. وهنـاك اخـتلاف في ترجمة المصطلحات. وقارن بالأصل عند سيرل:

Searle J, R: Expression and Meaning; Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge University Press, 1981, PP 8 – 15.

(2) البناء العصبي للغة، ص 402 وما بعدها.

- إبلاغ هذا المقصد بإنتاج جملته بناء على قواعد تواضعية.

ويتمثل الإسهام الثاني لهذا الفيلسوف في تحديده لشروط نجاح العمل المتضمن في القول؛ فيميز بين: **القواعد التحضيرية**: ذات الصلة بمقام التواصل؛ حيث يتمكن المتخاطبون من الحديث بنفس اللغة وبنزاهة. **وقاعدة المحتوى القضوي**: يقتضي الوعد من القائل أن يسند إلى نفسه إنجاز عمل في المستقبل.

ثم قاعدة النزاهة: ذات الصلة بالحالة الذهنية للقائل، فمن وعد يجب أن يفي بوعده. **والقاعدة الجوهرية**: تقدم نوع التعهد الذي قدمه أحد المتخاطبين؛ إذ على القائل أن يلتزم بخصوص مقاصده واعتقاداته.

وقواعد المقصد والمواضعة: تحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها مقاصده بفضل المواضعات اللغوية.

وقد مكّن هذا التحديد سيرل من تقديم تصنيف جديد للأعمال اللغوية، كان أساسا لمنطق الأعمال المتضمنة في القول. وكان أوستين قد لاحظ أن للفعل الكلامي الكامل ثلاثَ خصائصَ، هي: **أنه فعل دال، وأنه فعل إنجازي**؛ (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات)، وأنه **فعل تأثري**؛ (أي يترك آثارا معينة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا).

ونختم هذا الطرح بلمحة سريعة ومهمة عن العرفانيين الحداثيين والمعاصرين.

ثالثا: بعض نماذج اللسانيين العرفانيين الحداثيين والمعاصرين ومقارباتهم في فهم اللغة البشرية:

1 - مقاربة فودور/ كاتز (اللغة والذهن والتمثيل اللساني للعالم)[1]:

ظهرت أفكار "جيري فودور" عن نمطية الدماغ في كتاب يحمل هذا العنوان تحديدا، عام 1983م[2] (Modularity of Mind). وخلاصة فكرته تقول إن النموذج الأصغر أو البنية الصغرى Module تقع ضمن التنظير العلمي، عند علماء السلوك وعلماء العرفان، للعمليات العرفانية ذات الحد الأدنى في الدماغ. وفي السيكولوجيا التطورية فهذه النماذج هي عبارة عن **وحدات للعمليات الدماغية** تنشأ نتيجةً لعوامل الاختيار وضغط الطبيعة (الضغط الانتخابي والبزوغ)؛ بمعنى أنها تأتي استجابة للأحداث في الواقع، ولم يكن لها هذا النشوء والتطور لولا وجودها الأوَّلي محمولةً فوق الأبنية العصبية من زمن سحيق، حتى تهيأت الظروف الملائمة والعوامل المثيرة التي قدحتها Firing فنشطت وبدأت العمل، وهي الطريقة الوحيدة المفسِّرَة لعملية النشاط اللغوي حتى يومنا هذا؛ فالإنسان يولد بجهاز جيني متطور (جهاز اكتساب اللغة وفقا لتشومسكي LAD) الذي يبدأ العمل فور الولادة؛ فيكتسب ويشفر ويخزن ويتعامل مع المعطيات اللغوية، حتى يبدأ الطفل جملته الأولى.

وكل من فودور Fodor وستيفن بنكر Steven Pinker يمثلان رأس الاتجاه المعروف **بالمذهب الفطري العقلي**؛ حيث يرى العلماء من هذا الاتجاه أن لغة الفكر **فطرية خفية** تُسمى Innate Language، والمصطلح المستخدم للإشارة إليها هو Mentalese، ويؤيدون فكرة أن هذه اللغة تعمل في مستوى أدنى من الوعي الشعوري Conscious

---

[1] كاتز Jerrold J. Katz (1932-2002م)، لساني توليدي امريكي، أدخل الدلالة في البحث التوليدي وطوره، وكان من المدافعين عن مذهب العقلانية Rationalism ضد المذهب التجريبي Empiricism السائد في عصره. أما جيري فودور Jerry Fodor (1935-2017م) فهو أيضا لساني امريكي من كبار أعلام المدرسة التوليدية، واللسانيات العرفانية المعاصرة، وأُشتهر باتباعه مبادئ فلسفة الجدل Polemic في بلاغيات الخطاب المعاصر، خصوصا تلك التي تحتمل أكثر من حُجة وتداخل أكثر من برهان.

[2] يمكن مراجعة التفاصيل الطويلة لطرحه هذا وتفرقته بين العرفانيين والسلوكيين في تعاطيهم لهذه القضية، انظر:
Fodor, Jerry A: Modularity of Mind: An Essays on Faculty Psychology, Cambridge, Mass, MIT Press, 1983.

Awareness، وتعمل كذلك في الوقت نفسه في مستوى أعلى من الحوادث العصبية بالمخ Neural Events. في مقابل **المذهب الطبيعي الأصلي**، وأبرز أنصاره إدوارد سابير Sapir وبنيامين لي وورف Whorf ولودفيش فتجنشتين Ludwig Wittgenstein وجان بياجيه Piaget. وهؤلاء يرون جميعا أن اللغة التي يفكر بها الإنسان ليست لغة فطرية، بل هي اللغة الطبيعية الأصلية Native Natural Language التي يتعلمها ويتحدث بها. وتلك قضية تحتاج معالجتها إلى بحث منفصل.

وعموما فأهم ما كان ينادي به كاتز Katz (1966) - تلميذ تشومسكي الشهير مع تلميذه الآخر فودور، ولهما نظريات مكملة لأطروحات تشومسكي في تحليل المعنى والحقول الدلالية - هو **أن المكونات الدلالية لا تتغير بتغير اللغات**، على الرغم من أنها ترتبط بها، وهي جزء من **نظام إدراكي** يتفرع من التركيب الذهني للفكر البشري في عمومه. ومعلوم للسانيين أن كل من كاتز وفودور قد أكملا عمل **تشومسكي بإدخال المعنى في إطار النحو التوليدي**، لأن كتاب تشومسكي عن (البنيات التركيبية) لم يتضمن أي مكون دلالي في النموذج الذي طرحه، لأن مشكلة الدلالة لم يكن لها حل من وجهة النظر الفلسفية، فجاءت مقالة كل من كاتز وفودور عن بنية **النظرية الدلالية** لطرح بعض الحلول؛ فكاتز مثلا يقسم الدلالة إلى نمطين: **دلالة معجمية**، تتكون من نسق من العلاقات التي تربط بين المفردات وتنتهي إلى المعجم. **ودلالة بنيوية**، التي نمثل لها بالعلاقات الشجرية داخل البنية التركيبية؛ فجملة مثل: ضرب الولد الرجل، وضرب الرجل الولد، لهما البنية التركيبية نفسها، باعتبار المكونات، غير أن الفرق في رتبة الوحدات التركيبية نتج عنه فرق في الدلالة[1].

---

(1) ولنا في هذا مباحث ودراسات حول آليات عمل الذهن فيما يخص المفاهيم الوجودية والمفاهيم اللغوية، طرح كتاب البناء العصبي للغة كثيرا منها، وغيرها سيصدر بحول الله تعالى.

* بعض جهود فودور خصوصا:

يعرض العلامة "فودور" في كتابه (الذهن لا يعمل على هذا النحو)[1] تلميحا إلى عنوان كتاب ستيفن بنكر: (النحو الذي يعمل عليه الذهن) الصادر عام 1997م. وقد قدم فيه فودور ردا قويا على التركيب الجديد (New Synthesis) الذي اقترحه التطوريون (وروادهم في هذا بنكر، وبلوتكين... إلخ)[2]؛ أي التركيب بين الداروينية الاجتماعية، والنزعة الفطرية (تشومسكي)، وعلم النفس الحاسوبي. ما يلفت الانتباه عند قراءة فودور في هذا الكتاب تحديدا هو قدرة الرجل الفائقة على الدفاع عن أطروحات يصعب على غيره أن يدافع عنها. فعلى الرغم من سوء سمعة ديكارت في أوساط فلسفة الذهن والعلم المعرفي اليوم، يواصل فودور الدفاع عنه بحجج علمية قوية لا بأس من الإفادة منها في نظرية العرفان المعاصرة.

وفي كتاب رائد آخر شاركه فيه العالم "زينون" بعنوان (عقول بلا معان: مقالة حول محتوى المفاهيم)[3]، يقدمان مجموعة من الأطروحات التي ينفردان بالدفاع عنها مجتمعة عن باقي علماء فلسفة اللغة والذهن، ومن أهم هذه الأطروحات أن شواهد الاعتقادات والرغبات وما ماثلها من المواقف القضوية الأخرى هي شواهد توضح بجلاء علاقات ترابط الأذهان بالتمثيلات الذهنية، وأن التمثيلات الذهنية تعد في أساسها تمثيلات خطابية (أي إنها عبارة عن تمثيلات لا تكون مصاغة إلا في حامل شبيه بالحامل اللغوي language - like) (Models، وأن الإحالة هي الخاصية الدلالية الوحيدة التي تتميز بها هذه التمثيلات الذهنية أو اللغوية؛ وأنه لا وجود لشيء كدلالات الكلمات أو محتويات الكلمات التصورية؛ وليس هناك شيء مثل المعاني... إلخ.

---

(1) Jerry Fodor. The Mind Doesn't Work That Way: The Scope and Limits of Computational Psychology. A Bradford Book (MIT Press). 2000.

(2) يمكن مراجعة عبد المنعم جدامي: الداروينية اللغوية، دار كنوز المعرفة الأردنية، طـ 1، 2016.

وعن بنكر تحديدا راجع عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، الفصل الأول من الدراسة، الطرح المقدم نهاية الفصل حول طبيعة العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر.

(3) Jerry A.Fodor, Zenon W.Pylyshyn: Minds without Meanings: An Essay on the Content of Concepts, MIT Press, 1st ed, 2015.

باختصار، فإن حالات العقل، مثل الرغبات والمعتقدات... إلخ، ما هي إلا علاقات بين الفرد والتمثيلات الذهنية Mental Representations لمثل هذه الأفكار، ويمكن شرح مثل هذا النوع من التمثيلات فقط من خلال لغة الفكر داخل العقل البشري Language of Thought (LOT). ولغة الفكر هذه نفسها عبارة عن كيان مصنَّف ومنظَّم codified داخل الدماغ البشري. كما تقدم بنا الكلام عن الأفكار المركبة عند "جون لوك".

والغرض الأساسي لفودور وزميله في هذه المقالة المطولة هو الاستدلال على أن هذه الأطروحات مجتمعة إذا صحت واستقام بناؤها ستكون لها انعكاساتٌ عميقةٌ وتأثيرٌ كبيرٌ في فهمنا للعلم العرفاني، واللسانيات العصبية العرفانية، وعلم النفس، وفلسفة اللغة، وفلسفة الذهن... إلخ، فهذه المباحث باتت كلها، في نظر فودور وزميله، تحتاج إلى مراجعة متأنية وواسعة النطاق. وبالتالي فالكتاب يمثل لبنة مهمة ضمن ما نطرحه حول مركزية اللسانيات في الإطار العام لنظرية المعرفة وفلسفة العلوم.

ومن أهم ما يراه فودور أن الاعتقادات والمقاصد... إلخ، هي أمور قابلة للحوسبة، وهنا تعلو "الاستعارة الحاسوبية" إلى الحد الذي سيجعل فيلسوف اللغة الأمريكي "دونالد ديفيدسون" Donald Davidson (1917 - 2003 م) وأتباعه - وهو أحد منكري تزييف الآلة للمعرفة البشرية - بحاجة ملحة إلى تحديد الفرق بين الإنسان والآلة، ولا سيما أن الآلة الآن يُقطع فيها أشواط بعيدة نحو "الاستدلال" الانفعالي وتشكيل "الاعتقاد"، إلى حد مقلق للغاية لأنصار مدرسة التصورات المثالية للعقل[1]، ذات النظرة الأرسطية التقليدية.

---

(1) من أصعب ما يواجه الإنسان في وقتنا اختراع آلة تقوم بالحساب الرياضي لقيم تحقق الاستعارة في كلام البشر؛ بحيث يمكن أن تتنبأ الآلة بالعلاقة الاستعارية مثلا بين معنى الرحمة ومعنى الجهاز العضوي "الرحم" في وصف الله تعالى بالرحمن الرحيم، على حد قول طارق المالكي. وأنا أقول دوما وأؤيد الرأي القائل إن الاستعارة تمثل أحد أركان التفكير البشري؛ فالدماغ البشري يدرك الأشياء التي تحيط به من خلال أشياء أخرى، وهو ما سماه تورنر وفوكوني بالمزج التصوري أو المفاهيمي، فيخترع علاقات تخيلية بين بنيات وجودية شديدة التباين، فإذا قلتُ مثلا: هاجت أحزاني، تلاحظ أنك تقيم علاقة بين أبنية عينية وجودية لا علاقة بينها من حيث الظاهر، وقد تحدثنا في أول الدراسة ونتحدث كثيرا عن أن عالم الذهن البشري هو مثل جبل الجليد، الذي يظهر منه جزء لا يُقارن ببقيته الشديدة العمق ولا نراها، ففي هذا المثال لدينا بنية تصورية من عالم البحار: (أمواج- ماء- هياج البحر- رياح)، ثم حدث اقتران دلالي=

2 - مقاربة وورف/ سابير (جدلية اللغة والفكر، وتسمى أيضا Whorfianism)[1]:

ولن أخوض فيها بتفاصيل كثيرة، فهي معروفة لمعظم اللسانيين، وتكمن أهميتها في إثارة الجدل حول العلاقة بين تشكل اللغة وتشكل العالم؛ حيث قررت أننا نرى العالم من خلال اللغة فقط، وأنني إذا لم أكن أملك اللفظة الدالة على المفهوم فلن أستطيعَ أن أرى الشيء (المدلول) في العالم، وهي بهذا الطرح فرضية (إدراكية) لم تدخل حيز التكامل العرفاني بمعطياته ومسائله المعقدة في علوم الأعصاب والدماغ والكون. وقد أسست مبدأ النسبية اللغوية Linguistic Relativism؛ أي: قيام تناسب أو تطابق Correspondence بين بنية اللغة وثقافة المجتمع؛ بمعنى أن بنية اللغة هي التي تفرض على أصحابها رؤيتهم للعالم Weltanschauung، وأننا نرى العالم من خلال اللغة فقط، وبدونها لا وجود للعالم، وهو ما ترفضه بشدة **نظرية الحتمية اللغوية** Determinism؛ التي ترى أن اللغة هي التي تحرك الفكر وتفرض عليه قيودا هكذا بإطلاق، ولو صحَّ هذا لكانت اللغة قادرة على إعانة الدارس - كما في الفرضية - ابن اللغة في هذا العصر على فهم المعاني الدلالية. والشرط أن يكون بين المتكلم والسامع أفكار سياقية متبادلة Mutual

---

=استعاري من خلال تقنية دماغية عرفانية بديعة هي المزج التصوري مع بنية داخلية لدينا: (الشعور – الحس العاطفي – تقلب المزاج)، فكانت النتيجة مثل هذا التعبير، الذي يشغل كل كلامنا، فكلامنا كله استعاري مزجي. وأرى أنه لولا هذه التقنية لما أصبح الكلام كلاما تخاطبيا تواصليا بالشكل المعروف اليوم. وسيأتي الحديث عن المزج في مقاربة تورنر وفوكونيي بعد قليل.

[1] بنجامين وورف Benjamin Lee Whorf (1897-1941م) لساني أمريكي، وفي الأصل كان مهندسا للكفاح ضد الحرائق. وأطلق على فرضيته (النسبية اللغوية)، لأنه رأى فيها تضمينات شبيهة بنسبية أينشتاين الفيزيائية، وهو تلميذ العالم سابير. أما إدوارد سابير Edward Sapir (1884-1939م) فهو ذو مولد ألماني، من منطقة Pomerania الواقعة على الحدود الجنوبية لبحر البلطيق، والفاصلة بين ألمانيا وبولندا، وتحديدا من مقاطعة بروسيا الشرقية Preußen التي سكنها السكان البروسيون ذوو الأصول البلطيقية، وهي التي عُرفت تاريخيا بتحولها إلى مركز دولة فرسان الرهبنة الألمانية Deutschordensstaat عام 1225 م. وهو ـ لاحقا ـ لساني أمريكي، طوَّر أبحاثا للجمع بين الأنثروبولوجيا واللسانيات، ودراسة التأثير المتبادل بين اللغة والثقافة، ولعل منشأه المختلط هذا هو ما ساعده على تملك ناصية مثل هذا النوع من الدراسات.

Contextual Beliefs، لأن النظرية تقوم على التواصل بين أبناء المجتمع الواحد، وتقوم على أساسين[1]:

أ- يعبر كل اختلاف في النظام اللغوي عن اختلاف في تصور الجماعة لعلاقتها بالعالم المحيط؛ فلكل جماعة لغوية تصور خاص بالعالم والأشياء، يعبرون عنه في تراكيبهم اللغوية الخاصة التي تتماشى مع طريقة تفكيرهم.

ب- للغة دور أساسي في تراكم الثقافة وانتقال المعارف عبر الأجيال.

ومن أهم مشكلات فرضية وورف/ سابير القول ب - **أسبقية الكلمات على المفاهيم**، وهذا غير منطقي، وإلا **فإن إدراك الفرد للعالم من حوله سيكون محدودا بحدود ما يملكه من كلمات فقط**. وهناك مثال مهم بهذا الخصوص عرضناه سابقا عند اللساني الشهير "جورج لايكوف"Lakoff وهو أن الكلمات لا يمكن أن تسبق المفاهيم؛ فحيوان آكل النمل (النضناض) (Echidna) Anteater سُمي بهذا الاسم لأنه يقوم بهذا الفعل؛ فهذه وظيفته في الطبيعة، وهو غير ملزم بأكل النمل لمجرد أن هناك مادةً معجميةً في النظام اللغوي تُملي عليه ذلك!! وغير هذا من ظواهر البيئة، فليس من المعقول أن الناس لم يعرفوا الظواهر إلا بعد أن زودتهم اللغة بالكلمات المعبرة عنها.

وقد انشغل إدوارد سابير في سِنِي عمره الأخيرة بالولايات المتحدة بعمله على ما سماه **اللسانيات العرقية Ethnic Linguistics**؛ بدراسته المعمقة للمعجم الذهني عند كل جماعة بشرية، وهنا تدخل الأنماط اللغوية مع الأنماط الثقافية والأبنية الاجتماعية المختلفة، وتلك قضايا أخرى لا مجال لعرضها هنا.

وتبقى أهمية هذه المقاربة لفهم كثير من الظواهر في علم اللغة الاجتماعي، لأنها تبحث الأنماط الأنثروبولوجية للتواصل الاجتماعي بمركزية البحث اللساني ضمنها.

---

(1) للتفاصيل، انظر: نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، رقم (9)، سبتمبر، 1978، ص 217.

- مقاربة تورنر/ فوكونيي (الدمج المفاهيمي - نظرية المزج)[1]:

يغلبُ على اللسانيات العرفانية فيما يخص المعنى **المكون الدلالي التصوري**، دون الالتفات إلى الأصوات أو الصرف أو المعجم، بمعالجاتها التقليدية. وقد تبنى عدد من اللسانيين في العصر الحديث هذا المنهج لتحليل الظاهرة اللغوية بمنظور شامل؛ فاهتم جورج لايكوف بالمظهر الدلالي المطلق، والمظهر المخصوص بالاستعارة، وكتب في هذا الكثير. أما جيل فوكونيي Gilles Fauconnier (تلميذ رونالد لانجاكر Ronald Langacker) **فقد اهتم بمستوى الخطاب والتواصل.**

قدم كل من تورنر وفوكونيي عملهما المبهر (الدمج التصوري أو المفهومي)، المُسمى أيضا بنظرية "المزج"، وتعرف كذلك ب - نظرية الدمج/ التكامل التصوري، وهو عملية ذهنية أساسية تشتغل على فضاءات ذهنية. ويرجع أصل نظرية المزج التصوري conceptual blending theory إلى برامج البحث التي بدأها الباحثان في سنوات التسعينيات من القرن الماضي؛ **فبينما طور فوكونيي نظرية الفضاءات الذهنية من أجل النظر في عدد من المسائل التقليدية حول بناء المعنى، قارب تورنر بناء المعنى من منظور دراساته المتعلقة بالاستعارة في اللغة الأدبية.** لقد لاحظ كل من فوكونيي وتورنر أن حالات كثيرة من نماذج بناء المعنى تبدو أنها تشتق من بنية غير مستثمرة بشكل واضح في اللسانيات؛ **إنها البنية التصورية التي تعمل بوصفها مدخلا إلى عملية بناء المعنى**. وعليه انبثقت نظرية المزج من سعيها إلى تمثل هذه الملاحظات. أطلق فوكونيي وتورنر على نموذجهما أيضا تسمية **شبكات الدمج التصوري** Conceptual Integration Networks، كما ذكرناK وهي عملية دينامية، مطواع، ونشطة في لحظة التفكير. وتمنح إنتاجات تصبح مترسخة بصفة متكررة في البنية التصورية والنحوية الذهنية في دماغ الإنسان، وهي كثيرا ما تتدخل بعمل جديد في إنتاجاتها المترسخة سابقا بوصفها مدخلات (inputs). ويعد ما يُمتزج سهل الاستبيان في الحالات التي تشد الانتباه، ولكنه يعد في جزئه الأكبر سيرورة روتينية وعادية تفلت من الكشف عنها، إلا إذا

---

[1] مارك تورنر (1954م -......) لساني أمريكي عرفاني، أستاذ بجامعة كاليفورنيا. جيل فوكونيي (1944م -....) لساني فرنسي عرفاني، ويعمل أستاذا أيضا بجامعة كاليفورنيا.

أخضعت إلى تحليل تقني مفاهيمي[1]. ويرى صاحبا النموذج أن نموذجهما يستند إلى أفكار أساسية وأدوات تحليل نجمت عن عمل متكرر ومتواصل، هذه الأفكار العامة والأدوات تخطت الأفكار القديمة عن اللغة والفكر والسلوك، وصار لهذا العمل إثارة أكبر، نبعت من اكتشاف أن هذه المبادئ العرفانية البنيوية هي نفسها التي تشتغل في مجالات كان يُنظر إليها سابقا على أنها تتمايز عن بعضها بشكل بيّن، وعُدَّت غير متكافئة تقنيا. ووفقا لهذه الرؤية القديمة وُجدت معان للكلم، ووجدت تراكيبُ نحويةٌ، ومعان للجمل (أو شروط صدقها نمطيا)، ثم الخطاب ومبادئ تداوله، ومن بعدها يأتي المستوى الأعلى، وهو محسنات الكلام، مثل الاستعارة والكناية والمجاز، وأشكال الاستدلال الاستقرائي والاستنتاجي (الاستنباطي)، والاحتج، والبنية السردية...إلخ. أما هذه الاكتشافات المتواترة ضمن العمل الحالي لفوكونيي وتورنر فقد سمحت بنوع من المبادئ العامة المتسقة، وأدوات تحليل اختزلت كل هذه التقسيمات، واتخذت من الأساس الذهني لعمل الفكر قاعدة للتحليل، وهي تشتغل في الحقيقة بصفة أفضل في وضعيات غير لغوية.

يحدد فوكونيي وتورنر الفضاءات الذهنية بأنها زمرٌ تصوريةٌ صغيرة تُبنى عندما نفكر ونتكلم، بغرض الفهم والسلوك الموضعيين. والزمر هي تجمعات جزيئية جدا تحوي عدة عناصر، تُبنى بواسطة أطر ونماذج ذهنية يُنشِئُها الدماغ، وتترابط فيما بينها ويمكن إدخال تعديلات عليها مع نمو التفكير والخطاب. ويمكن للفضاءات الذهنية أن تستعمل بصفة عامة لصنع روابط نموذجية دينامية في الفكر واللغة، بينما يحدد إيفانز الفضاءات الذهنية في كونها نطاقات [حيز محدود] لفضاء تصوري، تحتوي أنواعا محددة من المعلومات، هذه الفضاءات تبنى استنادا على استراتيجيات توظيف معلومات معمَّمة لغويا وتداوليا وثقافيا[2]. والسمة المميزة للفضاء الذهني بوصفه يقابل الكيانات العرفانية الأخرى، كالاستعارة التصورية، والإطار الدلالي، والنموذج أو المجال العرفاني الأمثل... إلخ، هي أنه يُبنى بصفة آنية on - line في لحظة التكلم أو التفكير، ويمكن أن تتدخل في بنائه كيانات عرفانية أخرى، على

(1) البناء العصبي للغة، ص 414 وما بعدها.

(2) Vyvyan Evans and Melanie Green: Cognitive Linguistics; An Introduction, Edinburgh Univ Press, 1st ed, 2006, P 157.

غرار الأطر العرفانية، والنماذج أو المجالات العرفانية المنمذجة عن طريق عملية تعرف باسم الاستقراء. وعليه ينتج الفضاء الذهني في "زمرة" مفردة ومؤقتة للبنية التصورية، تبنى لأغراض محددة لأجل التقدم المستمر للخطاب والتواصل[1]؛ فالعملية ذهنية دينامية تفاعلية على مر الزمن.

يتمثل اقتراح فوكونيي وتورنر الأساسي - باختصار - في أننا لا نحتاج لأجل تمثيل الكثير من تعقيدات الفكر البشري إلى نموذج المجال الواحد أو المجالين فقط، ولكننا نحتاج إلى نموذج شبكي (العديد من المجالات) يناسب الفكر البشري التخيلي. ويُحددان هذا النموذج الشبكي بكونه يهتم بالعمل العرفاني المباشر والدينامي الذي يقوم به الناس لبناء معنى لأغراض فكرية وسلوكية وتواصلية. إنه يركز بوجه خاص على الإسقاط التصوري بوصفه أداة عمل آنية، وسيرورته المركزية هي **المزج التصوري**[2]. والنظرية بالطبع تصول وتجول في طرح الأمثلة وتحليلها ونمذجة تشابكاتها، بما لا تسمح مساحة الدراسة بطرحه.

وختاما، فلا أجد أجمل من تعليق أينشتين[3] على رسالة أرسلها إليه فيلسوف العلم الإفريقي الأمريكي "ثورنتون" Thornton عندما قال إنني أوافقك تماما على الأهمية الكبيرة والقيمة التعليمية لتدريس المنهجية وتاريخ العلم وفلسفته؛ فكثير من الناس - حتى العلماء المحترفون - يبدون لي مثل شخص رأى آلاف الأشجار، لكنه لم ير في حياته غابة كاملة أبدا!! فمعرفة الخلفية التاريخية والفلسفية للعلوم تمنح المرء ذلك الضرب من الاستقلال عن الأحكام المسبقة لجيله كله - كما رأينا أول الدراسة عند فرانسيس بيكون - تلك الأحكام التي يعاني منها أغلب العلماء، وذلك الاستقلال الذي يخلقه **التبصر الفلسفي**، هو علامة مهمة على التمييز بين الصانع الماهر (أو العالم المتخصص)، وبين الباحث الحق عن الحقيقة.

---

(1) الأزهر الزناد: فصول في الدلالة ما بين المعجم والنحو، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ط 1، 2010، طبيعة الصور الذهنية، ص 153.

(2) مارك تورنر: مدخل في نظرية المزج، ترجمة الأزهر الزناد، وحدة بحث اللسانيات العرفانية واللغة العربية، تونس، ط 1، 2011، ص ص 57-58، بتصرف. وللمزيد من التفاصيل: البناء العصبي للغة، ص ص 416 – 420.

(3) يمكن مراجعة المقالة الطويلة (فلسفة العلم عند أينشتين) على موقع (موسوعة ستانفورد للفلسفة) [11 فبراير 2004]: https://plato.stanford.edu/entries/einstein-philscience/

وأنا أضم صوتي إليهما، وأرجو أن يكون لدينا هذا النوع من التبصر والبحث عن الحقيقة، بالاستقلال عن أفكار كثيرة بالية أصابتنا بالسأم والرجعية والتردي دهورا طويلة.



ثانيا : الدراسات الوظيفية والحجاجية :

1. نحو الخطاب الوظيفي وإنتاج اللغة تأليف: لشلان ماكنزي، ترجمة: عبد الرحمن رحموني وعزيز العماري
2. النسق اللساني الحجاجي الكلي بين الحاجة المعرفية وآفاق التجديد، د.عبد الجليل غزالة.

نحو الخطاب الوظيفي وإنتاج اللغة

تأليف: لشلان ماكنزي[1]

ترجمة: عبد الرحمن رحموني[2]

وعزيز العماري[3]

مقدمة

من المقتضيات المركزية القائمة في النحو الوظيفي أنه "نحو معني، كذلك، باستهداف الكفاية النفسية، أي نحو يجب أن يرتبط ما أمكن بالنماذج النفسية للقدرة اللغوية والسلوك اللغوي" (ديك 1997 أ: 13). قُدم نموذج نحو الخطاب الوظيفي في صيغة شبه إنتاجية (ديك 1997أ: 57)، ويعد، تبعا لهذه الصيغة، نموذجا توليديا علما أن غرض التطبيق الحاسوبي الأول للنحو الوظيفي (ديك 1989) كان من أجل تقويم وتطوير خاصيته التوليدية، مدركين أن الخلط بين التوليد والإنتاج يعد خطأً مقوليا. ومن ثمة يصر النحو الوظيفي بأنه ليس نموذجا لإنتاج اللغة. بيد أن مقتضيات الكفاية النفسية أفضت إلى النظر في العلاقة بين النموذج، من حيث تنوع مظاهره، ونماذج إنتاج اللغة المتاحة اليوم بصورة معقدة. يكمن غرض هذا المبحث في دراسة قدرة نحو الخطاب الوظيفي على بناء تقارب بين النحو الوظيفي والتوافق اللساني النفسي على إنتاج اللغة.

استدل جكندوف (1997: 7 - 8) على وجود ثلاثة مواقف ممكنة تخص علاقة النحو بعمليات إنتاج الخطاب وإدراكه:

---

(1) Mackenzie, J. Lachlan 2004 ,Functional Discourse Grammar and language production.in Mackenzie, J. Lachlan and Maria A. Gomez-GonzJlez (eds)2004 *A New Architecture for Functional Grammar*. Berlin and New York: Mouton de Gruyter

(2) عبد الرحمن رحموني، أستاذ اللغة العربية، باحث في اللسانيات الوظيفية والتطبيقية، الرشيدية، المملكة المغربية.

(3) عزيز العماري، أستاذ اللغة العربية، باحث في اللسانيات الوظيفية والتطبيقية، مكناس، المملكة المغربية.



(ا) قد ينكر الفرد أي علاقة مستبعدا النحو عن النتائج اللسانية النفسية (الموقف التقليدي للتوليدي).

(ب) قد يثبت الفرد أن آليات المعالجة يمكن أن "تراعي" أو "تستند" إلى نحو إخباري.

(د) أو يزعم الفرد أن المعالج يدمج النحو الذي يعد في حد ذاته نحوا إجرائيا.

أعتقد أن ثمة تطورات قائمة في النحو الوظيفي المعاصر الذي يقترح أن الكفاية النفسية الموسعة قابلة للتحقق عن طريق ضم الاعتبارين الثاني والثالث لجكندوف. ويمكن أن نستكشف - تحديدا - إمكانية نمذجة مستويات التعبير والتفاعلية لهنخفلد (ضمن هذا المؤلف) باعتبارها مستويات إجرائية (ضمن حالات متجاوزة) مع وسيط المستوى التمثيلي المشتغل قالبا إخباريا يستشار عن طريق آليات المعالجة.

2- النحو الوظيفي نحو إخباري:

يكمن الافتراض الأساس في موقف الوظيفي في أن البنية اللسانية تنتج عن مركب الاختيارات. فعلى سبيل المثال، يثبت في بعض اللغات مدى اختيار إسناد وظيفة الفاعل للموضوع الأول، المعكوسة في الإنجليزية في صيغة المبني للمعلوم مقابل المبني للمجهول (ديك 1997أ: 248 - 250). وقد يبرز الاختيار بوصفه اختيارا للمتكلم. غير أن ذلك يثير إشكالا واضحا بالنسبة للنحو الوظيفي، وغيره من المقاربات الوظيفية التي تثبت الاختيار: إذ تقترح النتائج اللسانية النفسية بقوة أن معظم تلك الاختيارات غير متاحة - ببساطة - في وعي مستعمل اللغة. يقول لفلت (1989: 21) "لا يستطيع المتكلم التفكير في مسألة مدى جعل متقبل الفعل (GIVE) مفعولا غير مباشر (john gave Mary the book) أو مفعولا مائلا (John give the book to Mary)". يُعرف ذلك بكونه "مناعة معرفية" أي أن عدة مظاهر من المعالجة اللغوية تعد مظاهر تلقائية، وليست متاحة بالاختيار.

يتوجب استنتاج أن النحو الوظيفي حين يستند إلى التفسيرات اللسانية النفسية، فإنه يتوخى إقامة فهم يفسر علة اعتبار المعالجة اللغوية معالجة تلقائية. ويتطابق ذلك إلى حد مع معالجة المستمع للملفوظات كما هو الحال عند إنتاج المتكلم لها. وبغية إعطاء مثال، يكمن

التفسير المقدم من رتبة المكونات المفضلة المستقلة لغويا في أنه يسعف [بالنسبة للمستمع - JLM] في إدراك ومعالجة وتخزين معلومات مركبة حين تقدم تلك المعلومات ضمن أجزاء من "التعقيد الداخلي المتنامي" (ديك 1978: 212). وعلى الرغم من ذلك، تجدر الإشارة إلى افتراض أن المتكلم يختار فعليا تقييد الإجراء التأويلي للمستمع: إذ لا يطبق مستعملو اللغة، عن وعي، المبادئ اللسانية في قدرتهم على التعبير عن أنفسهم. وينبغي، دون شك، أن يُفهم التفسير المقدم من قبل ديك بكونه تفسيرا تاريخيا وانتقائيا: إذ في كل المراتب الممكنة للمعلومات، تصبح المعلومات المترسبة في المعالجة التلقائية معلومات تتوافق مع رتبة المكونات المفضلة المستقلة لغويا ماعدا المعلومات الموازية. يُلاحظ، هنا، عدم وجود شيء وظيفي متناقض يتعلق بفهم الاختيار ذاته. في المقابل، يمكن أن ينظر إلى المعالجة التلقائية ذاتها بوصفها معالجة وظيفية لأنها تسهم تحديدا في الكفاءة وتجميع ذهن المتكلم والمستمع معا قصد التركيز على موضوع الخطاب.

إن تطبيق هذه الحدوس في بناء نموذج النحو الوظيفي سيتطلب منا النظر في العموميات المتنوعة القائمة داخل النحو الوظيفي كقيود على عملية إنتاج اللغة غير القابلة للخرق معرفيا. وهكذا، فما يمكن أن يميز النحو الوظيفي عن النحو غير الوظيفي قد يكمن في أن القيود غير اعتباطية، بل تعد، تحديدا، قيودا قابلة للفهم استدلاليا من حيث التواصل العلاقي الأكفى. وبالتالي فالموقف الذي يفرض نفسه موقف يتوافق مع الخيار الثاني لجكندوف، أي أن النحو الوظيفي يعد نحوا إخباريا يتخذ صورة مجموعة من القيود على المعالجة. وعبر بلايينِ الأفعال التواصلية، تثبت تلك القيودُ جدتها. إن مهمة الوظيفي تكمن في تحديدها وتقديم تفسيرات بخصوص ثبوتها.

3- النحو الوظيفي نموذج لإنتاج اللغة:

نقلت بعض الأعمال الأخيرة النحو الوظيفي، كما هو مؤشر له في المحور الأول، نحو وجهة الوضع الثالث لجكندوف. ويتمثل الاستثناء الأساس إزاء التأويل السائد للنحو الوظيفي باعتباره نوعا ما نحوا إخباريا في وجوده ضمن أعمال جان نيتس الذي قدم نحوه

الإجرائي الوظيفي بقوة (نيتس 1992). فقد استدل على أن عددا من القضايا المتصورة تصورا تقليديا في النحو الوظيفي بوصفه جزءا من نحو صِرف ينبغي أن تستند إلى معرفة لا نحوية. إن أسئلة من قبيل أن إسناد الوظائف التداولية يجب أن تعالج، من وجهة نظره، في المكون التصوري أو النصي، وفي كل حالة واقعة خارج النحو. ومن النتائج الهامة لعمل نيتس عناية بمواضيع نحو التمييز بين المخصصات واللواحق، أو توزيع المعلومات على العبارات الرئيسية والعبارات التابعة. وفي الظاهرتين كلتيهما، تعتمد معالجتها (الوظائف) بشكل كلي بالنظر إلى خصائصها الصورية الجوهرية: إذ تتعلق المخصصات بالنحوية وتتصل اللواحق بالعبارة المعجمية، ولا توجد، بالمثل، علاقة بسيطة ومباشرة بين معلومات نووية معرفيا والعبارات الأساسية، أو بين معلومات تابعة معرفيا والعبارات اللواحق. يستدل نيتس على أن هذا التمييز يعد، أيضا، مفهوما بصورة معقولة لكونه مترتبا عن عمليات معرفية (قبل - لغوية)، متخذا الوضع الثالث لجكندوف في اقتراح نموذج إنتاج العبارة. لكن نيتس يشير إليه بوصفه نحوا لا لأن العمليات الموصوفة توجت بصيغة ضيقة معدلة للنحو الوظيفي، بل لأنه يتضمن، بالأحرى، مكون قاعدة التعبير الصارمة. وهكذا بين المراحل التي تنقلنا من القصد التواصلي الأول عبر التمثيل الحملي.

لقد عمل باكر وسويرسكا (ضمن هذا المؤلف) لحد الآن على تقديم دليل ثابت عن إمكانية النظر إلى قواعد التعبير، كذلك، بوصفها قواعد إنتاج لاحق، وافترضا تمثيلا تحتيا محددا تماما للعبارة التي تعد قارة و إخبارية في الأسلوب. غير أن قواعد التعبير التي افترضاها وينبغي ما أمكن أن تُتصور قواعد حركية تشتغل من درج أعلى إلى درج أسفل أو من العمق أولا، ومن اليسار إلى اليمين كما هو الشأن تحديدا في إنتاج فعلي للغة.

إن التوجه نحو إعادة تأويل النحو الوظيفي (أو جزء منه) باعتباره نموذجا للإنتاج توجه معكوس إلى حد في دعوة هنخفلد إلى نقل النحو الوظيفي من نحو متدرج من أعلى إلى أسفل متخذا الإطار الحملي منطلقا له وإضافة الطبقات في صيغة تصاعدية ضمن نحو متدرج من أعلى إلى أسفل بدءا من القصد التواصلي وانتهاء بنطق العبارة اللغوية. هذه الدعوة لا يمكن فصلها عن الأهمية القصوى في التوفيق بين النحو الوظيفي وتحليل الخطاب. يترتب

عن ذلك تضمين اعتبارات الخطاب في نموذج شامل ينبع من "الكفاية التداولية" بدلا من الرغبة في تحقيق "الكفاية النفسية". لكننا ندرك أيضا أن علماء النفس انتقلوا من دراسة الملفوظات الفردية إلى العناية بمجالات استعمال اللغة بموجب ما درسه كلارك (1992) ومجموع النشاطات العامة في تلك المجالات. ويحتمل وجود تمييز محدود بين "الكفاية النفسية" و"الكفاية التداولية" بالنظر إلى البدايات الأولى للنحو الوظيفي.

أعتقد أن العلاقة بين الخطاب والنحو يمكن أن ينظر إليها بثلاث طرق مختلفة، وهي طرق اختبرت عموما ضمن عمل قيد الدراسة. أولا، قد نطمح إلى نموذج الخطاب والنحو في عناصر معزولة عن نظريتنا، ومن ثمّ سنعمل على ربط العناصر تبعا للظواهر (يمثل ذلك أساسا موقفا مستمدا من عمل كرون (1997) وفيت (1988)). ثانيا، نستطيع دراسة قضية أن الخطاب يُبنى قياسا بنحو العبارة - يمثل ذلك طريقة قراءتنا للفصل 18 لديك (1997) وعمل متقدم لهنخفلد (1997) والمتوكل (ضمن هذا المؤلف) بطرق مختلفة. ثالثا، نستطيع تصور إنتاج الخطاب - وهو موقف يبدو أشد انسجاما مع مقاربة محاكاة الإنتاج - بوصفه عملية حركية تحدث في زمن واقعي، والنظر إلى التعبير عن العبارة بوصفه حدثا آنيا مماثلا.

أشار كلارك (1996: 285) إلى أن الملفوظات تصورت عادة كونها امتياز للمتكلمين - الإنتاجات التي يصوغها وينتجها المتكلمون عما يمتلكونه. ولا شيء يمكن أن يعلو إلى حد بعيد عن الحقيقة". يقر ديك (1997: 8)، على هذا النحو، أننا نُعنى بالتفاعل الكلامي. في هذا المستوى، تعد القرارات الواعية مطلوبة: ليس في اختيار مدى إسناد أو عدم إسناد وظيفة المفعول للمستقبل، بل في تحديد النقلة قصد التوجه نحو مرحلة معينة لنشاط مشترك في التواصل نحو: الاعتراض على ما قاله الآخرون، وإضمار نكتة ما بغية إبطال وضع للمواربة إلخ. إن اختيار النقلة يعد موضوعا مركبا يقتضي، بموجب ما بينه محللو الخطاب، عددا من الأهداف في زمن محدد دون العناية فحسب بتقدم المحاورة بكيفية تعاونية تبادليا.

4- الأفعال والأفعال الفرعية:

دعنا نتخذ مع هنخفلد (ضمن هذا المؤلف) نقلة المتكلم الاستراتيجية كنقطة انطلاق إزاء التحليل. تتضمن الوحدة الدنيا الحرة للخطاب زمرة من الأفعال (n>1). وقد تعكس تتابعها في المعرفة، في ظل ظروف عادية، عن طريق تتابعها في التعبير. من هذا المنظور، يمكن أن يعاد تأويل ترسيمة المبتدأ والحمل والذيل المعلومة ضمن عمل متقدم لديك (1978: 130) بوصفه انعكاسا لنقلة واحدة تحوي ثلاثة أفعال: إذ يتطابق المبتدأ مع الفعل الذى يقدم المحال عليه في الخطاب بطريقة ما، ويتطابق المحمول مع قضية تابعة معرفيا تستلزم ذلك المحال عليه بطريقة ما، ويتطابق الذيل مع الفعل النهائي، تصحيحا، أو تقوية لفعل سابق، مترتب، ربما، عن مراقبة ذاتية.

وكل فعل يتطابق من حيث المبدأ مع وحدة تنغيمية وحيدة، رغم أن عدة عوامل خارجية يمكن أن تقيد العلاقات بين المكونات. ففي اللغة الانجليزية، على سبيل المثال، تتضمن وحدة التنغيم عموما مقطعا واحدا مشددا أو مفخما وحادا متغيرا (مقوى) الذي يسعف في وسم نقطة انتقال ممكنة بالنسبة لمشاركين آخرين في المحاورة. يعد ذلك المقطع المشدد في معظم الحالات موجها إلى جوانب الفعل البارزة تواصليا. يماثل ذلك، في النحو الوظيفي، إسناد الوظيفة التداولية البؤرة. وعليه، تعد البؤرة مكونا أساسا لأي فعل أي ليس ثمة فعل أو موضوع مهما قصر دون بؤرة. دعنا نعتبر الملفوظ الآتي كما في(1):

(1)Oh my God، it's on fire، my hair.

قد يعكس هذا الملفوظ، على سبيل الافتراض، نقلة واحدة من قبل المتكلم. وقد يتضمن الملفوظ ذاته إلى حد ثلاثة مقاطع للتنغيم، كلها ضمن مقطع مقوى (fire،God ، hair، على التوالي). ويمكن للنقلة أن تتصور تماثليا نقلة تتضمن ثلاثة أفعال متتالية تعكس انعكاسا طبيعيا تتابع أحداث معرفية: الصدمة والإدراك والتمييز. وبناء على استعمال، بل تبني مقترحات هنخفلد يمكن أن نمثل ترسيمة هذه النقلة كما في (2):

(2) نقلة$_1$:[(فعل خطابي$_1$)،(فعل خطابي$_2$)،(فعل خطابي$_3$)]

حيث يتوافق تعداد الأفعال مع تتابعها في المعرفة.

تصبح الأفعال نمطين أساسين. أفعال بسيطة (نحو الفعل الخطابي1) تتضمن فحسب بؤرتها (ففي هنخفلد ضمن هذا المؤلف: يقدم أحد عشر مثالا عن التعجب (Damn !).
ولا تتضمن الأفعال البسيطة النحو بأي طريقة، بل تنقل مباشرة من مكون التفاعل إلى مكون التعبير. ويفترض هنخفلد أن هذه الأفعال تقتضي استشارة المعجم. في المقابل، ينبغي أن نتوخى زعم أن الكلمات الملفوظة في فعل بسيط لا تأتي من المعجم، بل تزود مباشرة عن طريق مكون التعبير. ويتضمن المعجم المحمولات، وبالتالي يشكل دعامة أساسية للمكون التمثيلي. لكن حين يكون المكون التمثيلي غير معني، فإن المعجم لا يعد كذلك خارج هذا الدور. وتوجه الأفعال البسيطة التي ربما تمثل ثبوت أو استمرار مجمل الصور الأولى للتواصل نحو نداءات الحيوان، إلى قواعد التعبير من أجل تنشيط الصيغ المناسبة للوظيفة التواصلية للفعل. ويمكن للمتكلم، بالطبع، أن يتمايز داخل العشيرة اللغوية من حيث الصيغ التي تزع إليها. في هذا الصدد، لننظر كيف أن أفعالا متنوعة للتعجب تقدم جملة من العبارات المصوغة لكل منها مستلزمات اجتماعية خاصة :

(3) مطابقة: نعم، إطلاقا، قلته، صحيح إلى حد ما.

عدم مطابقة: لا، البتة، إطلاقا.

الأسف: عذرا، استسمحك، سامحني.

ونجد أيضا أفعال التضامن مشتملة على تحيات متنوعة وتوديعات، بل أصداء وصيغ للنداء. تقتضي الأصداء قصدا (حيث يعيد المتكلم بالنسبة لمتغير من متغيرات العلل بعض أجزاء الكلام القبلي للمخاطب) من أجل إعادة التعبير عن عنصر من عناصر السياق التواصلي؛ مادام لا يحتاج إلى استشارة المعجم. وتعتمد النداءات، بالمثل، على جزء مخصوص من ذلك السياق، وعلى هوية المخاطب مع تطبيق لقواعد التعبير كلما عد ذلك واردا بالنسبة للغة المنطوقة وبالنسبة لوسم نداء مناسب. ويتمثل النمط البارز الآخر للفعل البسيط في فعل التنظيم الذى يوجه من أجل الاحتفاظ بتقدم المحاورة: إذ الصور المستعملة لهذا الغرض تعد، عموما، صياغة صورية أعلى ناجمة عن أشباه الجمل نحو ah وoh إلى صور

أشد تعقيدا تحاكي تعقيد الصياغات الصورية المعجمية (التحدث بشكل تقني، حتى تكون أكثر تخصيصا).

تختلف الأفعال المركبة عن الأفعال البسيطة في تضمن فعل أو أفعال فرعية: ففي (2) أعلاه، يعد الفعل الخطابي$_2$ (المعبر عنه it's on fire) والفعل الخطابي$_3$ (المعبر عنه my hair) فعلين خطابيين. يحمل فعل ما من تلك الأفعال الفرعية الوظيفة التداولية البؤرة التي تخصص الفعل باعتباره كلا. وتعد الأفعال الفرعية في السؤال أفعالا فرعية للإحالة (إحالة) أو الحمل (حمل): وبذلك ينظر إلى الإحالة والحمل كليهما بوصفهما نشاطان يؤديان من متكلم في التفاعل. وإذا تضمن فعل مركب فعلا فرعيا فحسب، فإن هذا الفعل الفرعي إذن يحمل بالضرورة وظيفة البؤرة (كما في الفعل الخطابي$_3$). وحين يتضمن الفعل المركب أكثر من فعل فرعي (كما في الفعل الخطابي$_2$) فإن فعلا منها يحمل وظيفة البؤرة.

تعد معظم الأفعال والأفعال الفرعية المناقشة، هنا، مصدرة ومنظمة في مستوى تصوري قبل - لغوي. بينما توجه الأفعال البسيطة مباشرة نحو مكون التعبير. أما الأفعال المركبة التي اتخذتها حتى تكون محددة لمعظم أنساق التواصل المطورة لدى الكائنات البشرية، فهي أفعال تمتلك تاريخا شديد التعقيد. وتقتضي الأفعال الفرعية جميعها المكون التمثيلي، وقد تستلزم المعجم أيضا وإن عد غير ضروري إلى حد ما. وعليه، فإن (4أ) و(4ب) يترتبان عن أفعال مركبة يحتمل كل منها فعلا فرعيا للإحالة وفعلا فرعيا للحمل، غير أن (4أ) يستدعي فقط المادة المعجمية:

(4)a. The president smokes.

b. He does.

يشير هنخفلد (ضمن هذا المؤلف) إلى أن العلاقة التنظيمية بين المكونين التفاعلي والتمثيلي ليست علاقة متبادلة. ورغم وجود علاقات افتراضية بين الفعل الحملي الفرعي والمحمول (حمل ↔ خاصية)،وبين الفعل الفرعي الإحالي والحد (إحالة ↔ محتوى قضوي، واقعة، حد) فإن بعض الإمكانات الأخرى تصبح متاحة: إذ تعكس المحمولات الاسمية تنظيم فعل فرعي حملي تجاه الحد (حمل ↔ حد).

من أجلى سمات مقترح هنخفلد أن البنية المحلاتية موضوعة كذلك بصورة صحيحة في المكون التمثيلي أي أن (الخاصية) و(الحد) حاضران أيضا في المكون التفاعلي: إذ ضمن الفحوى الخطابي نجد تمثيل...(الفحوى الخطابي) (الفعل الفرعي الحملي) ....والذي يفسر باعتباره تعيينا للمتكلم الذى يسند الخصائص إلى الذوات. وإذا تم النظر إلى المكون التفاعلي بوصفه انعكاسا لعمليات إنتاجية تنجز خارج زمن واقعي، فإن ثمة رؤية بديلة تقترح نفسها. دعنا نفترض أن بؤرة أي فعل تتطابق مع العنصر المعرفي الأول المنشط زمانيا في بناء ملفوظ ما. النتيجة أن الفحوى ذاته في هذه البؤرة فحوى يبرر قول أي شيء على الإطلاق. وتمثل البؤرة، في الواقع، وفي ظروف مناسبة محددة بموضوع معين كاللزوم أو القرابة بين المتخاطبين، كل ما يحتاج إلى تبليغه. ففى خطاب أطفال مرحلة البلوغ، يمثل الكلام معلومات بؤرية معبر عنها، بل يمثل فحسب وكأنهم يطورون "نظرية للذهن" أي القدرة الاجتماعية التي يجيء بها الأطفال قصد التعبير عن معلومات غير مبارة (محورية أحيانا) (انظر لفلت 1999: 85). وهكذا، يبدأ التأليف المعرفي لفعل ما، من هذا المنظور، بتحديد البؤرة أي ما يمثل الفعل الفرعي الأول (بصورة ممكنة).

إن التعلق بأي فعل مركب يمثل وضعا أساسيا: إما وضع إعطاء يقدم خلاله المتكلم معلومات أو خدمات للمخاطب، أو وضع طلب يحاول المتكلم ضمنه انتزاع معلومات أو مواد/ خدمات من المخاطب (انظر هاليداى 1994: 68 - 69). ويمكن أن يحدد الوضع بالدافعية الأولية للمتكلم في التواصل اللغوي، وهو وضع ينحو نحو البؤرة التي تحدد الحالة الإنجازية الأساسية للفعل جملة. وهكذا، فإن وضع الإعطاء يتصل بالتأكيد، ووضع طلب المعلومات يتعلق بالسؤال، ووضع طلب مواد / خدمات يرتبط بأمر أو التماس. وبدلا من وصل الإنجازية بالفعل الكلي، كما فعل هنخفلد، فإننا سوف ننزع، بذلك، صوب الإشارة إلى موقف المتكلم من الفعل الفرعي للبؤرة.

قد يدعم الفعل الفرعي نفسه إلى حد بأفعال فرعية تتوافق ووعي المتكلم بمدى إسهامه في المشروع المشترك للتواصل مع المخاطب، ويعتمد المتكلم هنا على مصادر المعرفة المتاحة في السياق التواصلي (المعلومات التداولية لديك 1997: 10) قصد تأسيس إطار

عمل تؤثر بموجبه بؤرته في المخاطب بطريقة مرغوب فيها. وأغلب العلاقات المعرفية الصارمة بين الأفعال الفرعية المساندة والفعل الفرعي للبؤرة تعد علاقات معلومة ضمن عمل معتمد في النحو الوظيفي: إذ قد تكون الأفعال الفرعية المساندة محاور لأنواع مختلفة (غيفون، والملخص إلخ) أو مقامات ممكنة، ويمكن أن تستلهم أفعال فرعية ضافية بفعل الرغبة في عكس العلاقة (قوة) بين المتخاطبين، شأنها شأن الأفعال المترتبة عن صياغات صورية غير مباشرة أو ظروف موقفية إلخ.

قد يختلف التمثيل الذي يقترح نفسه إذن بطرق متنوعة عن التمثيل المقترح من قبل هنخفلد (هذا المؤلف) في المكون التفاعلي. ويحتمل أن يكون التمثيل تمثيلا تصاعديا، أي أن ترتيب الأفعال والأفعال الفرعية من اليسار إلى اليمين سيقام من أجل عكس التتابع الفعلي في المعرفة. يمكن أن يظهر مقترح ترسيمة لتمثيل(1) أعلاه على النحو الآتي:

(5) نقلة1 :(حديث فعل خطابي1: صدمة) بؤرة،(تأكيد فعل خطابي2:(فعل فرعي2:1 (حمل: خوف)بؤرة)،(فعل فرعي2:2 :(إحالة : غير محددة، لا إنسان)محور)،(تأكيد فعل خطابي3:فعل فرعي3:1 :(إحالة :شعر)بؤرة

تمثل العناصر المتنوعة المكتوبة بحروف كبرى الانفعالات المنشطة والتصورات، وتشير المخصصات بخط مضغوط إلى نمط الفعل. وبمجرد ما يبدأ الحدث الممثل في (5)، يقوم مكون التعبير بتنفيذ الفعل. ينسجم ذلك والتوافق الأساس لأدبيات إنتاج اللغة" (لفلت 1999: 88) أي مفهوم الإنتاج الصاعد. هذا يعني أن مكون المعالجة التالي في التدفق الشامل للمعلومات يمكن أن يتم العمل به في خرج ثابت غير مكتمل في المعالج الآني. ويمكن لمكون المعالجة أن يوجه نحو أي جزء من أجزاء دخله المخصوص [إثبات لفلت]. والنتيجة أن مختلف مكونات المعالجة هي مكونات نشيطة آنيا وتتداخل عملياتها تداخل سقف مبلط".

ولئن أمكن للأفعال البسيطة أن ترسل مباشرة إلى مكون التعبير (كما رسم أعلاه)، فإن الأفعال الفرعية تستدعي النحو الإخباري الذي يمكن نمذجته على النحو الذي اقترح في المكون التمثيلي لهنخفلد. وهكذا، تتطابق الوحدات مع الأفعال الفرعية المختلفة، ويمكن أن

تجمع البؤرة وغير البؤرة عموما كما في (الفعل الخطابي2) ضمن(5) حول حمل أو محمول في بنية قضوية معلومة. وينتقى المحمول من الأساس حيث يوسع المعجم بفعل عمليات اشتقاقية متنوعة ومسموح بها عن طريق اللغة. وقد يعكس انتقاء المحمول أي محمول الواقعة وجهة المتكلم على تصوره، شأنه شأن انتقاء الشراء مقابل البيع في معاملة تجارية، وقد تبرز الوجهة ذاتها، كذلك، في إسناد الوظيفة التركيبية. وتتأثر الوجهة، تبعا للفلت (1999: 91 - 92)، بالعوامل التداولية المنسوبة إلى خطاب متقدم، غير أن المتكلم لا يمتلك حيزا من الحرية بهذا الخصوص.

5- المكونات التمثيلية والتعبيرية:

أضحى النسق الطبقي الكلي للمكون التمثيلي في النحو الوظيفي يؤدي دوره، مستبعدا القواعد الأساس في الصياغة اللسانية الصورية للعمليات المعرفية التي يتم التعبير عنها. وهو نسق يشكل مركب قيود على ترجمة القصد إلى النطق (هنخفلد ضمن هذا المؤلف) وقيودا تعد جزئيا قيودا كلية، وتعد جزئيا لغة خاصة. تشمل القيود الكلية ما يتعلق ببنية الموضوع، ورتبة الوظائف الدلالية، والمجال النسبي للطبقات؛ وتتعلق قيود اللغة الخاصة بتوزيع المعلومات على المخصصات، واللواحق، وحضور وغياب الزمن، وإسناد الفاعل، والاستدلالية إلخ. وتشتق قيود ضافية من الأساس حيث تفرض محمولات معينة بقوة بنية موضوع معين، كما هو شأن كلمة put في الانجليزية التي يستدعي معناها الحرفي تخصيص المنفذ، والمتقبل، والمكان. وبخصوص الصياغة الصورية لفلت (1999: 95)، يماثل التشفير النحوي بطريقة ما حل مجموعة من المتتاليات المتزامنة. ويقتضي كل رأس (المحمول JLM - في النحو الوظيفي) قيودا تركيبية خاصة من محيطه وينبغي للبنية التركيبية المترتبة أن توافق، بشكل آني، تلك القيود جميعها.

إذا نظر إلى المكون التمثيلي بوصفه مجموعة من القيود المفروضة على المعالجة، فإنه لم يعد بالضرورة افتراض أن لكل ملفوظ بنية قضوية تامة. ويحتاج أن يكون النحو ببساطة مستشارا في كل ما يعد ضروريا في إجراء فعلي، أو كما يفترض هنخفلد (ضمن هذا المؤلف) أنه لم يعد بالضرورة القول أن كل فعل خطابي يتضمن مضمونا قضويا. ومن ثمّ،

فالفعل مثلا في (الفعل الخطابي3) في (س) أعلاه، يتضمن سوى فعل فرعي إحالي وحيد يستوعب فحسب تلك القيود المتعلقة ببنية الحد، متضمنا - في تلك اللغات التي تقتضي ذلك - الوظيفة الدلالية أو التركيبية التي تحدد صورة حالتها الإعرابية. وبهذه الطريقة، يمكن دراسة ما يسمى بالملفوظات المجزّأة دون التوسل بقواعد الحذف. وتبرز العبارة التامة إذن كنسق تجاه إمداد البؤرة، مانحا سياقا مضمنا حيث يستطيع المخاطب من خلاله فهم العبارة علاوة على إمكانية إنجاز أهداف تواصلية أخرى للمتكلم.

يعد تأويل نموذج هنخفلد الذي عملنا على اقتراحه تأويلا يضم الخيارين الثاني والثالث لجكندوف: حيث يعتبر النحو عموما نحوا إجرائيا (الوضع 3)، لكن في حالة بناء أفعال فرعية، فإنه يحتاج إلى استشارة النحو والتوافق، في الواقع، مع النحو الإخباري (الوضع 3). وتكمن مزية المقاربة الإجرائية في أن النحو الوظيفي سوف يرحب، بصورة أفضل، بالنماذج النفسية للقدرة اللغوية والسلوك اللغوي التي كان يأمل ديك (1997أ: 13) من المهتمين بالنحو الوظيفي أخذها بعين الاعتبار. وتعمل المعالجة التصاعدية في إنتاج الملفوظات على افتراض أن التصورات التي تثوي خلف الفعل المركب تعد تصورات غير متاحة عموما في الوقت ذاته. فالمتكلمون، بوجه خاص، لا ينتظرون حتى حضور التصورات كلها قبل بداية الكلام. وتعمل مختلف مستويات النشاط والتصور والصياغة والإنطاق، تبعا للفلت (1989)، بصورة متوازية، مع تصور له نقطة انطلاق أكثر من الصياغة، ومن الصياغة أكثر من الإنطاق. غير أن المتكلمين ليسوا مخيرين في التعبير عن أفكارهم تماما كما يبدو لهم: أي أن النحو الإخباري، ضمن مبادئه الاتفاقية، سوف يعني - أحيانا - أن تلك الأجزاء الخاصة للرسالة توضع في خزينة مؤقته قبل إمكانية التعبير عنها.

تبرز بنية العبارة تحديدا قصد امتلاك وظيفة التخزين المؤقت تلك. هذا يبدو ممكنا على الأقل بالنسبة للغة الإنجليزية أو لغة تعد، بالأحرى، ذات رتبة ثابتة للكلمة. أعني بذلك أن الموقع التركيبي يؤدي دورا هاما في التعبير عن العلاقات المفروضة بالنحو الإخباري. لكن ماذا عن لغة تندرج ضمن ما يسمى "برتبة الكلمة الحرة" بهذا نفهم أن ترتيب المكونات يعد إلى حد كبير ترتيبا متأثرا بوضعه المعرفي نحو: الجديد، والمعطى، والمستدل...إلخ. في هذه اللغات، يمكن للترتيب الزمني، الذي تصبح من خلاله التصورات متاحة، أن يكون إلى حد معكوسا

في رتبة الكلمة، وضمن نحو إخباري يفضي إلى تأمين فائق لتلك العلاقات الدلالية جميعها بين مكونات تظل شفافة تجاه المخاطب. ويمكن أن تتوقع في هذه اللغات بؤرة يعبر عنها أولا في انسجام مع أسبقيتها المعرفية، علما أن مثالا عن هذه الوضعية نوقش بعمق من قبل فورتسكيو (ضمن هذا المؤلف). إضافة إلى أنه في لغة ذات رتبة حرة للكلمة نسبيا، غالبا ما يوجد موقع تركيبي واحد غير مكرر في (المحتوى القضوي) الذي خصص لمكون مبأر. يعد ذلك في اللغة التركية (فان شاييك 2001: 45) موقعا لغويا قبليا آنيا، ويمثل في اللغة الهنغارية (دو غروت 1989: 105) موقعا بين المحور والفعل.

إن التموقع غير الأولي للبؤرة في ملفوظات فعلية، بالنظر إلى مقابل أسبقيتها المعرفية، قد يكون مفهوما من وجهة نظر المعالجة. يستلزم الزمن في التحديد المعرفي لتصور البؤرة التي تعد عادة معلومات جديدة، وفي انتقاء صياغة معجمية مناسبة لهذا التصور. في المقابل، تعد المعلومات العالقة التي تنشط فعليا والمتوافرة بدرجة عالية (أي المحاور والمقامات) معلومات متاحة للتعبير آنيا. والمتكلم الذي يعبر عن المعلومات المتوافرة يسمح أولا لنفسه بمزيد من الوقت قصد تحديد وبناء البؤرة معجميا. لقد بين هاناي (1991) أن التموقع النسبي للمحور والبؤرة، رغم صرامة اللغة تركيبيا إلى حد ما كاللغة الإنجليزية، يعتمد على ما يسميه بنمط الرسالة: إذ في حالة طارئة، يحفز نمط الاستجابة الموقع الأولي للبؤرة، بدعم اختياري من المحور اللاحق، حيث يوجد محور متاح إلى حد كبير. ويفضي نمط المحور إلى إرجاء البؤرة إلى موقع تركيبي لاحق. ويجدر في هذا المضمار إضافة خصيصة نمط الرسالة إلى تمثيل الملفوظات في المكون التفاعلي.

من النتائج الممكن استخلاصها من النقاش السابق أن مكون التعبير لم يعد، كما هو الشأن في النحو الوظيفي الصارم، المكان الوحيد الذي تحدد فيه رتبة المكونات. وتبرز وظيفته الآن في موازنة تحقيق مطالب المكون التفاعلي الذي نأمل النظر في أي مكون من مكونات تجلي رسالته المعبر عنها قدر الإمكان، ومطالب المكون التمثيلي (كما في النحو الوظيفي التقليدي) الذي يقتضي انعكاسا صريحا لمطالبه، وانعكاسا لمكون التعبير نفسه الذي يمتلك قواعد لغته الخاصة واطراداته علما أن هذا يمثل ما أشار إليه لفلت (1990: 95) بالمتتاليات المتزامنة.

6- بعض الأمثلة:

دعنا نختم عن طريق تقديم أمثلة ثنائية عن كيف يمكن أن تعمل الأشياء.

إذا أحسست بالجوع، أستطيع تصور العنب شيئا مرغوبا فيه. وإذا كنت، على سبيل المثال، في ظروف معينة محاطا بعبيد راغبين، فقد يكون كافيا بالنسبة لي التلفظ بفعل مركب مع فعل فرعي وحيد ومبأر لزوما:

(6)Grapes!

قد يحلل هذا المثال في المستوى التفاعلي كما في (7).

(7) (نقلة1): (التماس فعل خطابي : (فعل فرعي1:1: (إحالة: عناقيد العنب) بؤرة)).

يحتاج هنا فحسب إلى ذلك الجزء من النحو المعجمي الذي يتعامل مع الأفعال الفرعية للإحالة. ويقدم المعجم الاسم المعدود (GRAPE) ويقتضي النحو الإخباري (للغة الإنجليزية) أن يكون الفعل الفرعي الإحالي مخصصا إلى حد بالنسبة للتعريف والعدد، وتستجيب قواعد التعبير بكيفية مناسبة لمخصصي التنكير والجمع. ويحدث مخصص الالتماس محيط تنغيم مناسب، ويتعلق الباقي بالقدرات التأويلية لعبيدي.

في ظروف أقل مثالية، سوف أعمل على وضع استراتيجية من أجل تحقيقي غرضي. تظهر الإحالة البؤرية لعناقيد العنب الآن في سياق هذه الاستراتيجية العامة. دعنا نفترض أن الإستراتيجية التي انتقيتها تعد استراتيجية تأدب معتدل، ومرتبطة بصيغة ..Can I have .. هذا النوع من الوحدة يمثل تذكيرا بتعبير الأفعال البسيطة عن وجود صيغة قائمة، وربما صيغة متعلمة ومخزنة في حد ذاتها. (انظر ناتيغر وديكاريكو 1992). يقترح التمثيل الآتي نفسه حيث تتخذ النقلة المخصص (POL) بالنسبة للتأدب:

(8) (تأدب نقلة1: (التماس فعل خطابي: (فعل فرعي1:1: (إحالة: عناقيد العنب)بؤرة)))

ينقل ذلك مباشرة إلى قواعد التعبير التي تناسب العنصرين (Can I have) و(grapes)، ثم ينقل العنصر الأخير فحسب، عبر المكون التمثيلي، إلى موقع مقبول:

(9)Can I have grapes؟

يعد هذا المثال حالة وجيهة تخص كيف يمكن لأي ملفوظ أن يتألف من مركب العناصر التي ترد مباشرة من المكون التفاعلي والعناصر التي يتم نقلها عبر المكون التمثيلي.

نستطيع بهذه الطريقة تفسير أن (9) يشتغل بالطريقة نفسها التي يشتغل بها (7) غير أنهما يختلفان فحسب في درجة التأدب. ويظل (9)، في الوقت ذاته، قابلا للتعديل: فإذا كان الأمر مرغوبا فيه، فإن مستعمل اللغة يستطيع إحالته على النحو الإخباري مثلما يحدث أثناء إبداع المتكلم، في جهد لبلوغ مستوى أعلى من التأدب، صنعة مغايرة لصياغة مدركة اجتماعيا:

(10)If you could possibly see your way clear to providing me with some grapes.

ومن أمثلة تطبيق المكون التمثيلي بصورة كلية المثال (11) حيث تبرز الحروف الكبرى المقطع المقوى:

(11)Did you EAT the grapes؟

دعنا نفترض، هنا، أن المتكلم يعلم المخاطب وعناقيد العنب: إذ يمثل كلاهما معلومات معطاة، أما البؤرة فتتمثل في أكل. وهكذا، قد تكون البنية الأولية في المكون التفاعلي على النحو الآتي:

(11) (نقلة: (بحث فعل خطابي:(فعل فرعي1:1:(حمل :أكل)بؤرة)))

وهي بنية قد تسفر عن الملفوظ (13)، ملفوظ مستبعد إلى حد كبير في ظروف متنازع عليها هنا:

(13)EAT؟

غير أن المكون التمثيلي قد لا يتوافق مع (13)،لأن المدخل المعجمي لأكل (eat) يتضمن منفذا ومتقبلا. ويتضمن المعجم،كذلك، معلومات أكل (eat) دون متقبل له فارق، وعليه فالدلالة غير الواردة"لها وجهة واحدة". وبذلك يحتاج المكون التمثيلي تخصيص المتقبل، منتجا (14) الذي يحتمل أن يمثل ملفوظا ممكنا في وضع معطى:

(14)EAT the grapes ?

وبعبارة، يراعي المتكلم، عند إقامة تمثيل في المكون التفاعلي، القواعد الإخبارية للغة مقدما الآتي:

(15) (نقلة1: (بحث فعل خطابي: (فعل فرعي1.1: (حمل: أكل) بؤرة)، (فعل فرعي2.1: (إحالة: عناقيد العنب))))

يحدد المعجم أيضا، كما هو مؤشر له، منفذ أكل بكونه موضوعا يصوغ - قيدا ضافيا - أقل تقييدا نوعا ما - على القصد التواصلي للمتكلم مثلما مثل في المكون التفاعلي:

(16)You EAT the grapes ?

(17)(نقلة1: (بحث فعل خطابي1: (فعل فرعي1.1: (حمل: أكل)بؤرة)، (فعل فرعي2.1: (إحالة: عناقيد العنب))، (فعل فرعي3.1: إحالة: مخاطب))))

في الأخير، يمتلك المكون التمثيلي للغة الإنجليزية قواعد بالنظر إلى محدودية القضايا وزمن المحمولات التي يمكن أن تفرض، كذلك، على ترجمة القصد إلى التعبير. وهي القواعد ذاتها المعنية بإنتاج (11). بعبارة أدق، يمكن أن تصوغ البنية (17) والبنية التمثيلية في (18) دخلا لقواعد التعبير حيث تحدد المخصصات الواردة دخلا لقواعد التعبير:

(18) (تعريف محتوى قضوي: (مض واقعة: (خاصية: أكل [فعل] (معرفة1س1: [لايستلزم المتكلم، يستلزم المخاطب])منف فا (معرفة1س2: خاصية2: عنقود العنب [اسم]) هدف)))

وتنتج البنية النهائية في(11)عن قواعد التعبير استجابة للتعاون بين المكون التفاعلي المباشر والمكون التمثيلي الإخباري:

(أ) يقرر المتكلم إنتاج فعل للبحث أو التقصي.

(ب) يبئر المتكلم هذا الفعل على (أكل (EAT) (كما يتضح في (12) أعلاه.

(ج) يُنشط ذلك المدخل المعجمي (eat) ويستلزم المكون التمثيلي(دائما) الذي يفرض المحدودية، والزمن، والمحلاتية، وإسناد الوظيفة التركيبية.

(د) يشرع المتكلم الآن في صياغة الملفوظ وإمداد التمثيل التفاعلي تدريجيا قصد مراعاة مطالب المكون التمثيلي:

- أساعد did في الموقع الأول للملفوظ على تأشير فعل البحث أو التقصي(إلى جانب محيط التنغيم) كما يلبي مطلب المكون التمثيلي بالنسبة للمحدودية والزمن.

- iiتلبي you مطلب المكون التمثيلي بالنسبة للمحلاتية وإسناد الفاعل.
- iiiيعبر (EAT) عن بؤرة الملفوظ ضمن مقطع مقوى.
- ivتلبي (grapes) مطلب المكون التمثيلي بالنسبة للمحلاتية.

تحمل الصياغات الصورية الثلاثة الممكنة بؤرة (3د)، وينشأ (14)أيضا بموجب احترام (4د)، ويتنج (16)،كذلك، بموجب احترام (2د) و(4د)، وينجم(11) بموجب احترام مطالب المكون التمثيلي جميعها.

خاتمة

لقد اتُخذ مقترح هنخفلد باعتباره نقطة انطلاق إزاء هندسة نحو الخطاب الوظيفي. وبغية إغناء الكفاية النفسية للنحو الوظيفي وتحقيق مطمح الانتقال بالنحو الوظيفي الضيق إلى نموذج الإنتاج، اقترحت أنه من الممكن إعادة صياغة مكوني التعبير والتفاعل في مستوين يشتغلان تصاعديا في زمن واقعي. ففي المستوى التفاعلي، تتألف النقلة من أفعال متتالية تتألف بدورها من متتاليات أفعال فرعية. أما في مستوى التعبير، فثمة أيضا متتالية من المكونات. وعادة ما ينشط المتكلم مستوى التعبير قبل إتمام الفعل الكامن في المستوى التفاعلي. ويتصور المستوى التمثيلي بوصفه مكونا إخباريا يمكن أن يستدعى بغية تقييد هاتين العمليتين الآنيتين حيث تستمد الوحدات المعجمية من الأساس. وتكمن المساهمة الأساسية لهذا المستوى في الإمداد بمادة داعمة مقابل ما قد يفهم من بؤرة رسالة المتكلم، محفزا ومقيدا المتكلم - أحيانا - على تقديم معلومات غنية بدلا مما تمنحه البؤرة فحسب. يؤمل أن تمكن هذه المقاربة من تقديم شيء تجاه فهم تطور الخطاب متعدد الكلمة عند الأطفال ودراسة الضمنية في خطابات حوارية شتى.

المراجع

Bakker, Dik and Anna Siewierska

This vol. Towards a speaker model of Functional Grammar.

Clark, Herbert H.

1992 Arenas of Language Use. Chicago: University of Chicago press

1996 Using Language. Cambridge, New York and Melbourne: Cambridge University Press

Connolly, John H., Roel M. Vismans, Christopher S. Butler and Richard A. Gatward(eds)

1997 Discourse and Pragmatics in Functional Grammar. Berlin and NewYork: Mouton de Gruyter.

Dik, Simon C.

1978 Functional Grammar. Amsterdam: North - Holland.

1992 Functional Grammar in Prolog: An Integrated Implementation for English,French, and Dutch. Berlin and New York: Mouton de Gruyter.

1997a The Theory of Functional Grammar. Part 1: The Structure of the Clause. Berlin and New York: Mouton de Gruyter.

1997b The Theory of Functional Grammar. Part 2: Complex and Derived Constructions. Berlin and New York: Mouton de Gruyter.

Fortescue, Michael

This vol. The complementarity of the process and pattern interpretations of Functional Grammar.

Groot, Casper de

1989 Predicate Structure in a Functional Grammar of Hungarian. Dordrecht:Foris.

Halliday, Michael A.K.

1994 An Introduction to Functional Grammar. 2nd edition. London: Arnold.



Hannay, Mike

1991 Pragmatic function assignment and word order variation in a Functional Grammar of English. Journal of Pragmatics 16: 131 - 155.

Hengeveld, Kees

1997 Cohesion in Functional Grammar. In: John Connolly, Roel M. Vismans,

Christopher S. Butler and Richard A. Gatward (eds), 1 - 16.

This vol. The architecture of a Functional Discourse Grammar.

Jackendoff, Ray S.

1997 The Architecture of the Language Faculty. Cambridge MA and London: MIT Press.

Kroon, Caroline

1997 Discourse markers, discourse structure and Functional Grammar. In:John Connolly, Roel M. Vismans, Christopher S. Butler and Richard A. Gatward (eds), 17 - 32.

Levelt, Willem J.M.

1989 Speaking: From Intention to Articulation. Cambridge MA and London:MIT Press.

1999 Producing spoken language: A blueprint of the speaker. In: Colin M.

Brown and Peter Hagoort (eds).

The Neurocognition of Language, 83 - 122. Oxford: Oxford University Press.

Moutaouakil, Ahmed

This vol. Discourse structure, the generalized parallelism hypothesis and the architecture of Functional Grammar.

Nattinger, James R. and Jeanette S. Decarrico

1992 Lexical Phrases and Language Teaching. Oxford: Oxford University Press.

Schaaik, Gerjan van

2001 The Bosphorus Papers: Studies in Turkish Grammar 1996 - 1999. Istanbul:Boğaziçi University Press.



قائمة المصطلحات المستعملة

Interpretive task	إجراء تأويلي
Procedural	إجرائي
Reference	إحالة
Focal reference	إحالة بؤرية
Cognitive events	أحداث معرفية
Perception	إدراك
Fund	أساس
Cognitive priority	أسبقية معرفية
Declarative style	أسلوب إخبار
Static style	أسلوب قار
Assignment	إسناد
Subject assignment	إسناد الفاعل
Syntactic function assignment	إسناد وظيفة تركيبية
Framework	إطار
Predicate frame	إطار حملي
Re - interpretation	إعادة تأويل
Arbitrary	اعتباطي
Depth - first	الأعمق أولا
Assumption	افتراض
Processing mechanisms	آليات المعالجة
Production	إنتاج
Discourse production	إنتاج الخطاب
Language production	إنتاج اللغة
Actual language production	إنتاج لغوي فعلي
Articulating	إنطاق/ إيصات

Activated emotions	انفعالات منشطة
Communicative goals	أهداف تواصلية
Construction	بناء
Lexicalization	بناء معجمي/ معجمة
Argument structure	بنية الموضوع
Syntactic structure	بنية تركيبية
Representational structure	بنية تمثيلية
Familiar propositional form	بنية قضوية معلومة
Valency structure	بنية محلاتية
Focus	بؤرة
Complex history	تاريخ مركب / معقد
Assertion	تأكيد
Combination	تأليف
Interpretation	تأويل
Cognitive identification	تحديد معرفي
Discourse analysis	تحليل الخطاب
Specification of Agent	تخصيص المنفذ
General flow	تدفق شامل
Ordering of semantic functions	ترتيب الوظائف الدلالية
Translation	ترجمة
Grammatical encoding	تشفير نحوي
Conceptualization	تصور
Computer implementation	تطبيق حاسوبي
Co - operative	تعاوني
Complexity	تعقيد
Internal complexity	تعقيد داخلي
Generalization	تعميم



Verbal interaction	تفاعل كلامي
Psycholinguistic explanations	تفسيرات لسانية - نفسية
Rapprochement	تقارب
Request	التماس
Representation	تمثيل
Relative positioning	تموقع تعالقي
Communication	تواصل
Interpersonal communication	تواصل علاقي
Linguistic communication	تواصل لغوي
Basic consensus	توافق أساسي
Psycholinguistic consensus	توافق لساني - نفسي
Generation	توليد
Generative	توليدي
Devise	جهاز
Aspect	جهة
'Illocutionary' status	حالة إنجازية
Term	حد
Process	حدث
Real - time process	حدث آني الحدوث
Deletion	حذف
Ascription	حملي
Incomplete output	خرج غير تام
Properties	خصائص
Formal properties	خصائص صورية
Category error	خطأ مقولي
Holophrastic speech	خطاب أحادي الكلمة
Conversational speech	خطاب حواري



Entities	ذوات
Tail	ذيل
Direct correlation	ربط مباشر
Orderings of information	رتب المعلومات
Free word order	رتبة كلمة حرة
Order of constituents	رتبة مكونات
Tence	زمن
Hearer	سامع
Linguistic behaviour	سلوك لغوي
Communicative context	سياق تواصلي
Interjection	شبه جملة
Conversation partners	شركاء المحاورة
Transparent	شفاف
Orthodox	صارم
Primitive form	صورة أولية
Complex form	صورة مركبة
Formulating	صياغة
Linguistic formulation	صياغة لسانية صورية
Indirect formulation	صياغة مباشرة
Lexical formulation	صياغة معجمية صورية
Passive voice	صيغة المبني للمجهول
Active voice	صيغة المبني للمعلوم
Layers	طبقات
Demanding - information	طلب معلومات
Normal circumstances	ظروف عادية
Attitudinal adverbials	ظروف موقفية
Discourse referent	حائل الخطاب



Subordinate clauses	عبارات تابعة
Satellite clauses	عبارات لواحق
Complete clause	عبارة تامة
Linguistic expression	عبارة لغوية
Lexical expression	عبارة معجمية
Antifunctional	عكس وظيفي
Cognitive relations	علاقات معرفية
Reason	علة
Automatic processes	عمليات تلقائية
(Pre - linguistic) operations	عمليات قبل لسانية
Cognitive processes	عمليات معرفية
Dynamic process	عملية حركية/ سيرورة حركية
Pragmatic factors	عوامل تداولية
Purpose	غرض
Act	فعل
Simplex act	فعل بسيط
Communicative act	فعل تواصلي
Subact	فعل فرعي
Referential subact	فعل فرعي إحالي
Ascriptive subact	فعل فرعي حملي
Supportive subacts	فعل فرعي سند
Orthodox expression rule	قاعدة تعبير صارمة
Declarative module	قالب إخبار
Interpretive abilities	قدرات تأويلية
Social competence	قدرة اجتماعية
Linguistic competence	قدرة لغوية
Communicative intention	قصد تواصلي



Proposition	قضية
Expression rules	قواعد تعبير
Analogy	قياس
Particular syntactic constraints	قيود تركيبية خاصة
Universal constraints	قيود كلية
Language - specific constraints	قيود لغة خاصة
Pragmatic adequacy	كفاية تداولية
Psychological adequacy	كفاية نفسية
Split - second	لحظة
Satellites	لواحق
Lexical material	مادة معجمية
Conventional principles	مبادئ اتفاقية
Linguistic principles	مبادئ لسانية
Recipient	مستقبل
Goal	هدف
Patient	متقبل
Speaker	متكلم
Arenas of language use	مجالات استعمال اللغة
Propositional content	محتوى قضوي
Predication.	محمول
Predication	محمول/ حمل
Predicate nominals	محمولات إسمية
Following Topic	محور لاحق
Environment	محيط
Intonation contour	محيط التنغيم
Operators	مخصصات
Lexical entry	مدخل معجمي



Self - monitoring	مراقبة ذاتية
Complex of choices	مركب الاختيارات
Conceptual level	مستوى تصوري
Interactional level	مستوى تفاعلي
Representational level	مستوى تمثيلي
Expression levels	مستويات التعبير
Joint project	مشروع ربط
Sources of knowledge available	مصادر معرفة متاحة
Practitioner	مطبق
Processor	معالج
Expressed	معبر عنه
Lexicon	معجم
Definite	معرفة
Non - grammatical cognition	معرفة لا نحوية
Cognitively	معرفيا
Pragmatic information	معلومات تداولية
Non - focal information	معلومات غير مبأرة
Focal information	معلومات مبأرة
Complex information	معلومات مركبة
Nuclear information	معلومات نووية
Indirect object	مفعول غير مباشر
Oblique object	مفعول مائل
Functionalist approaches	مقاربات الوظيفي
Procedural approach	مقاربة إجرائية
Settings	مقامات
Requirements	مقتضيات
Syllable	مقطع



Location	مكان
Component	مكون
Expression component	مكون التعبير
Interaction component	مكون التفاعل
Processing component	مكون المعالجة
Representational component	مكون تمثيلي
Representational component	مكون تمثيلي
Focused constituent	مكون مبأر
Textual component	مكون نصي
Utterance	ملفوظ
Fragmentary utterances	ملفوظات مجزأة
Cognitive impenetrability	مناعة معرفية
Agent	منفذ
First argument	موضوع أول
Position	موقع / وضع
Syntactic position	موقع تركيبي
Placement	موقعة
Psycholinguistic findings	نتائج لسانية - نفسية
Functional discourse grammar	نحو الخطاب الوظيفي
Grammar	نحو
Functional procedural grammar	نحو إجرائي وظيفي
Declarative grammar	نحو إخبار
Top - down grammar	نحو من درج أعلى إلى درج أسفل
Non - functional grammar	نحو غير وظيفي
Lexicogrammar	نحو معجمي
Functional grammar	نحو وظيفي
Grammatical	نحوي



Vocative	نداء
Communication system	نسق التواصل
Entire layering system	نسق طبقي كلي
Articulation	نطق
Theory of mind	نظرية الذهن
Move	نقلة
Strategic move	نقلة استراتيجية
Indefinite	نكرة
Psychological models	نماذج نفسية
Basic type	نمط أصل
Quasi - productive mode	صيغة شبه إنتاجية
Model discourse	نموذج الخطاب
Production model	نموذج إنتاج
Model of language production	نموذج إنتاج اللغة
Architecture	هندسة
State of Affairs	واقعة
Perspective	وجهة
Existence	وجود
Lexical items	وحدات معجمية
Intonation unit	وحدة تنغيمية
Appropriate vocative marking	وسم ندائي مناسب
Schema Theme	وضع المبتدأ
Preverbal position	وضع لغوي قبلي
Object function	وظيفة المفعول
Focus function	وظيفة البؤرة
Pragmatic function Focus	الوظيفة التداولية البؤرة
Subject function	وظيفة الفاعل



Pragmatic function	وظيفة تداولية
Communicative function	وظيفة تواصلية
Language - user's awareness	وعي مستعمل اللغة

قائمة الأعلام الواردة

J. Lachlan Mackenzie	جون لشلان ماكنزي
Dik	ديك
Jackendoff	جكندوف
Hengeveld	هنخفلد
Levelt	لفلت
Jan Nuyts	جان نويتس
Clark	كلارك
Kroon	كرون
Moutaouakil	المتوكل
Halliday	هاليداي
Van Schaaik	فان شايخ
De Groot	دي غروت
Hannay	هاناي
Nattinger	نتينغر
Decarrico	ديكاريكو
Siewierska	سويرسكا
Bakker	باكر



قائمة الرموز والمختصرات

النحو الوظيفي	functional grammar	FG
رتبة المكونات المفضلة المستقلة لغويا	Language Independent Preferred Order of Constituents	LPOC
نقلة	move	M_1
فعل خطابي1	discourse act 1	A_1
فعل خطابي2	discourse act 2	A_2
فعل خطابي3	discourse act 3	A_3
محتوى قضوي	propositional content	P1
إحالة	reference	R
محور	topic	T
فعل فرعي إحالي	subact of reference	R_1
تأدب	polite	POL
فعل فرعي حملي	subact of ascription	T_1
فحوى خطابي	content Communicated	C_1 / CC
حد / معين	individual	$_1X$
لا يستلزم المتكلم	involving the speaker -	S -
يستلزم المتكلم	+ involving the speaker	+S
يستلزم المخاطب	+ involving the addressee	A+
مفرد	singular	1
منفذ	agent	Ag
فاعل	subject	Subj
متقبل	goal	Go
واقعة	state - of - affairs	e_1
معرفة	definite	d
مخاطب	addressee	A

V	verb	فعل
Past	past	ماضي
N	noun	اسم
SA_1	subact 1	فعل فرعي1
SA_2	subact 2	فعل فرعي2
SA	subact	فعل فرعي
Top	topic	محور
Foc	focus	بؤرة
$_1f$	property	خاصية



النسق اللساني الحجاجي الكلي
بين الحاجة المعرفية وآفاق التجديد

أ. د. عبد الجليل غزالة.

أوليات الموضوع

لقدْ جُبِل الملأ المتخصص في دنيا اللسانيات العربية المعاصرة على الإبداع والاتباع لثلاثة تيارات أو (حلقات) متمايزة تستقي أطرها ومحاورها العلمية من عدة مدارس تدرجت عبر العصور. يتجلّى هذا الموضوع على النحو التالي:

1- ربط الدراسات اللسانية المعاصرة بالتراث اللغوي العربي القديم ربطا قسريا وتعسفيا.

2- تقليد الدراسات اللسانية الغربية الحديثة من خلال طرائق مستلبة ومغتربة دون أي تمييز للسمات الخاصة والفروق، وظروف الإنتاج، والتاريخ...

3- تقديم أعمال لسانية عربية نصية (textual) حجاجية (argumentative) تداولية (pragmatic) جديدة واستشرافية يتم فرزها وتعليلها بشكل منطقي ووظيفي لافت للنظر علميا (الموضوع، المنهجية، المصطلحات، المنطق الأرسطي، الابستمولوجيا، شروط العينة اللغوية، الملاحظة، التجربة، الفرضيات...).

يكْثـرُ الخلط، والتنظير المتشتت، والتداخل اللغوي والفكري والمفاهيمي، والاستلاب، والتهافت عند متزعمي التيار الأول والثاني، ويحضر التجديد، والمحاججة، والجدل والمنظرة، والتوليد، والترابط، والعمق الفكري، والمنهجية الرصينة، والتطبيقات العملية عند مجموعة من الباحثين العرب ينتمون إلى التيار الثالث...

والملاحظ بصفة عامة في هذا الصدد هو قلة الوعي في الوطن العربي ب(الثقافة اللسانية) وزمنها التراكمي، رغم وجود بعض الأعمال الفردية الهادفة والاستشرافية. لذلك فإن نصيبًا من الجهل ما يزال يطبع بعض المنهجيات والنظريات والأدوات والتطبيقات

اللسانية، وهو ما يجعل هذا التخصص الحديث لا يساهم بعمق في تنمية و(تحرر وتسويق) اللسان العربي المبين، ويقلِص من تخطيطه (planning) وفعاليته وحيويته، فلا يشارك في حل عدة مشكلات نظرية وتطبيقية[1].

تحولٌ دون تقدم واستشراف الأفق في اللسانيات العربية عدة معوقات ومعضلات:

1- التسيب المعرفي في مجال اللسانيات: يسود عدم تحديد الإطار النظري والمنهجي والوصفي والتحليلي والاستقرائي للخطاب اللساني العربي المعاصر.

2- تداخل الإشكالات النظرية الوصفية في اللسانيات العربية المعاصرة: عدم تنويع وتخطيط الوضع والمستويات اللغوية من المنظور النفسي والاجتماعي والسلالي...

3- التعسف والاستلاب من خلال الربط بين النظريات الغربية والنموذج اللغوي العربي دون أي تعليل.

4- غياب الأدوات الوصفية المقتدرة (نحو وصفي + معجم عربي عصري).

لقد ارتضينا لنفسنا منذ ما ينيف على ثلاثين عاما مسارا لسانيا خاصا، ومنهجية مرنة وظفناهما للتعامل مع الثقافة العربية واللسانيات النصية الحجاجية (التداولية المعاصرة، وهو ما وسمناه في عدة أعمال سابقة ب (النسق الخطابي الحجاجي الكلي)، حيث كنا نعتمد كل مرة على نماذج تطبيقية فرضت نفسها على مستوى الشكل والمضمون وطبيعة النصوص والمقاصد ومقتضى الحال، لذلك كنا نقوم بوصف وتحليل واستقراء المتون والعينات التي نختارها عند مباشرة كل عمل أو إنجاز ثقافي.

يعدُّ العمل الحالي امتدادا لمشروعنا (النصي، الحجاجي، التداولي) الموسع الذي نستغلُّه في مجال الثقافة العربية لرسم وجوه الالتقاء والاختلاف بينها وبين لسانيات النص الحجاجي، حتى يتسنى لنا توظيف ذلك لاحقا ضمن عدة أجناس فكرية وفنية موسعة (سرديات متنوعة: رواية، قصة، شعر، مسرح، حكايات، أدب شعبي، أساطير، ألغاز، نكت، موسيقى، أهازيج، سماع صوفي، دعاية/ إشهار، وسائل سمعية/ بصرية، انتخابات،

---

[1] ينظر الفاسي الفهري، تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط 1، نشر دار الغرب الإسلامي. وقائع ندوة جهوية بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، يونسكو، أبريل 1987، الرباط، الصفحة 11 وما بعدها.

مهرجانات، أعراس، تربية/ تعليم، خطابات دينية، سياسية، رياضية، عسكرية، مالية، حقول دلالية...). يمكن ضبط هذه الأنساق والأنماط الفكرية بكل علاقاتها ووظائفها من خلال نصوص تمثيلية تحدد خلفياتها اللسانية النصية الحجاجية والثقافية والحضارية، وتلامس سمات الالتزام، و(الاستفزاز) الثقافي بين طياتها، والرؤى التوليدية، والاستشراف الهادف...

لقدْ جمهرت التيارات والحلقات ومجموعات البحث المنتمية إلى المدارس اللسانية المعاصرة الكبرى (البنيوية، التوليدية، التداولية، لسانيات النص...) حولها الأقوام، والحواريين، والنظريات، ومراكز البحث العلمي، والمؤسسات الجامعية، واللسانيين بمختلف مداركهم ومنهجياتهم ونزعاتهم، فخلقت بذلك نسقا إنسانيا، ومعرفيا، ولسانيا جديدا أذاع بين الملأ أنماطا شتى من الوصف، والتحليل، والاستقراء، والتأويل للخطابات الثقافية، والاتصالية المتنامية الإنجازات، والمقاصد الفعلية...

تتحركُ لسانيات النص الحجاجي (argumentative text linguistics) داخل مسارات المجتمع الإنساني المعاصر بغية رصد طبيعة أنماطه الفكرية، وما يعتريها من سياقات وظروف إنتاج زمكانية ووظيفية. يعانق هذا التخصص الجديد المواقف والأوضاع المتنوعة بتراكيبها المسبوكة (cohesion) ودلالاتها المحبوكة (coherence)، والمتواليات (sequences) المرصوصة، وسلطة النصوص ومقاصدها المتنوعة عند مختلف المجموعات البشرية بالاعتماد على محاوراتها الوظيفية المتعددة الأصوات، ومواجهاتها المتغيرة التنغيمات (intonations)) والرموز السيميائية.

يخلقُ تحركها داخل مسارات المجتمع الإنساني المعاصر (طبقات نصية) ودرجات منضّدة تبلور الأساليب الشخصية للناس، وإنجازاتهم التداولية، ومقاصدهم الشخصية من أجل بلوغ المعاني الملائمة لنفسياتهم وأغراضهم المتنوعة، كما أن هذا التحرك المتميز يؤدي إلى انتعاش ثقافة المجتمع المعني من خلال التجاذب النصي (textual gravitation) أو

التناص intertextuality)[1]، والتنمية الواقعية، والعمل الفعلي، والعلم، والكفايات competences)) المندسّة بين طيات حقول المعرفة. إنه يساعد أيضا على تغيير أنماط تأويل النصوص الثقافية وتطويرها تماشيا مع طبائع الناس، ومواقفهم، وأفكارهم، ومنهجياتهم، ومداركهم، وروح عصرهم، وأنواع التلقي والاتصال لديهم، والقبول على مستوى الدال والمدلول.

يتضحُ من خلال هذه الأوليات أن العمل الفعلي بالنسبة للسانيات النص الحجاجي يظهر جليا عند توفر المعايير والمظاهر التالية:

1- السبك التركيبي.

2- الحبك الدلالي.

3- القصد ((intention.

4- التجاذب النصي.

5- الموقف ومقتضى الحال (المقام).

6- الإعلام/ الإبلاغ النصي.

7- المظهر النحوي المقبول.

---

(1) يملك مصطلح التجاذب النصي الحجاجي الخاص بنا كفاية نظرية وتفسيرية كلية (معممة) تتجاوز مكونات وعناصر التناص التي روجتها جوليا كريستيفا وأتباعها نظرا لاختلاف إطارنا المعرفي والنظري والعملي. يرتكز هذا المصطلح في سائر أعمالنا على معمارية (دينامية) نصية حجاجية تداولية تتكون من ثلاثة ((أنشطة طبقية)):

أولا: نشاط تركيبي ودلالي: يتم داخل النصوص المتقاطعة والمتماسكة التي تشكل ((كونا)) نصيا حجاجيا جلي السياقات والفضاءات والمقاصد.

ثانيا: نشاط موجه لبؤرة التجاذب: ترتكز التداخلات والتقاطعات النصية التي تسعى لتشكيل ((البنية النصية الكلية)) على المتواليات المرصوصة التي تتجاوز حدود الجمل البنيوية الشكلية من خلال معايير خاصة (تحليل البنى اللغوية، العلاقات الدلالية، نسق الإحالة بين الجمل والنصوص...). يعتمد عمل هذه المتواليات النصية الحجاجية ومعماريتها الشاملة (ديناميتها) على النشاط التداولي الذي تنضد معماريته الكلية (قمة/ هيكلة) نصية محورية ناقلة للخصائص الجمالية والفكرية والمقامية .

ثالثا: نشاط منسق لتفريعات وتوزيعات التبادلات الاتصالية الصغرى والكبرى الموجودة بين سلطة المؤلف وسلطة النص وسلطة المتلقي ((العليم)) ومقاصده.

تُكْتنزُ الثقافة العربية عبر تاريخها أفكارا ومواقـف، ونظريـات، ومـدارس، وتيـارات ونزعات متنوعة تتحالف وتتفاعل داخل مجال لسانيات النص الحجاجي التداولي، مما يجعـل المتكلم يربط الاشتغال الخطابي بأصناف من الدوافع النصية المختلفة الـتي تترتـب عنهـا عـدة وظائف تبرز عن طريق:

1- التنوع في السياقات النـصية: تتميـز الوقـائع الخطابيـة العربيـة بـسماتها الخاصـة علـى المستوى التركيبي والدلالي والمقامي، وهذا ما يربط التغير النـصي بطبيعـة كـل حـدث خطابي وطريقة وجوده ومـستلزماته، كمـا أنـه يـؤدي إلى التـدقيق في صـلب المعلومـة النصية وغربلتها.

2- الانتصار للآراء والمعتقدات المتنوعة: يعانق التحليل اللساني النصي الحجـاجي بدوالـه ومدلولاته نفسية المتكلم العربي في بعـدها الثقـافي الـشامل أو الـرافض للقـول المنجـز لكي يخلق اختلافا على مستوى التلقي من حيث الصدق والكذب، والولاء، والتمـرد، والرصانة، والضعف، والسطحية، والعمق، والخفاء، والتجلي... إنـه قـد يوافـق علـى طرائق متنوعة من التنميـط والـتلفظ (enunciation) الفـردي، حيـث يتنـصل منهـا ليحدد مساهمته، أو عـدمها في القـول اللـساني المنجـز. يخلـق هـذا الـسلوك اللـساني النصي (أقنعةً) متنوعة تحتاج إلى قسط كبير من التبـصر، والدرايـة، والتفـسير العميـق، والاتفاق، والتقويم...

تقومُ الأعمال اللسانية النصية الحجاجيـة المعاصـرة المتنوعـة علـى عـدة دوافـع نـصية ووظائف، ودرجات تقويمية للصدق والكذب، والرقي، والتنـوع، والتـشابه، والتنـسيق في الإنجاز على مستوى التراكيب، والدلالات الثقافية، والاتصالية الشاملة.

3- المصاحبة لأقوال المتكلم الناقل للمعلومة النصية الحجاجية ونوعية التلقـي المفسِّرِ لهـا، لأنه قد يكررها، أو يعدلها، وقد يقـوم (بإخـصائها)، أو (تعطيلـها/ إرجائهـا) بـصورة جزئية، أو كلية حسب الآليات والمعرفة الخطابية المتوفرة لديه.

4- التراجع المؤقت على مستوى المقاصد التداولية: قد يشرد بعض المـتكلمين عـن مغـزى الملاحظة أو السماع، مما يجعلهم يبثُون ويذيعون المعلومة النصية الحجاجيـة عـن طريـق

التخمين والظن، فتتأرجح كفتا الميزان بين الصدق والكذب، والعمق والسطحية، والتجلي والخفاء...

نصادفُ في هذا المستوى اللساني انغلاق بعض المدارك والأفهام، أو قصر الرؤية وتشتتها وربما تداخلها أو تعارضها.

5- التخلي العارض عن السياقات النصية الحجاجية المتنوعة المرتبطة بقضايا المجتمع والثقافة العامة، لأن الموضوع يغشاه بعض الإبهام والتكلف. لذلك فإن المتكلم قد يبثُ إنتاجه اللساني بشكل سطحي ظاهري مع عدم اقتناعه بحقيقته.

6- الاحتفاء بالحظوة والسلطة: تحدد بعض الدوافع النصية وظائف الخطاب السياسي من خلال أساليب شخصية متنوعة تحيك سداها بنى نحوية، وتلتصق كلماتها المعجمية بالمناصب والدرجات والمواقف المختلفة، لذلك فإن النزعات المادية تختلف في إنتاج الخطابات اللسانية المتنوعة.

مشروعية الرؤية اللسانية النصية الحجاجية المقترحة:

تَتَوَزَّعُ الكتب والبحوث والأطاريح والإنجازات الخطابية أو البلاغية (rhetorical) والمقالات العربية المعاصرة بين الغث والسمين، إذ نجدها تسلك ثلاثة اتجاهات وطرائق متمايزة تظهر من خلال:

1- مقاربات متباينة للتراث الخطابي الإغريقي والعربي القديمين يتم التركيز من خلالها على بعض الموضوعات، والمنهجيات، والمفاهيم، والأعلام، والمتون (corpus) المؤثرة.

2- محاولات متوالية لتجديد النسق المعرفي عن طريق المزاوجة في الوصف والتحليل والاستقراء بين الجانب الشعري (التخييلي) والجانب التداولي أو الفصل بينهما، كما يتم أحيانا في هذا المستوى استغلال بعض التطبيقات والعينات المتخصصة وغير المتخصصة. تستند بعض هذه المحاولات إلى طرائق استشرافية، أو توفيقية وتكاملية، وأحيانا ترقيعية ومتهافتة.

3- مساعي حثيثة لنقل التراث الخطابي الغربي الحديث، والاهتمام ببعض الموضوعات الحجاجية، والمفاهيم والمصطلحات، والمدارس والتيارات والنزعات الخاصة، والأعمال المتباينة لأعلام مؤثرين كبيرلمان Chaim Perelman وتيتيكاه، وكريستيان بلونتين، وهنريش بليت Hen rich Plitt، وكورتيس Curtiss، وتولمين، وريبول، وموشلار، وتودوروف Todorov، وبارث Barth، وجيرار جينيت Gerard genet، وكونتر conter، ودوكهورن dekhorne، ولوسبيرغ luc burgh، وشانيي، وآنسكومبر Anscombre، وديكرو Ducro وغيرهم.

تَتَعَدَّدُ وتتداخل تعاريف البلاغة/ الخطاب (discourse) بأقسامها ومكوناتها وأنواعها، وطرائق (توسيعها، تعميمها، كليتها، رحابتها، إدماجها....)، وتطبيقاتها عند أرباب الاتجاهات الثلاثة السالفة، حيث تنتشر وتتكرر سماتها، أو تتماثل بشكل مثير ومستنزف بين ثنايا عدة بحوث، وكتب، وأعمال تطبيقية، ورسائل جامعية، ومجلات، وندوات ومؤتمرات، ومختبرات بلاغية متخصصة، فتتعدد معها وجوه (الغزو اللساني الخطابي الجديد) بين ظُهرانَيْنَا عن طريق تكرار بعض قضايا البلاغة (الجديدة/ الحجاجية)، ولسانيات النص، والأسلوبية، والسيميائيات، والتداوليات.

لَقَدْ توزعت اشتغالات النسق الخطابي العربي القديم بين اتجاهين بارزين:

1- النسق الرصين العلاقات والوظائف الذي يهتم بوسائل التعبير، والتنميق، والمتعة.

2- الأيديولوجيا المسيطرة التي كانت لا تعالج بلاغة المخاطب والحوار والحجاج المتداولة، وتقنيات الخطاب، والعقلانية، ولا تميز بين النصوص الشفهية والمكتوبة، أو تسبر أغوار سماتها وقوانينها الخاصة.

وَاجَهَتْ هذه البلاغة صعوبة كبيرة تتعلق بضبط مفاهيمها، وتداخلات عدة حقول معرفية متباينة الرؤى، والمنهجيات، والتيارات الفكرية. في حين ارتكز النسق اللساني الخطابي الغربي على اتجاهين مخالفين:

1- النسق الموحد.

2- الجانب التعليمي.

مشروعية مكوني النسق اللساني الحجاجي الكلي

يَقُومُ النسق الحجاجي الكلي على كفاية وصفية وتحليلية واستقرائية (inductive)تزود الأطراف المتحاورة بالنماذج والملفوظات البلاغية التي تلائم تجربة معينة، إذ يتم عرض القضايا البلاغية بالاعتماد على أقوال منتقاة يقع تفسيرها تبعا لقواعد المكون السيكو خطابي (rhetorical psycho component) والمكون السوسيوخطابي (rhetorical socio component).

يَلْعَبُ هذان المكونان دورا مهما في وصف وتفسير الجمل والمتواليات المترابطة، وتحديد مواقعها وتوزيعاتها المطردة ضمن إنتاج المتون والأنماط الخطابية المتنوعة. إنهما يضبطان آليات الاشتغال وسياقات النصوص المختلفة، وهو ما يجعلهما يشكلان إنجازا ابستمولوجيا واصطلاحيا خاصا بالنسق اللساني الخطابي الكلي؛ لأنهما يسهّلان الانتقال من المستوى التركيبي إلى المستوى الدلالي والمقامي بالاعتماد على عدة علاقات، ووظائف، وروابط منسقة.

يُمَثِّلُ المكون السيكو خطابي نسقا من القواعد النفسية النصية الحجاجية التي تتحكم في تشكيل الصور والأشكال الإبداعية. أما المكون السوسيو خطابي فإنه يخلق عدة (قراءات متنامية)، ومتفاعلة، واستشرافية بالنسبة للنصوص والمتون المحللة.

تَتَحَقَّقُ المماثلة (the assimilation) والموازاة بين هذين المكونين بدمج قواعدهما على مستوى دلالات ومقاصد الأعمال المدروسة، كما يتم الاستيعاب والتفسير للعمل بشكل معياري موسع تبعا لاختيارات المتكلم والمخاطب وموقفهما التجريبي.

يُقَدِّمُ لنا النسق الخطابي الحجاجي الكلي النماذج النصية الإبداعية والتفسيرية المشكلة من أمثلة تجريبية متنوعة، تبرز دقة الفرضيات وصحة القواعد، وملاءمتها لطريقة اشتغال المكونين المحوريين المذكورين.

تَتَبَلْوَرُ مختلف الإبداعات والأنماط الفكرية العربية القديمة والحديثة من خلال آليات اشتغال المكونين المذكورين. أما الفعل الخطابي (discursive act) فهو الذي يؤسس التفرعات والعناصر الصغرى اللازمة لتعمير هذين المكونين (الصوت، الصرف، التركيب،

المعجم الدلالة، المقام). تبرز هنا عدة أنواع من التبادل والعلاقات بين القواعد المشكِّلة للمكونين عن طريق النصوص النموذجية/ القُدْوة المنتقاة (selected alosop)، مثلما في النماذج الموظفة: (حكاية الليلة 437 من حكايات ألف ليلة وليلة، مختارات من ديوان شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم، نماذج من حكم وأقوال الإمام مالك بن أنس). يدلُّ هذا الإنجاز على وجود علاقات من الترابط والتغذية الراجعة (feed back) بين المكونين السيكو خطابي والسوسيو خطابي، كما يظهر ذلك في النماذج العربية القديمة والحديثة المختارة.

يَحْوِي النسق اللساني الخطابي الحجاجي الكلي مظاهر متكاملة ونماذج متفاعلة على مستوى الوصف والتحليل والاستقراء:

1- المظهر الحجاجي/ المنطقي (الفلسفي).

2- المظهر الأسلوبي/ الأدبي (الشعري).

3- المظهر/ السيميائي (الخطابي).

يَسْعَى النسق اللساني الحجاجي الكلي المقترح إلى الاشتغال من أجل:

1- تحديد قوانين دلالات المسرودات العربية المتعاقبة (diachronic) .

2- إنتاج أنواع من السياق والمقام المفتوح.

3- مزج القديم بالحديث تبعا للأشكال التجريبية المتطورة.

4- تحليل آثار وتقنيات الفعل الخطابي عند المتلقي العربي.

5- رصد وتحليل التأثير السيميائي للأنواع الخطابية (rhetorical genres) في الحياة العربية.

يَتَوَخَّى هذا المشروع/ الرؤية المقترحة تحديد مساحات وآفاق جديدة تتعلق بالممارسة اللسانية الخطابية الحجاجية الموسعة، والعمل النقدي المتخصص بغية احتضان مكونين جديدين واستشرافيين يحركان بنى وعناصر النسق الخطابي لتطوير لسانيات نصية حجاجية تداولية موسعة ومتميزة، تخدم أغراض أفراد المجتمع العربي المعاصر، وتساهم في تغيير النسق المعرفي، والمنهجيات الثقافية المشكلة للحضارة العربية المعاصرة.

يُؤَلِّفُ هذا النسق بين موضوعات الخطابات التي تصفها وتحللها وتطورها وتقوِّمُها الأجيال العربية المتعاقبة من أجل ترسيخ وتطعيم وتوسيع و(تسويق) بعض القراءات الحجاجية والتداولية المعاصرة، حيث يهتم ببناء (نظرية لسانية نصية حجاجية عربية) اتصالية تتحرك بالاعتماد على طريقة عمل وتمويل المكونين المذكورين، كما أنه يقدم تطبيقات خاصة لمتون سردية (narrative) منتقاة من مختلف العصور والأنماط الفكرية[1].

يَرْبِطُ المكونان بين الجانب البنيوي (الداخلي) والتداولي (المقامي) في إطار النسق النصي الحجاجي الكلي، ويدمجانهما ضمن عملية التلقي والتأويل. تتعدد الأسئلة والإشكالات المطروحة والمباحث الاستشرافية البلاغية المتعلقة بالطرائق الناجحة التي تقدم الدرس الخطابي العربي الناجع بالنسبة لجميع الأجناس الفكرية كموضوعات، ومنهجيات، ومصطلحات.

إِنَّنَا نبتغي من وراء نشر هذا المشروع خلق رابط موضوعي ومنطقي بين هذه الأنماط الخطابية، واستيعابها، ومنحها أبعادا كلية عربية دون أي استلاب أو اجترار للنماذج المستنزفة التي لا ترقى لمباهاة الأمم و (التسويق اللساني) الهادف والرائد.

يَرُومُ النسق الخطابي الكلي هنا خلق وحدة متسقة تجمع بين الجانب الشعري والحجاجي، إذ إنهما يتفاعلان ويتكاملان من خلال آليات اشتغال المكونين السيكو والسوسيو خطابي، كما أنهما يعالجان خطابات عربية تعاقبية احتمالية؛ أي أنهما يمزجان بين السرديات والحجاج المتنوعة. لذلك فإننا نعانق بين طيات هذا النسق اللساني الكلي عدة فروع لسانية، كما يظهر ذلك عند حازم القرطاجني، وابن سنان، والجاحظ، وبديع الزمان الهمداني وغيرهم...

يُدْمِجُ مشروعنا الخطابي الاتصالي بين الحجاج والأساليب في بُعْدَيْهَا النفسي والاجتماعي اللذين يحدثان المتعة والإثارة والإقناع والإذعان، ويضبطان التقنيات الواضحة من خلال التركيز على تحليل محورين مهمين:

---

(1) نقصد بها النماذج التطبيقية الموظفة داخل البحث.

1- تعمير (dynamism)[1] عملية التلقي العربي في الخطابات المتنوعة، والربط بين عناصرها من المنظور النفسي والاجتماعي.

2- وصف وتحليل واستقراء الحجاج المشكلة للأنماط الخطابية العربية المتنوعة.

لِذَلِكَ فإن النسق اللساني الحجاجي الكلي يهدف إلى بناء فرضيات تخصُّ المكونين المذكورين، لإبراز الغاية الكبرى والصغرى من العمل بأكمله عن طريق:

1- الاهتمام بمعالجة تقنيات اتصال وانفصال القضايا الخطابية.

2- التركيز على البناء المرصوص الخاص بالبدائل الخطابية العربية الواضحة.

يَقُومُ هذا النسق اللساني الحجاجي (الجديد) على جانب وصفي وتحليلي واستقرائي متخطيا الجانب المعياري الذي يهتم بخلق النصوص ولذتها، كما أنه يركز على مقاصد أنماط الخطاب العربي وتقنياته التطبيقية المتنوعة، علاوة على قيامه بتوسيع المفاهيم القديمة، مثلما نجد عند جاكبسون Jacobson وكوهن Cohen ومولينو Molino وطامين taming وغيغليون وغيرهم، وهو ما يجعل البعد الخطابي الحجاجي الاتصالي والمقامي، أو الموضعي في هذا النسق يبدو متشعبا.

يَتَحَرَّكُ النسق الخطابي الحجاجي الكلي بالاعتماد على إرث تكويني يترجم لدينا عملا فعليا بناء على آليات اشتغال المكونين الأساسيين.

أولا: طريقة عمل وتمويل المكون السيكو خطابي:

يَقُومُ هذا المكون بضبطُ التفكير الخطابي العقلي عند سائر أفراد المجتمع العربي، ويحدد نوع نشاطهم عن طريق الإنجازات المترابطة التي تعانق مواقف واضحة، كما يقوم بنقل أفكار المتكلم إلى المخاطب أثناء معاملاتهما واتصالاتهما معتمدا في ذلك على استخدام قوالب متماسكة تحمل الأفكار الدالة التي يتم تخزينها في الذهن وترجمتها إلى كلمات محددة.

---

(1) عبد الجليل غزالة، معمارية النص الشعري عند سيف الرحبي، مجلة علامات في النقد، المملكة العربية السعودية، مايو 2007. تنظر أيضا مجلة طنجة الأدبية، العدد 56، حيث عالجنا المصطلح نفسه.

يبني هذا المكون الصور الذهنية والمدركات الحسية[1] ثم يحولها إلى خطابات فعلية، وهو ما يجعل منه جسرا رابطا بين أفكار أفراد المجتمع وبين السبب والنتيجة.

يُحَرِّكُ البعد الحواري (الجدلي) للنسق اللساني الحجاجي الكلي تفكير الإنسان ليشكل منه نصوصا سيكولوجية ثقافية، كما نجد تلازما منطقيا واقعيا كبيرا بين المكون السيكو خطابي وفكر الإنسان عند العديد من علماء النفس والسلوكيين والنظرية التوليدية عند تشومسكي.

يَشْتَغِلُ هذا المكون بالانتقال المتدرج عبر أربع مراحل منضدة طبقيا (stratificational):

1- مرحلة استنهاض المتكلم لفكر ووجدان وخيال المخاطب.
2- مرحلة استخراج الصور الصوتية والتعبير عن الأفكار والتصورات الذهنية.
3- مرحلة استغلال المخاطب لحواسِّه وتدعيم عمله بالحركات والرموز السيميائية المتنوعة.
4- مرحلة ضبط التأويل الخطابي عن طريق فك الرموز المشفَّرة القابعة في الذهن.

البعد الخطابي للمكون السيكو خطابي

يَرْبِطُ النسق اللساني الحجاجي الكلي بين المجال النصي والمجال النفسي باعتبارهما نشاطين إنسانيين أساسيين في الحياة، لذلك فإن دراستهما تمثل جسرا رابطا بين اللسانيات النصية الحجاجية وعلم النفس اللساني.

يَهْتَمُّ المكون السيكو خطابي برصد وضبط وتفعيل العناصر والمقولات الأساسية المحركة للنسق اللساني الكلي بناء على:

1- قواعد السلوك الخطابي الذي يرتبط بظواهر التعلم والكفايات المبثوثة بين طيات المسرودات المتنوعة.
2- محتوى المادة النصية المحايثة (immanence).

---

[1] نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي، ط 3 المكتبة الأكاديمية، مصر، 1995.

3- بنى المثيرات/ المنبهات (stimulus) السيكو خطابية.

4- شفرات codes / النسق اللساني الموظف من طرف المتكلم والمخاطب.

5- علاقات المعاني السكو خطابية باستجاباتها الفعلية.

يَرْتَكِزُ هذا النسق على عدة علاقات ووظائف يحركها ويفعِّلُها المكون السيكو خطابي عن طريق:

1- تنظيم اللغة الواصفة (metalanguage) الموظفة في الخطابات (للفهم والإنتاج).

2- تحديد وظيفة القواعد السيكو خطابية الاتصالية Communicative) discursive (psychological rules الاتفاقية التي تستعملها الأطراف المتحاورة.

3- ضبط طريقة اشتغال الآليات الذهنية وتحكمها في (الفعل الخطابي).

4- تعقب الأسس السيكو خطابية للإنتاج.

5- تحديد طرائق استغلال دوافع ووظائف السلوك والميول والحاجات.

يُمَثِّلُ المكون السيكو خطابي عنصرا مهما في عمل النسق اللساني الحجاجي الكلي؛ لأنه يضبط سمات النظم التركيبي، والدلالي، والمقامي التي تشكل الخطابات المتنوعة، كما أنه يشتغل كمنهجية وصفية وتحليلية واستقرائية تمنح الإنتاج من خلال طريقة سُلَّمية مرصوصة ومحايدة هويته الثقافية الشاملة، ومرجعتيه، ومقاصده. يتحقق اشتغاله تبعا لقالب وضعي عادل ومعتدل يخلق تجاذبا ثقافيا وتركيبيا، و(عدوى نصية)، وتطورا فعليا متبادلا بين النصوص المختلفة.

لَقَدْ شهد النسق اللساني الخطابي الحجاجي الكلي في السنوات الأخيرة أعمالا ومقاربات وإنجازات متنوعة:

1- التحليل التأويلي (interpretative).

2- التفكيك (deconstruction).

3- التحليل السيكولوجي والاجتماعي (social and psychological analysis).

يَسْعَى المكون السيكو خطابي إلى تسويق (marketing) ثقافة لسانية نصية حجاجية/ تداولية، اتصالية غير ملزمة بالتفسير القبلي، وهو ما يساعد هذا المكون على خلق

حوار حضاري، لأن كل طبقة اجتماعية تحمل (هوية ثقافية خطابية) تختلف غيرها في تراكيبها ودلالاتها ومقاماتها تبعا لتطورها النفسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي...

يعانق هذا المكون ثقافة كل أمة، إذ يحدد (الهويات الثقافية الخطابية) التي تخضع للاندماج، والاضمحلال، والصراع، والتغير، والتطور. إنه يُسَاهِمُ في ضبط، وتفعيل، وتمويل، واستمرارية عمل النسق اللساني الحجاجي الكلي ثقافيا، إذ يخطط لإقامة نسق استشرافي (futurist system)، كما يعالج التنوع، والاختيار البلاغي، والتعادل بين الأنماط الفكرية، ويفعِّلُ المعايير السردية الشعبية المتنوعة، علاوة على تحديده لمصير أفراد المجتمع من خلال وسائل التعبير عن أغراضهم المختلفة.

يَتِمُّ الاهتمام بتحقيق الاتزان، والسبك التركيبي، والحبك الدلالي، والقصد المقامي بين عناصر النسق الخطابي الكلي عن طريق:

1- التعادل بين التراكيب الخطابية التي تشكل السرديات المتنوعة.

2- الصفاء واللذة البلاغية (rhetorical pleasure)، والتقنيات الحجاجية المنفتحة.

3- الإشراق والتأثير والإقناع.

يَقُومُ هذا المكون بتنسيق وتقويم الأعمال الفكرية وتمييزها عن بعضها، إذ يعبر عن (الذوق المثقف)[1]، ويحدد ثقافة التجاذب (culture gravitation)/ ثقافة التَّنَاصِّ المبثوثة بين طيات الخطابات، كما أنه يعالج سجلاَّتها المتنوعة[2].

---

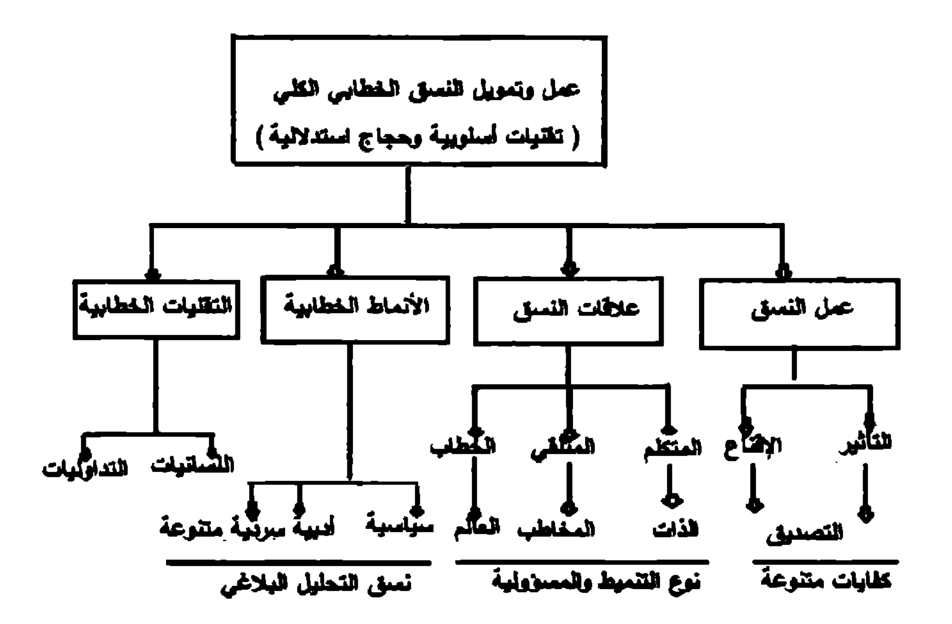
(1) من المصطلحات التي استعملها بيير بوردبو(Pierre Bourdieu) لتحديد موضوع (رأس المال الثقافي) في مجال علم الاجتماع، حيث وظف المنهج البنيوي التكويني. يتجلى هذا العمل عن طريق المعرفة المتميزة عند الفرد ورغبته في المواصلة والاجتهاد والتجربة المتراكمة عبر التاريخ. يجسد هذا العمل العادات والسرديات والأساطير والسيميائيات والدين والفنون، ويتطلب مؤهلات أسرية وتربوية واجتماعية. يتم تقويم (الذوق الثقافي) عن طريق التميز المرتكز على العادة أو المألوف الذي ينتج عمليات التقويم المشروعة.

(2) يجسد مصطلح السِّجل (register) نوعا لغويا يعمل ضمن وضعيات اجتماعية محددة، كما أنه يحدد مشكلة الخصائص الاجتماعية والتغيرات اللسانية. يمثل هذا المصطلح في مجال تحليل الخطاب الوجه الخارجي لممارسات المتكلم، وكذلك الجنس الخطابي المستعمل الذي ينسق الأشكال العامة.

يَسْتَغِلُّ النسق الخطابي الحجاجي الكلي هذا المكون لتحقيق إنجاز فكري متطور ومتراكم، يوازي بين طاقات المتكلم والمخاطب وسلوكهما اللغوي وتفاعلهما، وهو ما يجعل منهما طرفين أساسيين يشتركان في توظيف المكون السيكو خطابي عن طريق تجليات الملكة العقلية.

قَدْ يفقد البحث العلمي اللساني الحجاجي الاتصالي والحياة الثقافية في عالمنا المعاصر أحيانا معناهما نظرا لغياب (ثقافة لسانية)، وكثرة الاختلافات، وسطحية الفهم، وشيوع بعض التكتلات الفكرية، وغياب القوانين الموضوعية الاتفاقية، و (تهافت) بعض قضايا اللسانيات البنيوية، والتوليدية، والتداولية، واللسانيات النصية في بعض البلدان العربية، وهو ما يقلل من شأن الإيمان بالنسق اللساني الخطابي الحجاجي الكلي ودقة استيعابه.

تُعَدُّ الاختلافات بين البلاغة القديمة والجديدة، ولسانيات النص، والسيميائيات، والبنيوية، والتوليدية، والتداولية أمرا طبيعيا، فلا يوجد نسق لساني خطابي كوني مشترك ومحيط، حيث نصادف عدة تنظيرات لسانية خطابية متناثرة، لكنها لا تعانق _ حسب ظننا _ التطبيقات الحجاجية الاتصالية؛ أي السيكو والسوسيو خطابية التي نطرحها في إطار النسق اللساني الكلي (global linguistic system) المرصوص العلاقات والوظائف، كما يبرز ذلك تصورنا المبلور من خلال هذا الرسم:



لقد أذاعت البلاغة الإغريقية والبلاغة العربية القديمتان والغربية الحديثة بين الملأ المعني نصوصا وأحكاما تداولية تساير (ثقافة) الحكام، والانتماء، والأيديولوجيا، والعادات، والأفكار،، والمهن، والمثاقفة (interculturalism)...

يساهم المكون السيكو خطابي في ضبط وتنسيق وتقويم عناصر النسق اللساني الحجاجي الكلي بالاعتماد على:

أ- إصلاح وتخطيط اللغة حسب الأنماط الخطابية واستعمالاتها التداولية.

ب- اعتماد الجانب العقلي والسلوك الموضوعي.

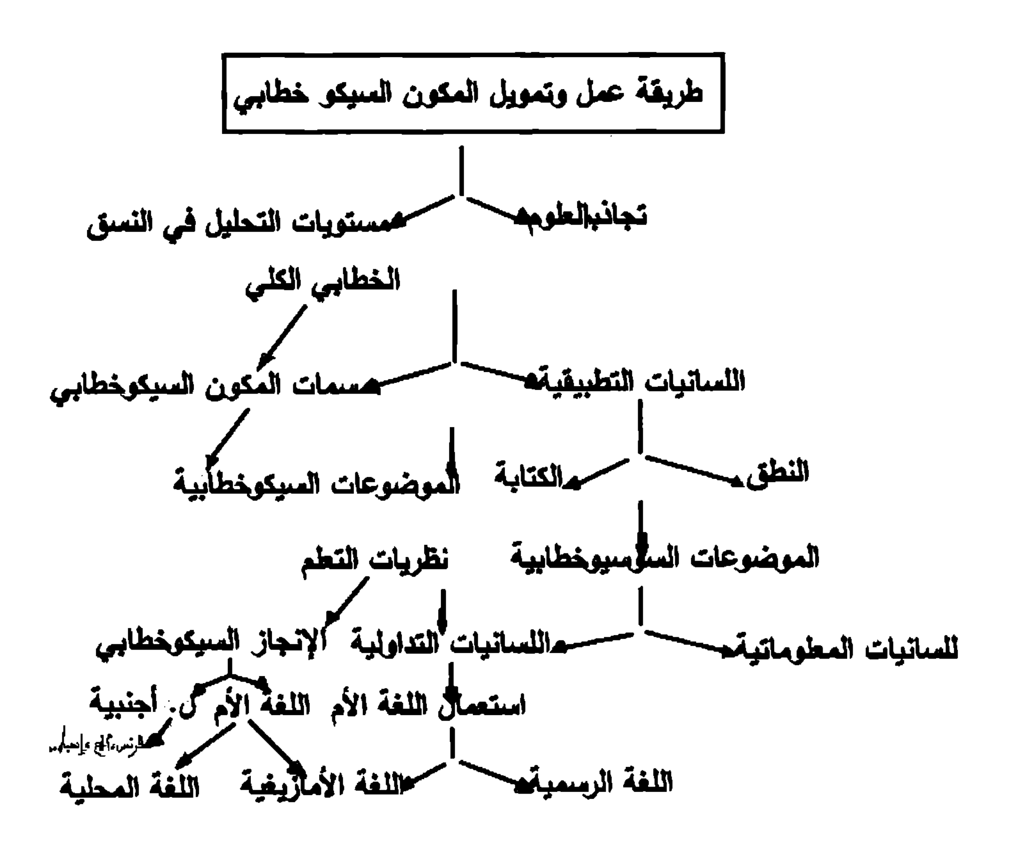
ج- ضبط القصد الخطابي.

د- رعاية وتفعيل قيم المجتمع وقواه المتنوعة.

يبني هذا المكون أشكالا نظمية اتفاقية مرصوصة (صوت، صرف، تركيب، معجم، دلالة، مقام) بشكل بديهي وضعي يساير الواقع ومقتضى الحال، ويضبط القيم والمعاني، حيث يؤدي اشتغاله بين ثنايا النسق اللساني الحجاجي الكلي إلى تحقيق تطور ثقافي فعلي

وحضاري جوهري، وسمو السرديات المتنوعة، والحجاج، والاتصالات، والسيميائيات، والتداوليات القدوة.

يمكن توضيح طريقة عمل وتمويل المكون السيكو خطابي داخل النسق اللساني الحجاجي الكلي من خلال المخطط التالي:



يستغلُّ هذا المكون أنماطا خطابية متنوعة تتحرك داخل النسق اللساني الحجاجي الكلي تبعا لتقنياتها وأبعادها التداولية والاتصالية التي تستغلُّ مجموعة من البنى والقيم والسمات الثقافية المعتمدة في تعميرها وتنسيقها على ذهنية ونفسية المتكلم من أجل تحقيق اتصال محدد.

لقد ظهر المكون السيكو خطابي مبكرا وبشكل ضمني عميق ومكتنز بين طيات الأعمال البلاغية للجرجاني، حيث تجلت بعض خصائه الجمالية، والفكرية، والتداولية، والاتصالية المتميزة. إنه ينمو بمعية نمو قدرات المتكلم بشكل فطري، إذ يكتسبه من واقعه المحلي بمختلف سياقاته ومقاماته المتفاعلة، ثم يقوم بضبطه وتجويده بشكل مستمر عن طريق التعلم والممارسة، واتباع نحوه الخطابي (discursive grammar) المعتمد على اللغة المستعملة والسليقة الاتفاقية.

يقوم هذا المكون بضبط وتنسيق معارف، ومعتقدات، وقيم المتكلم من خلال النصوص المتنوعة، كما أنه يمثل نموذجا متميزا للبعد النفسي اللغوي المشكل للنسق اللساني الحجاجي الكلي الذي يزاوج بين النظرية واللسانيات التطبيقية أثناء الاشتغال.

علاقة المكون السيكو خطابي بالنص

يتحقق مصطلح (النص الخطابي التداولي) من خلال طريقة عمل وتمويل هذا المكون، إذا توفرت سائر المقاييس والشروط الخاصة:

1- التهذيب والتنقيح (the pruning) للعمل.

2- الصقل والاتقان (the perfect).

3- التغيير والاستبدال (the substitution).

4- السمات الخاصة (the special features) التي تكون: (جمالية، فكرية، مقامية).

تساهم هذه المقاييس والشروط في تحويل المتكلم إلى منتج للسرديات المتنوعة الأحجام والمقاصد، والخطابات التداولية، وأنماط الحوار، والفكاهة والسخرية تبعا لمستوى وعيه وواقعه وثقافته، وهو ما يجعله يتحكم في دوافعه ووظائفه النصية.

يبني المكون السيكو خطابي النصوص الفكرية المتنوعة بالاعتماد على وجهات نظر الفاعلين التي تحمل معنى وأهمية مؤثرة، وأنشطتهم الاتصالية المتحركة من خلال بنى لسانية متكاملة ومرصوصة. تختلف الخطابات هنا حسب المعارف والملكات والمقاصد التي يحملها هؤلاء الفاعلون.

ثانيا: طريقة عمل وتمويل المكون السوسيو خطابي

يمنح هذا المكون النصوص أسلوبا متكاملا؛ لأن بناه المتفاعلة ترتبط بالذهنية والسلوك النفسي للمتكلم وكفايته العملية. تعتمد دلالات الخطابات الثقافية على التراث الإنساني، والسيميائي، وعمل الفاعلين المساهمين في تطوير وجهات النظر المنسقة عن طريق الخبرة والكفاية والاستعمال الفردي.

يقوم المكون السوسيو خطابي بتشكيل وعي الفاعلين من أجل تعمير النصوص الثقافية المتنوعة التي ترتبط بفضاءات وأحياز زمكانية وسياقات محددة. توظف الكفاية الخطابية بالاعتماد على تراكم الخبرات، حيث يتم ضبط اللغة الواصفة والمصطلحات التي تجعل هذه النصوص تصنع الحياة الرفيعة المتفاعلة باللجوء إلى الاستعمال اللغوي الاجتماعي المتميز ووظيفته المؤثرة.

يساهم هذا المكون في ترتيب مراحل تعمير (دينامية) كل نص ثقافي حجاجي كلي، إذ يتم ضبط عقليات الفاعلين ومداركهم، وأغراضهم مع العلم أنها قد تبدو أحيانا مبهمة وغير متطابقة، لأنها تتطلب سبكا تركيبيا وحبكا دلاليا وقصدا مقاميا، واتصالا واضحا.

يدمج المكون السوسيو خطابي أيضا ضمن (نظرية الأدب) كل الأنماط الخطابية، وكل ما هو موجود بالفعل في هذا العالم، حيث يجعلها تعمل بشكل متفاعل ضمن النسق اللساني الحجاجي الكلي، إذ يحركها الفاعل بمعرفته ولا يمكن اختزالها، لأن الخطاب لن يؤدي وظيفته التامة إلا من خلال ضبط تعمير وتفعيل المكون السوسيو خطابي.

يرتكز المكون السوسيو خطابي على ثلاثة عناصر مهمة ترتبط بوظيفة (الفعل الخطابي):

1- شخصية الفاعل.
2- العلاقات الخطابية الاجتماعية المتفاعلة.
3- الخصائص والأفكار المشكلة للنص المعني.

لا يمكن فصل طريقة عمل وتمويل المكون السوسيو خطابي عن (الفعل الخطابي) الحجاجي الكلي الذي يصف وينسق اشتغال عناصر وسمات الأنماط الخطابية المتنوعة

لتمييزها عن التنظيم الاجتماعي، والمجتمع، والسلوك، والمؤسسات الأخرى. لذلك فإن هذا المكون يقوم بتحريك الأفكار وتفعيلها بمختلف نتائجها باستغلال مجموعة من الدوال والمدلولات الاعتباطية (arbitrary).

يقوم هذا المكون بضبط وتطوير كفايات وإنجازات المتكلم ورموزه السيميائية وخيالاته، ويترجم سلوكه الاجتماعي ليخلق منها علامات لسانية نصية حجاجية منسقة ومعللة، وهو ما يمنح الأنماط الثقافية بعدا تعاقبيا (diachronic) متعددا ومتكاملا بالنسبة للعناصر، ونسبية واضحة بالنسبة لعناصر (الفعل الخطابي).

لقد حدث تطور تاريخي كبير في بنى النسق اللساني الحجاجي الكلي بفضل عدة إنجازات ومظاهر رائدة ومتدرجة:

1- تنوع وسائل الاتصال والمحاججة.
2- تضاعف الإبداعات الفكرية المتطورة عبر التاريخ.
3- تحديات البيئة والواقع.
4- وجود نموذج معيار (standard) متجدد.

يساعد المكون السوسيو خطابي على ضبط وتطوير علاقات ووظائف النسق الحجاجي الكلي تبعا لأنماط التجاذب النصي الناجمة عن التقنيات السردية والعوامل اللغوية البانية، وخصائص عملية الاتصال، لذلك فإن الرموز السيميائية المشكلة للنصوص الفكرية المتنوعة تتجلى أبعادها التداولية من خلال عمليات الدمج والمزج والتفاعل والتكامل بين عناصر النسق الكلي، وهذا ما نسميه بالفعل (نصًا) من المنظور السوسيو خطابي. تتجاذب البنى والأساليب والأفكار والرؤى وتتفاعل عبر الأجيال والأنماط المختلفة، حيث يتم التعامل معها كعناصر متنامية ومترابطة ومتكاملة[1].

يقوم هذا المكون بضبط النصوص الثقافية العربية باعتبارها مجموعة من العناصر المتنوعة الاستعمالات التي تحرك وتعمِّرُ وتفعِّل مختلف الأنماط الفكرية التي تتجلى أهميتها

---

(1) تنظر في هذا الصدد كتب أعلام السوسيو لسانيات: لابوف، فيشمان، نهير، هدسون، فرغسون وغيرهم.

الكبرى عن طريق عمل البنى التركيبية والدلالية والسياقية، كما أن عمل الفاعلين تصبح له أهمية بارزة، فتكتسب حياتهم بفضله مغزى وقصدا عميقا وهادفا واستشرافيا.

يساهم المكون السوسيو خطابي في منح النصوص الثقافية العربية فضاءات زمكانية وسياقات متميزة، وخلاَّقة، وبصيرة، ولافتة للنظر.

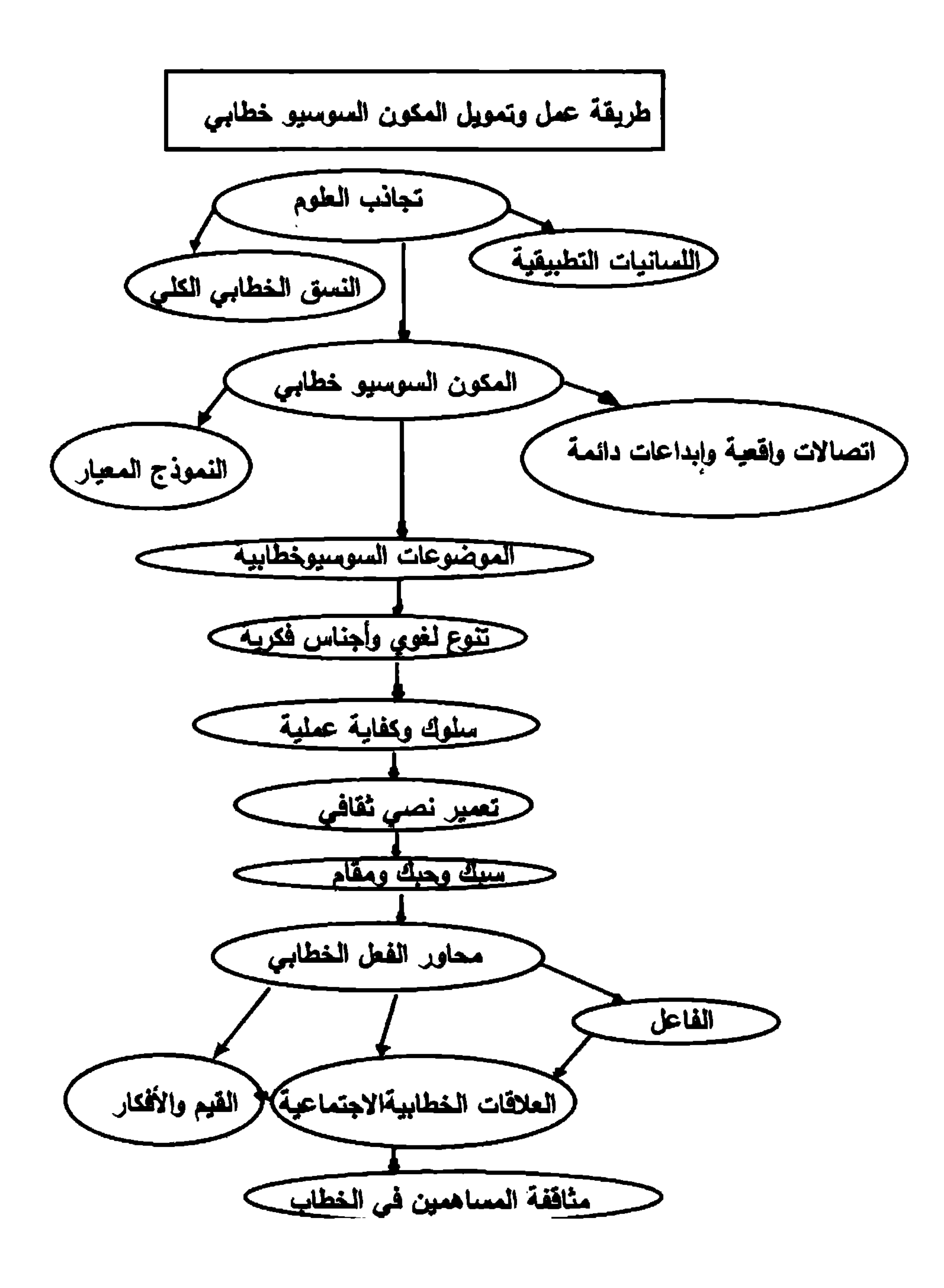
يركز النسق اللساني الحجاجي الكلي على تنوع النصوص الثقافية الأصيلة/ القدوة، وسبكها التركيبي، وحبكها الدلالي، وقصدها المقامي والاتصالي القويم، وهو ما يدعِّمُ هدفها العلمي والتعليمي. يقوم هذا المكون بتكييف وتفعيل الخطابات المتنوعة مع المعايير الاجتماعية، كالخبرة والسلوك لمنحهما بعدا خطابيا، ونموا مستمرا، ونشاطات، وتفاعلات، وتبادلات عميقة وعملية.

يبرز لنا هذا المكون أن الأفراد ينتجون الخطابات المتنوعة ويتناقلونها بينهم عن طريق الاتصال، والتفاعل، والمثاقفة، والحوار الحضاري مع الحفاظ على بعض السمات الخاصة.

يحدد المكون السوسيو خطابي النصوص الثقافية من خلال مضامينها واستعمالاتها المتجاذبة الخلاَّقة، والأفكار، والرؤى، والقيم، والرموز السيميائية الدالة التي تحتويها؛ لأنها تمثل عوامل مهمة في بناء السلوك السيكو خطابي، كما يقوم النظام الاجتماعي الثقافي بتحديد العلاقات والتفاعلات الحاصلة بين هذه الأطراف، لذلك فإن (النص الثقافي) يصبح هنا عبارة عن مجموعة من الدوال والمدلولات الحجاجية الاتصالية المتسقة بناء على علاقاتها الداخلية ووظائفها المتبادلة.

يرتب هذا المكون النصوص الثقافية العربية المتنوعة الأنماط والمسرودات كأنساق مرصوصة المتواليات والفقرات، والكيان الحي الذي ينمو ويتنوع عبر الثقافات والأجيال.

يمكن توضيح طريقة عمل وتمويل هذا المكون بين طيات النسق اللساني الحجاجي الكلي من خلال المخطط التالي:


طريقة عمل وتمويل المكون السوسيو خطابي
تجانب العلوم
اللسانيات التطبيقية
النسق الخطابي الكلي
المكون السوسيو خطابي
اتصالات واقعية وإبداعات دائمة
النموذج المعيار
الموضوعات السوسيوخطابيه
تنوع لغوي وأجناس فكريه
سلوك وكفاية عملية
تعمير نصي ثقافي
سبك وحبك ومقام
محاور الفعل الخطابي
الفاعل
القيم والأفكار
العلاقات الخطابيةالاجتماعية
مثاقفة المساهمين في الخطاب

يظهر من خلال هذا المخطط أننا نصبو باهتمام شديد إلى بناء نسق لساني حجاجي اتصالي كلي بالاعتماد على طريقة عمل وتمويل المكون السوسيو خطابي الذي يتم دمجه مع المكون السيكو خطابي حسب مظاهر ومعايير و(طرائق تمويل) محددة.

ترتكز البلاغة الحجاجية الجديدة (the new argumentative rhetoric) إذن على مجموعة من البنى الدلالية التي يوظفها الفاعلون للتعبير عن أغراضهم المختلفة. إنهم ينجزون هذا العمل بالاعتماد على بنى تركيبية تخلق عمليات حوارية (جدلية) يستغلونها بانتظام لتغيير تصوراتهم عن بعضهم، والتأثير عليهم وإذعانهم ذهنيا، وهو ما يجعل هذه البلاغة تمثل وجهة نظر استشرافية للأفق في اللسانيات العربية.

المظاهر العملية للنسق اللساني الحجاجي الكلي العربي الجديد

أولا: مظاهر المكون السيكو خطابي:

تحوي الصفحات (226، 227، 228) الواقعة في الجزء الثالث من حكايات (ألف ليلة وليلة) عملا لسانيا، خطابيا، حجاجيا، كليا متميزا موسوما بـ(الليلة 437). يكتنز هذا الإنجاز الرمزي (الإصلاحي) أغلب طرائق عمل وتمويل المكون السيكو خطابي الذي يجسد أسلوب التفكير والعمل عند الشخصيتين المحوريتين في الحكاية (المرأة العجوز + الرجل المزمع على أداء فريضة الحج)، ونشاطهما وسلوكهما المتقابلين (صيدُ الحيّات من الوادي، عدم جسارة الرجل على ذلك وخوفه منه، قبول المرأة شرب الماء المُرِّ من العين، لم يجد الرجل بُدًا من شربه، تعجبه من إقامتها ومكوثها بهذا المكان، واغتذائها بهذا الطعام، وشربها من هذا الماء، استفسارها عن اختلاف هذه الأشياء في بلاده...).

تبرز المقدمات والمعطيات الحجاجية الاتصالية بين الطرفين جليةً في هذا النموذج الأول من خلال عدة تصرفات ومواقف عامة:

1- الأحداث والوقائع: تعدُ مشتركة بين المرأة العجوز والرجل المتوجه إلى الديار المقدسة.
2- المعلومات والحقائق: توضح لنا بعض المتواليات اللغوية المشكلة لنص الحكاية ارتباط الأسباب بالنتائج.

3- الافتراضات: تبرز عادية أو محتملة بالنسبة للمعدل الأدنى أو الأقصى، كما يتضح ذلك من خلال موضوع (أكل الحيّات بالقليل أو الكثير)، وكذلك هو الشأن بالنسبة (لشرب الماء المُرِّ من العين حسب كمية معية...).

4- القيم والاصطلاحات: تتجلّى حسب نوعين بارزين: مجردة (كرم المرأة العجوز، موضوعيتها، تضامنها، عدلها. إيمان الرجل، نومه، جوعه، عطشه لذته. ظلم السلاطين، يد الله...)، ومحسوسة (الطريق، الخيمة، الكلب، الوادي، العين، البلاد...).

5- السُلَّمية والتدرج: تتضح من خلال النماذج المجردة والمحسوسة الموظفة في الحكاية بشكل سُلَّمي متدرج على مستوى العدل والجور، والحوار بين السلاطين والرعية، وشخصية الحجاج بن يوسف الثقفي.

6- المعاني والمقاصد: ترتبط بموضوعات الحكاية من حيث مقولة الكمِّ والكيْف.

يتم الاتصال والإقناع بين الشخصيتين في الحكاية بالاعتماد على الحوارات التي تحقق تغذية راجعة، وتساهم في إنجاز قوالب ومقولات لسانية ذهنية متسقة على المستوى الصوتي والصرفي والتركيبي والمعجمي والدلالي والمقامي:

المرأة: امضِ إلى ذلك الوادي واصطدْ من الحيّاتِ بقدْرِ كفايتك لأشوي لك منها وأطعمكَ.

فقال لها الرجل: أنا لا أَجْسُرُ على اصطياد الحيّات وما أكلْتُها قط.

فقالت العجوز: أنا أمضي معك وأتصيد منها فلا تخف.

وقال لها: عجبا منك أيتها العجوز ومن مقامك بهذا الموضع ومكثك في هذا المكان واغتذائك بهذا الطعام وشربك من هذا الماء.

قالت له العجوز: فكيف تكون بلادكم؟

قال لها: إن في بلادنا الدورُ الواسعةُ الرحبةُ والفواكهُ اليانعةُ اللذيذةُ والمياه الغزيرة العذبة والأطعمة الطيبة واللحوم السمينة والغنم الكثيرة وكل شيء طيب والخيرات الحسان لا يكون مثلهن إلا في الجنة التي وصفها الله لعباده الصالحين.

قالت العجوز: إذن والله يكون كل ذلك الطعام اللطيف والعيش الظريف والنعم اللذيذة مع الجور والظلم سما ناقعا وتعود أطعمتنا مع الأمن ترياقا نافعا...

يبرز لنا المكون السيكو خطابي هنا تلاحم الأصوات المتحركة والساكنة داخل المتواليات المرصوصة المشكلة لهذه الحكاية، إذ تقوم ببناء الدوال والمدلولات السردية بشكل سَلِسٍ، كما يتم التنسيق والتراتب السردي (narrative stratification) بالنسبة لتصريف الأفعال في زمن الماضي[1] (حُكِيَّ، نام، انتبه، قام، ضل، سار، رأى، وجد، دنا، سلم، طلب، قالت، أكلت، مضت، تبعها، اصطادت، جعلت، خاف، عطش، لحقه، شرب، عاد، وصفها، سمعت، أذنب، أخذ، تعالى، خلق، أصلح...)، وزمن المضارع (ير[2]، أشوي، أطعم، أجسر، أصطاد، ليشرب، يمشي، أتصيد، تخف، يحكم، يجوز، تعود، اصطد، اشرب، فقل، اتق...) مع ضمير المتكلم المؤنث والمذكر (أنا)، وكذلك (هو الشأن بالنسبة لضمير المخاطب أو المخاطبة (أنتَ/ أنتِ). نجد أيضا ضمير الغائب المذكر المفرد (هو)، وجمع المتكلمين الفاعلين (نحن). فالأصوات تتعدد وتتنوع أثناء الحوار المتبادل تبعا لمضمون الحكاية وسيافها ووعي الشخصيتين الفاعلتين.

يقوم المكون السيكو خطابي بضبط وتنسيق السلوك اللغوي المتعلق بطريقة نظم (syntax) الحكاية بشكل عميق تبعا لبناء المتواليات النصية والملفوظات الخطابية والجمل السردية الفعلية المتواترة، والاسمية، وشبه الجمل المكونة من الظرف والجار والمجرور، وجمل الإضافة، والمبتدأ والخبر، وأسلوب الاستفهام، والنفي، والنداء، والأمر المتنوع الأغراض والمقاصد، كما يتضح ذلك من خلال بعض نماذج الحكاية المدروسة:

- قدْ سمعتُ هذا كلَّهُ.
- جورُ السُّلطانِ مائةَ سنة ولاَ جورُ الرّعيةِ بعضُهم علَى بعضٍ سنةً واحدةً.
- حيثُ اتصفُوا بالسَّفاهةِ والقسَاوةِ.

---

(1) يعدّ هذ الفعل الماضي المبني للمجهول (passive voice) عبارة عن (لازمة سردية/ حكائية) فبربر

(2) ورد هذا الفعل مجزوما بالأداة (لم) ومصرّفا في زمن المضارع، حيث تمّ حذف حرف العلة من آخره (ى)؛ فالأصل (يرى) فاصبحت بعد الجزم (لَمْ يَرَ).

- فكيفَ يكونُ ذلكَ في بِلادِكمْ؟
- أيّها الناسُ إنّ اللهَ سلّطني عَليكُم بِأعمالِكمْ.
- أنا أمْضي معَكَ وأتصيدُ منها، فلا تخفْ.
- ما أكلتها قطُّ؟
- اتقِ اللهَ.

تبرزُ الكلمات المشكلة (لمعجم الحكاية) وسردها المتلاحم ثريةً وقويةً بجلٍّ مداخلها، وروائزها، وسبكها التركيبي، وحبكها الدلالي، وقصدها المقامي والاتصالي.

تظهرُ قوةِ وشمولية اشتغال المستوى الدلالي والمستوى التداولي ومعماريتهما الخاصة من خلال المدلولات والأقوال الإنجازية (performative) والسياقات المتنوعة[1] البانية لدوافع ووظائف الحكاية:

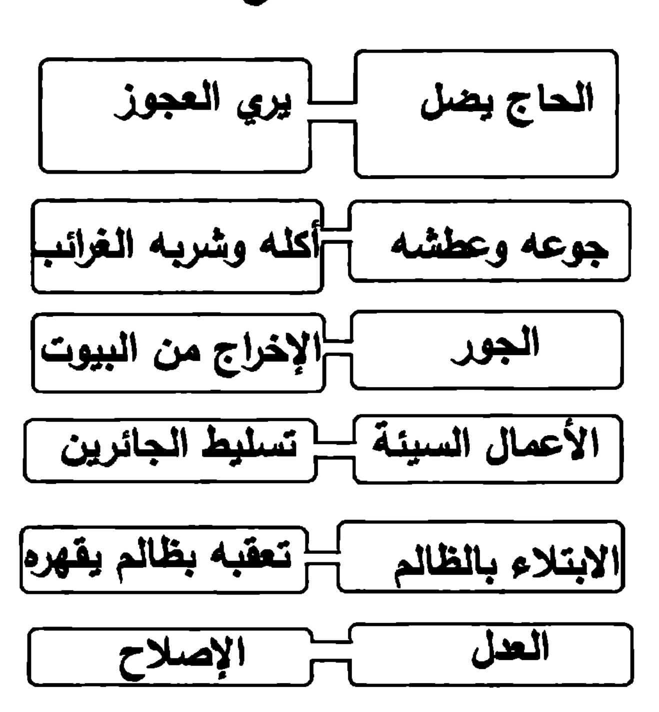
1- ضلال الرجل عن السبيل المؤدي إلى الديار المقدسة، وتهاونه وضعفه في اقتفاء أثر زملائه.
2- تحمُّل المرأة العجوز وتأقلمها مع الظروف المحيطة، وعدم جسارة وتقبل الرجل للصعاب أثناء الأكل والشرب.
3- اختلاف وجهتي النظر بين المرأة العجوز والرجل بشأن ظلم وعدل السلاطين.
4- ضرب المثل لإصلاح حال البلاد والعباد بتوظيف قصة الحجّاج بن يوسف الثقفي.
5- مغزى الحكاية يجسد أن دوام الحال من المحال، وأن من يعملْ مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعملْ مثقال ذرة شرًا يره عند مآله إلى خالقه، كما نعانق دعاءً يلخِّص إصلاح حال المجتمع والشخصيات ومتلقي الحكاية الضمني عن طريق القصد التداولي للملفوظ الفعلي الختامي/ المُوصِد للعمل السردي (نسألُ اللهَ أنْ يُصلِحَ أحوالَنا).

---

[1] نجد في هذ المنحى أربعة أنواع من السياق (context): اللغوي(linguistic)، العاطفي (emotional)، الموقفي (situational)، الثقافي(cultural).

يرسم المكون السيكو خطابي علاقات ووظائف الصور الذهنية والمدركات الحسية المتنوعة عند المرأة العجوز والرجل القاصد الديار المقدسة من خلال عرض الحِجاج التي تنظم علاقات السببية وتربطها بالأفعال والنتائج وتسلسلها داخل الحكاية وقيمتها الخاصة[1]، كما يتجلى في الجدول التالي:

الأسباب والنتاج الحكائية



إنّ الحواراتِ التي تدور بين المرأة العجوز والرجل العازم على أداء فريضة الحج بشأن عدل أو ظلم بعض السلاطين والحكام تؤثث الجانب السيكو ثقافي لديهما، حيث ترتكز على دوافع ووظائف الحكاية المدروسة، لذلك فإن المتكلم يسعى هنا إلى تحديد علاقته

(1) يرمز الحرف (S) عند علماء النفس السلوكيين أمثال (واطسون، بافلوف، سكينر...) إلى المثير (المنبه الخارجي)، ويشير الحرف (R) إلى الاستجابة (رد الفعل الداخلي). تعرضت أعمال (سكينر) السلوكية اللغوية إلى نقد منهجي قوي معلل من طرف شومسكي؛ زعيم النظرية التوليدية في اللسانيات.

بالمخاطب بِتَقَصّيهِ لوجدانه وخياله أثناء الحوار، واعتماده على وظائف اللغة الحكائية الاتصالية بينهما.

يرصد المكون السيكو خطابي حركات المرأة والرجل وتصرفاتهما، كما يفسر رموزهما السيميائية التي (تُتَبَنّى) المعاني وتخصّبُهاَ (fertilized)، كما أنه يفكُّ شفرة حواراتهما المتعلقة بعدل وجور بعض السلاطين والحكام.

الأبعاد اللسانية للمكون السيكو خطابي في حكاية (الليلية 437):

يظهر الاشتغال الفعلي لهذا المكون من خلال الأبعاد التالية:

1- ضبط قواعد السلوك عند المرأة والرجل وعلاقاتهما بملكتهما الخطابية أثناء السرد والحوار.

2- تقنين مضمون النص الحكائي البنيوي الشكلي (الصوت، الصرف، التركيب المعجم، الدلالة).

3- تبَنّي أو (تعميد) المعاني السيكو خطابية بالاعتماد على:

المثيرات (المنبهات) الخارجية عند المرأة (م) ـــــ ردود أفعالها الداخلية (ر)

المثيرات (المنبهات) الخارجية عند الرجل (م) ـــــ ردود أفعاله الداخلية (ر)

ينظم المكون السيكو خطابي اللغة الواصفة المشكلة لتقنيات السرد الحكائي[1]، إذ تتجلى استعمالاتها المتنوعة عند الشخصيتين المتحاورتين على شكل بنى وملفوظات عربية مفهومة، تراعي القواعد والقيم السيكو خطابية الاتفاقية (إلقاء السلام، إطعام الغريب، الخوف، الجهل بالشيء/ التعرف عليه، الهزال، الاستغراب، ارتكاب الذنب، الجزاء، السوء، الاعتداء، الإحسان، السفاهة، الهيبة، القساوة، البغضاء، الخراب، القهر، التقوى، الكلام الجميل، الشر/ الخير، القضاء والقدر، الجور/ العدل، الرجاء، الصلاح...).

---

(1) يرتبط هذا الموضوع بالعناصر المتنوعة المكونة لتقنيات السرد في الحكاية: نوع الشخصيات، الأحداث، الحبكة، الفضاءات والأحياز الزمكانية، اللغة الواصفة، القصد والمغزى، رؤية الكاتب...).

يتم تحديد (الفعل الخطابي) بكل أحداثه ووقائعه السردية (action/ narration)، الموزعة بإحكام داخل الحكاية، حيث يتم التركيز على نوع السلوك النفسي والتفاعل الاجتماعي عند الشخصيتين، وأخلاقهما، وخيالاتهما، ومدركاتهما[1] بالاعتماد على:

1- مزج الواقع بالخيال: يتجلى ذلك عن طريق حضور شخصية المرأة والرجل.

2- إحداث التغيير/ منع حدوث التغيير (نظام الأكل والشرب، موضوع ظلم وعدل بعض السلاطين...).

3- تأثير الأسباب على سير أحداث الحكاية.

4- يميز المكون السيكو خطابي في هذا المستوى بين الحوافز والأسباب عند الشخصيتين المتحاورتين، ويربط بين كل سبب بالأثر الناجم عنه.

5- تقصِّي أسباب حدوث (الفعل الخطابي) في الحكاية ومقاصده وطرائق التنميط، وتحديد المسؤولية بالنسبة للشخصيتين[2].

يحدد هذا المكون الأسس السيكو خطابية داخل النص الحكائي/ القدوة، إذ ينظر في ترابط وتسلسل خائصها الجمالية والفكرية والمقامية بناء على:

1- عناصر التلفظ الحكائي: يقوم على بعض الضمائر، مثل: (أنا، أنتَ، أنتِ، هو، نحن...)، والمؤشرات الفضائية (deictics) الخطابية مثل: (الآن، اليوم، هنا...) التي تتحرك ضمن كون خطابي (discursive universe) أو سياق محدد.

2- الوصف: يتم تحديد سمات وسلوك المرأة والرجل وسائر أحداث الحكاية.

3- السرد: يعتمد على تعاقب وتسلسل الأفعال والأحدث داخل الحكاية.

4- الحجاج: يتم تنظيم العلاقات بين الأسباب ونتائج الأفعال الخطابية وترابطها، وقيمة هذه الحجاج من حيث تقنيات الاتصال والانفصال، وتجلياتها المنطقية وشبه المنطقية.

---

(1) باتريك شارودو، دومنيك منغنو، مرجع سابق، الصفحتان 28 _ 29.

(2) عبد الجليل غزالة، تنميط الخطاب القصصي الفلسطيني، مجلة الرافد، العدد 144، الشارقة، 2009، الصفحة 94.

يتحقق هذا الاشتغال الحجاجي الاتصالي الجديد عن طريق ضبط عناصر النسق اللساني الكلي الباني للحكاية، حيث يتم ضبط نظامها التركيبي والدلالي والمقامي، ومنحها هويتها الثقافية، ومرجعيتها، ومقاصدها تبعا لنظام سُلَّمي، تراتبي، وضعي، عادل ومعتدل يساهم في خلق تجاذب نصي ثقافي يقوم على عدة كلمات، وأقوال، وتضمينات تراثية متنوعة (الجنة، الله تعالى، عبده الصالحون، أخرجكم من بيوتكم، استأصل شَأْفَتَكُمْ، الإسلام، خليفة الله في أرضه، والعياذ بالله تعالى، الحجاج بن يوسف الثقفي، كما قال الشاعر، في الجور والعدل....) يتم تشكيلها عن طريق انتشار العدوى النصية (textual infection)، والتلاقح، والمثاقفة المتنوعة بين الخطابات العاملة.

يقوم المكون السيكو خطابي هنا (بتسويق) عناصر (الثقافة الخطابية) المبثوثة بين طيات الحكاية، إذ يسعى إلى ضبط هويتها الخاصة وخصائصها الجمالية، والفكرية، والمقامية، كما يحدد الأبعاد الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية المتعلقة بالنسق اللساني الحجاجي الكلي بالاعتماد على تجاذباته وتضميناته النصية المذكورة.

يجسد اشتغال هذا المكون داخل الحكاية المحللة عدة مظاهر مهمة بالنسبة للنسق اللساني الحجاجي الكلي المقترح:

أولا: التنوع اللغوي والثقافي: نجد صورا متعددة من التجاذب النصي والاقتباس التراثي المتداخل.

ثانيا: الاختيارات الخطابية الأصيلة: تتنوع صور البيان والمعاني والبديع داخل النص الحكائي المحلل[1]، حيث يتم تنظيم وترتيب المتواليات الخطابية الخاصة والأساليب البلاغية لتقديم معان عن طريق التشبيه، والاستعارة، والمجاز كصور بيانية، واستغلال صيغ من الجناس والطباق، والمحسنات البديعية المتنوعة، كما يتجلى ذلك من خلال بعض الأمثلة المستقاة من الحكاية المدروسة:

- جُورُ السُّلطانِ مائةَ سنةٍ، ولاَ جورُ الرَّعيةِ بعْضُهمْ علَى بعضٍ سنةً واحدةً.
- نسألُ اللهَ أنْ يُصلِحَ أحْوالَنا.

---

(1) عبد الجليل غزالة، مجلة طنجة الأدبية، العدد 49، السنة 2013.

- اتقِ اللهَ، ولاَ تَجُرْ علَى عِبادِ اللهِ كلّ ألجورِ.
- فَكيفَ يَكونُ فِي بِلادكُمْ؟
- لأنّ ألناسَ ألآنَ لَيسُوا كَالمُتقدّمِينَ.
- يَكونُ ذلك ألطعامُ أللطيفُ وألعيشُ ألظريفُ والنِعمُ اللذيذة مع الجور سُمًا نَاقِعًا وَتعُودُ أطْعِمتُنَا مِنَ ألأمْنِ تِرْيَاقًا نَافِعًا.
- يَحكُمُ عَليكُمْ ويَجورُ فِي حُكْمهِ وأنتمْ تحتَ يَدهِ وَإنْ اذنبَ أحدٌ أخذَ أمْوالَهُ وَأتلَفهُ وإذا أرادَ أخرجكُمْ مِنْ بُيوتِكمْ وَاسْتأصلَ شَأفتَكُمْ.
- وَزمَانُنَا هَذا زَمانُ ذوي ألوَصفِ ألذّميمِ وَالخَطْبِ ألجَسيمِ، حَيثُ اتّصفُوا بِالسّفاهةِ والقساوةِ، وانطووا على البغضاءِ والعداوةِ.
- وَألجورُ يُخافُ مِنهُ وَألعدلُ أصْلحَ كلّ شَيءٍ.

ثالثا: التعادل بين أنواع النظم الخطاب[1]: تصبح كلمة متعادلة مع أخرى (equivalente) عندما تخضع الاثنتان للتوزيعات والاستبدالات نفسها. نشير هنا إلى التعادل بالرمز (=) الذي يمثل العلاقة القائمة بين عنصرين خطابيين يتحركان داخل مواقع لغوية متطابقة ومتماثلة تصبح هي بدورها متعادلة أيضا، كما تجسد ذلك بعض النماذج المختارة من الحكاية المحللة:

1- لَمْ يَرَ ألرّجُلُ مِنَ ألحُجّاجِ بُدًا مِنْ أكْلِ ألحيّاتِ.
2- لَمْ يَرَ ألرّجُلُ بُدًا مِنْ شُرْبِ ألمَاءِ ألمُرّ.
3- الإنْسَانُ أحْيَانًا يَضْطَرّ لِشُرْبِ ألمَاءِ ألمُرِ.
4- أحْيَانًا نَضْطَرّ لأكْلِ ألحيّاتِ.

نستنج من هذه الجمل والمتواليات ما يلي:

1- وجود تعادل بين (ألحيّات) و(ألمَاءِ ألمُرّ)، وبناء على هذا، فإن ما يوجد بعدهما يعدّ متعادلا أيضا.

(1) إننا نقصد بمصطلح (النظم)؛ الذي أذاعه الجرجاني بين الملأ، وسالت له الأقلام عبر العصور اللاحقة، كل العمليات التركيبية العاملة داخل العينات المدروسة هنا.

2- يعدُّ القول (الإِنْسَانُ يَضْطَرُّ...) متعادلاً مع القول (أَحْيَاناً نَضْطَرُّ...) أيضا، ما دام ما قبلهما متعادلا (الْحَيَاتُ + الْمَاءُ الْمُرُّ). يجسد هذا التعادل نوعا من الترادف الخاص.

لقد عالج اللساني الأمريكي زليج هاريس وأتباعه من التوزيعيين موضوع فئات التعادل بالاعتماد على المطابقة اللغوية الموجودة بين توزيع الأقوال الخطابية واستبدالاتها وتحويلاتها المختلفة. يؤدي التقصِّي المستمر لهذا الموضوع إلى إنتاج قائمة لغوية تضمُّ مدخلاً مزدوجًا يمثل فيه التنظيم الأفقي العلاقات القائمة بين فئات التعادل، أما التنظيم العمودي فيجسد مختلف أجزاء ومقاطع الملفوظات المقصودة.

رابعا: تفعيل تقنيات السرد الحكائي: يتم تجسيده عن طريق الشخصيات، الأحداث، الحبكة، الفضاءات والأحياز الزمكانية، اللغة، رؤية الكاتب...

خامسا: مصير الشخصيتين المحوريتين: يتجلَّى هذا الموضوع من خلال سلوكهما وسلوك الشخصيات الثانوية الأخرى المتجاذبة مع التراث (الحجّاج بن يوسف الثقفي)، وأحداث الحكاية[1].

يحقق حسن الاشتغال والتوظيف نوعا من الاتزان، والمرونة، والعمق، والسبك التركيبي، والحبك الدلالي، والقصد المقامي بناء على:

1- التعادل بين المتواليات الخطابية (discursive sequences) المشكلة لنسيج الحكاية.

2- اللذة الخطابية: يتم توسيع الذات بالملفوظات والمتواليات الحكائية والنشاط التحليلي الذي يعتمد على نسق سيميائي سياقي بعيد عن كل أنواع التفتيت، وهو ما يولد ويطور هذه اللذة النصية التي تتنامى عبر مراحل الاشتغال والتحليل (الهاضمة) لتقنيات السرد الحكائي.

3- الإشراق والتأثير الحكائي: يعمل عمله من خلال الاستغلال والاستفادة من العناصر النصية بأكملها...

---

[1] ننعتها بالشخصيات (الْمَقْوْلَبَة/ أ لْمُنَمْذَجَة) التي يتم وضعها وصهرها داخل قالب خطابي مجازي جديد بالاعتماد على الخصائص الجمالية والفكرية والمقامية، ضمن نموذج ويقع إحلالها ضمن نموذج لساني يتخطى النموذج المعياري/ القدوة.

يتم تقويم الحكاية (الليلة 437) باستغلال مفهوم (الذوق المثقف)، والسجلات (the registers) اللغوية التي تركز على الخصائص الاجتماعية، والتغيرات السياسية، والممارسة اللغوية الخارجية المتعلقة ب بالشخصيات، والنوع الحكائي المنظم للخطاب.

يحدث نوع من الموازاة بين سلوك الشخصيتين المحوريتين تبعا لَمَلَكَتَيْهِمَا (كِفايَتَيْهِمَا) العقليتين المشكلتين للسرد الحكائي وتخطيط اللغة الواصفة[1]، كما يتمُّ ضبط الجانب العقلاني والموضوعي بالاعتماد على (مجتمع الحكاية)، وقيمه، وعاداته، ومعجمه الخاص: (الحُجّاج، إلقاء السلام، خيمة، الكلب، الوادي، الحيّات، الشواء في الخلاء، الكلب يتبع صاحبه، عين الماء المُرِّ، الدُّور الواسعة، الفواكه، المياه، الغزيرة العذبة، الإسلام، أطعمة الجنة، الله تعالى، عباده الصالحون، السلطان الجائر، الرعية، خليفة الله في أرضه، العياذ بالله تعالى، المنبر، الشاعر، الجُورُ، العدل...). نعانق أيضا في هذا المنحى بناء محكما للمستويات الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والمعجمية، والدلالية، والمقامية، ومختلف القيم الموزعة بين ثنايا النص، وهو ما يحدد بشكل دقيق الكفاية اللغوية الفاعلة داخل العمل الحكائي، والمرتبطة بالإنجازات اللغوية الفعلية للشخصيات.

تتجلى سمات النص الحكائي المدروس واضحة من خلال طريقة عمل وتمويل المكون السيكو خطابي الذي يستفيد من عمليات التهذيب، والتنقيح، والصقل، والتنسيق، والتغيير والاستبدال، والتفرد على المستوى الجمالي والفكري والمقامي.

يساعد هذا العمل على إنتاج المخطط السردي (narrative schemata) للحكاية ومربعها السيميائي (semiotic square)، إذ يقوم بضبط الملفوظات والحوارات التي تدور بين الشخصيات، ونمط الخطاب الذي توظفه، ودوافعها، ووظائفها، ووجهات النظر، والفكر والأنشطة المختلفة.

---

[1] عبدالجليل غزالة، معارف في الأدب الفرنسي و اللسانيات، ط1، منشورات جامعة الجبل الغربي، ليبيا، 2012، ص 213، وما بعدها.

قاربت الباحثة الفرنسية غاي دوبوف في كتابها المتميز (اللغة الواصفة) عدة موضوعات ما تزال بكْرًا في مجال اللسانيات المعاصرة.

يجسد الإنجاز الخطابي الكلي بمختلف مظاهره وتجلياته الفرعية الأبعاد الحجاجية المتعلقة بالحكاية المحللة وصورها البلاغية، حيث تتم ترجمتها عن طريق تجليات أحداثها، وأثناء ارتكاب المرأة والرجل لبعض الهفوات، أو اللجوء إلى المراوغة، وتوظيفهما لصور من الكناية، والمجاز، والاستدراك، والإسهاب، والالتفات، والضمائر، والتلميحات، والتورية (periphrasis) المتنوعة.

والحقيقة أن المكون السيكو خطابي يبرز لنا أن كل عمل لساني خطابي يملك سمات وممارسات خاصة، ولا يمكن لأية طريقة مهما كان نوعها أن تشكل عصا سحرية تكون صالحة لوصف وتحليل واستقراء كل الأنماط الخطابية وصورها البلاغية الحجاجية الاتصالية المتعددة.

ثانيا: مظاهر المكون السوسيو خطابي:

تتفاعل عناصر المكون السيكو خطابي لتشكل أسلوبا خطابيا على المستوى النفسي والذهني، حيث يتم في هذا الصدد توظيف مصطلح (الفاعل الاجتماعي social actor) لضبط سمات المساهمين ضمن عملية الاتصال التي تتحكم في قضايا كتاب (مختارات من ديوان شاعر الحمراء)[1]، أو المبثوثة بين طيات الخطاب الديني الإسلامي الذي يبرز من خلال (حكم وأقوال الإمام مالك بن أنس)[2]، إذ يتم تحديد وجهات نظر هؤلاء المساهمين، وأدوارهم، وعلاقاتهم الاجتماعية. إنهم يتفاعلون ويكملون بعضهم حسب تمثيلات وتصورات مشتركة المعايير والتخطيطات التي تجعلهم يخلقون جدالا اجتماعيا يتنوع حسب الأسباب والنتائج ومستوى التنميط أو المسؤولية في الخطاب.

---

(1) كتاب (مختارات من ديوان شاعر الحمراء)، اختيار الطيب دنيا، وأحمد الشرقاوي إقبال، ط 1، المطبعة الوطنية، مراكش 1979.

(2) نقلا عن موقع Islam gems. Blogspot.com، وهو موقع غني بالمعلومات والحكم والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الأربعة، وبعض علماء المسلمين المعروفين.

يحدد هذا المكون الخطابي هوية المتحاورين، وأنواع سلوكهم سواء في الخطاب الشعري أو في الخطاب الديني النموذجيين المحللين.

1- نموذج من الخطاب الشعري:

تعمل هذه المظاهر الخطابية بناء على عدة دوافع تخلق وظائف شعرية (poetic functions) مهمة:

- الشاعر/ السارد يعشق امرأة ذات قدٍّ واعتدال وبهاء وكمال، وأخباره يرويها عبد المالك بن قريب.
- الناظم يجمع في سرده الخطابي بين الجانب الوجداني والجانب الوطني ضمن قصيدة واحدة تتلازم وتترادف العواطف والمنجزات المحلية لخلق مقاصد واضحة وموضوعية
- العلاقة الحسنة وتبادل المشاعر والقيم الصالحة بين أفراد الرعية وسلطان البلاد في عدة مناسبات وأعياد.
- جمالية سرد وحسن تجليات ألحَيِّز المكاني بمدينة مراكش، وضبط محدداته الجغرافية.
- تمجيد شعائر الحج وقيمه، وسلوك الحاج ومشاعره.
- سرد بيوغرافيا (biography) السلطان محمد الخامس بعشق وولاء وموضوعية.
- تخليد العلاقات وتكريم بعض الأصحاب، والزعماء، والمبدعين العرب، والقوميين، والمطربين، والشباب، والنساء العالمات البارزات...
- طرائق العمل والسلوك والمواقف السارية في بعض النوادي والبلدان العربية المؤثرة (نموذج مصر).
- تنوع وجهات النظر، والسلوك، ومستوى الفهم والوعي بقضايا السياسة، والأحداث الاجتماعية المختلفة...
- اختلاف الرؤية الاجتماعية، والمقاصد، والثقافة بين الشاعر/ السارد والمتلقي/ المُحاوِر.
- الالتزام بقضايا الوطن، ومقت سلوك العملاء، وتحمل المحن والشدائد.

- عدم الاتفاق بين الناس بشأن (وعد بلفور) وقضية فلسطين.
- تنوع السرد والتحليل والأحداث الاجتماعية وأنواع العشرة والزمالة والوجدانيات في الحياة الدنيا.
- تعدد الأغراض الشعرية وتفرد أجناسها وبناها وحجاجها ومقاصدها عند الناظم.

2- نموذج من الخطاب الديني:

يبرز عمل الفاعلين والمساهمين في الخطاب الديني عن طريق عدة دوافع تبني (وظائف عقائدية dogmatic functions) أو مذهبية متميزة:

- استعمال الخطاب الديني الحكمي المسرود بشكل موضوعي متكرر بمعية تعدد الأصوات.
- بناء المعاني البلاغية من خلال جمل اسمية ابتدائية وفعلية تعرض عدة قضايا ومحمولات (predicates).
- استغلال صور بديعية تقوم المقابلات والطباق الكوني المتنوع بين الباطل والحق، واستعمالها بنسب منسقة ومتسلسلة.
- تحديد سلوك الإنسان بالاعتماد على مظاهر سيكو لفظية وغنائية (lyrical)، وضبط علاقتها بالمتحاورين الآخرين وبنوع الحِجاج المعروضة، وتنوع تقنياتها عند الإنجاز والتداول.
- ارتباط الصدق عند المسلم برجاحة العقل وسلامته.
- تأسيس مقاصد الخطاب الديني على ثنائية سرمدية متلازمة الشقين: نفس العمل/ نفس الجزاء.
- ارتكاز جوهر العمل الديني على الكلمة الطيبة، وانتقاء الميقات المعلوم للصمت والكلام المناسب.
- علاقة الأجوبة بنوع الأسئلة الملائمة، والموضوعية، والوضعية، والقصد السليم.

- حسن التعامل مع الثنائية الكونية: الحق/ الباطل، فهي التي تغير كل القوانين، وأنماط العيش، والعمل، والعلاقات، والتصرفات...
- إشراق مقاصد الخطاب الديني الإسلامي من خلال ربط القول بالفعل، وتحقيق الخلافة الهادفة والريادة الاستشرافية للإنسان في الأرض...

يفوض النسق النصي الحجاجي الكلي للمكون السيكو خطابي والمكون السوسيو خطابي أمر وصف وتحليل واستقراء المقام الخطابي التداولي[1] الذي يعتمد على كفاية المخاطب الاستدلالية، والوظائف السجالية المتعلقة بالكلمات التي تؤسسها العوامل الحجاجية الموجهة للخطاب الشعري (التخييلي) عند محمد بن إبراهيم، كما أن هذين المكونين الخطابيين يقومان بضبط سمات الخطاب الديني (الحكمي) عند الأمام مالك بن أنس، إذ يتم تحديد الأبعاد اللسانية، والسيميائية، وعمل الفاعلين ووجهات نظرهم تبعا للخبرة، والكفاية، والاستعمال.

يبني هذان المكونان وعي الفاعلين في الخطاب الشعري والخطاب الديني، ويقومان بتعمير وتفعيل هذين الجنسين الفكريين حسب الفضاءات والأحياز الزمكانية والسياقية المتحكمة فيهما، والخالقة لعدة تفاعلات لسانية اجتماعية ذات وظائف متميزة. إنهما يضبطان ويحركان أهم التقنيات الحجاجية الموظفة في الخطابين معا بالاعتماد على ثنائية: الاتصال/ الانفصال، وسائر التجليات المنطقية وشبه المنطقية في علاقتها بالمقام.

تقنيات الاتصال والحجاج في الخطاب الشعري:

تتألف عناصر القريض في هذه (المختارات)، حيث تتم هيكلتها وتقويمها لضبط الأشكال الاتصالية الحجاجية الكلية بشكل واضح، فتشرق صور التمثيل والاستعارة بقوة وصفاء. يوظف شاعر الحمراء؛ محمد بن إبراهيم أحيانا عمليات نظمية مهمة لتعمير وتفعيل تقنيات الاتصال بين طيات بعض قصائده من خلال:

---

(1) Ducrot , le dire et le dit.Ed. Minuit ,1984 ,P 20

1. **التناقض وعدم الاتفاق:**

يظهر ذلك في قوله:

- **وَلَقَدْ أَسَرّتْ مَا أَسَرّتْهُ لَهُ**

وَٱلسّمْعُ فِي ٱلتّصْدِيقِ وَٱلتّكْذِيبِ

- **حَسِبتْهُ يَكتُم سِرّها وَلَقَدْ وَفّى**

لَكِنْ نَرَاهُ صَاحَ كَٱلْمَضْرُوبِ

- **وَإِذَا سَطَا صِدْقِي عَلَى ٱلعَقّادِ قَدْ**

تَسْطُو عَلَى أَضْدَادِهَا ٱلأَضْدَادُ

- **أَدْبِرِي عَنِّي بِوَجْهِ**

وَ ٱلْقَفَا مِنْكِ أَرِينِي

- **حَجَجْنَا اِبْتِغَاءً لِنَيْلِ ٱلثّوَابِ**

فَحَلّ مَحَلّ ٱلثّوَابِ ٱلعِقَابُ

- **مَنْ سَلّمتهُ سَلِما**

وَمَنْ خَاصَمَتْهُ خَصِمَا

2. **التماثل** (the similarity):

تساهم هذه التقنية الاتصالية في ضبط وتقويم الموضوع ٱلمعرِّفِ والمُعَرَّفِ بغية بناء قضايا حجاجية شبه منطقية مثل قولنا:

- **شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم هو دائما شاعر.**

أو قولنا:

- **الأم تبقى دائما أما.**

يعد أحد هذه الأقوال حقيقةً والآخر مجازا. إننا نستعمل مصطلح (التماثل) هنا لضبط وتقويم الأقوال الخطابية بشكل سلبي أو إيجابي بالاعتماد على عملية الحشو أو الإطناب (pleonasm)، فقول الناظم في الصفحة 39:

- وَأَتَيْتُ بِٱلتَّمْثِيلِ أَكْبَرَ مُرْشِدٍ
  يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ مِنْ يَضِلُّ سَبِيلا

وقوله في الصفحة 91:

- فَتَارَةً مِنْ مَشْرِقٍ لِمَغْرِبِ
  وَتَارَةً مِنْ مَغْرِبٍ لِمَشْرِقِ

يبرز لنا القيمة الدلالية الكامنة في القول الثاني المماثل للأول والمكرر، حيث إن هذه الصيغ تمثل حِكمًا مقامية تكون مطعّمة بدلالات حجاجية وسياقية محددة، مثلما نجد في القول السابق (ٱلأُمُّ تَبْقَى دَائِمًا أُمًّا).

3. علاقات التبادل:

يتم بناء القضايا الشعرية الحجاجية بطريقة عكسية تعالج وضعيتين متماثلتين تعملان بصورة عادلة ضمن مقولة واحدة، كقوله:

- أَسَرْتَهُمْ وَٱلصَّفْحُ عَنْهُمْ مُنْتَوَى
  فَمَا هُمْ مِنَ ٱلأَسْرَى وَإِنْ هُمْ مِنَ ٱلأَسْرَى
- وَهَذِي رِجَالُ ٱلعِلْمِ فِيهَا تَدَفَّقَتْ
  بُحُورًا لَوْ أَنَّ ٱلبَحْرَ يَخْلُو مِنَ ٱلجَزْرِ
- وَأَبْغَضُ مَا عَنْدِي ٱلتَّحَبُّبُ مِنْهُمْ
  وَبُغْضُهُمْ وَٱللَّهِ عِنْدِي هُوَ ٱلحُبُّ

تضم هذه النماذج الشعرية حججا متعارضة توجهها (قاعدة العدل) التي تنظِمُ عملية التناظر أو القلب الحاصل بين وضعيتين محددتين (الأسر/ الصفح، التدفق/ الجزْرُ، الحب/ البغض)...

4. التعدية (the transitivity) والانتقال:

تتجلى الحجاج الشعرية شبه المنطقية التي يقدمها محمد بن إبراهيم واضحة من خلال عملية التعدية والانتقال التي تخلق عدة علاقات؛ كالتساوي، والتفوق، والتضمن (implication)، كقولنا في هذا النحو:

عَدُوٌّ عَدُوِّي صَدِيقِي

تتضمن كل قضية شعرية حجاجية موجودة في النموذج المدروس قضية أخرى، كما يظهر ذلك من خلال القياس المنطقي (syllogism) الذي يرتكز على عملية التعدية والانتقال، حيث نجد في المثال التالي:

توفي الشاعر محمد بن إبراهيم لأنه إنسان.

[النتيجة الضمنية: كل إنسان فانٍ]

________ علاقة التعدية

________ سينجح هذا الطالب لأنه الأذكى.

________ [الأذكى ينجح دائما]

تستند عملية التعدية المشكِّلة لبعض تقنيات الاتصال الحجاجي الشعري شبه المنطقي إلى عدة علاقات رياضية ضمنية تربط الكل بالجزء بشكل خاص.

علاقة تقنيات الاتصال الحجاجي الشعري بالواقع

يهدف البعد العقلي المتعلق بالحجاج شبه المنطقية إلى ضبط القضايا الشعرية الموجودة داخل النموذج المحلل. نجد قضايا حجاجية أخرى تسعى للربط بين الآراء والأحكام البديهية وغير البديهية، وهو ما يجعل منها حججا اتصالية تتميز بطريقة عرض الأحداث، أو الحقائق، والافتراضات المتنوعة.

تبرز لنا تقنيات الاتصال المتعلقة بالقضايا الشعرية الحجاجية وجود عدة أنواع من الترابط والتسلسل بين أقوال وأحكام الشاعر:

أولا: الاتصال المنتظم:

يجسد أسباب ونتائج الأحداث والوقائع الشعرية المسرودة بين ثنايا هذه (المختارات) المحللة التي تقوم على التسلسل الزمني.

يكتنز الاتصال المنتظم المبثوث بين طيات خطاب الشاعر ثلاثة أنواع:

1- انتظام وتسلسل حدثين شعريين متتاليين: يبرز ذلك من خلال قولنا:

لقد أبدع في (مختاراته)، فملأ الدنيا وشغل الناس.

2- استخلاص النتيجة من حدث شعري محدد: يتجلى في القول التالي:

ملأ الدنيا وشغل الناس، لأنه أبدع في (مختاراته).

3- التكهن بالنتيجة: يظهر ذلك في قولنا:

هو يبدع في (مختاراته) سيملأ الدنيا ويشغل الناس.

ترجم العلاقة الموجودة بين السبب والنتيجة في الخطاب الشعري المدروس تغذية راجعة، مما ينتج حجاجا تداولية مهمة تساهم في ضبط وتقويم العمل وتوجيه سلوك الفاعلين، كما أنها تحرك وتزكي هذه (المختارات) الشعرية بطريقة محكمة.

تستند تقنيات الاتصال المنتظم عند الشاعر أيضا إلى حجاج الإتلاف أو الإضاعة من أجل إصلاح بعض الأمور والقضايا الأخرى، وتحقيق نتيجة محفزة. نعانق في هذا الصدد أيضا عملية التوجه لإنجاز المفيد، واجتناب عملية التراجع، والتقاعس، والحد من التمادي، وتفشي الجوانب السلبية، وإشاعة جو من التحذير، كقوله في الصفحة 29؛ محذرا، وناصحا، ومعتبرا من بعض المواقف والعواقب:

- فَخَانُوا وَعَادُوا بِالْخَسَارَةِ تِجَارَةً
وَحَاقَ بِهِمْ مَكْرٌ وَقَدْ أَمِنُوا الْمَكْرَا

- لَقَدْ نَكَثُوا بِالْعَهْدِ مِنْ خُبْثِ
إِلاَّ أَنَّ خُبْثَ النَّفْسِ دَاؤُهُ لَنْ يَبْرَا

ونجد في الصفحتين 64 و 65 نظمه:

- وَرَاعَنِي مِنْهُ دَمْعٌ كَادَ يَغْسِلُنِي
أَعُوذُ بِللَّهِ مِنْ ذِي الظَّنَنِ

- وَالْآنَ قُطْبٌ وَجْهُهُ الدَّهْرُ الْخَؤُونُ
وَمِنْ قَدِيمٍ دَهْرُنَا خَوَّانُ

يظهر من خلال هذه الأبيات أن الموضوعية والمنطق وسواء السبيل يفرض علينا أخذ حذرنا من بعض الأشياء والتصرفات والقيم الطالحة (الخيانة، الخسارة، خبث النفس، المكر، الظن وما بعده من إثم، الدهر الخوان...)، أو الابتعاد عن كل ماله صلة بها.

ثانيا: اتصال التعايش:

يحددُ العلاقةَ الموجودةَ بين الفاعلين وسلوكهم، حيث يتم التعرف على سماتهم الخاصة التي يقوم بتقويمها الآخرون. يعد التسلسل الزمني في هذا النوع من الاتصال ثانويا، لكنه قد يتحقق بناء على:

1- سلوك الفاعلين: يساهم في ضبط وتحديد موضوعات الديوان وأحدثه تبعا للسياقات التداولية. يتم فهم القصد من وراء هذا السلوك عن طريق الحجاج الواضحة التي تشارك التقويم، إذ يحصل التداخل بين الطرفين بشكل رجعي متبادل:

الفاعلون ———————— **سلوكهم**
←

سلوكهم ———————— **الفاعلون**
←

2- السلطة الحجاجية عند المتكلم: تمثل فرعا من اتصال المعايشة سواء أكانت صادرة عن الشاعر أم عن السارد بمختلف تجلياته وسماته الخاصة، وهي عبارة عن حجاج تترجم معيارا شعريا أنوعا من الحكم، والثقافة، والمعتقدات المحددة (شخصية السلطان/ الملك محمد الخامس).

ثالثا: الاتصال السيميائي:

يبرز نوعا من التعايش المترابط والمتزامن بين الألفاظ والمعاني الشعرية، حيث تصبح العلاقة مشتركة ومبررة، وليست اعتباطية غير معللة اجتماعيا.

يظهر الاتصال الرمزي بين طيات العمل الشعري عن طريق الانتقال من الدوال إل المدلولات، كالعلاقة بين الألفاظ الشعرية المتعلقة براية الدولة المغربية وعلاقتها، وعلاقة القرآن الكريم، أو المسجد، أو الأركان الخمس بالإسلام. ترسم عدة قصائد في الديوان بعض المشاعر التي يكنها الناظم لسلطان البلاد، إذ إن بعض الكلمات تثير في هذا المنحى عدة عواطف ومقاصد تتعلق بالعلاقة المشتركة المبررة الموجودة بين الألفاظ ومعانيها، كعاطفة الوطن والدينِ عند شاعرنا...

يربط هذا الاتصال السيميائي بين طريقة التعايش عند الفاعلين في قصائد الديوان وسلوكهم، حيث يعبر عن ثقافتهم المغربية الخاصة، ولا يمكن إسقاطها على الشعر العربي بأكمله، لأن البعد هنا يعد لا عقلانيا... قد يعتمد الاتصال الباني للواقع الشعري على بعض الحالات الخاصة التي تقوم على المَثَلِ المشابه، إذ يقتضي الأمر وجود بعض الخلافات على مستوى القاعدة التي تتحكم في هذا المثل، كما يتجلى ذلك من خلال النص: ((اعتمد جالوت على الحرس لنشر طغيانه))، وهو أيضا الذي ((اعتمد عليه بعض الحكام المعاصرين لنشر طغيانهم)): لقد انتقلنا هنا من (آلة جالوت = الحراس) إلى (بعض الحكام المعاصرين). إننا نستعمل هنا طريقة الاستشهاد والتوضيح لتدعيم عملية تصديق القاعدة الموظفة...

يتجاذب الشاعر محمد بن إبراهيم مع المثل التراثي المشابه في عدة قصائد من ديوانه للبرهنة على آرائه وأحكامه، وبناء و توطيد القاعدة، في حين أن استعمال الاستشهاد يكون لمجرد التوضيح والتفسير.

رابعا: التمثيل الحجاجي والاستدلال

تتحقق البرهنة المشابهة بين البنى المساهمة في العمل وصيغ التماثل العامة، كقوله تعالى في سورة العنكبوت، الآية 41 ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾. نجد في هذ القول الرباني المطهر:

1- المشركون.

2- أولياؤهم (الأصنام).

3- العنكبوت.

4- بيتها[(1)].

تربط علاقة (أ) مع (ب) بين المشركين وأوليائهم الذين يعبدون، وهي تبدو مشابهة لعلاقة (ج) مع (د) التي تربط بين العنكبوت وبيته الذي يبنيه ليعتصم به ضد العدو. تمثل (أ + ب) الموضوع، أما (ج + د) فتمثل الدافع أو الحامل للموضوع[(2)]. إذن كيف يمكننا استغلال عمليات التمثيل لبناء الحجاج الشعرية في هذه (المختارات)؟

يخلق التمثيل الخطابي إبداعا شعريا حجاجيا متنوعا موسعا يساهم في توضيح قضايا القريض ومفاهيمه، وهو ما يمنحه قوة إقناعية تُقَدِّرُ شخصية المخاطب، كما أن هذا التمثيل يجسد استعارة تتولد عن طريق التفاعل والاندماج الحاصل بين الموضوعات الشعرية ومحمولاتها المتعلقة ببناء المقال والمقام لتحقيق الفهم الجيد.

---

(1) Ibidem , P 34

(2) عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ط 1، مكتبة علاء الدين، للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2011.

تقنيات الانفصال في الخطاب الديني المالكي

تتجلى طريقة عمل وتمويل المكونين السيكو والسوسيو خطابي من خلال عدة مظاهر موسعة تنتمي إلى مجال (الخطاب اللساني الحجاجي الاتصالي العربي الجديد) الذي تحركه تقنيات اتصالية ثلاثية الأبعاد:

1- تقنيات اتصالية حجاجية شبه منطقية.

2- تقنيات اتصالية بانية لواقع النص الديني.

3- تقنيات اتصالية خاضعة لهذا الواقع.

يحاول هذا (الخطاب اللساني الحجاجي العربي الجديد) التركيز على سمات ودور وأثر المخاطب (العليم)، كما أنه يسعى إلى تجاوز وسائل التعبير، والتنميق، والمتعة المستهلكة ضمن البلاغة العربية القديمة ليهتم بالبعد العقلاني، وتطوير الجانب التداولي، وطرائق الإلقاء من المنظور النفسي والاجتماعي الباني للأنماط الكتابية والشفهية وتقنياتها الخاصة. لذلك فإن هذا الخطاب الجديد يحاول:

1- تجاوز الجانب التعليمي _ المعياري، وخلق خطاب حجاجي تعليمي _ اتصالي يعتمد على عدة جوانب وأسس مهمة (المقام، اللغة الواصفة، التفاعل، التنوع، التغير، القصد، طرائق الإنجاز، التلقي، وسائل الاتصال...).

2- التأثير في ذهن المخاطب باستعمال وسائل خطابية محددة، وضبط قواعدها وعلاقاتها التداولية المدمجة.

3- الاهتمام بالعوامل والوظائف المحركة لعملية الاتصال ووسائل الإقناع المتنوعة.

4- استغلال العوامل اللسانية المتنوعة (دلالية، إعرابية، حجاجية، منطقية)[1] التي تبرز جلية في اللغة العربية من خلال الجدول التالي المقتبس عن عز الدين الناجح:

---

(1) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ط 1، سلسلة عالم المعرفة، العدد 240، الكويت 1998.



الأصناف والتقسيمات / الأهداف العليا	دلالية	إعرابية	حجاجية	منطقية	أخرى
1- وصف الواقع والإحالة عليه	عوامل: - زمانية - تمثيلية - مقارنية	عوامل مرتبطة بـ: - الظروف الزمانية والأحوال والأهداف	-	-	المكان
2. أ- التعبير عن: منطق فكر ما وترابطه.	عوامل: - إحصائيّة - إضافية - تعدية - تفسيرية - سببية متتالية - تلخيصية	الربط والعطف عوامل مرتبطة بـ: - السبب والنتيجة	عوامل: - حجاجية - تراتبية متلاحقة	كلّ العوامل المرتبطة بالعمليات المنطقية الأساسية	
2.ب- التعبير عن حالة أو موقف			- عوامل مرتبطة بالشرط	-	
3- التحكّم في آليات التخاطب	عوامل: - تنافسية - تفاضلية	عوامل مرتبطة بالصّيغ الدالة على التفضيل	عوامل: - حجاجية - تعارضيّة	-	

تتحقق تقنيات الانفصال الموجودة بين طيات الخطاب الديني المالكي عن طريق حضور وحدة ومفهوم ومرجع واحد بالنسبة لعناصر النموذج المدروس. تقوم هذه التقنيات بين العناصر المتضامنة داخل الخطاب المالكي بالاعتماد على ثنائية: الظاهر الزائف/ الحقيقية

الواقعية التي بالقضايا الجوهرية، والمعطيات الجامعة، والشخصيات الدينية الإسلامية المؤثرة. لكن كيف يتم الفصل بين هذين الجانبين داخل معطى واحد؟

يجول الموضوع الخطابي الظاهر في ذهن المسلم فيدركه بسرعة، حيث يتخذ شكل معطى ديني راهن، في حين أن الحقيقة الواقعية لا يتضح موضوعها إلا من خلال الموضوع الظاهر الزائف من أجل إقصاء تناقضاته وخديعته لفكرنا. يمنحنا الشق الثاني من هذه الثنائية (الحقيقة الواقعية) قاعدة أو مقياسا للتمييز يستغلُّه الموضوع الظاهر وما ينتج عنه من تداعيات.

تجسد العلاقة بين الظاهر والحقيقة في الخطاب الديني المالكي بناء ذهنيا غير ثابت في الطبيعة، إذ يقوم الموضوع على المقارنة بين شقي الثنائية ومحاكمة الأمر الظاهر من خلال الحقيقة والواقع الديني العملي. يتم الفصل بين الشقين في علم الكلام بكل مفاهيمه وقضاياه. لكن السؤال المطروح هو: كيف يتم التمييز بين العناصر المشكلة لتقنيات الفصل الموجهة لِلْحِكَمِ والأقوال في الخطاب الديني المالكي؟

تمثل الثنائية السابقة (الظاهر/ الحقيقة) أو ما يضارعها عبارات لسانية واصفة من قبيلِ:

- ظاهري/ حقيقي.
- غير علمي.
- غير صحيح.
- جملة اعتراضية: إن هذا الإمام إنْ صحَ أنه إمامٌ...
- بعض الأفعال: يزعم، يدّعي، يتوهم،، يَخال: يزعمُ أنه إمامٌ راسخٌ في العلمِ.
- وضع إحدى الكلمات بين قوسين أو مزدوجتين: كنتُ يومَها (إمامًا) أتمتعُ بصحةٍ وعافيةٍ.

تملك هذه العبارات أو ما يضارعها من الصيغ اللغوية مظهرا حجاجيا في الخطاب الديني المالكي، لأنها تفصل بين شقي ثنائية: الظاهر/ الحقيقة ضمن المصطلح الواحد التابع

لعلم الكلام الإسلامي. يمكن في هذا الصدد الاستشهاد بقوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وتركوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)، فقولنا (ليسوا من الملوك) يحقق عملية الفصل بين الظاهر والحقيقة بالنسبة لكلمة (الملوك) وتعريفها؛ لأنها تمثل وسيلةً حجاجية شبه منطقية تميز بين مصطلح الظاهر العرفي ومصطلح الحقيقية في علم الكلام الإسلامي.

قد يلجأ الإمام مالك هنا إلى عملية الاشتقاق من الأصل (etymology)، أو الاستعمال العرفي السيار لتزكية وشدِّ أزرِ تعريفاته الدينية، كقوله:

- لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر ما يعقل يعبد ربه.
- إذا ظهر الباطل على الحق، كان الفساد في الأرض، وقليل الباطل وكثيره هلكة، وإن لزوم الحق نجاة.
- من لم يكن فيه خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره؛ لأن نفسه أولى الأنفس كلها فإذا ضيعها فهو لما سواها أضيع، ومن أحب نفسه حاطها وأبقى عليها.

يتم الفصل الحجاجي بين كلمات معجم الخطاب الديني المالكي باستعمال تقنيات لسانية تجعل المسلم المخاطب يتمثل مظهرين يتعلقان بشيء واحد: مظهر زائف مراوغ/ حقيقة واقعية عملية.

تؤدي عملية الفصل الخطابي بين الكلمات الدينية إلى جعل المسلم المخاطب يقبل الحقيقة الثابتة ويقصي الظاهر العرضي. لكن كيف يمكننا تقصِّي واستخلاص طرائق الفصل الحجاجي الموجودة داخل الخطاب الديني المالكي المحلَّل؟

يرتبط هذا الموضوع بالتطبيق التلقائي الذي يعتمد أحيانا على إيعاز خارجي ضمن الفصل الخطابي بين ظاهر الكلمات وحقيقتها الفعلية. لكن كيف يتم تحقيق هذه العملية الخطابية؟

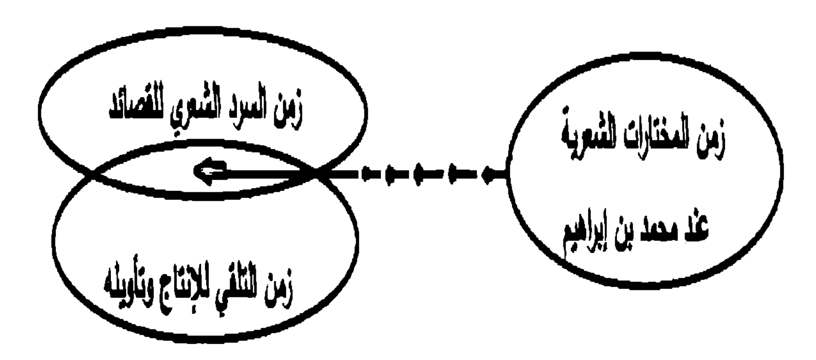
يهدف الخطاب الديني الحجاجي المدروس إلى تحقيق نتيجة محددة من خلال التركيز على شخصية المخاطب، وهو ما يربط قوة الاتصال والحجاج بالمقام التداولي، حيث تتم المطابقة بين الموضوعات وأساليبها الخاصة بغية إقصاء التباعد بين العناصر.

تصبح الحقيقة الواقعية مقنعة جدا داخل (النص الديني المالكي)، أما ظاهرها فيبدو من وجهة نظر المسلم المخاطب محفوفا بالمخاطر والعثرات والثغرات، ولا يساعد على الاقتناع والإذعان للموضوع. لذلك يجب عدم إحداث قطيعة بين الدوال والمدلولات، لأنها ستحول الموضوع إلى عبث وعمل لا عقلاني.

وظائف الفضاءات الزمنية في الخطاب المدروس

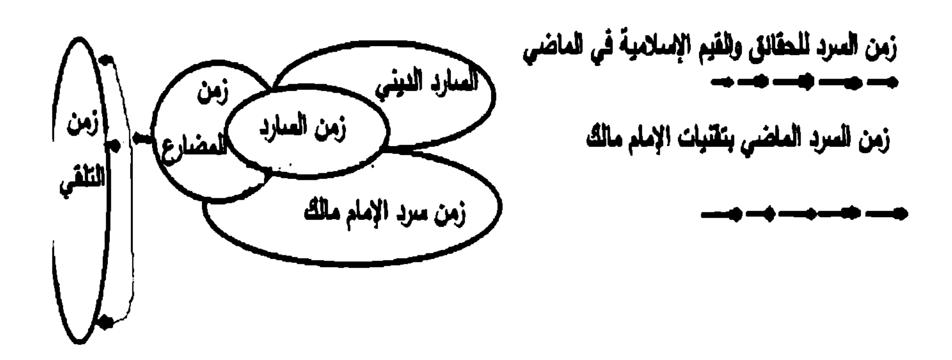
يقدم لنا الشاعر محمد بن إبراهيم مفهوما متميزا للزمن من خلال هذه (المختارات)، فهو يرى أنه إرث متواتر ومتعاقب تاريخيا، مما يفرض وجود المتلقي أو حضور عملية الاستقبال للقول المنظوم بالاعتماد على ثقافة ووعي متماثلين. فالناظم يسرد للمتلقي وينقل إليه عدة وقائع من الزمن المنصرم، لكن الطرفين يتزامنان (synchronized)، إذ يمنحان سرد القريض وجودا ومشروعية (وجود الشاعر بالقياس مع المتلقي). لذلك فإن العلاقات الشعرية تبرز من خلال هذه (المختارات) ثلاثية:

1- علاقات فردية تعاقبية.
2- علاقات مزدوجة متزامنة.
3- علاقات مزدوجة تزامنية[1]. يمكننا ترجمة ذلك من خلال الرسم التالي:



[1] عز الدين الناجح، مرجع سابق، ص 20، وما بعدها.

أما الإمام مالك فيسرد حكمه وأقواله البانية لخطابه الديني كشاهد في الزمن الحاضر على الحقائق والقيم الإسلامية الخالدة. فالسرد المشكل للخطاب الديني المالكي/ الإصلاحي يرتبط بالزمن الذي يعيش فيه الإمام مالك. أما الماضي فيتزود ويقتبس منه بقدر كفايته، لأنه مجرد (تقنية) سردية يستغلها مثل سائر الساردين. يصعب تحديد الزمن الحاضر لهذا الخطاب و الزمن الماضي للحقائق والقيم الإسلامية التي يحويها من خلال زمن إنجاز الإمام مالك لأقواله المدونة في كتابه (الموطأ) أو في غيرها من إنجازاته الفكرية الأخرى. نلخص هذا الموضوع من خلال الرسم التالي:



يقوم المكون السوسيو خطابي بعد هذا بضبط تقنية سرد الفضاءات الزمنية وتحديد مراحل وطرائق تعمير النص الشعري أو الديني بالاعتماد على الثقافة الموظفة، كما يحدد أيضا عقليات الفاعلين، ويركز على السبك التركيبي، والحبك الدلالي، والسبك الدلالي، والقصد التداولي الاتصالي.

يحدد هذا المكون النصين المدروسين (الشعري والديني) على أنهما يتشكلان من مجموعة عناصر وعمليات اجتماعية خطابية تخلق تفاعلا وتكاملا واسعين بين المتحاورين

تبعا لسياقات اجتماعية محددة، وهو ما يمنح مفهوم النص بعدا حجاجيا واتصاليا يحقق عدة وظائف مهمة:

1- التبادلُ (the Exchange).

2- النقل والتحويل (the Transfer) للمعلومات.

3- التأثير (the impact).

يركز هذا المكون الخطابي الاجتماعي social discursive component)) على فهم هوية الفاعلين في النص الشعري أو الديني. إنهم يتأثرون ويتحكمون في الأشياء بصورة كلية وشاملة تتبع (لجماعتهم الثقافية التفسيرية) التي تتفاعل ضمن السياق الاجتماعي الذي أفرزها بكل سماتها وتجلياتها. ينبع هذا التحليل من علم النفس الاجتماعي، حيث يتم تحديد العلاقات السيكو والسوسيو خطابية القائمة بين الفاعلين داخل السياق الاجتماعي الباني للنص الشعري والديني.

يخلق إذن مفهوم (النص) من المنظور السوسيو خطابي أنواعا من الاتصال الشامل بين الفاعلين، كما تتم من هذا المنظور مراعاة الجنس الخطابي وعلاقاته بالعالم. نجد عدة مصطلحات لسانية نصية حجاجية جوهرية وصفية وتحليلية، كالتفاعل، والتغير، والاتصال التي تلعب دورين مهمين:

1- تحريك الفاعلين في الخطاب الشعري والديني.

2- ضبط الفعل الخطابي: سمات الفاعلين، والعلاقات الاجتماعية، والقيم، والأفكار المشكلة للخطابين المدروسين.

تشتغل عناصر المكون السوسيو خطابي بطريقة صحيحة وفعالة، إذ تقوم بتقصّي تجليات (العقل الخطابي) الذي يرصد وينسق ويُقَوِّمُ العناصر العاملة وجنس الخطاب. إنه يسعى إلى تطوير وتفعيل كفايات وإنجازات الفاعلين في المجال الشعري والديني، كما يضبط رموزهم السيميائية، وخيالاتهم، وسلوكهم الاجتماعي بغية تحقيق التماسك والتلاحم بين الدوال والمدلولات على المستوى السوسيو ثقافي.

يرسم النسق اللساني الحجاجي الكلي في هذا المستوى بعدا تاريخيا متعاقبا مستقل العناصر، لكنه يصبح متفاعلا ومتكاملا عند ارتباطه بالمكونين المذكورين بمختلف أشكالهما وخصائصهما الخطابية، إذ يقومان بتنسيق بنى الفعل الخطابي وتشغيلها بصور نسبية متدرجة.

يتضح من خلال طريقة عمل وتمويل المكون السوسيو خطابي حضور أنواع من التجاذب داخل النص الشعري والنص الديني، وتلاقح عناصرهما وانصهارها في بعضها لتحريك وتعمير علاقات ووظائف النسق اللساني الحجاجي الكلي، مما يجعله يجمع بين ثناياه تراثا إنسانيا متنوعا يتميز ببعض السمات الواسمة للعمل تبعا لأنواع الاتصال بين العناصر والعوامل والوقائع المشكلة للنموذجين التطبيقيين. يتم ذلك بالاعتماد على[1]:

1- التفاعل والتكامل بين العناصر.

2- التجاذب والمزج بين العناصر والعوامل.

3- التنقيح والاستبدال.

4- المراجعة والتقويم.

5- الاحتضان للدلالات المتماسكة وتوليدها وتعميرها.

يبرز تنوع تقنيات السرد بين الخطاب الشعري والخطاب الديني الهدف العلمي المرتكز على نموذج والتمثيل النصي/ القدوة باعتباره يجسد معيارا جماليا وفكريا ومقاميا يعالج ويقوِّمُ المسار الخطابي ويطوره. يتم تفعيل العناصر الشعرية والقيم والمقولات الدينية المشكلة للنموذجين المحللين بناء على معايير اجتماعية، كالخبرة، والسلوك، والمحيط المؤثر.

يستغلُّ المكون السوسيو خطابي علاقات ووظائف النسق اللساني الحجاجي الكلي لخلق نشاط، ونمو، وتفاعل، وتكامل متبادل بين العناصر البانية كما سلف الذكر من خلال النموذجين المدروسين.

---

(1) ينظر مخطط جاكبسون الخاص بوظائف اللغة وعملية الاتصال.

تساعد آليات اشتغال هذا المكون الفاعلين (المساهمين) على إنتاج خطابات متنوعة الكفايات والإنجازات، والمضامين المتجاذبة والخلاقة، والأفكار، والقيم، والرموز السيميائية نظرا لأهمية ذلك في تسلسل وانتظام سلوكهم الخطابي.

يمنح المكون السوسيو خطابي النصين النموذجيين (النص الشعري والنص الديني) وظائف حجاجية اتصالية يستغلها المتفاعلون، مثلما نجد عند جاكبسون (المرسل، المرسل إليه، الرسالة، المرجع، قناة الاتصال، الشفرة المستعملة)[1]، حيث يدفعه النسق الخطابي إلى ضبط العناصر الثقافية[2]، وجعل المسرودات تابعة للعملين، وهو ما يجسد خصائص هذا المكون الذي يعتمد على الاتصالات الفعلية المتنامية والاتفاقية المترجمة لتنوع الموضوعات، والصور الخطابية المتفاعلة والمتكاملة بمختلف ألوانها تبعا لسلوك وكفايات وإنجازات الفاعلين.

تؤدي العلاقات والوظائف المرصوصة التي تشكل النسق اللساني الحجاجي الكلي إلى تعمير النصوص المدروسة بناء على (الفعل الخطابي) الذي ينسقه ويفعِّله المكون السوسيو خطابي الذي يركز على سمات الفاعلين، والعلاقات، والعلاقات الاجتماعية، والقيم، والأفكار، وأنواع المثاقفة الإيجابية، والتجاذب النصي، ومستوى الفهم والوعي لديهم.

تركيب الرؤية اللسانية المقترحة:

تترجم طريقة عمل وتمويل المكون السيكو خطابي والمكون السوسيو خطابي الممارسات اللسانية المتنوعة التي يحويها النسق الحجاجي الكلي بمختلف علاقاته ووظائفه، إذ تنتشر بين ثنايا بعض الأنماط الفكرية العربية القديمة والحديثة سواء أكانت شعرية (تخييلية) أم حجاجية (تداولية اتصالية).

---

(1) ورد مخطط (وظائف اللغة) والاتصال قبل أن يعرفه جاكبسون في أربعينيات القرن الماضي عند مهندسي علم الاتصالات بجل عناصره، لكن أضيف عنصر التشويش والضجيج.

(2) آدم كوبر، الثقافة، التفسير الأنتروبولوجي، ط 1، سلسلة عالم المعرفة، العدد 349، الكويت، 2008.

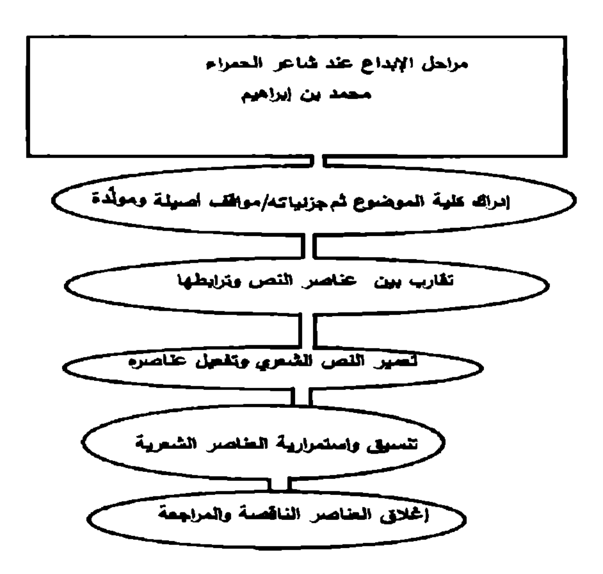
لقد سعينا من خلال عرضنا لهذا المشروع اللساني الخطابي التداولي (المدمج والموسع) الذي يروم (استشراف الأفق في اللسانيات العربية بين الحاجة المعرفية وآفاق التجديد أو المنجز والمأمول) تقديم بعض النماذج والمخططات والتقنيات والمصطلحات العملية، وتقصي تنوع سلوك الفاعلين (المساهمين)، والوقائع، والفضاءات الزمنية، واللغة الواصفة الخاصة، والرؤية السردية من أجل توضيح آليات اشتغال النسق اللساني المقترح بمكونيه المذكورين اللذين يرتكزان على عناصر ومعايير وتقنيات وسمات خاصة.

اعتمدنا في وصف وتحليل واستقراء العينات المدروسة على حكاية (الليلة 437) الموجودة بالجزء الثالث من سِفْرِ (حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة)، و(مختارات من ديوان شاعر الحمراء)، و(حكم وأقوال الإمام مالك) لإبراز طرائق عمل وتمويل المكون السيكو خطابي والمكون السوسيو خطابي اَلْمُشَكِّلَيْنِ للنسق اللساني الحجاجي الكلي بمختلف علاقاته ووظائفه.

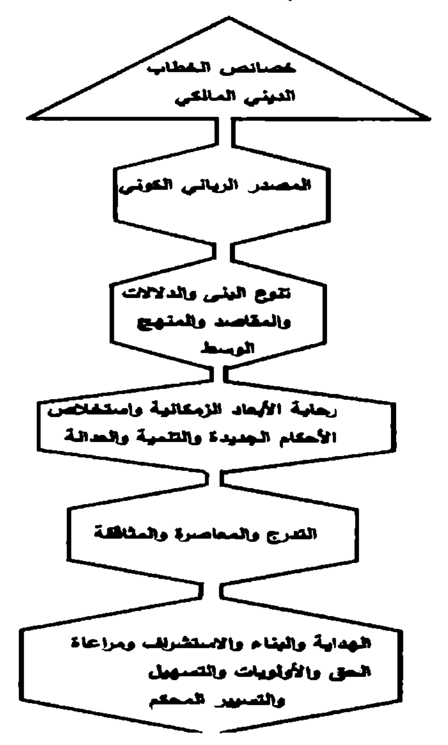
لقد وظفنا مصطلح (المكون السيكو خطابي) لمعالجة السلوك اللساني للفاعلين وتجلياتهم النفسية من خلال النماذج المدروسة، كما أننا قد حاولنا تقصِّي أفعالهم الكلامية (speech acts) الناجمة عن تصرفاتهم وإنجازاتهم الفردية التي تتلون تبعا لسماتهم الخاصة وللسياقات المقامية المرتبطة بملفوظاتهم. أما مصطلح (المكون السوسيو خطابي) فقد وضعناه لرصد السلوك الاجتماعي اللساني لهؤلاء الفاعلين من خلال تجليات طبائعهم الثقافية الخاصة، حيث اعتمدنا في هذا المنحى على مصطلحات محددة مثل: التفاعل، التكامل، التغير، التجاذب النصي، التداخل، الفعل والفاعل الخطابيين، السجل اللغوي، أنماط الخطابات المنجزة، الوضع/ النظام الاجتماعي، الاتصال، السلوك غير اللساني، التنوع اللغوي، التخطيط، مستويات التحليل (صوتية، صرفية، تركيبية، معجمية، دلالية، مقامية).

في الختام نلخص هذه آليات اشتغال المكونين المقترحين ضمن النماذج التطبيقية المذكورة من خلال المخططين التاليين:

أولا : في (مختارات من ديوان شاعر الحمراء) :



ثانيا) في (حكم وأقوال الإمام مالك بن أنس) :





إننا نهدف من وراء إنجاز هذه (الرؤية المقترحة) إلى جعل المتلقي العربي المهتم يحيط علما باللسانيات النصية الحجاجية (التداولية المدمجة والموسعة) التي نقترحها كإطار تجريبي واستشرافي من خلال بعض الممارسات الفعلية التي تشكل تقنيات تكاملية نابعة من بعض العلوم المعاصرة بغية خلق تأثير حقيقي في المتلقي العربي، والسعي إلى تغيير أوضاعه الذهنية باستغلال وسائل معقولة لنشر الحقيقة، والعدل، والمعقول، والموضوعية بالاعتماد على نوع الأدلة والقرائن وجمال أسلوبها و(وظيفتها الشعرية).

لقد لاحظنا طيلة عملنا الوصفي والتحليلي والاستقرائي أن النسق اللساني الخطابي الحجاجي الاتصالي الكلي المقترح يتجلى بوضوح من خلال الحوارات المتنوعة القائمة بين المتكلم والمخاطب، والتقويم والتفعيل، والتطوير الجيد للموضوعات المدروسة.

وأخيرا فإن استشراف الأفق في اللسانيات العربية المعاصرة يتطلب الأخذ بعين الاعتبار للمظاهر التالية:

1- الإقرار بالقوالب النحوية والرموز المحدودة الخلاَّقة (creative) لبناء وتفعيل قواعد اللغة العربية.

2- التمثل المتطور للمعجم العربي وربطه بالدلالة التصورية والحقول الدلالية، وخلق أبعاد نظرية ومنهجية لهذا العمل.

3- الاهتمام بالتطور اللساني الحاسوبي والقطاعات الجديدة والمصطلحات...

4- مراعاة الخصوصية عند الترجمة والمثاقفة اللسانية.

5- الاعتماد على الاشتقاق والتوليد في الأعمال اللسانية العربية الجديدة.

ثالثا: دراسات إجرائية ونقدية في الاستشراق والبحث التاريخي والمقارن:

1- اللسانيات الاستشراقية المعاصرة: سماتها وأهميتها ومرجعيتها وتعريفها، د.عبد الحسن عباس.

2- الإنحاء ومكانة التَّغيُّر اللُّغويّ في المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة، د.منتصر أمين.

3- أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ فِي العَرَبِيَّةِ - مُشْكِلاتُهُ وَدَلالاتُهُ مُقَارَبَةٌ لِسَانِيَّةٌ مِنَ النَّحْوِ المُقَارِنِ إِلَى النَّحْوِ التَّقَابُلِيِّ، د.محمد عبد مشكور العوادي.

4- الإحالة الزمنية بين الفعل والصفة المشتقة بين العربية والعبرية: اسم الفاعل نموذجا، محمد ناجي.



اللسانيات الاستشراقية المعاصرة
سماتها، وأهميتها، ومرجعيتها، وتعريفها

د. عبد الحسن عباس

العراق/ جامعة الكوفة

مهادٌ وتسويغ

صاغ الاستشراق - وهو اتجاه لدراسة البنى الثقافية للشرق - التصورات الغربية عن عالَمَيْ: الشرق والإسلام. ولم يقف هذا الاتجاه عند بداياته الأولى، فقد تطوّرَ من حاجةٍ لتوظيف المعرفة بلغات الشرق خدمة للكتاب المقدّس إلى استثماره استعماريًا، ونتج عن ذلك اختزاله معرفيًا في توظيف ثنائية (المعرفة/ السلطة) التي كشفها وعرّى بُناها الثاوية إدورد سعيد بكتابه المهم (الاستشراق)، وصولًا برويّة إلى الاستشراق الأكاديمي والانتهاء عنده، فتنقّل الاستشراق من خدمة الأيديولوجية الدينية إلى الأيديولوجية الاستعمارية والفكرية، حتى عُدّ الاستشراق في مراحل من عمرِه الجناحَ الفكري للتوسُّع. وتهيّأ له أن يعمل تحت ظل مدارس عدة، تُصنّف تارة تحت معيار المواطنة، فانبثق الاستشراق الإنجليزي والفرنسي والألماني وغيره، أو تحت معيار المنهجية أو تحت ثنائية (الكلاسيكي/ المعاصر).

إنّ اجتراح الباحث مصطلح (اللسانيات الاستشراقية)؛ كان لأسباب، أوّلها: إن المستشرقين المعاصرين قد وظّفوا معطيات اللسانيات ومقولاتها الحديثة في دراستهم اللغة للعربية. وثانيها: إن كلمة (اللسانيات) تنطوي على مفهوم: (الدراسات اللغوية الحديثة) أو (علم اللغة الحديث)، ومن فضول القول أن (اللسانيات) أكثر اختصارًا. أمّا اصطفاء (المعاصرة) من هذه (اللسانيات الاستشراقية) وتقييدها به؛ فلأن هذه الدراسات ألّفها مستشرقون معاصرون تخصصوا بالعربية وعلومها وآدابها ما زال أكثرهم حيًّا يُرزق، وكان

انتقاء مصطلح (المعاصرة)؛ تفريقا لها عن الدراسات الكلاسيكية، وإنْ بدا في الحقبتين امتداد ووشائج لا تخفى، وبما لا يمثّل قطيعة أبستمولوجية.

بداية التفرقة بين الاستشراقين: الكلاسيكي والمعاصر

شاع في كتابات المختصين بالاستشراق ونقده وتتبع دراساته وتطورها من مستشرقين وعرب، تفريقٌ بين مرحلتين منه: كلاسيكي (تقليدي) ومعاصر (جديد) [1]؛ لهذا نجد شيوع وصف الاستشراق بـــ(المعاصر) أو (الجديد) أو (الراهن) أو (الحالي) أو (الحاضر). وهناك كثير من الدراسات التي صدرت معنونة بمثل ذلك، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1- حاشية على الاستشراق المعاصر، د. نهاد الموسى.

2- الاستشراق الألماني المعاصر والشعر الجاهلي، موسى ربابعة.

3- الشعر العربي في أعمال ياروسلاف ستيتكيفيتش: سيرة استشراقية معاصرة، د. حسن البنا عز الدين.

4- جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم: ريناتا ياكوبي نموذجاً، أ.د. عبدالقادر الرباعي.

5- مرايا الاستشراق الألماني المعاصر والشعر العربي القديم، أ.د. موسى ربابعة.

6- الاستشراق الألماني المعاصر والنقد العربي القديم، أ. د. محمود درابسة.

وقد نبّهتْ قرائنُ الباحثَ إلى وجود استشراق معاصر، منها:

الأول: إن كثيرًا من المترجمين يذكرون عبارة (مستشرق معاصر) أو (مستشرقين معاصرين) في مقدمة ترجماتهم أو على أغلفة الكتب التي يترجمونها.

الثاني: وصف لبعض دراسات المستشرقين عن اللغة العربية بأنها من (اللسانيات الاستشراقية الكلاسيكية)؛ لأنها تقدّم للعربية صورة موروثة فحسب، وتعتمد في تقديم هذه

---

(1) على سبيل المثال، ظ: الاستشراق، إدورد سعيد: 457، 472، والاستشراق بين دعاته ومعارضيه: 197، والاستشراق في أفق انسداده، د. سالم حمّيش: 63، 64، 75، 100.

الصورة على أعمال المستشرقين[1]، ولو لم يكن هناك استشراق معاصر، لما صحّ وصف غيره بالاستشراق الكلاسيكي أو التقليدي.

الثالث: للتباين بين اهتمامات الاستشراقَيْنِ والتركيز على قضايا معينة وانتهاج أدوات بعينها، في كل استشراق.

الرابع: سنة من سنن العلم، تصيب أيّ اتجاهٍ علميّ وتخصصٍ بحثيّ فتشطره - بفعل العامل الزمني والتطور المعرفي - إلى اتجاهين. ومما لا يجب إغفاله أن توجهًا استشراقيًا بدأ - منذ منتصف السبعينيات - بمراجعة نفسه، وتقويم ما قدّمه الاستشراق في ماضيه القريب، ليرصد حاضره ويستشرف آفاقه المستقبلية[2]. وصار الحديث عن استشراق (معاصر) أو (جديد) وغيرها من التوصيفات، سمة الدراسات التي تحدثت عنه وعن تطوره في الثمانينيات أو تسعينيات القرن العشرين.

ولا أميل إلى عدّ الكلاسيكية في قبال المعاصرة، مرحلة زمنية، بل هي طريقة في التناول، وتمايزٌ في المنهج، وتغايرٌ في آليات الدراسة ووسائلها. وقد يُلقي الزمنُ ظلالَه عليها؛ لأنه يُراكم الخبرات، ويطوّر الأساليب ومناهج النظر. ولكن يمكننا أن نجد اليومَ وغدًا مستشرقين كلاسيكيين، يسيرون على تصورات ورؤى كلاسيكية.

إن هذه الأعمال الراصدة للاستشراق واستشراف مستقبله، أسهمت بتأكيد ظهور (الاستشراق المعاصر) وإبرازه. وأدّت إلى فوارق بين الاستشراقين: الكلاسيكي والمعاصر، ومنها: التخصص، والاستعانة بالعلوم الإنسانية ومنجزاتها ونقد أطروحة تفوّق الحضارة الغربية ومركزيتها، وغيرها، مِمّا سيتوضح أكثر في حديثنا عن سمات الاستشراق المعاصر، وسنعقد مقارنة بالتصريح أو التلميح مع الكلاسيكي.

---

(1) اللغة العربية في مرآة الآخر، د. نهاد الموسى: 60، و ظ: 57.

(2) على سبيل المثال، ظ: الاستشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلية، ترجمة د.أحمد محمود هويدي: 89 – 112، 161 – 177، والاستشراق الفرنسي، أصوله وتطوره وآفاقه للمستشرق الفرنسي روبير منتران، 32 – 38، دورية الاستشراق ع (2).

وكأيّ تمايز بين اتجاهين، لم يمرُرْ بسهولة. فقد أدى اختلافُ توجهاتِ الاستشراقيْنِ إلى صراع بين المختصين بهما[1]، "وبالنسبة لدى دوائر عريضة من المستشرقين اعتُبر الاشتغال بالموضوعات العصرية عملية غير علمية وغير كريمة بالنسبة للعالم، وهو عمل (غير جدير به)"[2]. ومهما يكن من أمر، فلا يُعدّ الاستشراق المعاصر حالة قطيعة نهائية مع الكلاسيكي، "وإنما هو استمرار ومحاولة لاستثمار الأدوات العلمية الحديثة"[3]. وهذا لا يعني أبدًا أن الاستشراق المعاصر لم يُوجّه له النقد، بل أبرزَ المختصون عنوانيْنِ كبيرين كانا محلّ النقد الشديد، هما: ارتباط بعضه بإرث الاستشراق الكلاسيكي، والإشكاليات المنهجية في العلوم الإنسانية[4]. وهنا أحب أن ألفت النظر إلى فكرة ترسخ هذا التمايز وتؤيد هذا التقسيم، وهي أن الاستشراق اللسانيّ المعاصر لم يكن بدعًا، فالمعاصرة شملت كل الاختصاصات التي اشتغل عليها المستشرقون المعاصرون، مثل الأدب العربي والفلسفة والتاريخ وعلم الكلام والدراسات الإسلامية الأخرى.

ورأى كثيرون آراء مختلفة للبداية الحقيقية للاستشراق المعاصر. وأودُّ أن أوضّح أن من الصعب تحديد هذه البداية بدقة، فالتحوّلات الحقيقية للعلوم والاتجاهات العلمية تكون متداخلة ومتشابكة، وأن المعاصرة حجاب قد لا تُبصِرنا بالبدايات. وإن كان لا بدّ من تحديد بداية، فأنا أزعم أن البداية للاستشراق المعاصر بمعناه الواسع تمّت بعد الهزّة التي أحدثها كتاب (الاستشراق) لإدورد سعيد الذي صدر بطبعته الإنجليزية سنة (1978)، وهو كتابٌ لو تحدثنا عن أثره لطال بنا المقال، ويكفينا أن نشير لأثره، فقد تُرجِم لأكثر من خمس عشرة لغة[*]. على الرغم من وجود من يرى أن بداية الاستشراق المعاصر تنحصر بين (1945-

---

(1) الاستشراق الألماني (من تمهيد المترجم: 17)

(2) الاستشراق الألماني: 169.

(3) حول الاستشراق الجديد: 127.

(4) للمزيد ظ: الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية إلى النسبية الثقافية: 58 – 59، وحول الاستشراق الجديد: 127 – 145.

(*) اختارته مجلة theguardian احد افضل 100 كتاب طوال العصور:
http://www.theguardian.com/books/2016/mar/21/100-best-nonfiction-books-8-orientalism-edward-said?CMP=share_btn_tw

1990) وهي حقبة الحرب الباردة، أو بعد أزمة الخليج (1990-1991)، أو بعد صدور كتاب كريستوف لوكسنبرغ (قراءة سريانية آرامية للقرآن: مساهمة في تفسير لغة القرآن) الذي صدر عام (2000)، أو بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001[1].

وإذا ما أُريد للاستشراق المعاصر أن يُحدد بتعريف[2]، فيُمكنني القول: إنه اتجاه غربي لدراسة حضارة الشرق ولغاته وآدابه ودياناته وعلومه، يستند لإرث كلاسيكيّ ذي تاريخ طويل، مطبّقا مناهج العلوم الإنسانية، ومقولات الحداثة، ومتضمنا نزعتين، الأولى: تجديدية في طرح الأفكار ونقدها وتأهيلها، والثانية تخصصية لتحديد الاهتمامات الموسوعية.

سمات الاستشراق المعاصر

ليس بدعًا أنْ يستجيب الاستشراق المعاصر للتغيُّرات التي تطرأ على مناهج البحث في الغرب، وأن يخضع لتصورات علمية جديدة، وأن يتجاوز الاتجاهات التقليدية في دراسة الظاهرة نفسها، إذ "الاستشراق في النهاية خاضع في نشأته وتطوره ومناهجه وتصوراته إلى ما يحدث في الغرب من تطور العلوم ومناهجها..."[3]، فضلا عن أن (المعاصرة) حتمية زمنية/ معرفية تصيب التصوّرات العلمية لأيّ علم وتخصص، فتشطره إلى اتجاهين في الغالب: كلاسيكي ومعاصر، وبذلك نفذ وصف (المعاصرة) للفلسفة والآداب والمذاهب وغيرها. وقد عرف الاستشراق المعاصر تحوّلات جذرية وكبيرة، وقد أثّرت فيه تأثيرًا مباشرًا العلومُ الإنسانية ومفاهيمها ومقارباتها وكذلك مقولات الحداثة النقدية.

---

(1) ظ: حول الاستشراق الجديد: 73، 85.

(2) للمزيد من المناقشات عن تعريف الاستشراق المعاصر، ظ: حول الاستشراق الجديد: 83-88.

(3) العرب والإسلام في مرايا الاستشراق، حسن حنفي في حواره مع بنسالم حميش: 276، نقلا عن: حول الاستشراق الجديد: 99.

أولاً: من الموسوعية إلى التخصص

انتقلت الكتابة الاستشراقية المعاصرة "من فترة موسوعية إلى عهد التخصص في ميادين معينة من الحضارة العربية"[1]، فقد صار هذا التخصص من معالمه الرئيسة[2]، فتبدّلت معرفة المستشرق الكلاسيكي الموسوعية إلى معرفة تخصصية للمستشرق المعاصر[3]. ومن أسباب هذا التوجه نحو التخصص:

1- اتجاه علمي - داخل المؤسسات الاستشراقية - يميل للتخصص الدقيق وتطوير التخصصات الفرعية[4]، مما اقتضى أن يتقاسم الاستشراق الكلاسيكي عدة حقول علمية مجاورة كاللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها[5].

2- المدونة الواسعة التي توافرت لدى المستشرقين الكلاسيكيين في قرون، جعلت من المتعذر أن يحيط المستشرق المعاصر منهم بالدراسات العربية والإسلامية، فيضطر إلى اختيار ميدان من ميادينها للتخصص الدقيق فيه[6].

3- تاريخ العلم وتطور مفاهيمه وضرورة نقدها، أدّى إلى مراجعة كل ما هو شامل وموسوعي، إذ " من البدهي بعد أن قدّم أوائل المستشرقين أعمالًا ضخمة شمولية جمعت ما سبقها من جزئيات كما هو معروف في أعمال بروكلمان ونولدكه

---

(1) واقع اللغة العربية وثقافتها في فرنسا، فلوريال ساناغوستان: 15، وظ: 110-111، ضمن كتاب (اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربي).

(2) المعالم الرئيسية في الاستشراق المعاصر، د. عبد الرؤوف سنّو: 1.

(3) ظ: الاستشراق الألماني (من تمهيد المترجم: 18)، الاستعراب في أمريكا، د. حسام الخطيب، دورية الاستشراق ع (5): 264.

(4) ظ: الاستعراب في أمريكا، د. حسام الخطيب: 257، واقع اللغة والثقافة العربية وآفاقه المستقبلية في رومانيا، للمستشرقة الرومانية ناديا إنغلِسكو: 232، ضمن كتاب (اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربي)، الاستشراق الألماني في السبعينيات: القضايا، تحليل الوضع، الأفاق، هـــ.ر.رويمر: 93، ضمن كتاب (الاستشراق الألماني).

(5) للمزيد ظ: المستشرقون الألمان: 80، وحول الاستشراق الجديد: 90.

(6) ظ: فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب العربي المعاصر: 204، وللمزيد عن بداية نزعة التخصص وبدايتها وعواملها وأثرها ظ: 203 – 209.

وبرجشتراسر، أن يقدّم الجيل التالي أبحاثًا ودراسات تعالج جزئيات وردت بهذه الأعمال الضخمة[1].

4- الردّ الضمنيّ على آراء إدورد سعيد في كتابه (الاستشراق)، التي نالت من موسوعية المستشرقين على مدى أكثر من قرنين وطالبتهم بالتخصص الدقيق[2].

إنّ المعرفة التخصصية التي انماز بها الاستشراق المعاصر دعت المعنيين إلى عدم دمج الدراسات السامية بالدراسات الإسلامية[3]. ومن أهم ثمار هذه السمة تفضيل مصطلح (الاستعراب) على (الاستشراق)، وسيرد الحديث عنه.

ثانيا: من الفيلولوجيا والتاريخانية والمقارنة إلى الإبستيمولوجيا ومنجزات العلوم الإنسانية

انمازت دراسات الاستشراق الكلاسيكي بطابعها الفيلولوجي وباستعانتها بالمنهجَيْنِ: التاريخي والمقارن. وفي المعاصر لم تختفِ هذه الأدوات البحثية والمناهج العلمية بل انحسرت، وهذا أمر طبيعي لاختلاف المرحلتين. أمّا انحسار الفيلولوجيا ورفيقيها: التاريخي والمقارن؛ فلأسباب، منها:

1- إن الاستشراق المعاصر صار لا يقف عند الحدود النظرية في البحث العلمي والاقتصار على الكتب والمخطوطات والوثائق والنقوش، وإنما تجاوزها إلى الدراسة الميدانية للمجتمعات الشرقية والشعوب الإسلامية، والاحتكاك مع الحضارة الحية[4]، وهذا تطلب تغييرًا للمنهجية السابقة وطرائق البحث وأدواته. ومعروف أن الفيلولوجيا تعتمد على (النص المكتوب) محورًا مهمًا في المقاربة والحفر والاستنطاق.

2- انزواء كل أداة أو منهج يعتني بجزيئات المعرفة فيما سُمّي بالذرية مع انبثاق اللسانيات البنيوية التي أعلت من شأن النسق والنظام، والبحث عنهما واكتشافهما في اللغة.

---

(1) الأساس في فقه اللغة العربية (من مقدمة المترجم: 9).

(2) ظ: الاستعراب في أمريكا، د. حسام الخطيب: 257، دورية الاستشراق ع (5).

(3) ظ: الاستشراق الألماني في السبعينيات: 99.

(4) ظ: الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد عبد الله الشرقاوي: 12، والمعالم الرئيسة في الاستشراق المعاصر: 2.

فلقد تغيّر توجُّه علم اللغة العام في القرن العشرين وتحوّل بعيدًا عن النسق المقارن[1]، كما يقول المستشرق الهولندي المعاصر كيس فيرستيخ. وبذلك أفاد المستشرقون المعاصرون من مقولات اللسانيات المعاصرة.

3- إن الفيلولوجيا تسعى إلى معرفة الحضارة القديمة لأمة ما بوساطة فهم النصوص التي أنتجتها، والمستشرقون المعاصرون يفكرون بالحاضر وبالمستقبل؛ لذلك بدلا من إقامتهم ببلدانهم بين المخطوطات وتحقيقها والحفر الفيلولوجي فيها، أقام كثير منهم ببلدان الشرق، يختلطون بشعوبها ويتعلمون لهجاتها ولغاتها ويدرسون آدابها، ولم يُعبأ كثيرًا بنشر التراث وتحقيقه وترجمته كما كان يفعل المستشرقون من قبل[2]، وكان ذلك بسعي وترغيب من معاهد استشراقية في دمشق وبيروت والقاهرة وسواها[3]، بل صاروا يقيمون الحوار مع أقرانهم من الباحثين العرب بالمشاركة في المؤتمرات ونشر البحوث بالدوريات العربية والاستضافة والإشراف المشترك على الرسائل الجامعية. فأفادوا من الحوار العلمي المشترك مع المحدثين العرب[4].

إن تبني الاستشراق الكلاسيكي بصورة جليةٍ الأداة الفيلولوجية، لا يعني تخلي الاستشراق المعاصر عن هذه الأداة نهائيًا، ولاسيما الألمان الذين لنا في بعض دراساتهم دليل على حضورها، مثل ما كتبه المستشرق الألماني ف. فيشر عن (أسلوب أبي مخنف في مقتله)[5]، وما كتبه بعض المستشرقين الألمان المعاصرين في الكتابين (الأساس في فقه اللغة العربية) و(دراسات في العربية)، وكذلك الدراسة المثيرة للجدل (قراءة سريانية آرامية

---

(1) اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها: 18.

(2) الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر: 12.

(3) عن هذه المعاهد ظ: الاستشراق الألماني (من تمهيد المترجم: 14).

(4) ظ: الاستشراق في أفق انسداده: 88.

(5) نُشِر في كتاب (بحوث ألمانية في الأدب العربي القديم) لبيتر هاينه ومستشرقين ألمان معاصرين آخرين، ترجمه د. محمد فؤاد نعناع ونشرته دار البشائر بسوريا 1429/ 2008.

للقرآن: مساهمة في تفسير لغة القرآن، صدر عام 2000) للمستشرق الألماني كريستوف لوكسنبرغ[1]. ولقد وُسِمتْ هذه الدراسة وغيرها بانتهاجها الفيلولوجية المعاصرة المطوّرة[2].

وأما النزعة التاريخانية[3] فكما كانت في الاستشراق الكلاسيكيّ جزءًا من تاريخ الغرب وتطبيقًا لمناهجه التاريخية الوضعية، فإن الاستشراق المعاصر القائم على الفهم والتأويل هو جزء من الثقافة الغربية في التلقي والتحليل[4]. وراح المعاصرون من مستشرقي أوربا وأمريكا يحملون على (التاريخانية الاستشراقية) ويواجهونها بآليات ما بعد الحداثة[5]. وتأسس في الغرب وبمعاهد استشراقية اتجاه علميّ يهتم بدراسة التاريخ دراسة تحليلية مستفيدة من كل معطيات العلوم الأخرى مثل علوم: الاجتماع، والنفس، والاقتصاد واللسانيات والأنثروبولوجيا، ويطبّق مناهجها المختصة، وأدواتها التفسيرية والتحليلية، ويتجاوز هذا الاتجاه دراسة التاريخ كأحداث ووقائع فحسب. وبذلك تمّ التحوّل من التاريخانية إلى التاريخ الثقافي[6].

أمّا منجزات العلوم الإنسانية وأثرها، فقد أدخل المستشرق المعاصر مناهج هذه العلوم وأدواتها البحثية، وقد أحدثت مناهجها "أحدثت في أفق المستشرقين الفكري والمعرفي صدمة مؤثرة أدّت بالمجددين منهم إلى الوقوف على وجوه القصور في مدارك الاستشراق التقليدي وفي أدواته ومناهجه"[7]. إن الاهتمام بالقضايا المعاصرة هو من أثر العلوم الإنسانية

---

(1) هناك من يرى أن كريستوف لوكسنبرغ هو اسم مستعار لقسّ لبناني.

(2) ظ: حول الاستشراق الجديد: 119. وللمزيد من هذه الدراسات ظ: م. ن: 112-132.

(3) التّاريخانيّة (Historicism) اللجوء إلى التاريخ بوصفه مبدأ وحيدا لتفسير كل الظواهر المرتبطة بالإنسان، وهدفها كشف قوانين التطور والتغيّر الاجتماعي، وفهم التبدلات الحضارية الكبرى في تاريخ الإنسان، وهي في حقيقتها اختراق فلسفي لعلم التاريخ ولمجاله العام، الذي كان حكرًا على المؤرخين أنفسهم في وصف الماضي، والاكتفاء بسرد أحداثه بتسلسلها الزمني المنتظم، من أقصى نقطة في الماضي السحيق، إلى الزمن المعاش.

(4) ظ: العرب والإسلام في مرايا الاستشراق، حسن حنفي في حواره مع بنسالم حميش: 276، نقلا عن: حول الاستشراق الجديد: 99.

(5) ظ: المستشرقون الألمان: 6.

(6) للمزيد ظ: المستشرقون الألمان: 37، 40، حول الاستشراق الجديد: 88 – 89.

(7) الاستشراق في أفق انسداده: 63 – 64.

على الاستشراق المعاصر[1]، ففي الولايات المتحدة "ضغطت الحكومة.... على مجتمع الاستشراق ليكون على صلة أكثر بالحياة الأمريكية وأن يدرس المواضيع الحديثة ويطبق طرائق العلوم الاجتماعية"[2]. إن قضايا العلم التي يتناولها المختصون بالدراسة في عالمنا المعاصر وبفضل إنجازات العلوم الإنسانية ومفاهيمها ومقولاتها، أصبحت أكثر تعقيدا، وهذا "يتطلّب منّا المزيد من التعمُّق في البحث العلمي والانفتاح على علوم أخرى تثري تفكيرنا مثل الأنثروبولوجيا والإبيستمولوجيا"[3]، فاختلفت آليات البحث إذ " وظّف الاستشراق في هذه الدراسات المعاصرة تقنيات وأساليب جديدة، فقد تم استخدام المناهج السيوسولوجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية والإحصائية والتاريخية"[4]، ولأجل تأهيل نظريات الاستشراق الكلاسيكي وآرائه، استُعمِلتْ في المعاصر "المداخل العلمية التي وفّرتها العلوم الإنسانية الحديثة، بحيث أصبحت أكثر جاذبية، وتتميّز بكثير من العمق والأهمية"[5]. وعلى صعيد المنهج فقد أدت الاستعانة بمناهج العلوم الإنسانية والتأثر بنزعات العلم المعاصر، إلى تبنّي النزعة التطبيقية التي كان من ثمارها تبنّي المنهج اللغوي التقابلي في دراسة العربية، ومن ثم تزايد الاهتمام بـ(اللغة العربية المعاصرة) دراسة وتقعيدا، وفي الولايات المتحدة " لم يكن الدرس اللغوي القديم محل اهتمام كبير قط، فإن المجال أكثر انفتاحا على تطبيقات علم اللغة العام، وبدأت الكتب التي تدرّس اللغة العربية من خلال أطر لغوية جديدة حديثة تنتشر بكثرة"[6].

---

[1] ظ: م. ن:87.

[2] الاستشراق المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية، المستشرق بيتر غران:67، دورية الاستشراق ع (2).

[3] واقع اللغة العربية وثقافتها في فرنسا: 115. ويستعمل الباحث الأبيستيمولوجيا بمفهومها الفرنسي، وهو "دراسة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وفروضها، ونتائجها، وتهدف إلى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية" المعجم الفلسفي، ص: 1.

[4] الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر: 12، وظ: الاستشراق الألماني: (من تمهيد المترجم: 15).

[5] حول الاستشراق الجديد: 12.

[6] اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، كيس فرستيغ: 18.

ثالثا: من التراكم المعرفي إلى نقد المقولات وتحديث المصادر:

تُوصف دراسات المستشرقين الكلاسيكيين بأنها تراكمية، إذ "دراساتهم سلسلة من حلقات متصلة، إذ يبني اللاحق منهم منجزه على الجهود السابقة"[1]. أمّا المعاصرون فقد بدأوا بالتحول إلى أمرين من شأنهما التقليل من سيادة الاعتماد على التراكمية، وهما:

أ- نقد المقولات:

تبنى الاستشراق المعاصر نقدَ كثيرٍ من مقولات الكلاسيكي وآرائه، وأعاد تقويمًا شاملًا لأعماله، ولا سيما تلك التي سيطر عليها الطابع الأيديولوجي لسيطرة فكرة مركزية الحضارة الغربية وهامشية الحضارة الإسلامية[2]، "فأصبح الحقل الاستشراقي أكثر وعيًا وقدرة على النقد الذاتي فكريًا وسياسيًا، وعُدّ هذا التحول النقدي ملمحًا مهمًا من ملامح المعاصر"[3]. فتأسس الاستشراق المعاصر - عموما - "على جملة من المراجعات التي تعكس رفض المُثُل القديمة للهيمنة الغربية وادّعاتها الكونية، والاعتراف باستحقاقات التعدُّد والاختلاف.... واستبدال التصورات الغرائبية عنها بأسس فلسفية واجتماعية وثقافية ورمزية فعّالة"[4]. وهناك أسباب سمحت بهذه المراجعة النقدية، منها:

الأول: أنه "بعد حدوث اكتشافات، والكشف عن نصوص جديدة ولغات غير معروفة للجيل السابق، أُعيدَ النظر في مسائل كثيرة، وصحّحت آراء سابقة غير دقيقة، وأضيفت معلومات قيّمة بعد تقصّي دقيق للمواد الجديدة، وتطور هائل في وسائل البحث العلمي"[5]، فنشأ جيل من "المستشرقين أكثر تخصصًا وإمعانًا للنظر في الدراسات اللغوية العربية، ومن ثم كانوا أكثر موضوعية"[6].

---

(1) البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: 29.

(2) ظ: واقع اللغة العربية وثقافتها في فرنسا: 115، 116.

(3) ظ: حول الاستشراق الجديد: 44.

(4) الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية إلى النسبية الثقافية: 28،وحول الاستشراق الجديد: 92.

(5) الأساس في فقه اللغة العربية: (من مقدمة المترجم: 9)

(6) مكانة سيبويه في علم اللغة الحديث في نظر المستشرقين، د. عبد المنعم السيد أحمد جدامي: 549، ضمن بحوث المؤتمر الدولي السادس لكلية دار العلوم جامعة القاهرة المعنون (سيبويه إمام العربية)

الثاني: بسبب ازدياد الاهتمام باللغة العربية من حيث اتخاذها أنموذجًا للتحليل اللساني أو ازدياد المتخصصين بها وتقدير مكانتهم، حلّت النظرة الموضوعية محل النظرة المتحيّزة ضدّها التي كانت شائعة عنها[1].

الثالث: لقد صار من منجزات العلوم الإنسانية ولا سيما علم الاجتماع، إعادة الاعتبار لمنجزات الأمم غير الأوروبية، وأصبحت كتابة التاريخ العالمي تضع (غربية) الحضارة الإنسانية موضع سؤال كبير، ونزع كثير من المستشرقين المعاصرين إلى (إعادة كتابة تاريخ الاستشراق) استنادا إلى اتجاه (علماني) ووفق منجزات العلوم الإنسانية، فنُقِدت بشدّة (مركزية الحضارة الغربية)[2]. وكان هذا منجزا كبيرا على طريق الاستشراق المعاصر غير المؤدلج.

الرابع: عُدّ نقد الأحكام والمقولات من نتائج التخصص الدقيق، ومواجهة الأفكار التي طال زمن ترديدها بعقلية مفتوحة ومنهجية علمية تستعين بالإحصاء والمقارنة وغيرها من أدوات العلوم المساعدة[3].

الخامس، انهماك المستشرقين المعاصرين ونقّاد الأدبيات الكولونيالية بتفكيك خطاب الاستشراق الكلاسيكي الاستعماري بالاستعانة بأنساق نقد ما بعد الحداثة مثل المدارس البنيوية والتفكيكية والفينومينولوجية وثورة العلوم الاجتماعية[4].

وفيما يخصُّ السبب الأول، نرى أن عملًا ضخمًا مثل كتاب (الأساس في النحو المقارن للغات السامية) للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، حاول المستشرقون الألمان المعاصرون مؤلفو كتاب (الأساس في فقه اللغة العربية) وسواهم أن يصحّحوا كثيرا من المعلومات والآراء التي وردت في كتاب بروكلمان في الموضوعات التي تمس ما كتبه هذا الباحث الرائد..."[5]. ونجد في كتاب جماعيّ آخر هو (دراسات في العربية) نقدًا لآراء كثير

---

(1) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 13.

(2) للمزيد ظ: ما بعد الاستشراق، وائل غالي: 2/ 457-469.

(3) الاستعراب في أمريكا، د.حسام الخطيب:264، دورية الاستشراق ع (5).

(4) للمزيد ظ: المستشرقون الألمان: 6، وحول الاستشراق الجديد: 89، 90، 93 – 94.

(5) الأساس في فقه اللغة العربية: (من مقدمة المترجم: 12)

من الكلاسيكيين[1]. هذا زيادة على نقود أخرى متفرقة بُثتْ في دراسات المستشرقين المعاصرين شملت أقرانهم، فضلا عن المحدثين العرب.

ب- تحديث المصادر والمراجع:

حدّث المستشرقون المعاصرون مصادرهم ومراجعهم بطريقتين:

الأولى: بالاستناد إلى آراء لسانيين غربيين، كما سيأتينا في تناولنا لأدواتهم.

الأخرى: بالاعتماد على تحقيقات المحدثين العرب[2] ودراساتهم اللسانية، وهي إما مكتوبة بالعربية ومنشورة بالعالم العربي، أو مكتوبة باللغات الأوروبية ولاسيما الإنجليزية والفرنسية ومنشورة في الدوريات اللسانية الغربية. وأشار المستشرق الهولندي كيس فيرستيج[3] إلى توافر نصوص مهمة محققة من كبار المحققين العرب للتراث النحوي مثل (مجاز القرآن لأبي عبيدة) و(معاني القرآن للأخفش) و(أصول النحو لابن السراج) و(الإيضاح في علل النحو للزجاجي) و(الخصائص لابن جني)، وسواها. ولا أستبعد أن قلّة نشرهم للتراث وتحقيقه قد يعود لظهور جيل من المحققين العرب، تطوّر على يديه فن التحقيق وترسّخ أكثر، مما جعل تحقيقاتهم أوفى لأصول الصنعة وأتمّ، هذا فضلا عن تحقيقات المبتعثين العرب من الدراسين في أوربا التي قدّموها أطاريح ورسائل فنالوا بها درجات الماجستير أو الدكتوراه في مراكز الاستشراق.

وعلى صفحات أكثر من عدد من المجلة الاستشراقية المهمة (Journal of Arabic Linguistics) نشر كيس فرستيخ (C. H. M. Versteegh) تحديثًا لببلوغرافية النحو العربي وتاريخه ومصادره المحققة حديثًا من لدن المحققين العرب زيادة على دراساتهم

---

(1) ظ: بنية العربية الكلاسيكية، أدولف دنتس: 200، 221،ضمن كتاب (دراسات في العربية).

(2) على سبيل المثال لا الحصر، ظ: عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي: 34، 132، 142، 148، 150، 152، التراث اللغوي العربي: 66، دراسات في العربية: 127،83، 146،136، 227، 229، 237، 267.

(3) ظ: الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 197، 199، 200، 201.

وأبحاثهم[1]، ليقدّم إسهامًا لنظرائه المستشرقين المعاصرين في تحديث مصادرهم. لقد أتاح اطلاع المستشرقين المعاصرين على تحقيقات المحدثين العرب:

1- قراءة أصول نحوية لم تكن متوافرة من قبل، مما يسمح بمزيد من المراجعة النقدية لآراء شاعت، وهذا أدى إلى تغيير كثير من المقولات عن العربية وتراثها، ومن ثم تطوير التحليل اللساني للنحو العربي، فكلما حُقّقت مصادر أكثر، تمّت المراجعة النقدية الحقيقية لجزئيات النحو العربي أكثر فأكثر.

2- لفتت بعض هذه المصادر المحققة أو الدراسات التي كتبها محدثون عرب إلى أهمية حقبة ما بعد القرن الرابع الهجري، وهي الحقبة التي تحوّل فيها الاهتمام بسبب عبد القاهر الجرجاني إلى أثر الدلالة في التحليل النحوي. ولفت البعلبكي (1983) انتباهنا للدور المتميز لعبد القاهر الجرجاني في هذا التطور الذي تجاوز الأفكار السائدة للمقاربة الصورية (formal) للنحو ودافع عن لغويات مؤسسة دلاليًا. إذ زاوج بين عناصر البلاغة وعناصر من النحو لتجنّب المقاربة الصورية المتقدّمة ذات البعد الواحد..."[2]. وغدا رجوع المستشرقين المعاصرين لجهود المحدثين العرب سمة، إذ "يكاد يعدم في الباحثين الغربيين من لا يرجع في بحثه إلى نصوص حقّقها وإلى دراسات ألفها الباحثون العرب، ومعنى ذلك أنه لا يجوز إنكار وجود الآخر صاحبِ أمرِه، مشاركًا في مجال معرفة مشترك"[3].

وقد بيّن هذا التحديث فضل بعض المحدثين العرب بعينهم، وذلك لجودة آرائهم ولأهمية كتاباتهم؛ ولأنهم يكتبون بلغة الآخر، منهم على سبيل المثال الدكتور رمزي منير بعلبكي والدكتور داود عبده والدكتور عبد القادر الفاسي الفهري. وللأول منهم مشاركات

---

(1) ظ: البيبلوغرافية الحالية في تاريخ النحو العربي (Current Bibliography on The History of Arabic Grammar) للأعداد (10 و11 لسنة 1983، و 12 لسنة 1984، 14 لسنة 1985، و 16 لسنة 1987) (13/ 12/ 2014) على الموقع http://www.zal.uni-hd.de/english.html.

(2) الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 210.

(3) المعتقدات والمفاهيم تغلب على الواقع: دور الخبرات في تراث التاريخ والأدب، البروفيسور شتيفان ليدر: 204، ضمن كتاب (اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربي).

كثيرة ببحوث نشرها في دوريات استشراقية أو في مؤتمرات لسانية غربية أو مساهمته في مشاريع استكتاب مع لسانيين غربيين ومستشرقين معاصرين[1].

رابعا: من الأيديولوجي والاستعماري إلى المعرفي والبراغماتي

دخلت الاستشراقَ المعاصرَ مقاصدُ بحثيةٌ جديدة، ربما كانت تُلمح في الكلاسيكي، ولكنها باتت في المعاصر أبرز، يُلهمها تطوُّرُ الأوضاع السياسية والاقتصادية في منطقة الشرق، وظهورُ مناهج لغوية جديدة. ولا نكشف جديدًا إذا ما قلنا إن أغراضَ دراسة العربية في الكلاسيكي - في الغالب - أغراضٌ أيديولوجية واستعمارية، ولكن في المعاصر منه أصبحت دراسة العربية لغايات معرفية ونفعية (Pragmatism) واقتصادية. ونتيجة لذلك اختلفت دوافع تعلم العربية بين الاستشراقين. ففي الاستشراق الكلاسيكي أنها لغة سامية، تكشف دراستها عن حضارة مؤثرة، ويُعد إتقانها أداة للتمكن بالعلوم الإسلامية، زيادة على توظيفها في تفسير (العهد القديم) وشرحه، مما جعل تعلُّمها يقتصر على (التراثية)

---

(1) والدكتور رمزي منير بعلبكي معروف جدا في أوساط المستشرقين المعاصرين، فله باللغة الإنجليزية تسعة كتب وسبعة وستون بحثا منشورا في المجلات الاستشراقية، فضلا عن تحريره وإشرافه على بعض الموسوعات بالاشتراك، وكتابته فصولا في موسوعات المستشرقين عن الإسلام والدراسات العربية.من مؤلفاته:

1- The Arabic Lexicographical Tradition From the 2nd/8th to the 12th/18th Century, BRILL (2014): التقاليد القاموسيّة العربيّة من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر للهجرة.

2- The Legacy of the Kitab: Sībawayhi's Analytical Methods within the Context of the Arabic Grammatical Theory (book) 334 pp , leiden, boston (2008) : تراث الكتاب طرائق سيبويه التحليلية ضمن سياق النظرية النحوية العربية

3- Grammarians and Grammatical Theory in the Medieval Arabic Tradition (book) Hampshire/ Vermont , 354 pp , 17 Feb 2004: النحاة والنظرية النحوية في تقاليد العصور الوسطى العربية

4- The Relation between nahw and balâgha: A Comparative Study of the Methods of Sîbawayhi and Jurjânî , (article) S. 7-23 , Journal of Arabic Linguistics , issue 11 , 1983: العلاقة بين النحو والبلاغة: دراسة مقارنة لطرائق سيبويه والجرجاني

5- Some Aspects of Harmony and Hierarchy in Sîbawayhi's Grammatical Analysis , (article) , S. 7-22 , Journal of Arabic Linguistics , issue 2 , 1979: بعض جوانب الانسجام والتسلسل الهرمي للتحليل النحوي لسيبويه

في الغالب، وفي الاستشراق المعاصر هي لغةُ منطقةٍ آخذةٍ بالنمو مما جعل إتقانها يقتصر على العربية المعاصرة في الغالب. وقد عزز هذا التوجه ظهور اللسانيات التطبيقية والمنهج التقابلي، اللذين غيّرا كثيرًا من مفاهيم تعلُّم اللغة الثانية[1]؛ لذلك نجد بعض الجامعات الغربية[2] نتيجة لهذا التوجه لم تعد تتعاطى مع دراسة التراث العربي القديم، بل أدخلت كل ما له علاقة بحاضر اللغة العربية ومستقبلها. وعلى سبيل المثال، فقد تأكدت الأهمية الاقتصادية لتعلُّم العربية في سوق الوظائف الأمريكية[3]. وكذلك للمصالح السياسية الغربية وللمكانة الاستراتيجية للبلدان العربية أثرها في التوجه نحو تعلُّم العربية[4]، ويكفي أنْ نعلم أنّ أحداث الحادي عشر من سبتمبر جعلت إقبال الناس على تعلمها يتضاعف على نحو مذهل، وقد بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون العربية في الولايات المتحدة وحدها عشرين ألف طالب... ويدفعون في ذلك مبالغ باهضة..."[5]. ولكن هذا الاهتمام المتزايد بتعلُّم اللغة العربية بنزعة براغماتية ركّز - على وفق ما أفرزته منجزات اللسانيات التطبيقية (Applied Linguistics) والنزعة التقابلية (Contrastive) - على المعاصرة منها، أي تسهيل تعلم اللغة العربية المستخدمة في الإذاعة والصحف والأدب الحديث والمؤلفات العربية المعاصرة[6]. وحدد المنهج الوصفي مستويات هذه العربية: الصوتية والصرفية والنحوية، ووظّف المنهج التقابلي في دراسات جادة هذه المعرفة والتحديد، لتعيين صعوبات تعلُّم العربية المعاصرة، بأدق الوسائل العلمية المتاحة[7]. ومن أبرز نتائج تنامي النزعة

---

(1) ظ: اللغة العربية في العصر الحديث: 169 ـ 170.

(2) ظ: الدراسات العربية بجامعة بوردو: وجهة نظر عربي يدّرس في الغرب، المحاضر البروفيسور سماحة خوري: 302-303، ضمن كتاب (اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربي)، اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها: 18.

(3) للمزيد ظ: الاستشراق: 445-446، واللغة العربية وثقافتها في الولايات المتحدة الأمريكية المحاضر البروفيسور خليل سمعان: 290، 294، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود احمد نحلة: 314-315، واللغة العربية في العصر الحديث: 172.

(4) ظ: الاستشراق: 445، اللغة العربية وثقافتها في الولايات المتحدة الأمريكية: 290.

(5) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: 315.

(6) اللغة العربية في العصر الحديث: 173، وللمزيد ظ: 169-173.

(7) ظ: م. ن: 173.

البراغماتية في تعلم العربية المعاصرة، أن صار المستشرق يكتب للقارئ الغربي، ولكنه يوضحها ويعرض قواعدها لغاية تعليمية وفي إطار المنهج التقابلي، فيُسقط مفاهيم اللغات الغربية عليها. ومن أهم هذه الدراسات التقابلية الكتاب الضخم (دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية المعاصرة) للمستشرق الإنجليزي ديفيد جستس، الذي اتكأ على نصوص لعرض العربية ومقابلتها وربما إعادة تقعيدها على الأمثلة الحديثة الحية ومن الواقع النثريّ أو الشعريّ مثل كلمات أغاني فيروز وشعر نزار قباني والبرامج الإذاعية ونشرات الأخبار والاعتماد على لغة المؤلفين العرب المحدثين كالاستشهاد بلغة طه حسين في (الأيام) وإبراهيم أنيس في كتابه (دلالة الألفاظ)، وسواهما[1]. وبهذا فقد وسّع المستشرقون من مصادر الشاهد اللغوي وفكّوا قيوده الزمنية ولا سيما الشواهد النثرية لثرائها بتراكيب يعدّونها مهمة، ولإعطائها صورة صحيحة عن طبيعة اللغة[2]. إن استقراءهم لنصوص جديدة من خارج عصر الاستشهاد يدل على اعتمادهم الاستعمال اللغوي الواقعيّ والحيّ والمعاصر[3].

خامسا: من القواعد إلى الدلالة:

كان الاهتمام الدلالي في دراسات الكلاسيكيين عن العربية قليلًا، ولم يساوِ المستويات اللغوية الأخرى مثل الصوتي والصرفي والنحوي؛ وذلك لسببين[4]: أولهما منهجي، إذ لغلبة المنهجين المقارن والتاريخي أثرٌ في هذه القلة. والآخر: موضوعيّ؛ لقلّة الإشارات الدلالية في دراساتهم. أمّا في دراسات المعاصرين، فكثُرت المباحث الدلالية، وأصبحت ظاهرة بيِّنة.

---

(1) على سبيل المثال لا الحصر، ظ: دلالة الشكل: 65، 68، 88، 125، 127، 292، 293، 354، 355، 356، 467، 530، 592، 603، 606.

(2) ظ: البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: 88.

(3) ظ: م. ن: 206.

(4) ظ: م. ن: 110.

إن اهتمام الكتابة الاستشراقية المعاصرة بالدلالة، منبثقٌ من الانشغال بأهميتها في التحليل اللغوي وعلى كل مستوياته، فضلا عن أثرها في طرائق التواصل وتعليم اللغة وطرائق اكتسابها وبقية منازع الاهتمام التي توليها اللسانيات التطبيقية.

سادسا: من الاستشراق (Orientalism) إلى الاستعراب (Arabization):

يرد في بعض كتابات المستشرقين المعاصرين وصف القائمين عليها بالمستعربين بدلًا من المستشرقين. بل يُفرّق بين (الاستشراق) و(الاستعراب)، مع تفضيل بعضهم للأخير[1]، وأكثر من وجدناهم يفضلون هذا الوصف هم المستعربون الروس والأسبان، مع بعض المختصين العرب[2]. والعلاقة بين المصطلحين، أنّ الثاني هو فرع عن الأول، والعلاقة بينهما هي علاقة عموم وخصوص، فالاستشراق يختصّ بدراسة الشرق وآدابه، والاستعراب يختصّ بدراسة العرب وما يتصل بهم[3]. فضلا عن أسباب أخرى، تفصيلُها يُخرجنا عن مقام الإيجاز.

وعلى الرغم من النقد الموجه لمصطلح (استشراق)، فإني أفضّل إبقاءه؛ لأنه من صورِ تطوُّر مصطلح الاستشراق ومفاهيمه، واستجابته لما مرّ به من أحوال. وأميل إلى تعزيز الشائع مع ما عليه من اعتراض، فقد أُنجِزَ به التفاهمُ وتحققتِ الغاية، وعلينا بدلًا من أن نجترح مصطلحًا جديدًا أن نتقبل المصطلح الأشيع والأشهر، لنتجنّب أيّ بلبلة مع مصطلح جديد.

---

(1) ظ: حوار مع المستعرب السوفيتي الدكتور فلاديمير شاغال: 189، دورية الاستشراق ع (2).

(2) ظ: موقف العرب من المستعربين، ميشال جحا: 45، دورية الاستشراق ع (1).

(3) ظ: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي: 34، والاستشراق من منظور فلسفي معاصر، د. عبد الأمير الأعسم: 23، دورية الاستشراق ع (1)، ودراسة اللغة العربية والأدب العربي في الاستشراق السوفيتي: 60، دورية الاستشراق ع (2)، والاستشراق، إدورد سعيد: 44.

سابعا: من الدارسين الغربيين حصرًا إلى الاستعانة بالمحلّلين العرب والمسلمين:

إن أعباء الاستشراق الجديد ليست في الغالب من عمل مستشرقين أكاديميين مختصين، وإنما يشارك في صياغة خطابه الصحفيون والكتّاب والباحثون والخبراء والمدوّنون والناشطون في الحقول الفكرية والإعلامية وحقول الدراسات الأمنية[1]. ونتيجة للتوسع في دراسات الاستشراق المعاصر، وطلبًا للدقة، ولإضفاء مزيد من الموضوعية، ولتجنّب النقد من الدارسين العرب، تميّزت الكتابةُ الاستشراقية المعاصرة باعتمادها على دارسين ومحللين كثر، من جنسيات عربية وشرقية، وأكثرهم من مسلمي الجاليات التي استقرت في العالم الغربي. فقد استعان المستشرقون الجدد بخبرات مدرَّبة جيِّدًا من تلك الأصول، الأمر الذي لم يكن بهذا الوضوح مع الاستشراق التقليدي الذي استعان بنخب غربية أوروبية وأمريكية[2]. ولقد صار أكثر ما يميّز الاستشراق الجديد هو أنه لم يعد يقتصر على الدارسين الغربيين وحسب، وإنما يستعين بجيش من الدارسين والمحللين العرب والمسلمين، تكاد تقتصر مهمتهم الكبرى على دعم التصوُّرات حول الإسلام والعرب.

الأهمية اللسانية للاستشراق المعاصر

لا تخفى الأهمية الحضارية لدراسات الاستشراق المعاصر، إذ إن تخصصات الاستشراق لا تزال تمثل الشريك الكفء في التبادل العلمي الدولي[3]، وأصبح الاستشراق محورًا مهمًا من محاور حوار الحضارات وتلاقي الثقافات، ففي ثلاث ندوات دولية برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي:

1- الحوار الثقافي العربي الأوربي (15-16 يوليو 2002).

2- الحوار العربي الألماني (24-25 نوفمبر 2005).

---

(1) للمزيد ظ: حول الاستشراق الجديد: 76، 84.

(2) ظ: ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، فاضل الربيعي: 25، وحول الاستشراق الجديد: 8.

(3) الاستشراق الألماني: (من تمهيد المترجم: 37).

3- الحوار الثقافي الروسي العربي (18-22 أبريل 2006).

نُوقِشَ الاستشراق بوصفه حوارًا حضاريًا عابرًا للحدود والقارات، وعُرِضت فيه كثير من البحوث والمشاركات التي كتبها مستشرقون وعرب.

إن الكتابة الاستشراقية المعاصرة موجهة مثل الكلاسيكية للأوساط الغربية، فهي نافذة للاطلاع على تراث الشرق وحاضره واستشراف مستقبله، ولكن الكلاسيكية موجهة أكثر للأكاديميين، في حين أن المعاصرة - بفعل تطور الطباعة والنشر ووسائل الاتصال والتواصل - صارت موجهة للقارئ الغربي: الأكاديمي والمثقف عمومًا. ومن أشكال أهمية اللسانيات الاستشراقية المعاصرة، أنها زاخرة بالجِدَّة، وثرية بالآراء والتفسيرات التي لم نعهدها، وتتميّز بتنوّع الأعمال المدروسة واختلاف قضاياها ومناهجها.

وفيما يأتي بيان الأهمية اللسانية للاستشراق المعاصر، على شكل نقاط؛ لأنها موضع تركيز البحث واهتمام الباحث، وهي:

- إعادة كتابة تاريخ اللسانيات العامة في ضوء منجزات النحويين العرب.
- عرض العربية بمناهج لسانية متعددة.
- الدفاع عن التراث اللغوي العربي ومكانته وأصالته ونظامه.

أولاً: إعادة كتابة تاريخ اللسانيات العامة في ضوء منجزات النحويين العرب

إن إهمال الكتابة عن التراث اللغوي العربي وتغييبه أو تغيُّبه في تاريخ اللسانيات العامة، يُعد قطيعة أبيستمولوجية لتاريخ مليء بالإنجازات المهمة في تاريخ العلم اللساني، إذ "تركّز معظم الدراسات في تاريخ علم اللغة على تاريخ الاتجاه السائد في النظريات الغربية في اللغة والنحو"[1]؛ لذا نجد كثيرًا من كتابات الاستشراق المعاصر - استدراكًا لذلك - تكتب عن جهود النحويين العرب القدامى، فتضعها موضعها التاريخي أو الإبيستمولوجي في تاريخ

---

(1) اعلام الفكر اللغوي: 3/ 17. ولم يزد ذكر العربية ونحاتها في كتاب (اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش) عن ثلاث صفحات، من مجموع صفحاته (510). وكذلك حال (الموسوعة اللغوية التي حررها ن. ي. كولنج) بمجلداتها الثلاثة.

الفكر اللساني. وقد أشار المستشرقانِ الألماني هاينس غروتسفلد[1] والهولندي كيس فرستيخ[2] إلى عدم العناية في الموسوعات المعنية بتاريخ اللسانيات بالتراث اللغوي العربي، وعدم التعريف بآراء النحاة العرب. ويلقي غروتسفلد باللوم على المستشرقينَ، فيقول: "إنهم لم ينجحوا في لفت اهتمام الألسنيين إلى النحو العربي، أو على الأقل بتعبير دقيق لم يجتهدوا في ذلك"[3]. بل نجد أن الاتجاه - الذي ساد في منتصف القرن العشرين وما بعده وصولًا إلى القرن الذي يليه - المتمثّل بنقد الحدثين العرب لتراثهم اللغوي، قابله اتجاهات للمستشرقينَ واللسانيينَ الغربيين، تُثبت أوجه تفوُّق هذا التراث، أكثر مما تنتقده[4]. وانبثقت عن هذا اتجاهات للمستشرقين المعاصرين في الكتابة عن التراث اللغوي العربي، رصدناها بثلاثة، وهي:

- اتجاه بنيوي كاشف.
- اتجاه تاريخي أبيستمولوجي.
- اتجاه لساني محض.

الاتجاه الأول: اتجاه بنيوي كاشف:

يكشف هذا الاتجاه عن مفاهيم النحويين العرب وإجراءاتهم في التحليل النحوي، ويبيّن رياديتهم في بعض نظرياتهم اللسانية، ويمثل هذا الاتجاه دراسات منها:

1- النحاة العرب القدامى وعلم اللغة الحديث، ولفكانك روشيل (مستشرق ألماني).
2- دراسات في علم النحو العام والنحو العربي، فيكتور خراكوفسكي (مستشرق روسي).

---

(1) ظ: خواطر هيكلية: 258.

(2) ظ: عناصر يونانية: 30 – 31.

(3) خواطر هيكلية: 259.

(4) للمزيد عن هذا الاتجاه، يُراجع العرض المهم للدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم في كتابه: النظرية اللغوية في التراث اللغوي: 44-49.

3- خـواطر هيكليـة[1] في كتـاب سـيبويه و(كتـب) مـن جـاء بعـده مـن النحـاة، هـاينس غروتسفلد (مستشرق ألماني).

4- مؤلفات المستشرق جونثان أونز Jonathan Owens (مستشرق أمريكي):

(1) The Foundations of Grammar_ An introduction to medieval Arabic grammatical theory.

(أسس النّحو مقدّمة في النّظرية النحويّة العربيّة في القرون الوسطى/ 1988).

(2) Early Arabic Grammatical Theory: Heterogeneity and standardization (Studies in the History of the Language Sciences) , 1990

النظرية العربية النحوية المبكرة: التنوع والوحدة (دراسات في تاريخ علوم اللغة)

(3) A Linguistic History of Arabic , Oxford ,2009

تاريخ اللسانيات العربية

(4)Encyclopedia of Arabic language and Linguistics , General Editor Kess Versteegh ,Brill , 2006. .

صفحة(3206) وهي موسوعة ضخمة،مخصصة للغة العربية بجزأين و.

ويرى كيس فرستيخ أن دراسات جونثان أونز تحاول "مقارنة اللغويـات العربيـة علـى أساس صوري (formal) بمناهج اللسانيات الحديثـة"[2]، بعـدما "طـوّرت اللـسانيات الحديثـة مناهجها باطّراد فهيّاً لها وعيًا جعلها قادرة على أن تقرأ أعمال النحاة العـرب وتنتـصف لهـا، وترى فيها أصولا لم تكن لتراها قبل أن يتهيأ لها ذلك الوعي كما يقرر جونـاثـان أوينـز"[3]. إن هذا الاتجاه كان هدفه التعريف بالمنجز اللساني في التراث العربي بعـدما "تجاهلـت اللـسانيات الغربية تجاهلًا يكاد يكون تامًّا كثيرًا من العمق والأصالة التي أورثناهـما النحويون العرب"[4].

---

(1) يعني بالهيكلية البنيوية.

(2) الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 199.

(3) اللغة العربية في مرآة الآخر: 5

(4) مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 19.

الاتجاه الثاني: اتجاه أبيستمولوجي:

يضع هذا الاتجاهُ التراثَ اللغوي العربي كلّه في موضعه الإبستيمولوجي ضمن تاريخ الأفكار اللسانيات وتطورها. وبرز هذا الاتجاه منذ النصف الثاني من عقد السبعينيات من القرن العشرين، فرأينا أبوابًا من كتب تاريخ علم اللغة مخصصة للحديث عن تاريخ الفكر اللغوي عند العرب[1]. وأبرز من يمثل هذا الاتجاه المستشرقان كارتر M.J.Carter، وفرستيخ Kess Versteegh، ومن دراساتهم:

1- نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي: مساهمة في تاريخ اللسانيات، كارتر.

2- قراءة ألسنية للتراث اللغوي العربي الإسلامي، كارتر.

3- Sibawyhi and Modren Lunguistics

4- كارتر سيبويه واللسانيات الحديثة.

5- الجزء الثالث من الموسوعة (أعلام الفكر اللغوي) لكيس فرستيخ، بعنوان ثانوي: (التقليد اللغوي العربي)، 2007 [2].

6- (الفكر اللغوي العربي)، وهو باب ضمن كتاب (التاريخ العام لعلم اللغة)، Itkonen ,E [3].

7- التقاليد العربية، وهو الفصل الرابع من كتاب: (تاريخ التفكير اللساني)[4]، وحرّره مجموعة من المستشرقين بثلاثة أقسام ويمتد على أكثر من سبعين صفحة.

---

(1) مكانة سيبويه في علم اللغة الحديث في نظر المستشرقين: 550.

(2) الجزء الأول من هذه الموسوعة (التقليد اللغوي الغربي من سقراط إلى سوسير)، والثاني (التقليد الغربي في القرن العشرين). ومن ثم تندرج أهمية الجزء الثالث أنه يضع المنجز اللغوي لعلماء العربية في سياقه العالمي.

(3) مكانة سيبويه في علم اللغة الحديث في نظر المستشرقين: 550.

(4) تاريخ التفكير اللساني: نشأة اللغات الواصفة في الشرق والغرب، تحرير سيلفان أورو، ترجمة عبد الرزاق بنور، 1/ 383 - 449.

8- Studies in the history of Arabic grammar,

دراسات في تاريخ النحو العربي

proceedings of the 2nd Symposium on the History of Arabic Grammar, Nijmegen, 27 April - 1 May 1987 , edited by Kees Versteegh and Michael G. Carter.

وقائع الندوة الثانية عن تاريخ النحو العربي من تحرير فرستيخ وكارتر[1].

وقد لفت المستشرقون المعاصرون النظر إلى أهمية التراث النحوي العربي وطبيعة المادة التي يصفونها ومكانة نظريات نحويي العربية وتفسيراتهم[2]، بل "تشكّل نظرية النحاة العرب... موضوعا مستقلا يستحق البحث في حد ذاته"[3]، وهي نظرية متماسكة جدا[4]. ويأمل المستشرق الألماني هاينس غروتسفلد[5] أن يُسهِم المحدثون العرب في التدليل على أهمية النحو العربي ليجد مكانته في كل موسوعة تؤرّخ للفكر اللساني.

الاتجاه الثالث: اتجاه لساني محض:

وانبثق هذا الاتجاه بعد تزايد الاهتمام باللغة العربية وارتفاع مكانتها بوصفها لغة طبيعية صالحة للتحليل اللساني المحض، ولفحص كثير من مقولات اللسانيين الغربيين، واستعمال تفسيرات نحوييها وتوظيف مفاهيمها، ولا سيما بعد نقد النظرة المتحيزة الشائعة وإحلال الموضوعية محلها. بل صار هدف هذا الاتجاه دراسة بعض ظواهر العربية للإسهام في

---

(1) للاطلاع على هذه الندوة:

https://books.google.iq/books?id=0xlmPnHFE0oC&printsec=frontcover&dq=Studies+in+the+history+of+Arabic+grammar&hl=ar&sa=X&ei=50CVVKH8O62u7AaFmYGIDw&redir_esc=y#v=onepage&q=Studies%20in%20the%20history%20of%20Arabic%20grammar&f=false

(2) ظ: التراث اللغوي العربي: 22.

(3) م. ن.

(4) ظ: نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي، غراتشيا غابوتشان: 94.

(5) ظ: خواطر هيكلية: 282.

تطوير الدراسة اللسانية النظرية[1]. كتب بيرنارد كومبري بحثه (أهمية اللغة العربية في النظرية اللسانية العامة on the importance of arabic for general linguistic theory)[2]، ومن جملة ما قاله: إنني أود أن أبين حتى لأولئك اللسانيين الذين لا يهمهم هذا المنظور الحضاري الواسع أن اللغة العربية لديها الكثير مما تقدّمه لهم[3]، بل إن هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب القدماء[4]، وصرنا كثيرًا ما نجد مقالات في أشهر الدوريات المتخصصة تعالج قضايا اللغة العربية بقصد الإسهام في النظرية اللسانية[5]. ومن صور الاهتمام باللغة العربية من لدن اللسانيين الغربيين "البحث فيها لغرض اختبار المقولات النظرية اللسانية وتطويرها[6].

ومن نتاجات هذا الاتجاه أن برز جيلٌ لسانيٌّ غربيٌّ أضحت اللغة العربية محطّ تحليله اللساني، من غير أن يُعدّ مستشرقًا، على الرغم من اتخاذه العربية - بوصفها لغة طبيعية - مادة للدراسة، يمكن أن تُسهم دراستها والاستعانة بتحليلها في تقدم البحث اللساني النظري[7]. ومن أشهر هؤلاء اللسانيين الغربيين[8]: تشارلز فيرغسون ورومان جاكوبسون وزيلك هاريس وفيرث وأندريه مارتينيه وجون مكارثي ومايكل بريم. واختصارًا سنقتصر على بيان إسهام (مايكل بريم). إذ كتب في (1972) أطروحته للدكتوراه: (التشكيل الصوتي للعربية Arabic phonology) بإشراف تشومسكي، وقد انتشرت هذه الأطروحة في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها مرجعًا للدراسة الصوتية وظهرت الإشارة

---

(1) مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 27.

(2) ظ: م.ن: 28.

(3) on the importance of arabic for general linguistic theory: 3 -4
نقلا عن: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 28.

(4) II Studies in The History of Arabic Grammar
نقلا عن مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 35.

(5) مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 23.

(6) م. ن: 24.

(7) للمزيد عن اتخاذ العربية أنموذجا للتحليل اللساني من لدن اللسانيين الغربيين، ظ: م. ن: 13، 17-32.

(8) ظ: م.ن: 17، ومقابلة مع عالم اللسانية أندريه مارتينيه، أجراها د.نادر سراج، مجلة الفكر العربي ع (46) س (8) ظ: 371، 372، 373.

إليها في عدد كبير من الكتب والمقالات في تلك الحقبة، وقد أعدّت على وفق أنموذج (تشومسكي/ موريس هاله) على اللغة الإنجليزية في كتابهما (النمط الصوتي للإنجليزية)[1]. ولأهميتها قام أحد الباحثين الأردنيين بدراستها في نصّها الإنجليزي في إحدى الجامعات الأردنية بأطروحة دكتوراه ونُشِرت بعنوان (التحليل الصوتي للغة العربية عند المستشرقين: مايكل بريم أنموذجًا).

ولقد كانت دراسات المستشرقين والباحثين المحدثين العرب المنشورة في أكثر من لغة أوربية من مصادر معرفة هؤلاء اللسانيين الغربيين باللغة العربية، وكما سيأتينا في الحديث عن مرجعيات الاستشراق المعاصر.

وكان لبروز هذا الجيل من اللسانيين الغربيين واهتماماتهم بالعربية لغة تحليل ومادة للدراسة، نتائج منها:

1- تزايد الاهتمام واطّراده بالتراث اللغوي العربي وتاريخه في الحلقات الدراسية والمؤتمرات والندوات التي خُصّصت لتاريخ اللسانيات العامة[2]، بل دعوة بعض اللسانيين العرب مثل الدكتور نهاد الموسى أكثر من مرة لبيان المنجز اللساني في تراث العربية والرد على كثير من المقولات التي يتبناها اللسانيون الأمريكيون عن العربية[3]. فصار للعربية حضور قوي في المشهد اللساني الغربي.

2- إنشاء بعض المجلات المتخصصة في الدراسات عن اللغة العربية مثل (Journal of Arabic Linguistics)[4] منذ عام 1978، أو تخصيص بعض الدوريات اللسانية الغربية أعدادا بعينها عن تحليل التراث اللساني العربي ودراسته[5] ولا سيما في ثمانينيات القرن العشرين. ومن مطالعة مجموعة من المقالات ألتي جمعها سلمان

---

(1) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 18 – 19، واللغة العربية في مرآة الآخر: 71-72.

(2) ظ: الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 198، ومكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 23.

(3) ظ: اللغة العربية في مرآة الآخر: 13 – 18.

(4) وهذا موقعها على شبكة المعلومات: http://www.zal.uni-hd.de/english.html.

(5) للمزيد عنها ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 23. وأهمية هذه الدورية لقيام المحدثين العرب بالكتابة فيها مثل عبد القادر الفاسي الفهري ورمزي منير بعلبكي، وغيرهم من اللسانيين العرب المقيمين بالغرب.

العاني، وصدرت عن نادي اللسانيات في جامعة أنديانا بأمريكا.... يبدو من هذه المجموعة أن اللغة العربية تحتوي مسائل لفتت انتباه أكثر العقول المهتمة باللسانيات تميُّزا، وتوضح أكثر المفاهيم النظرية الأساسية[1].

3- ضمّ جمعية (التاريخ وإبستيمولوجيا علوم اللغة) و(جمعية أمريكا الشمالية لتاريخ علوم اللغة) أعضاءً مختصين في التراث اللغوي العربي[2]، وتأسيس جمعية اللسانيات العربية (Arabic Linguistic Society) (ALS)، سنة 1988 في مدينة سولت ليك بولاية يوتاه بأمريكا[3]. وأمّا جمعية اللسانيات الأمريكية Linguistic Society of America، فنشرت بأعداد مجلتها Language بحوثًا لمستشرقين أو لباحثين عرب عن اللغة العربية مثل: ريم بسيوني Reem Bassiouney وعلي فرغلي Ali Farghaly وكامل السعدني Kamel A. Esaadany، وغيرهم[4]. وقد مثّل وجود هؤلاء الدارسين والباحثين العرب ونشرهم لبحوثهم حلقةً جديدة في مصادر العربية، ومرجعًا للمستشرقين المعاصرين.

4- وقد أدى تزايد الاهتمام باللغة العربية أن يكون ذا شقّين أحدهما: البحث في اللغة العربية لذاتها، وثانيهما: البحث فيها لغرض اختبار المقولات النظرية اللسانية وتطويرها[5]. ويمكن القول: إنه في أعقاب التاريخ العام للسانيات نالت دراسة تاريخ اللغويات العربية دفعة قوية، ويتبدى هذا بوضوح من خلال انطلاق مشاريع عدة طموحة تتضمن، دائمًا، قسمًا حول اللغويات العربية، مثل مجلد حول تاريخ اللسانيات ضمن مشروع سلسلة (HSK) وضمن المنشور الجديد (تاريخ الأفكار

---

(1) مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 18.

(2) ظ: الدراسات حول تاريخ النحو العربي: 198.

(3) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 23. وللمزيد عن هذه الجمعية أو الرابطة على شبكة المعلومات:
http://www4.uwm.edu/letsci/linguistics/als /

(4) رابط المجلة مع خاصية البحث في أعدادها:
http://www.jstor.org/action/showPublication?journalCode=language

(5) مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 24.

اللسانية) (HIL) وهناك عمل آخر يتعلق بمعجم تراجم النحاة (lexicon grammatiorum).... يتضمن هذا المعجم حياة وأعمال أكثر من 1000 لغوي. ونجد من بين هؤلاء 80 لغويًا عربيًا..."[1].

ثانيًا: عرض العربية بمناهج لسانية متعددة:

يدرس الاستشراقُ المعاصر العربيةَ في ضوء مناهج البحث اللساني المعاصر مع إسقاط كثير من مفاهيم النظرية اللغوية الغربية. ويأمل المستشرق غروتسفلد[2] أن يجد المستشرقون في النحو العربي ميدانًا جديدًا في ضوء ما استجدّ من مناهج، "من أجل العمل على تقديم النظريات اللغوية العربية بطريقة مفهومة للقارئ المعاصر..."[3]. هذا العرض الجديد والمبتكر أفضى بالمستشرقين المعاصرين إلى الاستعانة بأدوات بحثية ومرجعيات نقدية مختلفة، كالتتبع التاريخي لنظريات العلم ونقدها (إبيستمولوجيًا) وغيرها من أدوات البحث، ثم التحاور مع نصوص النحو العربي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة "من أجل الكشف عن النظريات التي طوّرتها هذه النصوص"[4]. ومن نتائج هذا التقديم والعرض على سبيل المثال، التماس أصول نظرية تشومسكي[5] في النظرية النحوية العربية.

وبالتتبّع القليل لطرائق المستشرقين المعاصرين في عرض النحو العربي في دراساتهم وبحوثهم، نجدها ثلاث مقاربات بحسب صفتها الغالبة:

الأولى: تراثية:

وتعرّض النحو العربي كما عرضَته النظرية اللسانية العربية التراثية. وغرضها التعريف به وبالنحويين ووضع التراث اللغوي العربي في سياقه التاريخي العالمي وبيان منجزه

---

(1) الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 198.

(2) ظ: خواطر هيكلية: 282.

(3) التراث اللغوي العربي: 23. والمقصود طبعا القارئ الغربي.

(4) م. ن.

(5) ظ: خواطر هيكلية: 282، النحاة العرب القدامى وعلم اللغة الحديث: 66، دورية الاستشراق، ع (4)، الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 203.

اللسانيّ. وهي مقاربة تدرس النحو العربي لذاته، فاعتنت بمكانة التراث النحوي العربي، وأهميته وضرورة فهم نصوصه، ومحاورتها والكشف عن أصوله النظرية وأسسه المنهجية وتقديم تفسيرات النحويين العرب، بما يفيد اللسانيين الغربيين منه[1].

الثانية: تقابلية:

تعرض النحو العربي في ضوء النظرية اللسانية الغربية ومفاهيمها ومصطلحاتها[2]. لقد كان المستشرقون الكلاسيكيون "متأثرين بالدرس اللغوي العربي، ثمّ بدأ التخفُّف من تأثيره؛ لظهور الجانب التعليمي في تأليفاتهم في النحو العربي، حتى صارت العربية عند المعاصرين تُقعَّد على أساس النظرية الغربية التقليدية ذات الأصل اليوناني"[3]، والعرض بهذه الطريقة سببه اختلاف مفاهيم النحو العربي عن مفاهيم النحو اللاتيني، فعلى سبيل المثال "مصطلحات الاسم، الفعل إلخ... تُوظَّف في التراث العربي بطريقة تختلف عنها في التراث الإغريقي - اللاتيني..."[4]، مما تُعدّ معه المقابلة بين مفاهيم التراثَيْنِ النحويَيْنِ ومصطلحاتهما أمرًا مشروعًا ومفيدًا لأغراض تعليمية، ويؤدي إلى فهم أفضل وأعمق لمستويات النظرية العربية[5]. إن اختلاف المفاهيم النحوية للتراثَيْنِ أثَّرَ على طريقة الغربيّ في تعلُّم العربية، ومنهجِهِ في دراستها، إذ إن "الأوربيّ الذي يأخذ في تعلم العربية، إنما يفعل ذلك في نطاق الدروس الجامعية، هذه الدروس التي تُدرّس فيها اللغة العربية بنفس المناهج التي تُدرّس بها اللغات الأجنبية الأخرى، وباستعمال المصطلحات النحوية المتداولة في تعليم اللغات"[6]. وهذا هو ما يُسمّى بالإسقاط في التعلُّم، وهذه الطريقة في التعلُّم تستند إلى

---

(1) ظ: التراث اللغوي العربي: 22 – 23.

(2) ظ: النحاة العرب القدامى وعلم اللغة الحديث: 63، دورية الاستشراق ع (4).

(3) البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: 17، وظ: بحوث في الاستشراق واللغة، د.إسماعيل أحمد عمايرة: 295.

(4) الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 203، وللمزيد عن اختلاف المصطلح بين النحوين: العربي والغربي وأثره في دراسات المستشرقين وتحليلهم للغة العربية، ظ: أعلام الفكر اللغوي: 3/ 24 – 25.

(5) ظ: الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 203.

(6) خواطر هيكلية: 259، وللمزيد ظ: 260– 261.

مفاهيم المنهج التقابلي الذي تطوَّر بفعل تقدُّم اللسانيات التطبيقية وغاياتها التعليمية، ولا سيما في اكتساب اللغة الثانية. ومن أسباب ابتعاد بعض المستشرقين المعاصرين في عرضهم اللغة العربية وتدريسها بالطريقة التراثية اهتمامات القارئينِ: العربيّ والغربيّ، وما يحتاجه منها في مواقف تواصلية. وأيضا فإنّ التراث العربيّ يفتقر لبعض المفاهيم أو بالأحرى لم يراعِها، كمفهوم اللغة في ضوء البعد الزماني (التعاقبي)؛ لذلك نجد بعض المستشرقين لا يولون مناهج سيبويه والزمخشري وافتراضاتهما اهتمامًا كبيرًا[1]. وهذا كله أفضى - مع أسباب أخرى - إلى تباين دراسة العربية بين جيلين[2]. وبمقارنة يسيرة وسريعة بين الاستشراقينِ، يتبيّن لنا:

الاستشراق الكلاسيكي	الاستشراق المعاصر
1. درس الفصحى وعرضها متأثراً بمصادر التراث اللغوي العربي.	1. وصف العربية وعرضها متأثراً بالنظرية اللغوية الغربية.
2. اهتم بالفصحى واللهجات العربية القديمة ونصوصهما، وقارنهما باللغات السامية.	2. اهتم بالفصحى المعاصرة (المكتوبة)، والعاميات المعاصرة (المنطوقة).
3. قرأ المعجم العربي قراءة تاريخية وأفاد من إمكانياته في المقارنة اللغوية.	3. صنّف معاجم للعربية الحديثة والمعاصرة، ونأى بنفسه عن المعجم التراثي.
4. أبان عن اهتمامه بالفيلولوجيا وتحقيق المخطوطات والحفر التاريخي للوثائق والبرديات واتخذ من دراسته العربية غاية حضارية.	4. ركّز على نزعة تطبيقية كشفت عن اهتمام بتعلُّم العربية وسيلة لا غاية في ضوء منهج تقابلي.

(1) للمزيد ظ: م. ن: 262 – 264.

(2) ظ: البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: 17.

الثالثة: الوصف الجديد:

هي طريقة ليست تراثية ولا تقابلية، بل تسعى إلى وصف اللغة العربية والبحث عن أصول نظامها وصولًا إلى تقديم أنموذج للجملة فيها يُعد نظامًا عامّا شاملًا لا تختلف عنه لغة من اللغات[1]. وتمتاز هذه الطريقة بقربها من الطريقة الثانية من حيث الغرض والغاية، وباستعمالها الشواهد العربية: القرآنية والشعرية وسواهما للطريقة الأولى. وتلحظ هذه الطريقة الفريدة في كتابَيْ المستشرق الفرنسي (أندري رومان): (الجمل في العربية النظامية) و(التوليد المعجمي في اللغة العربية).

ثالثًا: الدفاع عن التراث اللغوي العربي ومكانته وبيان أصالته وكشف نظامه:

ويتجلّى هذا الدفاع بأشكال مختلفة، منها:

1- بيان أثر النحو العربي في تقعيد أنحاء بعض اللغات الشرقية من حيث التقسيم والمفاهيم والمصطلحات، كالنحو السرياني والعبري والتركي والقبطي والفارسي.

2- نقد المقولات الجاهزة[2] من صعوبات قيلت حول العربية، وردُّ كثيرٍ من هذه الدعاوى. وبسبب اتخاذها أنموذجًا للتحليل اللساني وزيادة المختصين بها وتقدير مكانتها، حلّت النظرة الموضوعية محل النظرة المتحيزة التي كانت شائعة ضدّها في بعض الأوساط[3]، فراحت بعض الدراسات تدافع عن العربية كاشفة عن خصائصها، وبيان أن بعض صعوباتها أمر طبيعي وموجود في اللغات الأوربية[4]. ومن أمثلة هذه الدراسات المدافعة (دلالة الشكل في العربية)، ويّعد هذا الكتاب بمجمله دفاعًا عن العربية. وكذلك البحث الموسوم (أساطير وأوهام حول العربية)[5] للمستشرق تشارلز فرجسون.

---

(1) ظ: الجمل في العربية النظامية: (مقدمة المترجم: 11 – 12)، 14.

(2) عن أسباب نشأة هذا النقد ودواعيه، ظ: ما بعد الاستشراق، وائل غالي: 2/ 457 – 470.

(3) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 13.

(4) للمزيد ظ: دلالة الشكل في العربية: 7، 11، 14، 311.

(5) ظ: العربية في مرآة الآخر: 15.

3- تأكيد كثير من مقولات نحاة العربية والاستدلال على صحة استقرائهم[1]، والإشادة ببساطة بعض التقسيمات وعمومية نظامها[2]، وما فيها من ملامح تمييزية صوتية يجب افتراضها من النظرية الصوتية العربية كملمح الحنجرية المعبر عن الأصوات الحلقية[3].

4- تفسير كثير من المفاهيم اللسانية في اللغات الأوربية بالاستعانة بتفسيرات نحاة العربية، والإفادة من نتائج النظام اللغوي للعربية وتحليلاته[4]، كما في دراسات مايكل بريم وجون مكارثي[5].

المرجعيات

لم يُبقِ المستشرقون المعاصرون على مرجعيات الاستشراق الكلاسيكي نفسها، بل حدّثوها، وطوّروها، وزادوا عليها مصادر، واستندوا لأدوات بحثية جديدة، واستعانوا بمفاهيم ومقولات معاصرة ومصطلحات أكثر حداثة ورموز تُستعمل لأول مرة. وتشمل المرجعيات، ما يأتي:

- المرجعية الفكرية والثقافية.
- المعرفة اللسانية.
- المفاهيم والمصطلحات الجديدة والرموز.

---

(1) ظ: التوليد المعجمي في اللغة العربية: 106 هامش (3).

(2) ظ: التراث اللغوي العربي: 87.

(3) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية الصوتية: 28 – 29.

(4) ظ: دلالة الشكل في العربية: 594، التراث اللغوي العربي: 22.

(5) ظ: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة: 20، 22، 25 – 26.

أ- المرجعية الفكرية والثقافية:

أشار بعض المستشرقين المعاصرين[1] إلى ضرورة امتلاك الأدوات الفكرية الملائمة لسبر النصوص العربية، ومن دون هذه (الملاءمة) في أدواتهم سيرَوْنَ "الشرق بأدوات الغرب المعرفية والمنهجية الحديثة لا بأدوات الشرق القديمة"[2]. وتعددت هذه الأدوات والمرجعيات وتنوعت[3]، ومن هذه الأدوات الأداة الابستيمولوجية، وتتجلى في الفحص النقدي والتاريخي للنظرية النحوية العربية[4]، واستعمال مفاهيم علمية من نظريات علم النفس[5]، ومنجزات علم الاجتماع[6]، ومفاهيم الفلسفة[7]، والتاريخ الاجتماعي والثقافي للشعوب الشرقية والغربية[8]، وغيرها من الأدوات العلمية.

أمّا الخطوات العملية فكان منها إنشاء المعاهد في الشرق، فقد أظهر الاهتمام بقضايا الشرق المعاصرة الحاجة إلى إنشائها، في عدة عواصم عربية ولاسيما القاهرة وبيروت ودمشق[9]، ويعد هذا تطوُّرًا في أدوات البحث ونوعًا من الامتداد الطبيعي والمنطقي للاستشراق الكلاسيكي، وأطلق عليه أحد الدارسين[10]: مرحلة الاستشراق الجديد. وكان من مهام هذه المعاهد تعميق صلة المستشرق بالعالم العربي المعاصر لضرورات ميدانية ونفسية والإفادة من قرب أماكنها لتأسيس مكتبات لها ضخمة تتزود من دور النشر العربية، وتُسهم

---

(1) ظ: التراث اللغوي العربي: 22.

(2) ما بعد الاستشراق: 2/ 451.

(3) ظ: التوليد المعجمي: (مقدمة المترجم: 3، 4).

(4) ظ: التراث اللغوي العربي: 42، 55.

(5) م. ن: 56، 58.

(6) ظ: ما بعد الاستشراق: 2/ 456، 457، 463، 468 – 469.

(7) ظ: دلالة الشكل: 144، 147، 213.

(8) ظ: م. ن: 100، 102، 128، 227.

(9) ظ: البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: 16، وللمزيد ظ: المستشرقون الألمان: 81، واقع اللغة العربية وثقافتها في فرنسا: 112 – 114.

(10) ظ: العرب و الإسلام في كتابين، د.غسان سلامة، مجلة الفكر العربي: 223، س (2) ع (14) سنة 1980، آذار – نيسان، طرابلس بيروت.

أيضا بحركة النشر والبحث العلمي، كالتي يقوم بها (المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت) (OIB)[1].

ومن هذه الأدوات التي نمت وتطورت الزمالات الدراسية والإشراف المشترك واستضافة المحاضرين من اللسانيين العرب الأكاديميين[2] وإجراء الحوارات والمقابلات وكتابة البحوث والمقالات باللغة العربية ونشرها في الدوريات العربية. ويكفي تصفحًا سريعًا لدورية عربية واحدة هي (الاستشراق) العراقية بأعدادها الخمسة، يرينا عشرة حوارات مع مستشرقين، وأربعة عشر بحثًا مكتوبًا باللغة العربية لمستشرقين من بلدان مختلفة، هذا فضلا عن البحوث المترجمة.

ب- المعرفة اللسانية:

- معرفة العربية ولغات الشرق.
- النظريات اللسانية المعاصرة.
- اللسانيون المحدثون العرب.

وسأتحدث عن النقطتين الثانية والثالثة، وأترك الأولى لوضوحها وبداهتها.

النظريات اللسانية المعاصرة:

استند الاستشراق المعاصر إلى نظريات لسانية معاصرة في مقاربته للتراث اللغوي العربي، مستعينا بها ذاكرًا أسماء أصحابها، نحو سوسير وتشومسكي أو مفاهيمها ونظرياتها

---

(1) للمزيد عن مهامه ظ: http://www.orient-institut.org/index.php?id=missionhistory&L=2، وللمزيد عن أثر معاهد الاستشراق في الشرق ظ: الاستشراق الألماني (من تمهيد المترجم: 14)، المساهمة الألمانية في علم الشرق الأدنى: 77، التطورات الحديثة لعلم الشرق الأدنى: 172.

(2) للمزيد ظ: واقع اللغة العربية وثقافتها في فرنسا: 111، واقع اللغة والثقافة العربية وآفاقه المستقبلية في رومانيا: 228 – 229.

مثل البنيوية ونحو النص ومفاهيمه والنحو التحوليدي والتداولية[1]. ويقول فرستيغ صراحة: "وقد أثّر التطور في علوم اللغة الأوروبية على اللغة العربية..."[2]. ولا يخفى أن ما ذكرناه على سبيل المثال لا الحصر؛ لأننا لو أردنا الحصر لطال بنا القول.

إن توظيف هذه النظريات اللسانية؛ لأنها "وسيلة للحوار مع النصوص العربية من أجل الكشف عن النظريات التي طوّرتها هذه النصوص"[3]، فضلا عن كون النصوص التي يناقشها المستشرقون المعاصرون غالبا ما تمنحنا الفرصة لمقابلتها بالمفاهيم اللسانية الغربية[4]، مما يستوجب إعادة النظر بإبستيمولوجيا النظريات في تاريخ اللسانيات العامة.

ومن أشكال توظيف مقولات اللسانيات، ذلك الاستثمار لتقدُّم اللسانيات التطبيقية، ممثّلةً بالمنهج التقابلي، الذي انتهجه بعض المستشرقين المعاصرين في تعليم العربية ببلدانهم، وتلك نزعة انبثقت لأسباب، منها:

- الاكتفاء بتعليم العربية للناطقين بغيرها لغةً ثانيةً للحديث والتواصل والعمل من دون التخصص الدقيق لمُتعلّمها.
- تطوُّر اللسانيات التطبيقية وتأثُّر المستشرقين المعاصرين بهذا التطور، فأثّر في المناهج التأليفية.
- ظهور تعاون علميّ تمثّل باتجاه نحو تأليف كتب تعليم العربية بين مستشرقين معاصرين ودارسين عرب عاملين من الجامعات الغربية أو سواها، مثل:

---

(1) ظ: دلالة الشكل في العربية: 156، 192-193، 211-212، 241، 267، 353، 364، 568، 578، 597، والتراث اللغوي العربي: (مقدمة المترجم: 5)، 80-81، أعلام الفكر اللغوي: 3/ 80، وخواطر هيكلية: 264-265، والدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي: 201، وللمزيد عن توظيف مفاهيم النظريات اللسانيات الحديثة في قراءة التراث النحوي العربي، ولاسيما (كتاب سيبويه)، من لدن المستشرقين المعاصرين، ومنها البنيوية والتوزيعية والوظيفية والتوليدية والتداولية، ظ: كتاب سيبويه مادته ومنهجه وآثاره في العلوم العربية والإسلامية ومكانته في علم اللغة: 224-251، مكانة سيبويه في علم اللغة الحديث في نظر المستشرقين: 552-557، 559.

(2) اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، كيس فرستيغ، ترجمة محمد الشرقاوي: 16.

(3) التراث اللغوي العربي: (مقدمة المترجم: 6).

(4) ظ: أعلام الفكر اللغوي: 3/ 9 (مقدمة المترجم).



1- أصول الترجمة (عربي - فرنسي)، تأليف المستشرق الفرنسي الأب أندره دالفرني وجوزف حجّار، (2018).
2- طرق تعليم اللغة العربية في تمبكتو، دراسة وتحقيق المستشرق الفرنسي جورج بوهاس وعبد الرحيم الساكر، (2010).
3- عشرون ألف فعل وفعل، تأليف المستشرق الفرنسي جوزيف ديشي وسام عمّار، (2013).

اللسانيون المحدثون العرب:

رجع المستشرقون المعاصرون إلى آراء اللسانيين العرب المحدثين، ولاسيما الأسماء المعروفة مثل: عبد القادر المهيري، ومحمد رشاد الحمزاوي وداود عبده ورمزي بعلبكي، وغيرهم[1]. فقد كانت دراساتهم منشورة في أكثر من لغة أوربية، وغيرهم من الباحثين العرب المقيمين في الغرب والذين يدرّسون العربية في الجامعات الغربية مثل سلمان حسن العاني ومحمد الشرقاوي ومشيرة عيد وريم بسيوني وغيرهم. ولا ننسى تلك الأطاريح التي كتبها المبتعثون العرب في الجامعات الغربية، والتي غدت مرجعًا لسانيًا مهمًا عن العربية، مثل أطاريح إبراهيم أنيس وتمام حسان وعبد الرحمن أيوب ومحمود فهمي حجازي ورمضان عبد التواب. ومن الأطاريح المهمة التي وجدت لها إشارات كثيرة، أطروحتان بالفرنسية كتبها عبد الرحمان الحاج صالح: (اللسانيات العربية واللسانيات العامة: 1979)

Linguistique arabe et Linguistique générale, Paris - Sorbonne, 1979.)

وعبد القادر الفاسي الفهري: (اللسانيات العربية: الشكل والتأويل 1982)

Linguistique arabe: Forme et interpretation

---

(1) ظ: التوليد المعجمي: 222، 227، التحليل الصوتي للغة العربية عند المستشرقين: 381، Studies in the History of Arabic Grammar II. 17-33

للمزيد على سبيل المثال: تُنظر قائمة أسماء المشاركين بتحرير الموسوعة المهمة: Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics: i – xiii، إذ كتب كثيرا من بحوثها لسانيون عرب من المعروفين بالعالم العربي أو من المقيمين بالغرب ممن يدرّسون بجامعاتها.

ولا ننسى أنّ كثيرا من اللسانيين المحدثين العرب ممن يتقنون أكثر من لغة، هم أعضاء بجمعيات استشراقية/ لسانية، ويعلم ذلك كل من قرأ سيرهم الذاتية كالدكتور رمضان عبد التواب، وعوني عبد الرؤوف ومحمود فهمي حجازي وغيرهم.

ج- المفاهيم والمصطلحات الجديدة والرموز

استند المعاصرون في دراستهم اللغة العربية إلى مجموعة من الآليات:

1- المصطلح اللساني الجديد[1]:

ونجد شائعًا في دراساتهم الاعتماد على كم كبير من المصطلحات اللسانية مع توظيف مفاهيمها، نحو: الاشتقاق الصفر ومصطلح التهذيب وعدمه ومصطح الاكتمال وعدمه، والوسم، والجمع الصفر، والناقل أو المحوّل، وغيرها.

2- استعمال الرموز اللغوية[2]:

وما هذا الاستعمال إلا لشيئين: فالأول، لثبات دلالة هذه الرموز عند المشتغلين باللسانيات ولا سيما الوصفية. والآخر: تحديث عرض العربية ودراستها وتقريبها إلى القارئ الغربي. ومن هذه الرموز (∅) ويشير تارة إلى العدم أو الصفر، وتارة إلى الحذف، و (α) ألفا ويرمز للمتغير، والرمز(√) ويشير للجذر.

---

(1) ظ: دلالة الشكل: 81، 84-85، 132-135، 153 - 155، 160، 177، 179، 180، 197، 200، 228 – 229، 234، 461، 500، 519، 536، 538، 579،564، 616 – 618، 620، 625، 632، والجمل: 172، 222 – 229.

(2) ظ: دلالة الشكل: 74، 178، 215، 241، 378، 383، والتوليد المعجمي: 103، 108، 109، 120، 132، 137، الجمل في العربية النظامية: 95، 111، 137، 231.

3- التقابل الثنائي:

اعتمد بعض المعاصرين على آلية التقابل بين الثنائيات[1] نحو: المخصص وغير المخصص، وما انقطع وما لم ينقطع، وتوكيد المنتهي وتوكيد غير المنتهي، وثنائية المهذب والمكتمل، وغير المهذب وغير المكتمل. ولكون اللغة نظامًا تواصليًا، يفترض أندري رومان أنه ذو علاقة ثنائية[2]. إن فرضية أو مقولة الثنائية ليست مسألة جمع شوارد متقابلة بالتضادّ بل إن وجود سمة من السمات يدفع إلى البحث عن السمة المقابلة لها. وهذه الثنائية هي التي تدفع إلى تصوّر اللغة نظامًا من الأنظمة، وهي التي تؤمّن اتساق العمل في نظرية متجانسة متكاملة[3]؛ لأن القدرة على تأسيس نظام ثنائي تعني القدرة على ابتداع الحياة والعالم بشكل منظّم. ومن هنا صارت القدرة على توافقية عنصرين - وهو أبسط أنواع التوافقات الممكنة وأقربها للتناول - تفي بحاجاته، بل تزيد عليها[4]. إن الاستناد إلى الثنائية جعلت ديفيد جستس ينطلق من التثنية والمثنى منطلقًا لكشف النظام الثنائي في العربية التي تجلّت في التثنية القواعدية والتثنية المعجمية والتثنية البلاغية، مما شقّق معه التصنيف ووسّع التقسيم، ليصل (فصل التثنية) عنده إلى قرابة التسعين صفحة[5]. ومن أمثلة ثنائيات أندري رومان: أسماء الأعيان والمواقيت، ونظام التسمية ونظام الخطاب[6].

تعريف اللسانيات الاستشراقية المعاصرة

وأخّرنا بتعمُّدٍ تعريفَ (اللسانيات الاستشراقية المعاصرة)، لكي نتبيّنه والقارئ معًا، ولا نفرضه مقدّمًا عليه، فبعد أن يعرف القارئ سمات هذه اللسانيات، ويتلمّس أهميتها،

---

(1) ظ: دلالة الشكل: 134، 180، 461، 500، 536، 538، 619، 620، 625، والتوليد المعجمي: 73، 89،، 155، والجمل: 91 – 92، 168 – 169، 225.

(2) ظ:الجمل (من مقدمة المترجم: 11، 12)، والتوليد المعجمي: 5 – 7، 168.

(3) الجمل (من مقدمة المترجم: 12).

(4) ظ: م. ن: 19.

(5) ظ: دلالة الشكل: 153 – 242.

(6) ظ: الجمل: 20، 65، التوليد المعجمي: 15- 18.

ويتعرّف على مرجعيتها، نكوّن تعريفها في آخر المطاف مُستنتَجين إياه، من غير أن نفرضه بداية عليه.

وقبل أن أعرّف اللسانيات الاستشراقية المعاصرة أودّ أن أوضّح أمرين:

الأول: إن مصطلح (اللسانيات الاستشراقية المعاصرة) لم يُسبقني إليه باحث، وقد اجترحته بنفسي، في دراستي وتحليلي لعينةٍ من دراسات المستشرقين المعاصرين. وباجتراحي هذا المصطلح إنما أريدُ أن أعزِّزه فرعًا لسانيًا، يصلح أن يكون مُقرّرًا دراسيا للدراسات العليا، ويكون تخصُّصًا دقيقًا لمن يرغب.

الآخر: إن مصطلح (اللسانيات الاستشراقية المعاصرة) يقابله في الغرب مصطلح (اللسانيات العربية)، فإذا ما قال اللسانيُّ الغربي: (اللسانيات العربية) عنى به مجموعة دراسات أنجزها زملاؤه الغربيون عن العربية وعلومها، وما يُفرّقُ بينهما سياق التلقّي، الذي يُطرَح فيه هذا المصطلح أو ذاك.

وأخيرًا، فاللسانيات الاستشراقية المعاصرة:

دراسة اللغة العربية من لدن مستشرقين معاصرين، دراسةً علمية، مطبقةً المناهج اللسانية الحديثة، تنزع نحو التخصص الدقيق وتستعين بمنجزات العلوم الإنسانية، وتحدّث مصادرها وتنقد مقولات الإرث الكلاسيكي، ومتميزة بالاتجاه البراگماتي في تعلُّمها والتخصُّص فيها، مُضمّنة تاريخ اللسانيات العام منجزات التّراث اللغوي العربي.

نتائج البحث

1- بتقويمِ الباحث اللسانياتِ الاستشراقيةِ المعاصرةِ، فإنه يقدّم صورة عن مكانةِ العربيةِ في هذه اللسانياتِ.

2- ميّز الباحث بين جيلين من المستشرقين، درسوا العربية: كلاسيكي ومعاصر، وما التمايز بينهما تاريخي فحسب وإنما موضوعي وعلمي ومنهجيّ.

3- رصد الباحث سمات الاستشراق المعاصر وفصّل القولَ فيها.

4- رصدَ البحثُ ثلاثةَ اتجاهاتٍ في مسيرةِ الاستشراقِ المعاصرِ في كتابتِه عن التراثِ اللغويِّ العربيِّ، تمثّلتْ: باتجاه بنيوي كاشف وآخرَ تاريخيٍّ أبيستمولوجيٍّ وثالثٍ لسانيٍّ محض.

5- كشف الباحثُ أن العربية بصيرورتها لغة تحليل لسانيّ من لدن اللسانيين الغربيين، أظهرت جيلًا لسانيًا، نصفه لسانيٌّ غربيّ في تنظيره ونصفه الآخر استشراقي في بعض تطبيقاته.

6- نبّه البحث إلى تجديد الاستشراق المعاصر لأدواته البحثية ومرجعياته.

7- عرّف الباحث مصطلح (اللسانيات الاستشراقية المعاصرة).



مصادر البحث ومراجعه

- الأساس في فقه اللغة العربية، تحرير: فولفديتريش فيشر، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، القاهرة، ط2/ 1426هـ-2005م.
- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدورد سعيد، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط 1/ 2006.
- الاستشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلية، دراسات مختارة جمعها ونقلها من الألمانية إلى العربية د.أحمد محمود هويدي، تقديم: د.محمود حمدي زقزوق، مراجعة: د.محمود فهمي حجازي، القاهرة، 1420-2000م.
- الاستشراق الفرنسي، أصوله وتطوره وآفاقه، المستشرق الفرنسي روبير منتران، ترجمة د. يوسف حبي، دورية الاستشراق ع (2)، بغداد، 1987.
- الاستشراق المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية، المستشرق بيتر غران، دورية الاستشراق ع (2)، بغداد، 1987.
- الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، محمد أركون وآخرون، ترجمة وإعداد: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط2/ 2000.
- الاستشراق في أفق انسداده، د. سالم حميّش، سلسلة الدراسات (3) منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط ط1/ 1991.
- الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الفكر العربي، ط1/ 1998.
- الاستعراب في أمريكا، د. حسام الخطيب، دورية الاستشراق ع (5)، بغداد، 1991.
- أعلام الفكر اللغوي، ج3 (التقليد اللغوي العربي كيس فرستيج، ط1/ 2007)، ترجمة: د.أحمد شاكر الكلابي.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1/ 1425 هـ-2005م.



- البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، عبد الحسن عباس حسن، رسالة ماجستير في كلية الآداب جامعة الكوفة 1431 هـ/ 2010م.
- بحوث ألمانية في الأدب العربي القديم، لبيتر هاينه ومستشرقين ألمان معاصرين آخرين، ترجمه د. محمد فؤاد نعناع ونشرته دار البشائر بسوريا 1429/ 2008.
- بحوث في الاستشراق واللغة، د.إسماعيل أحمد عمايرة، عمان ط1/ 1417هـ-1996م.
- تاريخ التفكير اللساني: نشأة اللغات الواصفة في الشرق والغرب، تحرير سيلفان أورو، ترجمة عبد الرزاق بنور، دار سناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط 1/ 2010.
- التحليل الصوتي للغة العربية عند المستشرقين: مايكل بريم أنموذجا، د.موسى صالح الزعبي، عالم الكتب الحديث - إربد، الأردن، ط 1/ 2012.
- التراث اللغوي العربي، تأليف: بوهاس وآخرين، ترجمة د. محمد حسن عبد العزيز ود. كمال شاهين، دار السلام، القاهرة ط1/ 1419 هـ/ 2012م.
- التوليد المعجمي في اللغة العربية، أندري رومان، ترجمة محمد أمطوش، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن 2012م.
- حوار مع المستعرب السوفيتي الدكتور فلاديمير شاغال، دورية الاستشراق ع (2)، بغداد، 1987.
- حول الاستشراق الجديد، عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، مركز البحوث والدراسات، الرياض، ط 1/ 1435هـ.
- الخصائص، لابن جني، تح: محمد علي النجار، بيروت، ط/ 2.
- خواطر هيكلية في كتاب سيبويه و(كتب) من جاء بعده من النحاة، هاينس غروتسفلد، تعريب عبد الجبار بن غريبة، حوليات الجامعة التونسية، ع (18) 1980.

- الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية إلى النسبية الثقافية، د. المبروك المنصوري، الدار المتوسطية للنشر، ط1/ 1431هـ-2010م.
- الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي، كيس فرشتيخ، ترجمة بوشعيب برامو، مجلة ثقافات، كلية الآداب في جامعة البحرين، ع (15-16)، 2005.
- دراسات في العربية، لمجموعة من المستشرقين الألمان المعاصرين، تحرير: المستشرق الألماني فولفديتريش فيشر، ترجمة: د.سعيد حسن بحيري، القاهرة، مكتبة كلية الآداب، ط1/ 1426هـ-2005م.
- دراسة اللغة العربية والأدب العربي في الاستشراق السوفيتي، دورية الاستشراق ع (2)،، بغداد، 1987.
- دلالة الشكل في اللغة العربية في ضوء اللغات الأوروبية، ديفيد جستس، ترجمة الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط 1/ 1425هـ-2005م.
- العرب والإسلام في كتابين، د. غسان سلامة، مجلة الفكر العربي، س (2) ع (14) سنة 1980، آذار - نيسان، طرابلس بيروت.
- عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي، د. كيس فرستيج، ترجمة: د. محمود كناكري، تقديم: د. محمد عدنان البخيت، الأردن، إربد، ط2/ 1424هـ-2003م.
- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، د.أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418 هـ-1998م.
- كتاب سيبويه مادته ومنهجه وآثاره في العلوم العربية والإسلامية ومكانته في علم اللغة، د.محمد حسن عبد العزيز، دار السلام، القاهرة، ط1/ 1433هـ-2012.
- اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، كيس فرستيغ، ترجمة محمد الشرقاوي، الشروع القومي للترجمة، ط 1/ 2003.

- اللغة العربية في مرآة الآخر: صورة العربية في اللسانيات الأمريكية، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1/ 2005.
- اللغة العربية وثقافتها خارج الوطن العربي، عبد الروؤف فضل الله وآخرون، أعمال المؤتمر العالمي التاسع للمجمع الثقافي العربي، (25-26 أيلول/ سبتمبر 2003م)، 2005.
- ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونيالية البيضاء، فاضل الربيعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1/ 2007 م.
- ما بعد الاستشراق، وائل غالي، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ط 1/ م 2007.
- الجمل في العربية النظامية، أندره رومان، ترجمة وتقديم حسن حمزة، المركز القومي للترجمة، القاهرة ط1/ 2007 م.
- المستشرقون الألمان، د. رضوان السيد، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط1/ 2007م.
- المعالم الرئيسية في الاستشراق المعاصر، د. عبد الرؤوف سنّو، الملتقى الفكري والثقافي، الذكرى العاشرة لرحيل العلامة الدكتور عمر فروخ، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1997 م.
- مقابلة مع عالم اللسانية أندريه مارتينيه، أجراها د.نادر سراج، مجلة الفكر العربي ع (46) س (8).
- مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة، د. حمزة بن قبلان المزيني، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 53، السنة الحادية والعشرون، ذو القعدة 1417هـ- ربيع الآخر 1418هـ.
- مكانة سيبويه في علم اللغة الحديث في نظر المستشرقين، د. عبد المنعم السيد أحمد جدامي، ضمن بحوث المؤتمر الدولي السادس لكلية دار العلوم جامعة القاهرة المعنون (سيبويه إمام العربية)
- موقف العرب من المستعربين، ميشال جحا، دورية الاستشراق ع (1)، بغداد، 1990.

- النحاة العرب القدامى وعلم اللغة الحديث، ولفكانغ روشيل، دورية الاستشراق، ع(4)، بغداد 1990.
- نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي، غراتشيا غابوتشان، ترجمة د.جعفر دك الباب، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق، 1401 هـ-1980م.
- النظرية اللغوية في التراث العربي، د. محمد عبد العزيز عبد الدايم، دار السلام، القاهرة، ط1/ 1427 هـ-2006م.
- Current Bibliography on The History of Arabic Grammar , http://www.zal.uni - hd.de/english.html
- http://www.jstor.org/action/showPublication?journalCode=language
- http://www.orient - institut.org/index.php?id=missionhistory&L=2 .
- http://www.theguardian.com/books/2016/mar/21/100 - best - nonfiction - books - 8 - orientalism - edward - said?CMP=share_btn_tw
- http://www.zal.uni - hd.de/english.html.
- http://www4.uwm.edu/letsci/linguistics/als /
- https://books.google.iq/books?id=0xlmPnHFE0oC&printsec=frontcover&dq=Studies+in+the+history+of+Arabic+grammar&hl=ar&sa=X&ei=50CVVKH8O62u7AaFmYGIDw&redir_esc=y#v=onepage&q=Studies%20in%20the%20history%20of%20Arabic%20grammar&f=false



الإنحاء ومكانة التَّغيُّر اللُّغويّ
في المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة(1)

د. منتصر أمين عبد الرّحيم

أُستاذ اللِّسانيّات المساعد - جامعة الطَّائف

تقدمة

لما كان «التَّغيُّر» سمة عامّة، لكل لُغة منه نصيب يزيد وينقص، فقد استدعت مقاربته البحث عن جهاز تفسيريّ يُخضِع التَّغيُّرات المختلفة الَّتي تصيب ألفاظ اللُّغة وتراكيبها ودلالاتها ووظائفها لقوانين تحكمها وتبرر أحوالها ومصائرها، ومما لا شك فيه أنَّ صناعة معجم تاريخيّ للُّغة العربيّة - يتعقب تغيُّرات ألفاظها وتراكيبها ومعانيها في مراحلها الزَّمانيّة وبقاعها المكانيّة المختلفة - تتطلّب باتفاق المعجميّين المختصين توجيه العناية إلى الدِّراسات اللّسانيّة التَّاريخيّة لاسيما الَّتي تهتم بدراسة التَّغيُّر اللُّغويّ وتحاول الوصول إلى الأسباب (اللُّغويّة وغير اللُّغويّة) الَّتي تقف وراء تلك التَّغيُّرات؛ ذلك أنَّ أغلب الخطط الموضوعة من أجل بناء المعجم المنشود لم تقدم حديثًا مفصلًا حول ظاهرة التَّغيُّر اللُّغويّ، يقول الدُّكتور «عَلي القاسميّ»: «إنَّ كتاباتنا الرَّاهنة عن صناعة المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة لا تتناول قضية التَّغيُّر اللُّغويّ بصورة وافية، وتغفل ضرورة أنْ يزودنا المعجم التَّاريخيّ بالأسباب الَّتي أدت إلى وقوع التَّغيُّر في مبنى اللّفظ أو معناه أو استعماله، والقوانين العلميّة الَّتي تحكم ذلك

---

(1) نشرت الصيغة الأولى لهذا البحث ضمن كتاب «المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح»، ص ص. 197-238، وقد تولى نشر طبعته الأولى مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية بالرياض 2016م.



التَّغيُّر»[1]، ولعل التّأكيد على تضمُّن المعجم التّاريخيّ المنشود معلومات حول أسباب التّغيّر اللُّغويّ والقوانين الّتي يلبيها أو تضبطه هو تأكيد على الوظيفة التّفسيريّة أو قل الجانب التّبريريّ من هذا المعجم حيث «تتمثّل وظيفته الأساس بإبراز مراحل التّطوُّر الشّكليّ والدّلاليّ وتبريرها»[2]؛ ومن ثمَّ كانت حاجة المعجم إلى دراسات لِسانيّة تاريخيّة تستطيع أنْ تقدّم له ظواهر التّغيُّر اللُّغويّ المختلفة مدعومة بالجهاز المفاهيميّ والاصطلاحيّ الّذي يمكّنه من تبرير مثل تلك الظّواهر.

الإِنحاء: المفهوم والمصطلح

لقد أشارت الخطة الّتي وضعها الدُّكتور «القاسميّ» للمعجم التّاريخيّ للُّغة العربيّة إِلى مبحث مهم من مباحث اللّسانيّات التّاريخيّة يتصل بصورة أساسيّة بدراسة التّغيُّر الّذي يطرأ على نوع المفردات اللُّغويّة أطلق عليه «**إِضفاء النّحويّة**»، «فالمفردات في اللُّغة تُقسّم إِلى مفردات معجميّة تحمل معنى كاملًا مستقلًا مثل: (كرسي)، (رجل)، (سماء)، ومفردات نحويّة، لا تحمل مضمونًا خارجيًا بل مضمونًا قواعديًا مثل: (أل)، (قد)، (قط)، ويدرس «**إِضفاء النّحويّة**» تحوّل الصَّرفيّات المعجميّة إِلى صرفيّات نحويّة خلال حقبة معينة من الزّمن»[3]. وأظن هنا أنّ الدُّكتور «القاسميّ» قدّم «**إِضفاء النّحويّة**» - ربما بِناء على ما ورد

---

[1] انظر دراسة د. علي القاسميّ 2016: معالجة قوانين التّغير اللُّغويّ في المعجم التّاريخيّ، ص. 182. ضمن كتاب المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص. 159- 196.

[2] د. عبد الرّزاق بنور 2014: التّلازم الدّلاليّ والترسيس، ضمن كتاب «نحو معجم تاريخيّ للّغة العربيّة»، الدّوحة: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، الطّبعة الأولى، ص114. وقد ضرب الباحث عدة نماذج من المعاجم التّاريخيّة السّابقة تؤكد على الوظيفة التّبريريّة للمعجم، فذكرت أنّ المعجم التّاريخيّ الفرنسيّ «لم يكتف بعرض فعل voler باعتباره من المشترك اللّفظيّ كما عرضه معجم الأكاديميّة الفرنسيّة بمدخلين، أحدهما بمعنى «سرق» والثّاني بمعنى «طار»، أو متعدد الدّلالات كما تقدّمه المعاجم اللّغويّة الأخرى... **بلْ فسّر بالتّفصيل كيف انتقل فعل voler من ميدان الصّيد والقنص بالبازي إِلى ميدان السّطو والسّلب**، ولم يكتف المعجم التّاريخيّ الإِنجليزيّ OED بعرض معاني Bit بحسب ظهورها واستعمالاتها، **بل بيّن كيف تولّد معنى الجزء a bit من معنى القضم to bite**. انظر: المرجع نفسه، ص119.

[3] د. علي القاسميّ 2014: صناعة المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، بيروت: مكتبة لُبنان ناشرون، الطّبعة الأولى، ص75.

في المعجم الموحَّد لمصطلحات اللِّسانيّات - مقابلًا عربيًا لمصطلح «الإنحاء Grammaticalization»[1]، فحديثه دالّ بوضوح على أنّه مجال بحثيّ يدرس التَّغيُّر الَّذي يطرأ على نوع المفردات بصفة عامّة أو تحوّل الصَّرفيّات المعجميّة إلى صرفيّات نحويّة بصفة خاصّة، وأنّه من الأهمية بمكان أنْ يرصد المعجم المنشود هذه التَّحوُّلات بعد أنْ تخضع مقاربتها لبحث لِسانيّ يعي التّضمينات النَّظريّة الَّتي يقوم عليها الإنحاء وأهم المبادئ الَّتي يتأسس عليها وتتحكم في مساراته؛ لذا وجدتُ من الواجب أنْ يعرّف بحثي هذا بذاكم المجال الجديد نسبيًا في سياق اللِّسانيّات العربيّة؛ أُسسه ومبادئه وفرضيَّاته، وأنْ يشير إلى بعض الأمثلة العربيّة الَّتي ينطبق عليها، وأنْ يبيّن علاقته بالمعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة في محاولة تمهيديّة متواضعة يمكن استثمارها فيما بعد بصيغة أفضل اتساقًا وأشد تناسقًا.

بداية أود الإشارة إلى أنَّ «الإنحاء» يشير إلى تحوّل المفردة من المعجميّة إلى النَّحويّة (وهو ما تعبر عنه بعض الدِّراسات بالمصطلح Grammation)[2]، ويشير أيضًا إلى تحوّل المفردة من درجة نحويّة معينة إلى درجة أعلى (ويشار إلى هذا بالمصطلح Regrammation)[3]؛ ومن ثمَّ تمَّ تفريع الإنحاء إلى صنفين هما: «الإنحاء الرَّئيسيّ Primary Grammaticalization» وهو التَّغيُّر من عنصر معجميّ إلى عنصر نحويّ، و«الإنحاء الثّانويّ Secondary Grammaticalization» وهو التَّغيُّر من عنصر نحويّ

---

(1) انظر مكتب تنسيق التّعريب 2002: المعجم الموحَّد لمصطلحات اللِّسانيّات، ص 64 المصطلح رقم 698، حيث ذكر تعريفه التّالي: «تغيّر صنف المقولة، في اللِّسانيّات الزّمنيّة، حين تتحوّل صرفيّة معجميّة إلى صرفيّة نحويّة خلال تطوّر لُغة معينة». والحقيقة أنَّ لهذا المصطلح عدة بدائل لم يذكرها المعجم منها (Grammacization) و(Grammatization) وهي ترتبط باعتبارات نظريّة مختلفة، ولكنّ مصطلح Grammaticalization أوسع انتشارًا واستعمالًا في هذا السّياق بعيدًا عن هذه الاعتبارات.

(2) ويقصد به ذلك التّغير الَّذي يحمل بمقتضاه التّعبير مضمونًا نحويًا، وذلك قياسًا على مصطلح ياكبسون Jakobson, 1931: Phonologization حيث يتحول الصّوت وفق هذا التّصور إلى جزء فونيميّ في الجدول الفونولوجيّ. انظر:
Henning Andersen 2008: Grammaticalization in a Speaker-Oriented Theory of Change. p.19 in Þórhallur Eyþórsson 2008: Grammatical Change and Linguistic Theory. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins.

(3) ويقصد به ذلك التّغير الَّذي يكتسب به التّعبير النّحويّ مضمونًا نحويًا مختلفًا. وذلك قياسًا على مصطلح ياكبسون Rephonolgization حيث يغير نمط صوتيّ معيَّن علاقته بالفونيمات؛ وبذلك يتحول من جدول فونولوجي إلى آخر مختلف. انظر: Henning Andersen 2008: Op. cit. p.21, 19

إلى عنصر أكثر نحويّة، وهذا هو التّقسيم الّذي أفادته تروجت Elizabeth C. Traugott (سنة 2002) [1] من التّعريف الشّهير الّذي قدّمه كوريولفتز Jerzy Kurylowicz (سنة 1965) للإنحاء ومؤداه أنّه «تغيُّر مرحليّ تدريجيّ تكتسي به الوحدات المعجميّة والتّراكيب اللّغويّة وظائف نحويّة، وبه أيضًا تصير الصّيغ الأقل نحويّة أكثر نحويّة»[2]، وقد تبنى هذا التّقسيم عدة باحثين منهم موريل نورد Muriel Norde (سنة 2012) [3].

إنّ «الإنحاء Grammaticalization» بصفته إطارًا بحثيًّا يشير إلى جانب من جوانب دراسة تغيّر اللّغة غايته تفسير كيفية أداء العناصر المعجميّة أو البنى التّركيبيّة لوظائف نحويّة في سياقات لُغويّة معينة، وتعليل الكيفيّة الّتي تتطوّر بها العناصر النّحويّة تطوّرًا يمنحها الوسيلة لأداء وظائف نحويّة جديدة، أمّا بصفته مصطلحًا على ظاهرة لُغويّة فيشير إلى المراحل الّتي تمرُّ بها العناصر اللّغويّة حتى تصير أكثر نحويّة[4]، وإذا كان الإنحاء مرتبطًا بنحويّة العناصر فإنّ دراسته تنطوي - كما سنرى في ثنايا البحث - على مقاربة عدة أصناف من التّغيُّرات الصُّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة، وهو مصطلح فرنسيّ الأصل (Grammaticalisation) [5] يعود إلى دراسة أنطوان مايية Antoine Meillet سنة 1912 الّتي عنونها بـ«تطوّر الأشكال النّحويّة L'évolution des formes grammaticales»، والثّابت أنّ «مايية» لم يقدّم تعريفًا لهذا المصطلح إنّما اكتفى فقط

(1) see Elizabeth C. Traugott 2002: From Etymology to Historical Pragmatics. p.26f. in D. Minkofa & R. Stockwell (Eds): Studies in the History of the English Language. Berlin: Mouton de Gruyter.

(2) Jerzy Kurylowicz 1975: Esquisses Linguistiques. II. (1965: The Evolution of Grammatical Categories) p.52. Munich: Wilhelm Fink.

(3) Muriel Norde 2012: Lehmann's Parameters Revisited. p.73. in Kristin Davidse, Tine Breban & Lieselotte Brems (Eds.): Grammaticalization and Language Change: New Reflections. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins.

(4) see Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: Grammaticalization. 2nd ed. p.1-2. Cambridge: Cambridge University Press.

(5) see Antoine Meillet (Ed.) 1948: Linguistique historique et linguistique générale. Tome I, (1912: L'évolution des formes grammaticales) p.133. Paris: Champion.

بوضعه بين مزدوجين، لكنَّ دلالته على منح كلمة مستقلة سِمة نحويّة[1] كانت واضحة في هذه الدِّراسة.

نبذة تاريخيّة

وفي سبيل التّأريخ لأس هذا المصطلح هناك مَن يرى أنَّ المفهوم أو الفكرة الأساسيّة الَّتي يقوم عليها المصطلح تعود إلى فترة أقدم من تاريخ ظهوره لدى «ماييه»، وهناك مَن يرى أنّه ظهر في الصّين في القرن العاشر الميلاديّ، ومنهم مَن ينسبه إلى اليونانيّين، كذلك نهضت عدة دراسات تستتبع هذا المفهوم في الدّرس اللّسانيّ الغربيّ السّابق على ظهور المصطلح في فرنسا. فيرى «أوستن دال Östen Dahl» أنّه «على الرّغم من تصاعد الاهتمام بهذا المفهوم لدى اللّغويين في نهايات القرن العشرين، فقد جرت دراسته في القرن التّاسع عشر على نطاق متسع بوصفه ظاهرة تحت مسمى نظرية الإلصاق Agglutination Theory»[2]، وهي النّظرية الّتي قدّمها «فرانز بوب Franz Bopp» وقام بتعديلها ومراجعتها «وليام دويت وايتني W. D. Whitney»[3]. أمّا عن التّراث النّحويّ العربيّ فيرى كرستيان ليمان Christian Lehmaan أنّه على الرُّغم من تعامل النّحو العربيّ مع التصّريف وبناء الكلمات فإنَّ بحثه - كما أكد جوناثان أونز Jonathan Owens - كان درسًا آنيًا؛ وبالتّالي لم يحرز تطوّرًا فيما يتعلق بالإنحاء[4]، ومن اللّافت أنَّ «ليمان» يستشهد - في الوقت نفسه - بنص اقتبسه جدعون جولدنبرج Gideon Goldenberg عن «الزّجاجيّ» (في كتابه الإيضاح) رأى فيه «ليمان» دليلًا على نظريّة غير مكتملة في النّحو العربيّ حول «الإنحاء»، يقول «الزّجاجيّ»: «إنَّ الفعل لما كان لا يخلو من الفاعل ولا يستغني عنه ضرورة،

---

(1) see Christian Lehmaan 2015: Thoughts on Grammaticalization. 3rd Ed. Berlin: Language Science Press. p.5.

(2) Östen Dahl 2004: The Growth and Maintenance of Linguistic Complexity. p.119. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins.

(3) see Stephen G. Alter 2001: The Linguistic Legacy of William Dwight Whitney. p.1926. in Sylvain Auroux et al. (Eds.): History of the Language Sciences. Vol.2. pp.1923-31. Berlin, New York: Walter de Gruyter.

(4) Christian Lehmaan 2011: Grammaticalization of Semitic Case Relators. Aula Orientalis (29): 9-26. http://christianlehmann.eu/publ/gr-n_semitic_case.pdf. p.1.

ثمَّ اتصل به مُضمر صار كبعض حروفه، وصارت الجملة كلمة واحدة»[1]. ويرى «ليمان» أنَّ اللّسانيّات السّاميّة الغربيّة لم تتأخر كثيرًا في إدراك مفهوم الإنحاء، ودللّ على هذا بكتاب «كارل بروكلمان» «الأساس في النّحو المقارن للّغات السّاميّة Grundriß der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen» الصّادر سنة 1908م حيث كان مفهوم الإنحاء حاضرًا في مقاربة «بروكلمان»، بل يذهب «ليمان» أبعد من هذا، فيرى أنَّ معالجة «بروكلمان» لحروف الجر افترضت ما يطلق عليه الآن مسارًا إنحائيًا يتكون من أربع مراحل، وأنّه استعمل في وصف هذه المراحل مفاهيم وصفيّة أساسيّة هي: فقد المحتوى الدّلاليّ (من المرحلة الأولى إلى الثّانية)، و«التّحجر fossilization» (من المرحلة الثّانية إلى الثّالثة)، والتّقلص إلى وظيفة نحويّة خالصة (في المرحلة من الثّالثة إلى الرّابعة)، أمّا الأسماء الّتي تمثّل المرحلة الأولى فهي عادة ما تكون دالة على أعضاء جسم الإنسان[2].

ولقد شغلت دراسة الإنحاء في اللّغات السّاميّة لاسيما الأكاديّة والعبريّة عددًا غير قليل من الباحثين المعاصرين أمثال «جيفون» Talmy Givon 1991، و«روبا» Jo. Rubba 1994، و«سيمون - سنل» Marie - Claude Simeone - Senelle 1997، و«فانهوف» Martine Vanhove 1997، و«كوفنبرج» N. J. C. Kouwenberg 1997، و«فوجت» Rainer Voigt 1999، وتوزعت اهتمامات هذه الدّراسات على

---

(1) الزّجاجيّ (أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق ت 337ه): الإيضاح في علل النّحو، تحقيق مازن المبارك، بيروت: دار النّفائس، الطّبعة الثّالثة، ص75. وقد جاء هذا القول في معرض حديث الزّجاجيّ عن حكم إعراب الأفعال (الأمثال) الخمسة بالحروف، يقول: «فإنْ قال قائل: فلمَ جاز أنْ يجيء إعراب الفعل المستقبل بعد الفاعل في قولك: الزّيدان يقومان، والزّيدون يقومون، وما أشبه ذلك؟ فقد جاءت علامة رفع الفعل بعد الفاعل وهي ثبات النّون، وكذلك النّصب والجزم، لأنّهما بحذف النّون، وهي بعد الفاعل، أفيجوز أنْ يكون إعراب شيء موجودًا في غيره وكون ذلك الشّيء معربًا؟ قيل له: إنَّ الفعل لما كان لا يخلو من الفاعل ولا يستغني عنه ضرورة، ثمّ اتصل به مُضمر صار كبعض حروفه، وصارت الجملة كلمة واحدة؛ فجاز لذلك وقوع الإعراب بعد ضمير الفاعل لما صارت الكلمة كلمة واحدة، والدّليل على ذلك إسكان لام الفعل في قولك: فعلْت، أسكنت اللّام لئلا تتوالى في كلمة واحدة أربع متحركات».

(2) adapted from Christian Lehmaan 2011: op. cit., p.2.

موضوعات منها: الأفعال النّاقصة، وحروف الجر، والمصدر، والأسماء الموصولة، وتضعيف بعض الأفعال[1].

فهذه الدّراسات الّتي تهتم ببحث الإنحاء في اللّغات السّاميّة تؤكد من ناحية فاعليّة الإنحاء في فهم الأنظمة النّحويّة لمثل هذه اللّغات، وهذا له كبير الأثر في إدراك كيفية تطوّر النّظام النّحويّ في العربيّة؛ ذلك أنّ مقاربة عملية الإنحاء في عدد من المجالات النّحويّة المختلفة وكذا في عدد من اللّغات المتنوعة تفترض أنّ «العموميّات الحقيقيّة للّغة هي عموميّات التّغيّر، وأنّ هذه العموميّات يمكن النّظر إليها على أنّها تمثّل مسارات من التّغيّر، وأنّنا في سبيل فهم النّحو والقواعد بصورة تامة لابد أنْ ننظر من خلال هذه المسارات إلى الآليّات الفعليّة المسببة للتّغيّر عندها نحاول فهم هذه الآليّات عبر سيرورات تفاعليّة ومعرفيّة أساسيّة، فإذا نجحنا في هذا بدأنا فهم كيف تبني اللّغة قواعدها»[2]. كذلك أعتقد أنّ هذه الدّراسات من ناحية أخرى يمكن أنْ تضع أيدي صناع المعجم التّاريخيّ على معلومات مهمة حول المداخل (النّحويّة أو المعجميّة الّتي تطوّرت عنها وفق عمليات الإنحاء المختلفة) وحول توزيعها (كمداخل رئيسة أو فرعيّة) وحول تعريفها أيضًا، فدراسات اللّغات العروبيّة (السّاميّة الحاميّة) من المصادر المهمة بالنّسبة إلى المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة[3].

وما أود الإشارة إليه هنا أنّ مفهوم الإنحاء كان حاضرًا لدى النّحاة العرب؛ وعليه فإنّ حديث «ليمان» السّابق عن أنّ النّحو العربيّ لم يستطع الإمساك بمفهوم الإنحاء يحتاج في سبيل تأكيده أو تفنيده إلى مزيد من البحث والتّقصي، فإذا كان «بروكلمان» في مقاربته المقارنة لأنحاء اللّغات السّاميّة قد فطن إلى مفهوم الإنحاء وغاب عنه مصطلحه كما صرّح بذلك «ليمان»، فإنّ «أبا حيّان الأندلسيّ» في محاولته الرّائدة تطبيق القواعد النّحويّة العربيّة

(1) see Aaron David Rubin 2004: Studies in Semitic Grammaticalization. p.10. PhD Thesis. Harvard University.

(2) adapted from Joan Bybee 2003: Cognitive Processes in Grammaticalization. P.151. <u>In M. Tomasello (Ed.): The New Psychology of Language. Vol.2. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Inc. 145-167.</u>

(3) انظر د. علي القاسميّ 2014: مرجع سابق، ص293.

على اللُّغة التُّركيّة[1] (الَّتي لم تخل من مواضع عديدة قارن فيها بين اللُّغتين) لم يغب عنه أيضًا مفهوم الإنحاء وإنْ لم يسمِّه شأنه في هذا شأن «بروكلمان»، يقول «أبو حيَّان»: «وتقول في معنى: أقام سنجر أم سنقر؟: (سنجر مو طردو يا سنقر)، ويقال: (سنجرمى طردى يق سا سنقر)، وصار هذا الكلام يعطي معنى: أقام سنجر أم سنقر؟، و(يُق) أصله اسم بمعنى معدوم، والدَّليل على ذلك الإضافة إليه، يقولون في معنى فقير: (يُقلو)؛ أي: ذو معدوم، والإضافة من خواص الأسماء، ثُمَّ استعملت (يُق) استعمال (لا) النّافيّة، و(سا) معناه (إنْ) وهو حرف للشّرط فكأنّه قال: أقام سنجر لا إنْ سنقر، ويعطي معنى: أم سنقر»[2]، ويزيد «أبو حيَّان» فيقول: «و(يُق) بمعنى (لا) وقد تقدّم أنَّ (يُق) اسم والاستدلال على ذلك، وإنْ كان قد أُستعمل بمعنى (لا) لأنّه بمعنى معدوم، فقد توافق معنى (لا) ومعنى معدوم»[3].

إنَّ إشارة «أبي حيَّان الأندلسيّ» إلى تحوّل (يُق) في اللُّغة التّركيّة المنطوقة من الاسميّة إلى الحرفيّة، وفقدها المعنى الَّذي كان لها بالاسميّة (معدوم)، وتطوّرها لِتصير أداة نفي عامّة (=لا)، وتفسيره لهذا التّحوّل بالتماس جامع دلاليّ بين (يُق) و(لا) النّافيّة، كل هذا دليلٌ واضحٌ على وجود مفهوم «الإنحاء» في التّراث النّحو العربيّ (المقارن) عند «أبي حيَّان الأندلسيّ» وإنْ غابت عنه تسمية هذه الظّاهرة، كذا لا أعتقد أنَّ أحدًا ممن يهتمون بمقاربة الإنحاء ينكر أنْ يكون حديث «ابن جني» التّالي إشارة إليه وشاهدًا عليه، قال: «ومن ذلك أنّه لما اطّردت إضافة أسماء الزّمان إلى الفعل نحو: قمتُ يومَ قمتَ، وأجلسُ حينَ تجلسَ، شبهوا ظرف المكان بها في (حيث)، فتدّرجوا من (حين) إلى (حيث) فقالوا: قمتُ حيثُ قمتَ»[4]، ويمكنني أنْ أضيف في هذا السّياق ما توصلت إليه دراسة الأُستاذة «ثريا عامِر» من أنَّ «المتفحص لما قيل في الأفعال النّاقصة في كتب التّراث [يخرج] بنقاط التقاء عديدة لما تمّ

(1) see C. H. M. Versteegh 2006: Arabic Linguistics Tradition. p.438. in K. Brown (Ed.): Encyclopedia of Language and Linguistics. Vol.1: 434-40. Amsterdam: Elsevier.

(2) أبو حيّان الأندلسيّ712 ه: الإدراك للّسان الأتراك، مطبعة عامره، 1309، ص204.

(3) أبو حيّان الأندلسيّ712 ه: المرجع السّابق، ص212.

(4) ابن جنيّ (أبو الفتح عثمان بن جنيّ، ت: 392ه): الخصائص، تحقيق: عبد الكريم بن محمد، القاهرة: المكتبة التّوفيقيّة، د.ت، المجلد الثاني، ص12.

ضبطه من مبادئ الإنحاء»[1]، وبصرف النّظر عن تاريخ مفهوم الإنحاء فقد رأى فيه بعض اللّسانيّين المعاصرين إمكانية لطرح إطار تفسيريّ لدراسة عموميّات اللُّغة وبعدها الطّوبولوجي، ورأى فيه آخرون مقاربة بديلة لبنية اللُّغة الّتي تمّ وصفها وتحليلها في الأنحاء الشّكليّة الآنيّة[2].

الإنحاء والمعجم التّاريخيّ للُّغة

أمّا عن علاقة الإنحاء بالدّرس المعجميّ بعامّة والمعجم التّاريخيّ للُّغة بخاصّة فتتمثّل من وجهة نظري في إمكانية أنْ تقدم البحوث المتعلقة بالإنحاء وظواهره المختلفة في اللُّغة العربيّة صورة مفصّلة عن تطوّر ألفاظ اللُّغة على البعدين الآنيّ والتّاريخيّ؛ فآنيًا يقارب الإنحاء الاستعمالات المتعددة لصيغة أو تركيب مفرد في فترة زمنيّة معينة ويبيّن درجة إنحائها، وتاريخيًّا يلقي الضّوء على الدّورة التّطوريّة لصيغة معينة وتحوّلاتها المختلفة داخل اللُّغة[3]. أضف إلى هذا أنّ الإنحاء يتضمّن مجموعة من الآليّات كل واحدة منها تعدُّ تطوُّرًا وتغيُّرًا في حد ذاتها؛ بمعنى أنّ الإنحاء عملية تطوُّر مركبة تتضمن عدة تغيُّرات منها التّغيُّر الصّوتيّ والتّغيُّر الدّلاليّ والتّغيُّر النّحويّ والتّركيبيّ، فإذا نظرنا إلى التّأريخ المعجميّ بمعناه العميق والشّامل الّذي ألمح إليه الدُّكتور «الودغيريّ» - ممثلًا من ناحية - في ملاحقة مسار الوحدات المعجميّة «في كل بيئاتها الّتي تَقَلَّبَت فيها والمجالات والحقول الدّلاليّة الّتي انتقلَت منها وإليها، وتسجيلُ كل الملاحظات الخاصّة بالتغيُّرات الّتي طَرَأَت على صِيَغها اللّفظيّة صوتًا وصرفًا، سواء في حالة انفرادِها وانعِزالها أمْ في حالة انتِظامها مع غيرها وتَرْكيبها في جُمَلٍ وسلاسل

---

(1) ثُريا السّكريّ عامِر: ظاهرة الإنحاء في اللُّغة العربيّة: الفعل النّاقص نموذجًا، تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، تصدير الأزهر الزّناد 2009، ص95، وانظر لمزيد من التّفصيل الباب الأول من هذه الدّراسة ص ص 93: 110.

(2) after Paul J. Hopper 1996: Some Recent Trends in Grammaticalisation. p.217. Annual Review of Anthropology, vol.25:217-36.

(3) after Mohssen Esseesy 2007: Grammaticalization. p.191 in Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.II. (191-8) Leiden, Boston: Brill.

كلاميّة، وممثلًا - من ناحية أخرى - في تتبع رحلة الكلمات من لُغة إلى أخرى[1]، فإنَّ الدّرس الإنحائيّ يضع أمام عملية التّأريخ هذه مجموعة من الحقائق المتعلقة بصور الألفاظ ودلالاتها وما طرأ عليها من تغيّر في مبناها ومعناها ووظائفها وتحوّلاتها سواء داخل اللُّغة أو في لُغة أخرى حيث أصبح مفهوم الإنحاء ركنًا مهمًّا في دراسة الاحتكاك بين اللُّغات الَّتي تربط بينها علاقات معينة وأثرًا شاهدًا على تاريخ تلك العلاقات[2].

فتطوُّر علامة المستقبل (السّين) عن (سوف) أو (السوف)، واستعمال (مَن) صلة وشرطًا، و(ذو) متبوعة بالاسم والفعل، و(ما) التّميميّة والحجازيّة، وانتقال كلمة (وسط) من الاسميّة إلى الظّرفيّة، واستعمال (جي) تركيّة الأصل للنّسبة إلى صنعة أو للدّلالة على لزوم صفة معينة، واستعمال (مرة) للدّلالة على النّفي والتّكثير بمعنى (أبدًا) و(جدًّا) و(كثيرًا)، و(بعد) بمعنى (أيضًا وكذلك)، و(يمّ) بمعنى (جانب)، واستعمال (أخذ) بمعنى (بدأ)، كل هذه الأمثلة وغيرها تؤكد على أنَّ الإنحاء من المفاهيم المهمة الَّتي يجب أنْ نلتفت إليها وننوّه بها ونحن نتحدث عن معجم تاريخيّ للُّغة العربيّة؛ وذلك لاتصاله الرَّاسخ بظاهرة التَّغيُّر اللُّغويّ. أضف إلى هذا أنَّ الإنحاء لا يعبر فقط عن تطوّر واحد في مرحلة زمنيّة واحدة إنَّما هو عدة تطوُّرات وتغيُّرات تصيب العناصر اللُّغويّة على فترات زمنيّة مختلفة متعاقبة،

---

[1] انظر دراسة د. عبد العلي الودغيري 2016: التّاريخ المعجميّ والتّطوّر اللّغويّ، ضمن كتاب المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص.. وأذكر هنا أنَّ ديروي L. Deroy يعدّ من أوائل الّذين اهتموا بفكرة «رحلة الكلمات» سنة 1956 في كتابه حول الاقتراض اللُّغويّ L'emprunt Linguistique، ولعل تتبع هذه الرّحلة لا يتوقف عند رصد انتقال الكلمات من لُغة إلى أخرى، بلْ تتبع عودتها إلى لُغتها الأصليّة مرة أخرى في ثوب صياغيّ جديد، وهذا النّوع من الكلمات يُطلق عليه ديروي «الكلمات الرّحالة Mots Voyagers»، انظر د. عبد المنعم السّيد جُدامي 2016: المشكلات الثّقافيّة في معجم إلياس بُقطر، ضمن كتاب (المعجميّة العربيّة: قضايا وآفاق – الجزء الثّالث) إعداد وتنسيق د. منتصر أمين عبد الرّحيم، ود. حافظ إسماعيلي علوي، إربد: دار كنوز المعرفة، الطّبعة الأولى، ص282، و307. ومما يستحق الذّكر هنا أنَّ تتبع رحلة الكلمات ذهابًا وإيابًا مثل مظهرًا لافتًا من مظاهر المعجم التّاريخيّ للُّغة الفرنسيّة الّذي أشرف عليه آلان راي A. Rey.

[2] لمزيد من أبعاد تلك العلاقة بين الإنحاء والاحتكاك اللُّغويّ انظر:
Bernd Heine & Tania Kuteva 2005: Language Contact and Grammatical Change. p.1-21. Cambridge University Press.

حيث يراد من المعجم التّاريخيّ للُغة أنْ يوثق جميع مظاهر هذه التّغيُّرات اللّغويّة ومن بينها الصّيغ المنحَاة، فيُوضع أمام كل صيغة من هذه الصّيغ ما يشير إلى أنَّ معنى معينًا من معانيها ووظائفها المختلفة إنّما هو نتيجة لنوع معين من الإنحاء، فتُوضَع الصّيغ تحت مداخلها الرّئيسة ويتمّ الاتفاق على رمز محدد يشير إلى الإنحاء أو سبب تغيّرها. ولا ترى دراسة معمقة حول الإنحاء إلا وتجد أنّها تحيل على معجم لُغتها موضع البحث لاسيما التّاريخيّ كما هو الحال بالنّسبة إلى معجم أكسفورد التّاريخيّ للُغة الإنجليزيّة[1]، ويمكننا هنا الإفادة من المعاجم اللُّغويّة التّراثيّة وما تلاها من معاجم حتى عصرنا هذا في إثراء بحوث الإنحاء من خلال ما تمّ رصده في هذه المعاجم من تغيّر في صور المفردات المعجميّة ووظائفها النّحويّة وانتمائها المقوليّ، فلسان العرب لـ«ابن منظور» على سبيل المثال واحد من المعاجم المهمة في هذا السّياق لاسيما أنَّ حديثه عن المداخل المعجميّة - كما يرى الدُّكتور «أحمد العَلويّ» - يضم أخبارًا عن معانيها واختلافًا في ذلك لا يفسر إلا بكونه بيانًا لتطوّر معنى المدخل زمانيًّا أو مكانيًّا. بغير هذا التّفسير لا ندرك معنى لاختلاف الكلمة الواحدة إلى أكثر من ثلاث دلالات, وأحيانًا لا نجد بين الدّلالات المختلفة رابطًا مجازيًّا بيّنًا، بل نجد اللّفظ يدل على معان بينها روابط أخرى لا يفسرها إلا التّطوُّر والإضافات الدّلاليّة المتراكمة لأسباب متجددة عند المستعملين[2]، وبدورها على بحوث الإنحاء ودراساته أنْ تقدّم قائمة بمجموعة الصّيغ العربيّة المنحَاة مع وصف لمراحل تغيّرها ومسارات إنحائها كي يفيد منها واضعو المعجم التّاريخيّ للُغة.

(1) see Joan Bybee, Revere Perkins & William Pagliuca1994: The Evolution of Grammar: Tense, Aspect, and Modality in the Languages of the World. p.217-8. Chicago and London: University of Chicago Press.

(2) انظر دراسة د. أحمد العلويّ 2016: المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة وشروط قيامه، ضمن كتاب المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص..

مسار الإنحاء وأحادية الاتجاه

فلكل لفظ من الألفاظ المنحَاة رحلة تطوّر خاصّة يُشار إليها بمسار الإنحاء Grammaticalization Path، كما رأينا سابقًا في وصف «بروكلمان» لتطوّر حروف الجر في اللّغات السّاميّة، والغالب على هذا المسار أو ذاك هو انتقال اللّفظ من المعجميّة إلى النَّحويّة أو من النَّحويّة إلى درجة أعلى منها، وهذا معناه أنّ هناك اتجاهًا أُحاديّ الوجهة (معجميّ > نحويّ[1])، وهو ما يصطلح عليه في الدّرس الإنحائيّ ب - «أحاديّة الاتجاه Unidirectionality» (واختصارها UD)، وهي فرضيّة تؤكد أغلب دراسات الإنحاء - رغم خلافات كثيرة لا داعي إلى سردها هنا[2] - على أنّها ركيزة أساسيّة في نظريّة الإنحاء[3]، وتقوم هذه الفرضيّة - كما يوضح روجر لاس Roger Lass - على ثلاث نقاط أساسيّة؛ الأولى: أنّ عمليات التّغيُّر الصّرف - تركيبيّ تنطوي على مسارات أو مُتصَلات تغيّر ذات نقاط تدرجيّة محددة، وأنّ المسار الرّئيس هو التّحوّل من (المعجميّة >

---

(1) يشير السّهم (<) في هذا البحث إلى أي صورة من صور التّطوّر التّاريخيّ لصيغة ما، ويُقرأ: تطوّرت أو تغيّرت إلى.

(2) لعرض مهم حول هذه الفرضيّة،انظر:

Roger Lass 2000: Remarks on (Uni)dierctionality. pp.207-27. In Olga Fischer, Anette Rosenbach & Dieter Stein (Eds.): Pathways of Change: Grammaticalization in English. John Benjamins Publishing Company.

(3) لم تتفق الآراء حول ما إذا كان الإنحاء يشكّل نظرية أم لا، ومن الرّؤى المبالغ فيها في هذا السّياق رؤية «فريدريك نيوماير»، انظر:

Frederick J. Newmeyer 1998: Language Form and Language Function. p.234-235. MIT Press.

وإذا كان «نيوماير» يمثّل موقف التّيار التّوليديّ من دراسة الإنحاء فسأكتفي هنا براي «بيبي Joan Lea Bybee» – من بين آراء أخرى لا يتسع المقام لذكرها-فيما يخص هذا الموقف، فهي ترى أنّ التّوليديّين ينظرون بخصوص هذه الظّاهرة إلى جوانب قليلة (تغيرات المقولة) تاركين بعض الجوانب الأخرى الّتي تشكّلها وتؤثر فيها كـ(التّغيرات الصّوتيّة والدّلاليّة والتّداوليّة)، وترى أيضًا أنّ الغاية من وراء وضع ما يسمى «المبادئ التّفسيريّة Explanatory Principles» هي الدّفع بالإنحاء في اتجاه معين، هذا بالإضافة إلى أنّ عددًا غير قليل من الفرضيّات الأساسيّة الّتي يتبناها التّوليديّون لا تتماشى وحقائق كثيرة حول الإنحاء. وللمزيد انظر:

Joan Bybee 2009: Grammaticization: Implications for a Theory of Language. p.346 In J. Guo, E. Lieven, S. Ervin-Tripp, N. Budwig, S. Ozcaliskan, and K. Nakamura (eds.), Crosslinguistic Approaches to the Psychology of Language: Research in the Tradition of Dan Isaac Slobin. New York: Taylor and Francis Group, LLC. 345-355.

النَّحويّة) حيث تبدأ بكلمات معجميّة تنتهي بها رحلة التّطوُّر إلى مورفيمات صرفيّة، هذا بالإضافة إلى مسارات أخرى تتضمّن - على سبيل المثال - التّحوّل من (حر > مقيد)، النّقطة الثّانية: أنّ أيّ حركة على هذه المسارات أو المتصلات هي تغير أحاديّ الاتجاه، النّقطة الثّالثة والأخيرة: وجود الكثير من الأدلة التّطبيقيّة الّتي تدعم هاتين النّقطتين (الأولى والثّانية) يمكّن من القول إنّ العناصر النَّحويّة الموجودة في جميع اللُّغات الطّبيعيّة ناتجة عن عناصر معجميّة أو مشتقة منها[1].

ويمكن أنْ يُطلق على هذا المسار أو ذاك «مسار النَّحويّة Grammaticality Pathway» مادمنا سلمنا بفرضيّة أحاديّة الاتجاه. وخلال هذه المسارات نلمح تحركًا للعناصر من مصدر حسيّ إلى هدف أو عدة أهداف مجردة عبر مجموعة متعددة من الوظائف المتتاليّة الّتي يمكن أنْ يؤديها العنصر خلال عملية التّطوّر أو التّغيُّر بحيث يعكس موقع الصّيغة على هذا المسار درجة نحويّتها، أمّا عن المواقع الدّقيقة لنقاط المسار فمن الصّعب تحديدها؛ إذ ليس هناك حدود واضحة بين المقولات الّتي يُمكن لها أنْ تُشكّل مسار التّطوُّر[2]. ولعل واحدًا من أهم المسارات النَّحويّة في هذا الإطار هو المسار الّذي وضعه بول هوبر Paul J. Hopper واليزابيث تروجت Elizabeth C. Traugott حيث يبدأ بكلمة ذات محتوى معجميّ تتطوّر من خلال الإنحاء إلى كلمة نحويّة، فمُتصِل، ثُمَّ لاصقة تصريفيّة، وذلك على الصّورة التّاليّة[3]:

Content Item > Grammatical Word > Clitic > Inflectional Affix

ووفقًا لفرضيّة أحاديّة الاتجاه فإنّه إذا انتقل عنصر معجميّ من نقطة إلى نقطة أخرى داخل هذا المسار، فلا يمكن له العودة مرة أخرى إلى واحدة من صيغه الأول الّتي كان عليها قبل عملية التّطوُّر أو الانتقال، ولكنْ هذا لا يمنع إمكانيّة أنْ تبقى الصّيغة المنحاة بجانب العنصر المعجميّ الأصليّ الّذي تطوّرت عنه؛ ومن ثمَّ يخضع هذا العنصر للتّغيُّر كغيره من

---

(1) adapted from Roger Lass 2000: op. cit. p.207-8.
(2) after Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.
(3) see Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: op. cit. p.7.

العناصر، ويُطلق على هذه الظّاهرة «التّفرّع Divergence»[1]، وتتمثّل هذه الظّاهرة وفق ما طرحه الدُّكتور «محسن السّيسيّ» في تطوّر العلامة الدّالة على الزّمن المستقبل في العربيّة الفصحى المعاصرة[2]، وهي (السّين) في مثل: «ستظهر النّتيجة غدًا»، فهي من اسم (السّوف) بمعنى الأماني في مثل قولهم: فلانٌ يقتاتُ السّوفَ[3]، وتستعمل مصدرًا مُضافًا في مثل ما ذكره سيبويه من شعر ابن مقبل:

لو ساوفتْنا بسوف من تجنُّبها   سوفَ العيوف لراح الرّكب قد قنعوا

وذكر ابن منظور أنّهم «قالوا: سو يكون، فحذفوا اللّام، و:سا يكون، فحذفوا اللّام وأبدلوا العين طلبَ الخفة، و:سف يكون، فحذفوا العين كما حذفوا اللّام»[4]، وأحسب أنَّ قولنا: (سَـ) صورة متطوّرة عن قولهم: (سَا يكون) بحذف العين واللّام معًا طلبًا للخفة، وعلى هذا فإنَّ السّين وحدها «منحاة عن الاسم وقد فقدت علاماته (التّعريف والجر والإضافة) وحالاته الإعرابيّة وجانبًا كبيرًا من دلالته، وأصبحت مجرد لاصقة مقصورة على صنف معين من الأفعال تسبقه وتوجّه دلالته الزّمنيّة نحو المستقبل»[5]، وسواءً أكانت هذه السّين منحاة عن اسم أو عن فعل في رأي بعضهم - حيث ذكر «ابن منظور» عن «ابن جني» قوله عن «سوف»: «هو حرف واشتقوا منه فعلًا فقالوا: سوَّفْتُ الرَّجل تسويفًا»[6] - فلا ينفي هذا الإنحاء الحاصل فيها، إنّما يدعونا هذا - وبناء على شواهد من العربيّة ومعاجمها وقواعدها وآراء النّحاة العرب أنفسهم - إلى التّفكير مرة بعد مرة في رسم مسارات إنحائيّة تستجيب - أولًا وقبل كل شيء - لمنطق العربيّة في التّطوّر، فإذا كانت اللّغات جميعها

---

(1) see Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: op. cit. p.118.

(2) after Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.

(3) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم، ت: 711هـ): لسان العرب، بيروت: دار صادر، (سوف) المجلد 9، ص164.

(4) ابن منظور: السّابق نفسه.

(5) adapted from Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.

(6) ابن منظور: مرجع سابق، ص164.

تخضع للتّطوّر والتّغيّر، فإنّها بلا شك تتفاضل في مظاهره ومساراته، وهذا لا ينفي بالطّبع وجود الكثير من أوجه التّشابه.

فالمتوقع وفق دراسة بيبي Joan Bybee وآخرين أنّ أي عمليّة من عمليّات الإنحاء تبدأ بمعنى مصدر Source Meaning مشابه لمعنى آخر في لُغة أخرى فمن المتوقع لهذه العملية أنْ تسلك المسار نفسه، وهو ما يُطلق عليه في هذه الدّراسة المسارات العامّة Universal Paths، ولكنّ هذا التّوقع لا يمنع أمثلة خاصّة من الإنحاء[1]، إنّ علاقة (السّين) هنا بالفعل (سوّف) أو بالاسم (السّوف) والأقوال الثّلاثة الّتي ذكرها ابن منظور (سو يكون، وسا يكون، وسف يكون) تدعم/ ها ظاهرة «التّفرّع» لدى «هوبر» و«تروجت» أو ما اصطلح عليه «هين» Bernd Heine و«ريه» Mechthild Reh بالانقسام Split؛ أي وجود صيغتين لعنصر معين؛ الأولى تمثّل حالة وضعه الأول، والثّانية هي حالته النّاشئة عن الإنحاء[2]، وأحسب أنّ «الانقسام الوظيفيّ Functional Split»؛ أي وجود تطوّرين مختلفين لوحدة معينة داخل اللُّغة[3] توصيف مهم وغير مستبعد أيضًا في حالة (السّين) الدّالة على المستقبل. إنّ حالة (السّين) هنا قريبة الشّبه بحالة (will) الإنجليزيّة، فالأخيرة مأخوذة عن الألمانيّة بمعنى: يريد (want)، ثُمّ فقدت جزءًا كبيرًا من هذا المعنى، وتمّ إنحاؤها لتصير علامة دالة على المستقبل تتقيّد بمواقع محددة داخل الجملة[4]. وإذا كانت (will) تتعرض لـ«تآكل صوتيّ Phonetic Erosion» - وهو أيضًا مظهر من مظاهر الإنحاء[5] - في مثل (she'll) فهذا يعود بنا إلى قول «ابن منظور»: «قالوا: سو يكون، فحذفوا اللّام، و:سا يكون، فحذفوا اللّام وأبدلوا العين طلبَ الخفة، و:سف يكون، فحذفوا العين كما حذفوا اللّام»، فحديث «ابن منظور» - من وجهة نظري - يموضع مثل هذه الصّيغ عند نقطة معينة من

---

(1) see Joan Bybee, Revere Perkins & William Pagliuca1994: op. cit., p.14-15.

(2) see Bernd Heine & Mechthild Reh 1984: Grammaticalization and Reanalysis in African Languages. p.57. Hamburg: Helmut Buske.

(3) adapted from Bernd Heine & Mechthild Reh 1984: op. cit. p.57.

(4) after Lyle Campbell & Mauricio J. Mixco 2007: A Glossary of Historical Linguistics. p.73. Edinburgh University Press.

(5) see Bernd Heine & Mechthild Reh 1984: op. cit. p.15.

نقاط مسار إنحاء (السّين)، وأظن أنَّ «الحذف» الَّذي تحدث عنه هنا معادل مصطلحيّ للتآكل الصّوتيّ الَّذي تتعرض له بعض الصّيغ المنحَاة.

وهنا أقترح العودة إلى معجم لسان العرب لـ«ابن منظور» وإلى معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة للمرحوم الدُّكتور «أحمد مختار عمر» كي ننظر في هذه (السّين) وموضعها في المعجمين، وتعريفها، وماذا يمكن أنْ تقدّم دراسات الإنحاء للمعجم اللُّغوي العربيّ عامّة والمعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة بخاصّة من خلال هذا المثال، فـ(السّين) في معجم لسان العرب وردت على النَّحو التَّالي: **(حرف السّين المهملة)** «الصّاد والسّين والزّاي أسليّة؛ لأنَّ مبدأها من أسلة اللِّسان، وهي مستدق طرف اللِّسان، وهذه الثّلاثة في حيز واحد، والسّين من الحروف المهموسة، ومخرج السّين بين مخرجي الصّاد والزّاي؛ قال «الأزهريّ»: لا تأتلف الصّاد مع السّين ولا مع الزّاي في شيء من كلام العرب»[1].

وجاءت في معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة كما يلي: **(2401 - س)** «س[1][كلمة وظيفيّة]: الحرف الثّاني عشر من حروف الهجاء، وهو صوت أسنانيّ لثويّ، مهموس، ساكن، احتكاكيّ (رخو)، مُرقّق. س[2] [كلمة وظيفيّة]: 1 - حرف يسبق الفعل المضارع المثبت دون المنفيّ فيخصصه للاستقبال، فيدل على المستقبل القريب، وقد يدل على المستقبل البعيد. 2 - حرف غير عامل يفيد تكرار الفعل وتوكيده...»[2]. إنَّ ثمة اختلافات كثيرة بين المعجمين فيما يخص (السّين):

- تعامل لسان العرب معها على أنّها صوت من أصوات العربيّة؛ فبيّن مخرجها وعلاقاتها بغيرها من الأصوات وبعض صفاتها.
- لم يشر لسان العرب إلى معنى السّين كحرف دالٍ على المستقبل يسبق الفعل المضارع المثبت كما فعل معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة.
- أدرجها معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة كلمة وظيفيّة لأنّها من حروف الهجاء؛ فبيّن موقعها من حروف الهجاء، وعدّد صفاتها الصّوتيّة.

---

(1) ابن منظور: مرجع سابق، المجلد السّادس، ص3.

(2) د. أحمد مُختار عمر (بمساعدة فريق بحث) 2008: معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة، القاهرة: عالم الكتب، الطّبعة الأولى، المجلد الثاني، ص1019.

- أدرجها معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة كلمة وظيفيّة لأنّها مما اكتسب دلالة جديدة غير دلالته اللُّغويّة؛ فذكر مواضعها النَّحويّة ودلالاتها في هذه المواضع.

فالكلمات الوظيفيّة في معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة «هي الكلمات الَّتي اكتسبت دلالة جديدة بعيدة عن الدّلالة اللُّغويّة لألفاظها وتشمل حروف الهجاء وجميع حروف الجر وأدوات الاستفهام والأسماء الموصولة وأسماء الإشارة وأدوات الشّرط والظّروف وأسماء الأفعال، كما اشتملت بعض الأفعال الجامدة، مثل «عسى»... إلخ»[1].

ورغم ما يبدو من أنَّ معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة قد خطا خطوات جيدة فيما يتعلق بترتيب المداخل واستقصاء معلوماتها، فإنَّ ورود حديثه عن السّين كحرف دالٍ على المستقبل مخصص للدخول على المضارع المثبت بعد حديثه عنها كصوت أو حرف هجائيّ يشي - وفق تعريفه للكلمات الوظيفيّة السّابق - بأنَّ هذه الدّلالة دلالة جديدة للسّين المفردة، ويعزز هذا الاستنتاج أنَّ حديثه عن (سوف) لم يتضمن أيّة إشارة إلى السّين (فقد ذكر في (سوف) 2675 [كلمة وظيفيّة] حرف مبني على الفتح يخصص أفعال المضارعة للاستقبال البعيد، فيردّ الفعل من الزّمن الضّيق وهو الحال إلى الزّمان الواسع وهو الاستقبال، وهو يقتضي معنى المماطلة والتّأخير، وأكثر ما يستعمل في الوعيد، وقد يستعمل في الوعد[2]) فلم يوضح هذا التّعريف علاقة (سوف) بالسّين رغم ثبات هذه العلاقة، ورغم أنَّ الدُّكتور أحمد مختار عمر - رحمه الله - قد أخذ في معجمه الموسوعيّ لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته على الأعمال السّابقة في هذا الشأن أنّها لم تذكر (بل) و(السين) في حين أنّها أثبتت (بلى) و(سوف)[3]، كذلك خلا حديثه عن هذا المدخل 2675 من (سوف) الاسميّة رغم أنّه أثبت الأفعال (سَاوف - سَوَّفَ)، ورغم وجودها في لسان العرب، وربما خلا هذا المعجم من مدخل لـ(التّسويف)!.

---

(1) د. أحمد مُختار عمر 2008: المرجع السّابق، المجلد الأول، ص13.

(2) انظر د. أحمد مُختار عمر (بمساعدة فريق بحث) 2002: المعجم الموسوعيّ لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، الرّياض: مؤسسة سطور المعرفة، الطّبعة الأولى، ص19.

(3) د. أحمد مُختار عمر 2008: المرجع السّابق، المجلد الأول، ص13.

وما أريد التّأكيد عليه هنا أنّ الاختلاف الجوهريّ بين المعجمين يكمن في رؤيتهما لـ«معجميّة» العناصر الّتي تشكّل مداخل كل منهما، فالسّين الدّالة على المستقبل ليست مدخلًا من مداخل لسان العرب؛ لأنّها بذاتها صيغة خالية من المعنى بالمنظور المعجميّ، ولكنّها في المقابل شكّلت مدخلًا من مداخل معجم اللّغة العربيّة المعاصرة ربما لأنّ المنظور النّحويّ مثّل واحدًا من العناصر الّتي يتكون منها مفهوم «المعجميّة» عند أصحاب هذا المعجم.

إذن، فالمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة - وهو يستثمر مثل هذه المعاجم في معالجة مواده - مطالب برصد (السَّوفَ) كاسم له من الشّواهد - الّتي ساقها «ابن منظور» و«سيبويه» - ما يؤكده، وببيان العلاقة بين (السِّين) و(سَوفَ) و(السَّوفَ) و(سَوَّفَ)، وبتحقيق قول «ابن جنيّ» في هذا: (هو حرف اشتقوا منه فعلًا)، والتّأكد من الشّواهد: (سف يكون، وسا يكون، وسو يكون) وتبرير أشكالها، وأحسب هنا أنّ الاستعانة ببحوث الإنحاء يمكن أنْ تساعد في تحقيق بعض هذه المطالب، فإذا صح استنتاجنا أنّ (السَّوفَ) [عنصر معجميّ - اسم] تطوّرت عنه (سَوفَ) [عنصر نحويّ - حرف]، ثُمَّ حصل فيها تآكل صوتيّ (سَف، سَو، سَا، ثم سَـ) ولزمت مواقع تركيبيّة محددة مع بقاء الكلمتين جنبًا إلى جنب [التّفرع أو الانقسام]، أو أنّ (سَوَّفَ) انتقلت إلى (سَوفَ) وتحوّلت الأخيرة إلى (سَف، سَو، سَا، ثم سَـ) وتقيّدت بالدّخول على الفعل المضارع المثبت فقط، فإنّ المعجم التّاريخيّ لابدّ أنْ يشير في تعريفه لهذه المداخل (بحسب الطّريقة الّتي سيتم اعتمادها في التّرتيب) إلى إنحائها ويتتبع مسار هذا الإنحاء لاسيما أنّ المعاجم السّابقة لم ترصد هذه العلاقات.

بين الإنحاء والمَعجَمة

إنّ الصّورة المجازيّة للإنحاء تمثّلها مقاربة يُطلق عليها «مقاربة الصّندوق Box Approach» ومفادها أنّ هناك صندوقًا ضخمًا للمعجم وآخر للنّحو، الأول ممتلئ بالعناصر المعجميّة، والثّاني ممتلئ بالعناصر النّحويّة؛ ومن ثمّ فإنّ العمليّات الّتي يتمُّ من خلالها انتقال العناصر من الصّندوق الأول الخاصّ بالمعجم إلى الصّندوق الثّاني الخاصّ بالنّحو تمثّل الإنحاء، أمّا العمليات الخاصّة بنقل العناصر من صندوق النّحو إلى صندوق

المعجم فتمثّل «مَعجَمة Lexicalization»[1] العناصر النَّحويّة، فبين كل من الإنحاء والمَعجَمة روابط قوية، ففريق من الباحثين يرى أنّها نوعٌ مخصوصٌ من «نزع الإنحاء Degrammaticalization» حيث تفقد الصّيغ والبنى وظائفها النَّحويّة ويتم تحجرها في صورة عناصر معجميّة أو تعابير اصطلاحيّة عقيمة، وفريق آخر يرى أنَّ الإنحاء هو تطوّر إضافي في عملية المَعجَمة؛ بمعنى أنّه تقييد صارم لعنصر معجميّ معين[2]، فإذا كان الإنحاء هو إيجاد عنصر نحويّ من عنصر معجميّ، أو إيجاد عنصر نحويّ من آخر أقل نحويّة، فإنَّ المَعجَمة هي العمليّة العكسيّة؛ أي التّحوّل من عنصر نحويّ إلى عنصر معجميّ أو خفض درجة نحويّته بمعنى أنّه إيجاد عنصر معجميّ - من عنصر غير معجميّ - أو زيادة درجة معجميّة هذا العنصر[3].

فقد رأينا فيما سبق رأي «ابن جنيّ» الّذي أورده «ابن منظور» حيث ذكر أنَّ (سَوفَ) «حرف اشتقوا منه فعلًا فقالوا: سوَّفْتُ الرَّجل تسويفًا»[4]، وهذا معناه أنَّ (سَوفَ) انتقلت من النَّحو إلى المعجم بتحوّلها من الحرفيّة إلى الفعليّة، ومعنى هذا أيضًا أنّها انتقلت من صيغة غير معجميّة إلى عنصر معجميّ كامل الدّلالة، وتُسمى عمليّة الانتقال هذه «القلب Conversion»، وهي ظاهرة غير مألوفة نسبيًّا، ولكنْ لها شواهد في أغلب اللُّغات[5]، ومنها في العربيّة أيضًا ما أورده «ابن جنيّ» دليلًا على تداخل أقسام الكلام في العربيّة قال: «إنَّ كثيرًا من الأفعال مشتق من الحروف، نحو قولهم: سألتك حاجة فلوليت لي، أي قلت لي: لولا، وسألتك حاجة فلاليت لي، أي: قلت لي: لا، واشتقوا أيضًا المصدر - وهو اسم

---

(1) see Nikolaus P. Himmelmann 2004: Lexicalization and Grammaticalization: Opposite or Orthogonal?. p.21. in Walter Bisang, Nikolaus P. Himmelmann and Björn Wiemer (Eds.): Trends in Linguistics. Studies and Monographs. Berlin/Boston: Mouton De Gruyter.

(2) adapted from Ilse Wischer 2000: Grammaticalization versus Lexicalization: 'Methinks' there is some Confusion. p.359. In Olga Fischer, Anette Rosenbach & Dieter Stein (Eds.): Pathways of Change: Grammaticalization in English. John Benjamins Publishing Company

(3) after John van der Auwera 2002: More Thoughts on Degrammaticalization. p.20. in Ilse Wischer & Gabriele Diewald (Eds.): New Reflections on Grammaticalization. John Benjamins Publishing Company.

(4) ابن منظور: مرجع سابق، المجلد التّاسع، ص164.

(5) see Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: op. cit. p.58.

- من الحرف، فقالوا: اللالاة، واللولاة... وكذلك قالوا: سوَّفت الرَّجل، أي: قلت له: سوف، وهذا فعل كما ترى مأخوذ من الحرف... وأنا أرى أنَّ جميع تصرف (ن ع م) إنَّما هو من قولنا في الجواب: نَعَمْ، من ذلك النِّعمة والنَّعمة، والنَّعيم والتَّنعيم، ونعمت به بإلا، وتنعَّم القوم، والنُّعمَى، والنَّعماء، وأنعمت به له، وكذلك البقية، وذلك أنَّ (نَعَمْ) أشرف الجوابين, وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد... لما فيها من المحبة للشّيء والسّرور به... [فـ] الحروف يشتق منها، ولا تشتق هي أبدًا، وذلك أنَّها لَمَّا جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأوَّل الَّتي لا تكون مشتقة من شيء»[1]، وإذا كانت نهاية كلام ابن جنيّ تقدح في إنحاء (سوف) من الاسم أو الفعل، فإنَّني أظن أنَّ الحديث عن الاشتقاق أمر مختلف عن التَّطوُّر أو الإنحاء، كما أظن أنَّ هذا الحديث يثبت إنحاء (الفعل من الحرف) ولا يقدح في إنحاء السِّين من (سوف) الفعليّة أو الحرفيّة بدليل قول «ابن منظور»: «قالوا: سو يكون، فحذفوا اللّام، و:سا يكون، فحذفوا اللّام وأبدلوا العين طلبَ الخفة، و:سف يكون، فحذفوا العين كما حذفوا اللّام»، ولكنْ يمكن لنا الإفادة من ملاحظة «ابن جنيّ» هذه في ضبط بعض الأمور المتعلقة بمسار الإنحاء واتجاهه، وتبقى المسألة مفتوحة للاجتهاد ما لم نعثر على شواهد موثقة تاريخيًا تمكّننا من معرفة متى بدأ التَّغيُّر ومتى انتهى وبأي صيغة، وهنا يأتي دور المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيّة، وعليه فإنَّ البحث يشدد في مواضع كثيرة على ضرورة التّكامل بين جهود أصحاب المعجم التَّاريخيّ وباحثيّ الإنحاء.

وقبل أنْ نترك حديث «ابن جنيّ» أشير إلى مَلحظ مهم يجب التّنبيه إليه بخصوص فرضيّة أُحاديّة الاتجاه UD والرَّأي الَّذي يمكن أنْ نجده لدى «ابن جنيّ» إزاء هذا الملحظ، فالقول بهذه الفرضيّة وفق الصِّياغة المعممة لها أو ما أصبح يُطلق عليه فرضيّة أُحاديّة الاتجاه القوية Strong UD[2]؛ أي بتطوُّر الصِّيغ النَّحويّة فقط عن صيغ معجميّة، قولٌ أحد معانيه التّسليم بأنَّ جميع عناصر اللُّغة كانت في مرحلة ما من مراحل تطوُّرها السَّابقة عناصر معجميّة فقط، فقد ذكر «ابن جنيّ» في «باب في هذه اللُّغة: أفي وقت واحد وُضِعت أم تلاحق

---

(1) ابن جنيّ (أبو الفتح عثمان بن جنيّ، ت: 392هـ): الخصائص، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص23: 25بتصرف.

(2) adapted from Roger Lass 2000: op. cit. p.218.

تابعٌ منها بفارطٍ؟» أنّه «يجوز أنْ يكونوا عند التّواضع قدّموا الاسم قبل الفعل، ويجوز أنْ يكونوا قدّموا الفعل في الوضع قبل الاسم، وكذلك الحرف، وذلك أنّهم وزنوا حينئذٍ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم، فعلموا أنّهم محتاجون إلى العبارات عن المعاني، وأنّها لابد لها من الأسماء والأفعال والحروف، فلا عليهم بأيها بدءوا، أبالاسم أم بالفعل أم بالحرف؛ لأنّهم قد أوجبوا على أنفسهم أنْ يأتوا بهن جُمَعَ، إذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن»[1].

الفقد والاكتساب

إنَّ معنى انتقال العنصر من المعجم إلى النّحو هو أنْ تتغيّر سماته وصفاته، فالإنحاء بحسب «هين» و«ريه» تطوّر تفقد من خلاله الوحدات اللُّغويّة تعقيدها الدّلاليّ، وسمتها التّداوليّ، وحريتها التّركيبيّة، ومادتها الصّوتيّة[2]، ويرى الدُّكتور «السِّيسيّ» أنَّ الأمر هنا غير محصور في فقد هذه السّمات، بل اكتساب سمات جديدة، فعلامة المستقبل (سَـ) فقدت بإنحائها المحتوى الدّلاليّ، وانتمائها إلى «فئة كلاميّة مفتوحة Open Class»، كما فقدت استقلالها التّركيبيّ، ومادّتها الصّوتيّة، ولكنّها حصّلت في مقابل هذا تغيّرًا في المعنى، ومدى متسعًا من السّياقات، ودرجة كبيرة من التّواتر، وعموميّة دلاليّة، وأصبحت في النهاية جزءًا من التّصريف Paradigm[3]. فالإنحاء آليًا يتضمن عمليات أربعة؛ الأولى هي «الخفوت الدّلاليّ Semantic Bleaching»[4] أو «فقد المعنية Desemanticization» حيث

---

(1) ابن جنيّ (أبو الفتح عثمان بن جنيّ، ت: 392ه): الخصائص، مرجع سابق، ص21.

(2) adapted from Bernd Heine & Mechthild Reh 1984: op. cit. p.15.

(3) after Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.

(4) واحد من المفاهيم المهمة في دراسة الإنحاء يشار به إلى فقد العناصر المعجميّة لمعناها أو حالاتها المقوليّة حيث تتحوّل إلى مجرد علامات تؤدي وظيفة نحويّة، ولهذا المفهوم عدد غير قليل من المصطلحات الّتي تعبر عن مضمونه وهي: الضّعف الدّلاليّ Semantic Weakening (Guimier 1985:157)، وفرضيّة الاحتواء Containment Hypothesis (Willett 1988:80)، والتّجريد Abstraction (Hein et al 1991:41-45)، والتعميم الدّلاليّ Semantic Generalization، والخفض الدّلاليّ Semantic Reduction (Bybee et al 1994: 6)، والنّضوب الدّلاليّ Semantic Depletion (Weinreich in Lehmann 1995:127)، وفقد المعنيّة Desemanticization (Lehmann 1995:127)، نقلًا عن (وقد قمتُ بترتيبها تاريخيًا): Mohssen Esseesy 2009b: Semantic Bleaching. p.160 in Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.IV. (160-4) Leiden, Boston: Brill.

تفقد العناصر جزءًا كبيرًا من محتواها الدّلاليّ، والثانية هي «التّوسع Extension» أو «التّعميم السّياقيّ Context Generalization» حيث يتم استعمال العناصر في سياقات جديدة، أمّا الثّالثة فهي «فقد الانتماء المقوليّ Decategorialization» حيث تفقد العناصر السّمات الصّرفيّة والتّركيبيّة، والعملية الرّابعة هي التّآكل Erosion أو «التّقلص الصّوتيّ Phonetic Reduction» وفقد المادة الصّوتيّة، وعلى الرُّغم من أنّ ثلاثة من هذه العمليات تنطوي - كما نرى - على فقد بعض الخصائص وخسارتها فإنّ هناك مجموعة من الخواص المميزة الّتي تكتسبها هذه العناصر من استعمالها في سياقاتها الجديدة[1].

أفعال الشُّروع ومبدأ الاستمراريّة

فالصّيغ المنحَاة يمكن أنْ تكتسب علاقات صرفيّة - تركيبيّة لم تكن لها من قبل في مقابل فقدها لبعض السّمات والخواص، ومثال هذا الفعل «أخذ» عندما يستعمل كفعل معجميّ في مثل (أخذ الولد الكتاب) يمكن أنْ يتصرف زمنيًّا فيدل على الماضي والحاضر، أو أنْ يُبنى للمجهول، أو أنْ يتبادل رتبته مع فاعله ومفعوله، ويمكن أنْ تسبقه أداة نفي، ولكنْ عند إنحائه في مثل (أخذت الرّيح تعصف) ستتقيد رتبته، ويصبح منتميًا إلى فئة مغلقة من الأفعال الّتي تُسمى «أفعال الشُّروع/ الإنشاء»[2].

واتصالًا بهذا الصّنف من الأفعال في العربيّة من جهة وبأحد مبادئ الإنحاء من ناحية أخرى، أود أنْ أشير هنا إلى «مبدأ الاستمراريّة Persistence»، ومفاده أنّ المصادر المعجميّة رغم خضوعها لعملية الإنحاء وفقد بعضها مادته المعجميّة، فإنّ هناك حالات عديدة تستمر فيها معاني هذه العناصر الأصليّة بدرجات مختلفة، بل إنّ هذه المعاني لتؤثر في الوظائف النّحويّة الّتي تحوزها العناصر المنحَاة خلال مساراتها الإنحائيّة (انظر فرضيّة تحديد المصدر في الصّفحات التّالية من البحث)، وهذا معناه أنّ هناك آثارًا دلاليّة مصدرها المعاني المعجميّة الأصليّة لتلك العناصر الّتي تنعكس في صورة قيود تحكم توزيعها النّحويّ النّاجم عن

---

(1) see Bernd Heine & Tania Kuteva 2004: World Lexicon of Grammaticalization. p.2. Cambridge University Press.

(2) see Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.193.

الإنحاء[1]، والمثال الّذي يضربه الدُكتور «السِّيسيّ» نموذجًا لهذا المبدأ يتمثَّل في الفعل (قام) حيث يتم إنحاؤه فيدخل ضمن فئة أفعال الشُروع في قولنا: قامت المرأة تنوح. ففي رأيه أنَّ المفهوم الأساسيّ لهذا الفعل لم يختفِ بشكل كامل، بل إنَّه مستمر في فرض بعض القيود على مدى العلاقات الدّلاليّة لصيغته المنحاة؛ فلا يدخل هذا الفعل (وهو من أفعال الشُروع) في علاقات تركيبيّة مع أفعال أخرى تناقض مفهومه حيث تعدُّ جملة "قامت المرأة تنام" جملة غير نحويّة بسبب التّضاد الحاصل بين "قامت" و"تنام"، وذلك عند مقارنتها بالبنية النّحويّة: "قامت المرأة من النوم"[2].

الأفعال النّاقصة ومعجميّة التّصنيف النّحويّ

أمّا عن الأفعال النّاقصة في اللُّغة العربيّة سواءً في الفصحى التّراثيّة أو في الدّوارج واللّهجات المعاصرة، فالنّواسخ الفعليّة مثل (كان) وأخواتها تعدّ أفعالًا ناقصة Incomplete (المعجميّة) بعكس الأفعال التّامة Complete[3] كاملة (المعجميّة)؛ إذ تقتضي الأخيرة وفق قيود الانتقاء المقوليّة والدّلاليّة «اسمًا» يكون فاعلًا تقع به، واسمًا أو جملة يكون مفعولًا تقع عليه، ولأنَّ هذه النّواسخ «ناقصة» فهي لا تدل على أكثر من إطار زمنيّ للجملة الّتي تحتويها، وتدلّنا على هذا معالجة «سيبويه» لهذه الأفعال فقد أوردها في باب (الفعل الّذي يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد)[4] وذكر أنَّ كون اسم الفاعل هو عينه اسم المفعول يجعل هذا النّوع من الأفعال صنفًا

(1) see Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: op. cit. p.96.
(2) after Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.196.
(3) for more details see Hana Zabarah 2012: The Notion of 'Complete' and 'Incomplete' Verbs in Early Arabic Grammatical Theory. pp.115-25. in Reem Bassiouney & Graham E. Katz (Eds.): Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics: Arabic Language and Linguistics. Washington: Georgetown University Press.
(4) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: 180ه): الكتاب، تحقيق عبد السّلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطّبعة الثالثة، 1988، المجلد الأول، ص45.

مميزًا يقول: «فمن ثمَّ ذُكِرَ [هذا الفعل] لحدثه [وخاصيته المميزة]»[1]، ثُمَّ قال: «ولا يجوز فيه الاقتصار على الفاعل كما لم يجز في ظننت الاقتصار على المفعول الأول؛ لأنَّ حالك في الاحتياج إلى الآخر ههنا، كحالك في الاحتياج إليه ثمّة»[2]، ثُمَّ مثّل «سيبويه» لهذه الأفعال بمجموعة صغيرة منها «كان ويكون، وصار، وما دام، وليس»[3]، وترك عنوانًا عريضًا لما يمكن أنْ يسلك سلوك هذه الأفعال فقال: «وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغني عن الخبر»[4]، فـ«سيبويه» - وإنْ فُهِمَ من عنوان الباب أنّه يجعلها أفعالًا فقد - جعل لها اسمًا للفاعل واسمًا للمفعول هو عينه اسم الفاعل، ولم يجعل لها فاعلًا ومفعولًا بالمعنى الَّذي نجده مع غيرها من الأفعال التّامّة الحقيقيّة، وفطن «سيبويه» إلى أنَّ هذه الأفعال وإنْ كان يجوز في تراكيبها ما يجوز في تراكيب غيرها من الأفعال من التّقديم والتّأخير إنّما تدل فقط على الزّمان، يقول: «تقول: كان عبد الله أخاك، فإنّما أردت أنْ تخبر عن الأخوة، وأدخلت (كان) لتجعل ذلك فيما مضى... وإنْ شئت قلت: كان أخاك عبد الله، فقدّمت وأخرت كما فعلت ذلك في (ضرب) لأنّه فعل مثله، وحال التّقديم والتّأخير فيه كحاله في (ضرب)، إلا أنَّ اسم الفاعل والمفعول فيه سواء»[5].

فهذه الأفعال النّاقصة تسلك السّلوك التّركيبيّ نفسه للأفعال التّامة، والفرق أنّها ليست أفعالًا بقدر ما هي علامات دالة على الزّمان وبقدر كون هذا السّلوك جزءًا مما اكتسبته بمعاملتها معاملة الأفعال الأخرى، ويبدو هذا جليًا في قول «سيبويه»: «وقد يكون لـ(كان) موضع يقتصر على الفاعل فيه، تقول: قد كان عبد الله، أي قد خُلِق عبد الله، وقد كان الأمر، أي وقع الأمر، وقد دام فلان، أي ثبت، كما تقول: رأيت زيدًا، تريد رؤية العين، وكما تقول: أنا وجدته، تريد وجدان الضّالة، وكما يكون أصبح وأمسى مرة بمنزلة (كان)،

---

(1) سيبويه: الكتاب، السّابق نفسه.
(2) سيبويه: الكتاب، السّابق نفسه.
(3) سيبويه: الكتاب، السّابق نفسه.
(4) سيبويه: الكتاب، السّابق نفسه.
(5) سيبويه: الكتاب، السّابق نفسه.

ومرة بمنزلة استيقظوا وناموا»[1]، ثُمَّ ضرب «سيبويه» مثالين وردت فيهما (كان) بمعنى (وقع)، الأول لـ«مقَّاس العائذيّ»، والثّاني لـ«عمرو بن شَأس»[2].

وكي يتأكد لنا هذا دعنا ننظر في رؤية النّحاة بعد «سيبويه» لـ(كان) وأخواتها كما أشارت إليها دراسة Hana Zabarah 2012، فـ«المبرد» (ت: 282هـ) يرى أنّها أفعال صحيحة (لأنّها تتصرف تصرف الأفعال في الزّمن ومع الضّمائر المختلفة)، ولكنّها أفعال غير حقيقيّة (لأنَّ اسمها وخبرها الشّيء نفسه)، وهي لا تغيّر معنى الجملة إنّما تشير فقط إلى زمنها، ويرى «ابن السّراج» (ت: 318ه) أنّها أفعال غير حقيقيّة لأن الفعل الحقيقيّ هو ما دلّ على معنى وزمان، أمّا (كان) وأخواتها فتدل على الزّمان فقط. أمّا «الزّجاجيّ» (ت: 340هـ) فقد تجنب استعمال مصطلح (الفعل) وعدَّ (كان) وأخواتها حروفًا، فإذا وصلنا إلى «البطليوسيّ» (ت: 521هـ) وجدنا قوله إنّ «الفعل الصّحيح إنّما وُضِع في أصل وضعه ليدل على حدث واقع في زمان مُحصَّل، وذلك الحدث هو خبره الَّذي يستفيد المخاطب منه إذا ذُكِر، وذلك الحدث الَّذي هو خبره مُضمَّن فيه غير خارج عنه، وأحداث هذه الأفعال الَّتي هي أخبارها خارجة عنها غير مُضمَّنة فيها»[3].

إنَّ هذه المقاربات وإنْ كانت «نحويّة» بالأساس قصدت إلى بيان علاقة الكلمات بعضها ببعض داخل الجمل ودلالة مثل هذه العلاقات، فإنّها لم تغفل «معجميّة» الأفعال أساسًا للتفريق بين ما هو فعل حقيقيّ وما هو فعل غير حقيقيّ، فـ(كان) وأخواتها أفعالٌ غير حقيقيّة لأنّها فقدت دلالتها على الحدث الَّذي يَفيده المخاطب متى ما سمع الفعل في أقل سياق أي مُنفردًا؛ إذ أصبحت أحداثها - بتعبير «البطليوسيّ» - خارجة عنها غير مُضمَّنة فيها، وهذا ربما السَّبب الَّذي حدا بـ«الزّجاجيّ» أنْ يجعلها حروفًا أو قل بالمصطلح المعاصر كلمات وظيفيّة، فـ«الفقد التّدريجيّ للسّمة المميزة للأفعال، والاكتساب التّدريجيّ لسمات

[1] سيبويه: الكتاب، السّابق، ص46.

[2] انظر سيبويه: الكتاب، السّابق، ص46، 47.

[3] see Hana Zabarah 2012: op. cit. p.118; 119; 120; 122.

نحويّة مختلفة هما السّبب وراء صعوبة تصنيف الأفعال النّاقصة ووراء الخلاف بين النّحاة الآنيّين في النّظر إلى هذه العناصر بوصفها أفعالًا أو عدّها مقولة قائمة بذاتها»[1].

وتأكيدًا على ما سبق من رؤى النّحاة العرب لـ(كان) وأخواتها أورد «ابن منظور» لـ(كان) التّامة العديد من المعاني المعجميّة منها: وَقع/ وُجِد واستقر/ خُلق/ مَضى وتقضّى[2]، وله على كل معنى من هذه المعاني شاهد أو أكثر من الشّواهد الموثّقة. أمَّا عن (كان) النّاقصة في هذا المعجم فأكتفي فيها بما اقتبسه «ابن منظور» عن «ابن بري» قال: «واعلم أنّه يُلحق بباب (كان) وأخواتها كلُ فعلٍ سُلِبَ الدّلالة على الحدث، وجُرِدَ للزّمان، وجاز في الخبر عنه أنْ يكون معرفة ونكرة، ولا يتمُّ الكلام دونه، وذلك مثل: عاد ورجع وآض وأتى وجاء وأشباهها»[3]. وهنا نرى أنَّ مثل هذه الأفعال فقدت دلالتها على الحدث واكتسبت معنى نحويًّا (وفق آليّة فقد المعنيّة)[4]، أضف إلى هذا أنّها فقدت الخصائص المميزة للأفعال الحقيقيّة وتجردت فقط للدلالة على الزّمن (وفق آليّة فقد الانتماء المقوليّ)[5]، هذا بالإضافة إلى آليّة (التّآكل الصّوتيّ)[6] فقد رأت إحدى الدّراسات أنَّ (ك - Ka) في الدّارجة المغربيّة في مثل: (كيكتب Ka - yekteb) هي صيغة متبقية من الفعل (كان)[7]، وترى الأستاذة «ثُريا عامِر» أنّه «يمكننا أنْ نؤول التّطوُّر الحاصل في قائمة الأفعال النّاقصة باشتغال آليتيّ «القياس Analogy» و«إعادة التّحليل Reanalysis» في نسج فعلٍ (ب)

---

(1) adapted from Joan Bybee & Joanne Scheibman 2007: The Effect of Usage on Degrees of Constituency: The Reduction of Don't in English. p.295. in Joan Bybee (Ed.): Frequency of Use and the Organization of Language. Oxford University Press.

(2) ابن منظور: مرجع سابق، المجلد الثّالث عشر، ص365 وما بعدها.

(3) ابن منظور: السّابق نفسه، ص368.

(4) see Bernd Heine & Tania Kuteva 2002: On the Evolution of Grammatical Forms. p.379. in Alison Wary (Ed.): The Transition to Language. pp. 376-97. Oxford University Press.

(5) see Ibid., p.379.

(6) see Ibid., p.379.

(7) see Martine Vanhove, Catherine Miller and Dominique Caubet 2009: The Grammaticalisation of Modal Auxiliaries in Maltese and Arabic Vernaculars of the Mediterranean Area. In Björn Hansen and Ferdinand de Haan (eds.): Modals in the Languages of Europe: a Reference Work. Empirical Approaches to Language Typology, No.44. Mouton de Gruyter. pp. 325-361.

على منوال فعلٍ آخر (أ) يشبهه في وجه من الوجوه، فيستحدث للفعل بنية نحويّة جديدة يُصنَّف على أساسها ضمن مجموعة الأفعال النّاقصة، مثال ذلك ما ذكره «الرَّضي» في «كَمُلَ» الَّتي لا يذكرها «سيبويه» ولا «ابن يعيش» قبله، فيذكر المثال التّالي مستدلًا على وجه استعمال «كَمُلَ» ناقصة: كَمُلَ زيدٌ عالِمًا، أي: صار»[1].

إنَّ القضية الآن بالنّسبة إلى المعجميّ لم تعد فقط دلالات قائمة الأفعال النّاقصة المعروفة، بل كافة الأفعال الَّتي تنسحب عليها سمات أفعال هذه القائمة فتؤدي أداءها ومعناها قياسًا. إنَّ ثمّة فرقًا بين فعلٍ تامّ معجميًا له دلالة وسلوك تركيبيّ واضحان، وبين فعلٍ ناقصٍ يفقد جزءًا كبيرًا من معناه الَّذي وُضِع له؛ ليسلك سلوك الأفعال الأُخرى وإنْ كانت دلالته تَخلُص في إطار هذا السّلوك لمعنى مختلف وثابت؛ لذا فإنَّ فقد الأفعال النَّاقصة لجزءٍ من معناها وخلوص عناصرها لنمطٍ تركيبيّ مختلف له ما يميزه عن غيره من مناويل الأفعال الأُخرى لهو دليلٌ على سلوك هذه العناصر لمسارٍ معين من مسارات الإنحاء.

إنَّ القضية تتعلق هنا بضرورة معرفة ما هو نحويّ وما هو معجميّ، فهذه المعرفة تعدُّ أساسيّة في دراسة الإنحاء من ناحية، وفي صناعة المعجم أيًا كان نوعه من ناحية أُخرى، وأضرب هنا مثالًا من بحث الدُّكتور «جورج متري عبد المسيح» صاحب معجم «لُغة العرب» يوضح أهمية هذه القضية، وهو وإنْ كان مثالًا مُطَوَلًا لكنَّه مهم في هذا السّياق، يقول د.

---

(1) ثُريَا السّكريّ عَامِر: مرجع سابق، ص97، 98. والقياس l'analogie بالنّسبة إلى مايه قادر على إعادة التّفاصيل المتعلقة بالصِّيَغ وتجديدها مع الاحتفاظ بالصُّورة الكليّة للنظام النّحويّ الموجود والدُّوران في فلكه. see Antoine Meillet (Ed.) 1948: op. cit., p.133، أمّا إعادة التّحليل Reanalysis فهي بحسب رولاند لانجكير Roland W. Langaker 1977 تغيُّر بنية تعبير معين أو فئة كاملة لا يصحبه تعديل مباشر أو جوهريّ في المظهر السّطحيّ لهذا التّعبير، ويعرّفها آلن تمبرلاك Alan Timberlake 1977 بأنّها صياغة فئة جديدة عن طريق العلاقات والقوانين الكامنة.

after Mohssen Esseesy 2009a: Reanalysis. P.37. in Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.IV. (37-43) Leiden, Boston: Brill.

وكلتا الدّراستين تجدهما في:

James Li 1977 (Ed.): Mechanisms of Syntactic Change. Austin: University of Texas Press.

«جورج» تعليقًا على مادة (خَلْفَ)[1] في بعض المعاجم العربيّة، وقد اخترت هذه الكلمة لأنَّه يُنظر إليها في إحدى دراسات الإنحاء في اللُّغة العربيّة على أنَّها صيغة منحاة عن الاسم (الخلف)[2]، فأردت من وراء هذا المثال أنْ نتبيّن علاقتها بهذا الاسم داخل المعاجم العربيّة، وأنْ نستكشف خصائص المعالجة المعجميّة لهذه الكلمة والنّتيجة الَّتي يمكن أنْ تترتب على معرفة المعجميّ أنَّها منحاة:

(خَلْفَ) ظَرْف بِمَعْنى: مَوْجود في مَكان غَيْر مُواجِه وغير جانِبِيّ، وهو مَنْصوب إذا أُضيفَ: جَعلَهُ خَلْفَ ظَهْرِه، أو إذا قُطِعَ عن الإضافة لَفْظًا ومَعْنًى: جَعلَهُ خَلْفًا؛ ويُبْنَى على الضَّمّ إذا قُطِعَ عن الإضافة لَفظًا لا مَعْنًى: جَعلَهُ خَلْفُ أي خَلْفَهُ، مَرَّ مِنْ خَلْفُ أي من خَلْفِهِ.

- وَرَدَت (خَلْفَ) في مَدخل مُستقِلّ لأنَّها مادَّة لغويَّة - نحويَّة أو نحويَّة - لغويَّة، لا يَجوز حَشْرها مع المدخل - الاسم (الخَلْف)؛ فهي لا تَدخلها (أل)، ولا تُجمَع مثل (الخَلْف) الاسميَّة على أخْلاف وخُلوف. ولا تُصبح اسمًا إلّا إذا خرجت عن الظَّرفيَّة... ولذلك فإنّ حَشْرها مع مادَّة (الخَلْف) في المَعاجم الجذريَّة الترتيب تصنيف أو ترتيب في غير مَحلّه...
- وَرَدَت في حالة النَّصب مُراعاة لِأحوالها الغالبة... وهي تُبنَى على الضَّمّ في محلّ نصب في حالة واحدة... ولذلك فإنّ المعاجم القديمة والحديثة: أخطأت في ترتيبها وفي تَحريكها إعرابيًّا بحيث غَلَّبت الأقلّ على الأكْثر عندما وضعت (ضَمَّةً) على الفاء. والأسوأ أن بعض المعاجم النُّطقيَّة الترتيب، (معجم عبد النور المُفصَّل) الثُّنائيّ اللُّغة، عربيّ فرنسيّ، وَضَعَ ضَمَّتين على الفاء (خَلْفٌ)، ومن نافل القول أنّ (خَلْفَ) لا تُترَك بدون تَحريك...

---

[1] د. جورج متري عبد المسيح (2014) 2016: دورُ المعجم العربيّ في إحياء التّراث وتصوير الواقع واستشراف المستقبل، بحث أُلقي في الموسم الثّقافيّ لدار الآثار الإسلاميّة بدولة الكويت، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ص19وما بعدها، أعيد نشره ضمن كتاب «المعجميّة العربيّة، قضايا وآفاق، الجزء الثّالث»، إعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم، ود. حافظ إسماعيلي علوي، إربد: دار كنوز المعرفة، الطّبعة الأولى، انظر ص93 وما بعدها.

[2] adapted from Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.

- يَتَّسم تعريف (خَلْف) في المعاجم بالقصور والدَّوْر، ففي (المُعجَم الوسيط) مثلًا، وَرَدَ في مادَّة (الخَلْف): ضدّ قُدّام (مؤنّثة) يكون ظَرْفًا [تكون: أوْلَى]، وقد يَخرج عن الظَّرْفيَّة فينصرف.
- إذا بحثنا في الوسيط عن (قُدّام) وَجَدْنا أنّها: ظَرْف بمعنى أمام، فإذا فتَّشنا عن (أمام) وجدنا أنّها: ظرف بمعنى قُدّام، وهكذا تَتَّسم التعريفات بالقصور وبالدَّور... وقد اضطرّ الوسيط في آخر التَّعريف إلى أنْ يقول: يكون ظَرْفًا وقد يَخرج عن الظَّرفيَّة فينصرف، لأنّه ذَكَرَها مع المادَّة الاسميَّة (الخلف). امّا قوله: فينصرف ففيه تَرخُّص في التَّعبير، لأنّ المَقصود (فيتصرَّف) أي لا يلازم النَّصب على الظَّرفيَّة...
- (مؤنّثة) ليست دقيقة لأنّها من الكلمات التي تُؤنَّث وتذكَّر، وهنا بالذات ليس لها ضرورة لأنّها ليست موصوفًا لنَحتاج إلى تأنيث صفته أو تَذكيرها.
- وأخيرًا فإنّ كلمة (خَلْف) تنتمي إلى مَجموعة معجميَّة - نحويَّة أو نحويَّة - مُعجميَّة تُسمَّى (ظروف الغايات) ومن أفرادها: أسْفَلَ، أمامَ، بَدَلَ، بَعْدَ، تحْتَ، دونَ، شَمال، فَوْقَ، مَكان، وراء، يَمينَ...

وعلى الصِّناعة المعجميَّة العلميَّة أنْ تراعي:

- وجودها في المُعجَم الشّامل (قانون التّكامل).
- توحيد شروحها (قانون التّماثل).
- تمييز مَوادّها بأنْ تكون الواحدة منها مَصروفة، والأُخرى ممنوعة مثلًا (قانون المغايرة).
- ومُراعاة هذه القوانين أو المبادئ دليل على عَقْل تنظيميّ، وعلى وَعْي لغويّ وعلميّ، وعلى وجود مَنهَج، صَريح، أو ضمنيّ ناظم للموادّ، ولو لم يُصرِّح به المعجميّ...

نرى من خلال هذا المثال أنَّ (خلف) تنتمي كما ذكر الدُّكتور جورج إلى مجموعة (نحويّة/ معجميّة) أو (معجميّة/ نحويّة) وهذا معناه أنَّ (1) على صاحب المعجم أنْ يعي الحدود بين ما هو معجميّ وما هو نحويّ، وما هو معجميّ تحول إلى نحويّ أو العكس، أمّا ملاحظة أنَّ (خَلْفَ) لابد أنْ تشكّل مدخلًا مستقلًا بعيدًا عن الاسم (الخلف) لأنّها لا تقبل الألف واللام، ولا تُجمَع، وغير هذا من علامات الاسم الّتي فقدتها، فكل هذا يدل على

(2) ضرورة الفصل بين الصّيغة المنحَاة والصّيغة الّتي تطوّرت عنها واعتبار كل واحدة منهما مدخلًا مستقلًا، ولكنْ لا يمنعنا هذا من (3) الإشارة إِلى العلاقة الّتي تجمع بين الصّيغتين سواءً أكانت هذه العلاقة ناشئة عن الإِنحاء أم عن المَعجَمة، مع وضع رمز معين لكل منهما.

الخروج عن المسار

ولعلّ عنصرًا معيّنًا عند نقطة ما على مسار الإِنحاء لابد أنْ يكون موسومًا بمجموعة معينة من الصّفات الصّوتيّة والفونولوجيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة الّتي تميّزه عما يسبقه أو يتلوه من العناصر المتصلة به على هذا المسار، وقد يخرج هذا العنصر عن المسار عند نقطة معيّنة دون غيرها، فإِذا كان مسار الإِنحاء يبدأ بعنصر معجميّ فليس من الضّروريّ أنْ ينتهي بلاحقة تصريفيّة كما في مخطط «هوبر» و«تروجت»؛ فالشّيء الأكبر أهمية في نظر الدُّكتور «السِّيسيّ» أنّ اللّواصق التّصريفيّة ليست هي النّتيجة النّهائيّة لعملية الإِنحاء، وهذا معناه أنّ فقد المورفيم أو تقليصه إِلى الصّفر ربما يكون المحطة الأخيرة من تطوُّر بعض الصّيَغ المنحَاة كما في دورة تاملي جيفون Tamly Givón للإِنحاء[1]:

الخطاب > التّركيب > المورفولوجيا > المورفيميات الصّوتيّة > صفر

فالعناصر المعجميّة كما يرى الدُّكتور «السِّيسيّ» قد تترك مسار إِنحائها عند نقطة تسبق مرحلة اكتماله، ولا تتقدم عليها خطوة إِضافيّة، كما في حالة كثير من الأسماء والصّفات العربيّة الّتي تحوَّلت إِلى ظروف، مثل: (**أحيانٌ > أحيانًا/ كثيرٌ > كثيرًا**)، ويُطلَق على مثل هذا التّحوُّل «عَكس المقولة Category Conversion»[2]، ويمكن لنا قياس (**قريبٌ > قريبًا**) و(**بعيدٌ > بعيدًا**) و(**قليلٌ > قليلًا**) وأشباهها على هذا الصّنف من التّحوُّل. وهذا معناه بالنّسبة إِلى المعجميّ المؤرّخ ألَّا يتمَّ الجمع والحال هذه بين الاسم والظّرف أو بين الصّفة والظّرف في مدخلٍ واحد لاختلاف صنفهما المقوليّ من ناحية، ولسبق الأُولى الثّانية من ناحية أُخرى ما لم نجد من الشّواهد ما يخالف هذا.

---

(1) adapted from Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.192.

(2) Ibid., p.192.

فرضيّة تحديد المصدر

إنَّ إحدى أهم الفرضيَّات الَّتي وضعتها بيبي وآخرون Joan Bybee et al 1994 في سبيل بناء نظريّة عن الإنحاء هي «فرضيّة تحديد المصدر Source Determination Hypothesis»[1] ومؤدى هذه الفرضيّة أنَّ «المعنى الحقيقيّ للبنية موضع الإنحاء يحدّد بصورة أساسيّة مسار هذا الإنحاء، ويحدّد بالتّالي المعاني النَّحويّة النّاجمة عنه»، وهذا يستتبع النّظر في المعاني الَّتي تعمل بوصفها مصادر للإنحاء، فليست جميع المعاني قابلة للإنحاء، وإذا كان الإنحاء ينطوي على تغيُّر دلاليّ، فإنَّ «التَّغيُّرات الدّلاليّة الَّتي تؤدي إلى الإنحاء وتستمر خلاله هي التَّغيُّرات الَّتي تضاعف عموميّة معنى الصّيغ المنحَاة»[2]، فالعناصر المعجميّة موضع الإنحاء تخضع بالفعل لتغيُّرات دلاليّة تؤدي إلى تعميم يمثّل في العادة السّمات الدّلاليّة لمجالاتها الَّتي تنتمي إليها، أمَّا العناصر المعجميّة الَّتي لا يمكن وسمها بعموميّة دلاليّة أو العناصر النَّحويّة الَّتي ربما تشترك في البنية المصدر، فهذه يمكن تأويلها - كما صنعت «بيبي» وآخرون[3] - كي تعادل حالات أفعال الوجود والملكيّة والتّموضع الفيزيائيّ والحركة في فضاء مكانيّ وغيرها من الأفعال الموسومة بالتّعميم، ولكنْ إلى جانب العموميّة الدّلاليّة هناك المفاهيم الأساسيّة الغير قابلة للاختزال الَّتي تشكّل أساس المعاني النَّحويّة في اللُّغات البشريّة، هذه المفاهيم هي ما يجري عليه الإنحاء، ورأتْ «بيبي» وآخرون أنَّ هناك دراسات أخرى توصلت إلى مثل هذه النتيجة؛ فـ«تروجت» Traugott (1982: 246) أشارت إلى أنَّ المفاهيم المصدر هي المفاهيم الَّتي تعدُّ أساسيّة في المواقف الكلاميّة، كذا لاحظ «هين» و«كلودي» و«هنمير» (Heine, Claudi, and Hunnemeyer 1991: 33) أنَّ التّصورات/ المعاني المصدر موضع الإنحاء هي التّصورات الأساسيّة في التّجربة الإنسانيّة، وأنّها إلى حد كبير تصورات مستقلة ثقافيًّا؛ لأنّه يتم فهمها وإدراكها بطريقة ثابتة رغم اختلاف اللُّغات والأعراق[4].

---

(1) see Joan Bybee, Revere Perkins & William Pagliuca1994: op. cit., p.9.
(2) Ibid., p.9.
(3) see Ibid., p.9;10.
(4) after Ibid., p.10.

وأحسب أنَّ تلك النّتيجة يمكن دعمها وتأكيدها من خلال نتائج أخرى توصلت إليها بعض دراسات الإنحاء الّتي اهتمت بما يُطلق عليه «الخفوت الدّلاليّ» أي بالسّؤال عن طبيعة المعاني الّتي تفقدها العناصر المعجميّة أثناء رحلتها الإنحائيّة حيث ترى إحدى هذه الدّراسات أنَّ ما تفقده العناصر المعجميّة في الإنحاء هو «المعاني غير المنطقيّة - non Logical Meanings»[1]، ومعنى هذا أنَّ ما يتبقى لها هو المعاني الأساسيّة أو قُل الذّرات الدّلاليّة الأساسيّة الأكبر عموميّة، ولقد قرّر «هوبر» و«تروجت» أنّنا حين ننظر إلى «المعجم Lexicon» لا يمكن أنْ نتصوّر أنّه يتضمن فقط السّمات التّركيبيّة أو الصّوتيّة للعناصر المعجميّة، بل يجب أنْ يحفل إلى جوار هذه بسمات تلك العلاقات الدّلاليّة بين الكلمات داخل المجالات الدّلاليّة الّتي تتكون منها؛ إذ من المقترح أنَّ المعاني المعجميّة القابلة للإنحاء هي المعاني الّتي تتسم بقدرٍ عالٍ من العموميّة - أو ما اصطلحا عليه بـ«الكلمات الأساسيّة Basic Words» - في مقابل الكلمات الأكبر خصوصيّة داخل المجال الدّلاليّ[2]، أضف إلى هذا أنَّ العناصر القابلة للإنحاء تمثّل مظاهر أساسيّة وثابتة في علاقة الإنسان بالبيئة لاسيما البيئة المكانيّة[3]، ولعل أحد الأمثلة المهمة الّتي ضربتها «بيبي» وزميلاها في هذا الإطار هو استعمال الكلمات الدّالة على أعضاء جسم الإنسان في بنى نحويّة تشير إلى علاقات مكانيّة، وأشاروا إلى عدة دراسات قامت بتوثيق ظاهرة استعمال كلمة «Face» ليس بمعنى «وجه» إنّما بمعنى «في مقابل in front of» وذلك في عدة لُغات لا تجمع بينها صلة أو قرابة، الأكيد أنَّ كلمة «Face» تعدُّ مميزة بمعناها حيث تشير إلى عضو محددٍ ومعقدٍ من أعضاء جسم

والدّراسات المشار إليها في الاقتباس على التّوالي للاطلاع هي:

Elizabeth Closs Traugott 1982: From Propositional to Textual to Expressive Meanings: Some Semantic-Pragmatic Aspects of Grammaticalization. In W. P. Lehmann & Yakov Malkiel (Eds.): Perspectives in Historical Linguistics. 245-71. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.

B. Heine, U. Claudi & F. Hunnemeyer 1991: Grammaticalization: A Conceptual Framework. University of Chicago Press.

(1) after Ian Roberts 2010: Grammaticalization, The Clausal Hierarchy and Semantic Bleaching. p.66. in Elizabeth Closs Traugott & Graeme Trousdale (Eds.): Gradience, Gradualness and Grammaticalization. John Benjamins Publishing Company.

(2) adapted from Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003: op. cit. p.101f.

(3) after Joan Bybee 2003: op. cit., P.151.

الإنسان، ولكنْ لاحظ أنّها ليست «وجه» بهذا المعنى هي ما يدخل ضمن تلك البنى النَّحويّة؛ فربما خضعت الكلمة لتعميم دلاليّ عن طريق المجاز كي تؤدي معنى «Front» كما في التّعبير الإنجليزيّ «the face of the cliff وجه الهاوية/ مقدمة الهاوية»، ثُمَّ دخلت - بعد أنْ دلّت على علاقة مكانيّة عامّة - مسارًا إنحائيًا لِتصبح من خلاله حرف جر. ومن ثَمَّ قرّر المؤلفون أنّه في سبيل تقصي أصل المعنى النَّحويّ لابد أنْ ننظر في البعد التّركيبيّ والصّرفيّ لبنية المصدر، وليس في المعنى الإحاليّ لعناصرها المعجميّة[1].

المصدر والهدف:

إنَّ فرضية تحديد المصدر تؤكد على أنَّ سمات دلاليّة معينة لها علاقتها - أولًا - بما يجوز إنحاؤه وما لا يجوز، وبالمسار الَّذي يسلكه هذا الإنحاء - ثانيًا - وبطبيعة المعاني النّاجمة عنه - ثالثًا - وبالعلاقة بين مصدر الإنحاء (الكلمة أو الصّيغة أو البنية الَّتي يسري عليها الإنحاء) وهدفه (الصّيغة النّهائيّة النّاشئة عن الإنحاء) - رابعًا - ولها كذلك أثرها في طبيعة هذه العلاقات. فالإنحاء إذن ليس مسألة اعتباطيّة إنّما هناك جملة من الخصائص الَّتي تميز الصّيغ القابلة للإنحاء استنبطها الباحثون من خلال جرد سمات العديد من هذه الصّيغ في لُغات مختلفة.

وتؤكد «بيي» بشأن المصادر المفاهيميّة لعمليّة الإنحاء أنَّ العلاقة المكانيّة بين شيئين دائمًا ما يتم التّعبير عنها في كثير من اللُّغات عن طريق علاقة أحد أعضاء جسم الإنسان ببقية الأعضاء الأخرى؛ وعليه فإنَّ الاسم رأس Head يشارك في معنى حروف الجر on the top of/ top/ on، ويستعمل الاسم خلف Back في معنى in back of، أمّا الاسم وجه Face فيستعمل في معنى in front of، كذا قرّرت أنّه من خلال تقصي هذه الوحدات العلاقيّة في 125 لُغة إفريقيّة، توصّلت دراسة «هين» ورفيقاه Heine et al 1991 إلى أنَّ أكثر من ثلاثة أرباع العناصر (المفردات) مشتقة من أسماء أعضاء جسم الإنسان، أمّا سفورو Svorou 1993 فقد توصّل من خلال بحث أمثلة مختلفة من جميع

[1] after Joan Bybee, Revere Perkins & William Pagliuca1994: op. cit., p.10-11.

الفصائل اللُّغويّة إِلى أنَّ أعضاء الجسم البشريّ هي مصدر هذه الوحدات العلاقيّة، أضـف إِلى هذا أنَّ العلاقـة بـين هـذه العناصـر المكانيّـة والنِّظـام النَّحـويّ المجرد تمَّ التَّأكيـد عليهـا منـذ الـسَّبعينيّات حـين اقـترح أندرسـون 1971 Anderson نظريّـة لــ«الحـالات النَّحويّـة Grammatical Cases» تقوم بالأساس على العلاقات المكانيّة[1].

وعلى الرُّغم من أنَّ بعض الأمثلة السّابقة ربما تقترح علاقـة أحاديّـة (مـن واحـد إِلى واحد) بين المفهوم المصدر والهدف؛ بمعنى أنَّ ناتج عملية الإِنحاء عنصر وحيد، يـرى الـدُّكتور «السِّيسيّ» العلاقة بينها على العكس من هذا علاقة (واحد لمتعدد)؛ بمعنى أنَّ مفهـوم مـصدر وحيد يمكن أنْ يكون له أكثر من هدف؛ أي أنَّ إِنحاء هذا المـصدر ينـتج الكـثير مـن العناصـر والصِّيغ المرتبطة بهذا المصدر، وشاهده على هذا من العربيّة كلمـة (سـواء)، فالـصِّيغ المنحـاة عن هذه الكلمة تتضمن الرَّابط (سواءٌ)، وأداة الاسـتثناء (سوى)، و(لاسيما)، فهـذه الأمثلـة برأيه شاهدة على ما اصطلح عليه كولت كـريج Colette Craig سـنة 1991 بــ«الإِنحـاء المتعدد Polygrammaticalization»[2].

ومن أمثلة الإِنحاء المتعدد أيضًا (حتى)، يقول «ابـن منظـور»: «قـال «الأزهـريّ»:... وقال بعضهم (يقصد: النَّحويّين): حَتَّى فَعْلى من الحتّ، وهو الفراغ مـن الـشَّيء مثـل شَـتَّى من الشَّتّ،... وقال «الجوهريّ»: حَتَّى فَعْلـى، وهـي حـرف[3]، ومـن المعـاني الأُخـرى الـتي ذكرها «الجوهريّ»: تكون جارة بمنزلة (إِلى) في الانتهاء والغاية، وتكون عاطفـة بمنزلـة الـواو،

---

(1) see Joan Bybee 2003: op. cit., P.152.

والدِّراسات المشار إِليها في الاقتباس على التّوالي للاطلاع هي:

B. Heine, U. Claudi & F. Hunnemeyer 1991: Grammaticalization: A Conceptual Framework. University of Chicago Press.

S. Svorou 1993: The Grammar of Space. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.

J. M. Anderson 1971: The Grammar of Case: Towards a Localist Theory. Cambridge University Press.

(2) see Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.193.

ودراسة كولت كريج المشار إِليها عنوانها:

Colette Craig 1991: Ways to go in Rama: A Case Study in Polygrammaticalization. In Elizabeth C. Traugott & Bernd Heine (Eds.): Approaches to Grammaticalization. Vol.2: 455-92. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.

(3) ابن منظور: مرجع سابق، المجلد 2: ص23، 24.



وقد تكون حرف ابتداء، يُستأنف بها الكلام بعدها[1]، ويرى الدُّكتور «السِّيسيّ» أنَّ مثل هذه المعاني الدِّلاليّة والوظائف النَّحويّة لكلمة (حتى) توضح لنا أنَّ هذه الكلمة المشتقة من مصدر اسميّ جرى عليها ما يسمى «إعادة تحليل Reanalysis»[2] فاستعملت كحرف جر وكأداة، وأنَّ من آثار إعادة التَّحليل تعدد الوظائف والعلاقات التَّركيبيّة الخاصّة بهذه الكلمة[3]، ولكنَّه يرى من ناحية أخرى أنَّه ربما ينشأ عن الإنحاء المتعدد غموض دلاليّ وتركيبيّ، مثال هذا استعمالنا (حتى) كحرف جر في مثل قولنا: أكلتُ السَّمكة حتى رأسها. الَّذي يتعارض مع استعمالها كأداة حيث يصبح المعنى: (أكلتُ السَّمكة، وحتى الرَّأس أكلتُها) [4].

إنَّ وجود أسماء أعضاء جسم الإنسان في صدر مسار إنحائيّ تثمر نهايته عن حرف جر يتمتع بمفهوم دلاليّ تضمَّنته دلالات هذا الصَّدر أو المصدر باصطلاح أهل الإنحاء ووفقًا لـ«فرضيّة تحديد المصدر SDH» يذكّرنا بمقاربة «بروكلمان» لحروف الجر في اللُّغات السَّاميّة - الَّتي أشرت إليها في بداية هذا البحث - حيث افترض أنَّ حروف الجر في اللُّغات السَّاميّة تطوَّرت عن الأسماء الَّتي تشير إلى أعضاء جسم الإنسان، وأنَّ تطوُّرها هذا مرَّ بمراحل أربعة من خلال آليَّات ثلاثة هي: فقد المحتوى الدِّلاليّ (من المرحلة الأولى إلى الثَّانية)، و«التَّحجر fossilization» (من المرحلة الثَّانية إلى الثَّالثة)، والتّقلص إلى وظيفة نحويّة خالصة (في المرحلة من الثَّالثة إلى الرَّابعة) [5].

وفي اللُّغة العربيّة واتصالًا كذلك بالمصادر المفاهيميّة للإنحاء وسمات العناصر المنحَاة أشار الدُّكتور «السِّيسيّ» إلى أنَّ أسماء أعضاء جسم الإنسان الَّتي تشير إلى علاقات مكانيّة يتم إنحاؤها كحروف جر: **(فو - فم> في)**، و**(وسط> وسط)**، و**(خلف> خلف)**، و**(قدم > قدام)**، على عكس العناصر المحدّدة دلاليًّا مثل **(كاحل - رمش - وغيرها)** [6]. وجدير

---

(1) ابن منظور: السّابق نفسه، ص24.

(2) راجع الهامش رقم 86 من هذا البحث.

(3) see Mohssen Esseesy 2009a: op. cit. p.39.

(4) see Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.193.

(5) see Christian Lehmaan 2011: op. cit., p.2.

(6) see Mohssen Esseesy 2007: op. cit. p.193.

بالذّكر هنا أنّ الدُكتور «السّيسيّ» قارب في رسالته للدكتوراه الّتي نشرتها Brill سنة 2010 إنحاء حروف الجر في اللّغة العربيّة، وقد قامت الدّراسة على مدونة لا بأس بها[1] من النُّصوص العربيّة القديمة والمعاصرة (شملت القرآن الكريم، وألف ليلة وليلة، وبعض الرّوايات والأعمال الإبداعيّة المعاصرة بالإضافة إلى عددٍ لا بأس به من الأعمال السّياسيّة والثّقافيّة، وبعض الصُّحف المصريّة كالأهرام والحياة والوطن والتّجديد، والكتابات اللّهجيّة مثل دردشة مصريّة)، وكان من الإجراءات اللّافتة في هذه الدّراسة توسيع فئة حروف الجر اعتمادًا على التّشابهات الوظيفيّة المشتركة بينها وبين فئات وظيفيّة أُخرى لتشمل على سبيل المثال بعض الظُّروف كفئات فرعيّة لها[2]؛ لذا تجده في الاقتباس السَّابق يجمع بين (في ووسط وخلف وقدام)، وتتلخص وجهة نظره في أنّ الوظائف المتعددة الّتي تؤديها مثل هذه الفئات أو مُتّصل الوظائفيّة التّدرُجيّ Gradational Continuum of Functionality[3] الخاصّ بها يتحدى ذلك التّصنيف التُّراثيّ الضّيق، وأنّه من غير المنطقيّ أنْ يتم حصر هذه الكلمات في مقولة تركيبيّة لا تعكس ذاك المدى الواسع من وظيفيَّتها أو استعمالاتها داخل السّياقات المختلفة[4]. وبغض النَّظر عن تصنيفه لهذه العناصر والعناصر المشابهة لها وظيفيًّا فإنّ مناقشة صحة هذا التَّصنيف أو عدم صحته (وهو ما يقع بعيدًا عن مجال هذه الدّراسة) لن تقدح في مقاربته للإنحاء الحاصل في تلك العناصر، وهو ما يشغلنا في البحث الحاليّ، ومن أمثلة هذه الدّراسة إنحاء حرف الجر (في) كما يمثّله الجدول التّالي[5]:

---

(1) يرى «ويلمسن» أنّ هذه المدونة تعتبر صغيرة نسبيًا، وأنّها ربما كانت مناسبة وقت اعتماد دراسة الدُّكتور السّيسيّ عليها غير أنّها خضعت للتحديث. انظر:

Von David Wilmsen 2011: On Grammaticalization Processes in Arabic, the Use of Corpora and the Limits of Theory: Claims and Counter Claims. p.1 In Orientalistische Literaturzeitung 106 (6): 1-9.

(2) see Mohssen Esseesy 2010: Grammaticalization of Arabic Prepositions and Subordinators. A Corpus-based Study. p.339. Leiden: Brill.

(3) see Mohssen Esseesy 2010: op. cit., p.344.

(4) see Mohssen Esseesy 2010: op. cit., p.348.

(5) see Mohssen Esseesy 2010: op. cit., p.186.

Stage	Period	Primary function	Form	Category
0	Pre-Classical	Concrete reference to body part	*fū/fī/fā* 'mouth'	Noun
I	Pre-Classical	Complement of *bi*-; preposition	*bi-fī/fī* 'within'/ in, at	Nominal dependent/ preposition
II	Classical/ Pre-Modern	Preposition	*fī*	Preposition
III	Modern	Preposition/particle	*bada'a fī*	Adprep
IV	Modern	Textual organizer	*fī l-wāqi'* 'indeed'	Clause linker
V	Modern	Existential pronoun	*fī* 'there is'	Pronoun
VI	Modern	clitic	*f-*	Phoneme (e.g., in *fēn* 'where')

ووفقًا لهذا الجدول يمكننا القول إنَّ إنحاء حرف الجر (في) مرَّ بست مراحل؛ أولها تحوُّل هذه المفردة ||من اسم معجميّ دال على عضو من أعضاء جسم الإنسان (فو - في - فا) > إلى مكمل [اسميّ] لحرف الجر الباء في مثل (بفي)|| في عربيّة ما قبل الفصحى، > ثمَّ إلى حرف جر (في)|| في العربية الفصحى وما قبل المعاصرة، > ثمَّ إلى أداة في مثل: (بدأ في)||، > ثمَّ إلى رابط نصيّ في مثل: (في الواقع)||، > ثمّ إلى ضمير في مثل: "في ناس محترم"، > ثمَّ إلى متصل Clitic في مثل: "فين"|| في العربيّة المعاصرة.

فإذا كان المعجم التّاريخيّ للُّغة العربيّة معنيًّا بمتابعة كل صيغة لُغويّة عربيّة منذ ولوجها متن هذه اللُّغة وحتى انقراضها، وبمتابعتها أيضًا إذا انتقلت إلى لُغة أُخرى بالإضافة إلى توثيق وتأريخ جميع التّغيُّرات الَّتي تلحق بها، فإنَّ نتائج بحوث الإنحاء في اللُّغة العربيّة لابد أنْ تلقى عناية القائمين على بناء هذا المعجم.

اللُّغة العربيّة في معجم الإنحاء:

أقدّم فيما يلي وصفًا موجزًا لمعجم من المعاجم الرّائدة في مجال الإنحاء مبينًا مدى الاهتمام الَّذي حظيت به اللُّغة العربيّة داخل هذا المعجم، وهو في الحقيقة اهتمام ضئيل جدًّا مقارنة بلُغات أُخرى، الأمر الَّذي ينبّه الباحثين العرب إلى ضرورة الاهتمام بهذه الظّاهرة وبحثها بحثًا جادًّا يستوعب أُسس مقاربتها النَّظريّة والتَّطبيقيّة بحيث نراعي من خلاله خصوصيّة تطوُّر اللُّغة العربيّة ونتيح له قدرًا كبيرًا من الانضباط العلميّ كي تنعكس تلك



الخصوصيّة على مرآة المسارات الإنحائيّة (السّليمة والصّحيحة) للصيغ المعجميّة والنّحويّة العربيّة، وأزعم أنَّ إنجاز معجم للإنحاء في اللُّغة العربيّة خطوة مهمة في سبيل صناعة المعجم التّاريخيّ للُّغة العربيّة؛ ذلك أنَّ وجود معجم الإنحاء - الَّذي سوف أعرض له في الصّفحات القليلة التّالية - خير دليل على مكانة الإنحاء وأهميته في الدّرس اللّسانيّ بصفة عامّة وفي الصّناعة المعجميّة بصورة خاصّة.

صدر معجم الإنحاء عن جامعة كامبريدج سنة 2002 بتأليف كل من برنند هين Bernd Heine وتانيا كوتيفا Tania Kuteva وبمساعدة فريق ضخم ضمَّ أبرز الأسماء الرّائدة في مجال دراسة الإنحاء، تحت رعاية جمعية البحث الألمانيّة Deutsche Forschungsgemeinschaft (German Research Society)، ولمّا كان هذا المعجم يتضمن أمثلة من لُغات ولهجات كثيرة من مختلف أنحاء العالم (وصل عددها إلى500 لُغة) فقد تمت عنونته بمعجم الإنحاء الشّامل « World Lexicon of Grammaticalization»، هذه الأمثلة - بحسب مقدمة المعجم - نتاج عشر سنوات (1991 حتى 2000م) من البحث والاستقصاء في هذا المجال. ويهدف هذا المعجم إلى أنْ يقدّم للقارئ الوسيلة الَّتي يفهم من خلالها كيف ترتبط المعاني النّحويّة المختلفة مع بعضها البعض بطريقة صحيحة ومنظمة بعيدًا عن جفاف التّضمينات النّظريّة للإنحاء، وبتعريف القارئ بثروة من المعلومات الَّتي تمَّ نشرها خلال ثلاثين سنة قبل صدوره بشأن أصول الصّيَغ النّحويّة وتطوُّراتها، وتمثّل الجمهور المستهدف بهذه المعلومات في اللّسانيّين الوصفيّين والتّاريخيّين على السّواء، فالتّاريخيُّون منهم سيجدون فيها آليّات جديدة بعيدًا عن منهج المقارنة وإعادة البناء الدّاخليّة Internal Reconstruction الَّتي لم تأتِ - بحسب أصحاب هذا المعجم - بنتائج مناسبة[1]. أمّا الوصفيُّون فسيجدون الأسباب الَّتي تربط بين المعاني النّحويّة المختلفة، وتلك الَّتي تقف وراء ذلك التّرابط بين الصّيَغ النّحويّة والمعاني الَّتي تعبر عنها، وهذه الثّاوية خلف امتلاك الصّيَغ اللُّغويّة وظائف معجميّة ونحويّة[2]، هذا بالإضافة

---

(1) see Bernd Heine & Tania Kuteva 2004: op. cit. p.1.
(2) Ibid., p.1.

إلى أنَّ علماء النَّفس والأنثروبولوجيِّين وعلماء الاجتماع ربما يجدون في هذا المعجم سبيلًا جديدًا للكشف عن أنَّ هذا النَّوع من السُّلوك الإنسانيّ المسؤول عن تطوُّر الصِّيغ النَّحوية لا يختلف كثيرًا عن السُّلوك الَّذي يلحظونه في مجال عملهم[1]. كذلك حوت مقدمة المعجم تعريفًا موجزًا بالإنحاء وبنظريّته وبالآليّات الَّتي ينطوي عليها[2] ومن ثمَّ بالمشكلات الَّتي قد تواجه هذه النَّظريّة وتلك الَّتي واجهتهم في اختيار طريقة مناسبة لصياغة المداخل[3]. وتلا هذا عرض لقواعد استعمال المعجم وإرشاداته ببيان أنواع المعلومات وطريقة تعيين المداخل واللُّغات والأمثلة والشُّروح[4].

وقد تضمَّن المعجم حوالي (400) عملية من عمليات الإنحاء المختلفة الَّتي جاءت مرتبة حسب الألفبائيّة الإنجليزيّة وفق ثُنائيّة (المصدر - الهدف Source - Target Lexicon)، بمعنى أنَّ كل مدخل يبدأ بالمفهوم أو الوظيفة الَّتي يؤديها عنصر (معجميّ/ نحويّ) ما في أصل وضعه داخل اللُّغة وينتهي بالمفهوم أو الوظيفة الَّتي أصبح عليها بعد الإنحاء، ثمَّ تُرتب هذه الوظائف ألفبائيًّا باعتبار الوظيفة الأصليّة، بعدها يقدِّم المعجم تعريفًا لهذه الثُّنائيّة/ نوع الإنحاء، ثمَّ يسرد مجموعة اللُّغات أو اللَّهجات الَّتي توجد بها هذه الثُّنائيّة/ نوع الإنحاء مشفوعة بالأمثلة والشَّواهد الَّتي تمثِّل هذه العملية أو غيرها. ويصرح أصحاب المعجم باحتواء مداخله على نوعين من المعلومات؛ الأولى: مجموعة معطيات وبيانات من لُغات مختلفة لا تجمع بينها - في الأغلب الأعم - فصيلة أو صلة، والثَّانية: تحليل لهذه المعلومات ممثلًا في تصنيفها وتفسيرها التَّاريخيّ[5]، وقد تستلزم بعض المداخل قدرًا من التَّفصيل أو التَّعليق حسب طبيعة عملية الإنحاء الَّتي يمثِّلها المدخل أو أحد طرفيه (المصدر والهدف) أو كلاهما.

أمَّا عن نصيب اللُّغة العربيّة من هذا المعجم - إذا تمت مقارنتها بلُغات ولهجات أُخرى - فهو نصيب ضئيل جدًّا، ولعل السَّبب وراء هذا يكمن في قيام المعجم على

---

(1) Ibid., p.1.
(2) Ibid., p.2-5.
(3) Ibid., p.5-13.
(4) Ibid., p.13-14.
(5) Ibid., p.13.

الدِّراسات الَّتي تمَّ إنجازها بالفعل حول الإنحاء والاعتماد على الأمثلة الَّتي وردت في ثنايا هذه الدِّراسات وأغلبها لم يكن معنيًا ببحث الإنحاء في اللُّغة العربيّة، ولم يكن معنيًّا باستنتاج الأمثلة من مظانها العربيّة وفق مدونة مناسبة، وربما يعود السَّبب أيضًا إلى أنَّ دراسات الإنحاء في اللُّغة العربيّة المكتوبة بلُغات أجنبيّة - على أهميتها في التَّعريف بالظَّاهرة والتَّنقيب المضني من أجل التماس أكبر عدد من أمثلتها الصِّحاح - دراسات ليس لها حظ كبير من الوفرة العدديّة ناهيك بقطاعيّة مثل هذه الدِّراسات، والجدير بالملاحظة هنا أنَّ هناك دراسات عديدة حول الإنحاء في اللُّغة العربيّة صدرت قبل نشر هذا المعجم بكثير أغفلها المعجم أو تغافل عنها، وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك دراسة الدُّكتورة «بلقيس النَّجار» الصَّادرة سنة1991[1]. وبمراجعة مصادر ومراجع هذا المعجم - وقد جمعتْ كل العناوين الَّتي تتصل بصورة أو بأخرى بالبحوث الَّتي قام عليها المعجم - لم أجد غير دراسة وحيدة أجراها «هين»[2] سنة 1982على اللَّهجة النُّوبيّة لم يكن الإنحاء أحد مفردات عنوانها، فذهبتُ أراجع مصادر مداخل هذا المعجم الَّتي ذكرت اللُّغة العربيّة ضمن شواهدها فوجدتها دراسات معنية ببحث العموميّات اللُّغويّة أو بدراسة إحدى اللَّهجات العربيّة المعاصرة، وكان للَّهجة النُّوبيّة النَّصيب الأكبر من البحث والدِّراسة إلى جانب لَهجات العربيّة في السُّودان وسُوريا وفلسطين، والواقع أنَّ دراسات الإنحاء بوجه عام - وعلى اختلاف منطلقاتها النَّظريّة - تستعين بالواقع اللَّهجيّ لاستكمال الصُّورة بشأن المسار الإنحائيّ للعناصر المعجميّة موضع بحثها. وعلى أيّة حال، كان من بين أوضح العمليّات الإنحائيّة الَّتي أشار إليها هذا المعجم ومثَّلت اللُّغة العربيّة أحد شواهدها ما يلي:

1- (Allative > Until (Temporal))

تقوم هذه الثُّنائيّة (= عملية الإنحاء) على تحوُّل الحالة المكانيّة الَّتي تدل المفردة عليها (المصدر) إلى حالة زمانيّة (الهدف)، فمصدر هذه الثُّنائيّة Allative يشير إلى الحالة الَّتي يتمُّ

---

(1) see Balkees Al-Najjar 1991: Grammaticalization of Lexical Markers in Kuwaiti Arabic. Folia Linguistica XXV (3-4): 665-75.

(2) عنوان هذه الدِّراسة:

Bernd Heine 1982: The Nubi Language of Kibera – An Arabic Creole: Grammatical Sketch and Vocabulary. (Language and Dialect Atlas of Kenya, 3) Berlin: Reimer.

من خلالها تعيين منتهى حركة ما ووجهتها[1]؛ كأنْ نقول: ذهبتُ إلى البيت. بمعنى أنّها تدل على الغاية. أمّا هدف هذه الثُنائيّة أو نهاية مسار الإنحاء فتشير إلى حالة زمنيّة، ومثّل المعجم لهذه الثُنائيّة في اللُغة العربيّة بحرف الجر (إلى)[2]، واستعمل المعجم لفظ (العربيّة) دون تخصيص أو وصف، ولكنّه لم يقدّم شاهدًا على هذا، ويمكننا التماس شاهد هذه الثُنائيّة في مثل قولنا: انتظرتُ إلى الفجر.

(Benefactive > A - Possessive) -2

وتقوم الثُنائيّة على تحوُّل المفردة من تعيين حالة المستفيد (شخص أو شيء) من حدث الفعل[3] إلى حالة الإضافة والملكيّة[4]، ومثّل المعجم لهذه الثُنائيّة في اللُغة العربيّة بحرف الجر اللّام (لـ)[5]، وكان شاهده على هذا من (العربيّة المعاصرة) قولهم: "للبيت".

(Comitative > H - Possessive) -3

وتقوم على التّحوُّل من مفهوم المشاركة والمعيّة[6] إلى مفهوم الامتلاك[7]، ومثّل المعجم لها في العربيّة بالحرف (مع)[8]، ولم يرد شاهد على هذا، ولم يحدد المعجم وصفًا للعربيّة كما فعل في العمليات الإنحائيّة الأخرى، ويمكن أنْ نمثّل لهذه العملية بقولنا: سافرتُ مع محمد ومعي دينار.

---

(1) R. L. Trask 1993: A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics. p.13. London and New York: Routledge.

(2) see Bernd Heine & Tania Kuteva 2004: op. cit., p.41.

ومرجعه في هذا الشأن دراسة:

artin Haspelmath 1997: From Space to Time: Temporal Adverbs in the World's Languages. p.67. Munich and Newcastle: Lincom Europa.

(3) Ibid., p.17.

(4) Ibid., p.24.

(5) Ibid., p.54.

(6) Ibid., p.18.

(7) Ibid., p.24.

(8) Ibid., p.88.

(Same > Intensive Reflexive) -4

وتقوم على التَّحوُّل من المطابقة إلى الذّاتويّة (نفس > ذات)، ومثّل لها المعجم بالعربيّة السُّوريّة[1] رغم وجودها في لَهجات عربيّة مختلفة،

(Sit (to sit, to stay) > Habitual) -5

وتقوم على التَّحوُّل من البقاء والاستقرار إلى الاستمرار، ومثّل لها بتحوُّل (قاعد) العربيّة السُّودانيّة إلى (قي) في اللَّهجة النُّوبيّة، وعلّق على هذا المسار بأنّه جزء من عمليّة عموميّة يتمّ خلالها إنحاء أفعال الأوضاع Postural Verbs إلى علامات تدل على استمرار الأحداث[2].

واللّافت هنا أنّ هذه أمثلة قليلة جدًّا لعمليّات الإنحاء في اللُّغة العربيّة بوجه عام، كما أنّها تضمَّنت فقط بعض التّنوعات اللُّغويّة ولم تتناول كامل التّنوعات الّتي تنتمي إلى العربيّة، ناهيك باحتياج هذه العمليّات إلى إعادة فحص وفق مدونة مناسبة، فالحروف الّتي تمّ التَّمثيل بها ضمن العمليّات السّابقة لها - إنْ أردنا أنْ يكون مثل هذا المعجم جامعًا شاملًا - أنْ تكون جزءًا أساسيًّا في عمليّات إنحائيّة أخرى لم يأت المعجم على ذكرها، أو أنْ تشاركها مساراتها بعض العناصر النَّحويّة والمعجميّة الأخرى، أضف إلى هذا ضرورة التَّنبيه إلى أنَّ هناك دراسات تلت تاريخ صدور هذا المعجم تناولت الإنحاء في العربيّة وأسفرت نتائجها عن بعض العمليّات الّتي يمكن أنْ تُضاف إلى رصيد العربيّة من المسارات الإنحائيّة، فدراسة الدُّكتور «السِّيسيّ» 2010م - على سبيل المثال - جعلت الثُّنائيّة التّالية:

Allative > Purpose

ومفادها التَّحوُّل من حالة مكانيّة إلى غاية أو غرض ممثّلة بالحرفين: (اللّام - لـ) و(حتى)[3] في قولنا: (1) غادر لبيروت بالقطار، و(2) تسلَّق الجبل حتى القمة. ومعنى هذا أنَّ مسار إنحاء (اللّام) هو نفسه المسار الخاصّ بـ(حتى) لانتمائهما - رغم اختلاف بعض

---

(1) Ibid., p.261.

(2) Ibid., p.278-9.

(3) see Mohssen Esseesy 2010: op. cit., p.291.

التّفاصيل الدّلاليّة - إلى مجال دلاليّ مشترك هو القصد إلى تحقيق غرض ما، أضف إلى هذا أنّ (اللّام) الّتي كانت منذ قليل مثالًا للثّنائيّة (Benefactive > A - Possessive) (رقم2 فيما سبق) هي الآن طرف في عمليات إنحاء أخرى مختلفة عمّا تم إثباته في المعجم الشّامل.

وما ينبغي أنْ نقوله في هذا المقام إنّنا بحاجة إلى معجم للإنحاء في اللُّغة العربيّة يستتبع كامل صيغها المنحَاة ومساراتها التّطوُّرية المختلفة متخذًا من ثنائيّة (المصدر والهدف) أساسًا في توزيع هذه الصِّيغ على المفاهيم والدّلالات المختلفة الّتي مثلتها طوال رحلتها التّطوُّرية تمامًا كما هو الحال في معجم الإنحاء هذا. إنّ أهمية وجود معجم كهذا في العربيّة تكمن في رسم صورة كاملة لتطوُّر الصِّيغ وتحوُّلاتها على المستوى المقوليّ والوظيفيّ مع التّأريخ لهذا التّحوُّل أو ذاك، وهذا الأمر يمثل أحد أهداف المعجم التّاريخيّ، بمعنى أنّ وجود هذا المعجم بصيغة محكمة قائمة على بحث دقيق لظاهرة الإنحاء قوامه مدونة واسعة ممتدة سيدعو القيمين على المعجم التّاريخيّ إلى إعادة النّظر في كثير من المسائل المعجميّة المتعلقة بهذه الصِّيغ.

وجملة القول: إنّ لـ«الإنحاء» علاقة قوية بالمعجم التّاريخيّ للُّغة بصفة خاصّة، وهي علاقة تفاعليّة؛ بمعنى أنّ الدّراسات الّتي تتبع التّغيُّرات الّتي تصيب ألفاظ اللُّغة وتراكيبها وفق قواعد الإنحاء فترصد تحوُّلها من ألفاظ معجميّة إلى ألفاظ نحويّة أو من ألفاظ أقل نحويّة إلى ألفاظ أكثر نحويّة أو تقف بها هذه الألفاظ عند مرحلة معينة من مراحل دورتها الإنحائيّة خلال فترة زمنيّة معينة من حياة أي لُغة، فإنّ مثل هذه الدّراسة يمكنها أنْ تزود صانعي المعجم بقائمة مهمة من الكلمات - حتى وإنْ لم تكن قائمة كبيرة العدد - لابد من أنْ يقفوا أمامها ويتأملوها ويتتبعوا مراحل ظهورها وتطوُّرها آخذين بعين الاعتبار التّفسيرات الّتي تقدمها دراسات الإنحاء بصفته فرضيّة قابلة للتّفسير والتّبرير، وعلى الجانب الآخر فإنّ وضع معجم تاريخيّ للُّغة العربيّة سيسهم بدوره في تقدّم مثل هذه الدّراسات الّتي لا تزال في بداية طريقها إلى اللّسانيّات العربيّة.

قائمة المصادر والمراجع

(أ) مصادر ومراجع عربيّة

د. أحمد العلويّ 2016:

المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة وشروط قيامه، ضمن كتاب «المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح»، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص ص49 - 68.

د. أحمد مُختار عمر 2002:

المعجم الموسوعيّ لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، الرّياض: مؤسسة سطور المعرفة، الطّبعة الأولى.

د. أحمد مُختار عمر 2008:

معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة، القاهرة: عالم الكتب، الطّبعة الأولى.

ثُريا السُّكريّ عَامِر 2009:

ظاهرة الإنحاء في اللُّغة العربيّة: الفعل النّاقص نموذجًا، تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيّات.

ابن جنيّ (أبو الفتح عثمان بن جنيّ، ت: 392ه):

الخصائص، تحقيق: عبد الكريم بن محمد، القاهرة: المكتبة التّوفيقيّة، د.ت.

د. جورج متري عبد المسيح 2016:

دورُ المعجم العربيّ في إحياء التّراث وتصوير الواقع واستشراف المستقبل، ضمن كتاب «المعجميّة العربيّة، قضايا وآفاق، الجزء الثّالث»، إعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم، ود. حافظ إسماعيلي علوي، إربد: دار كنوز المعرفة، الطّبعة الأولى، ص ص93 - 114.

أبو حيّان الأندلسيّ712 ه:

الإدراك للّسان الأتراك، مطبعة عامره، 1309.

الزّجاجيّ (أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق ت 337هـ):

الإيضاح في عِلل النّحو، تحقيق مازن المبارك، بيروت: دار النّفائس، الطّبعة الثّالثة.

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: 180هـ):

الكتاب، تحقيق عبد السّلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطّبعة الثّالثة، 1988.

د. عبد الرّزاق بنور 2014:

التّلازم الدّلاليّ والتّرسيس، ضمن كتاب «نحو معجم تاريخيّ للّغة العربيّة»، الدّوحة: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، الطّبعة الأولى، ص ص111 - 172.

د. عبد العلي الودغيري 2016:

التّاريخ المعجميّ والتّطوّر اللّغويّ، ضمن كتاب المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح»، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص ص93 - 122.

د. عبد المنعم السّيد جُدامي 2016:

المشكلات الثّقافيّة في معجم إلياس بُقطُر، ضمن كتاب «المعجميّة العربيّة: قضايا وآفاق - الجزء الثّالث» إعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم، ود. حافظ إسماعيلي علوي، إربد: دار كنوز المعرفة، الطّبعة الأولى، ص ص311 - 378.

د. علي القاسميّ 2014:

صناعة المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، بيروت: مكتبة لُبنان ناشرون، الطّبعة الأولى.

د. علي القاسميّ 2016:

معالجة قوانين التّغير اللُّغويّ في المعجم التّاريخيّ، ضمن كتاب المعجم التاريخي للغة العربية: رؤى وملامح»، إعداد د. منتصر أمين عبد الرحيم، ود. خالد اليعبودي، الرياض: مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة الأولى، ص ص159 - 196.

مكتب تنسيق التّعريب 2002:

المعجم الموحَّد لمصطلحات اللّسانيّات - سلسلة المعاجم الموحَّدة رقم (1).

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم، ت: 711ه):

لِسان العرب، بيروت: دار صادر.

(ب) مراجع أجنبيّة

Aaron David Rubin 2004:

Studies in Semitic Grammaticalization. PhD Thesis. Harvard University.

Antoine Meillet (Ed.) 1948:

Linguistique historique et linguistique générale. Tome I, (1912: L'évolution des formes grammaticales) Paris: Champion.

Balkees Al - Najjar 1991:

Grammaticalization of Lexical Markers in Kuwaiti Arabic. Folia Linguistica XXV (3 - 4): 665 - 75.

Bernd Heine & Mechthild Reh 1984:

Grammaticalization and Reanalysis in African Languages. Hamburg: Helmut Buske.

Bernd Heine & Tania Kuteva 2002:

On the Evolution of Grammatical Forms. in Alison Wary (Ed.): The Transition to Language. Oxford University Press.

Bernd Heine & Tania Kuteva 2004:

World Lexicon of Grammaticalization. Cambridge University Press.

Bernd Heine & Tania Kuteva 2005:

Language Contact and Grammatical Change. Cambridge University Press.

C. H. M. Versteegh 2006:



Arabic Linguistics Tradition. in K. Brown (Ed.): Encyclopedia of Language and Linguistics. Vol.1: 434 - 40. Amsterdam: Elsevier.

Christian Lehmaan 2011:

Grammaticalization of Semitic Case Relators. Aula Orientalis (29): 9 - 26. http://christianlehmann.eu/publ/gr - n_semitic_case.pdf.

Christian Lehmaan 2015:

Thoughts on Grammaticalization. 3rd Ed. Berlin: Language Science Press.

Elizabeth C. Traugott 2002:

From Etymology to Historical Pragmatics. in D. Minkofa & R. Stockwell (Eds): Studies in the History of the English Language. Berlin: Mouton de Gruyter.

Frederick J. Newmeyer 1998:

Language Form and Language Function. MIT Press.

Hana Zabarah 2012:

The Notion of 'Complete' and 'Incomplete' Verbs in Early Arabic Grammatical Theory. in Reem Bassiouney & Graham E. Katz (Eds.): Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics: Arabic Language and Linguistics. Washington: Georgetown University Press.

Henning Andersen 2008:

Grammaticalization in a Speaker - Oriented Theory of Change. in Þórhallur Eyþórsson (Ed.): Grammatical Change and Linguistic Theory. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins.

Ian Roberts 2010:

Grammaticalization, The Clausal Hierarchy and Semantic Bleaching. in Elizabeth Closs Traugott & Graeme Trousdale (Eds.): Gradience, Gradualness and Grammaticalization. John Benjamins Publishing Company.

Ilse Wischer 2000:

Grammaticalization versus Lexicalization: 'Methinks' there is some Confusion. In Olga Fischer, Anette Rosenbach & Dieter



Stein (Eds.): Pathways of Change: Grammaticalization in English. John Benjamins Publishing Company

Jerzy Kurylowicz 1975:
Esquisses Linguistiques. II. (1965: The Evolution of Grammatical Categories) Munich: Wilhelm Fink.

Joan Bybee, Revere Perkins & William Pagliuca1994:
The Evolution of Grammar: Tense, Aspect, and Modality in the Languages of the World. Chicago and London: University of Chicago Press.

Joan Bybee 2003:
Cognitive Processes in Grammaticalization. In M. Tomasello (Ed.): The New Psychology of Language. Vol.2. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Inc.

Joan Bybee & Joanne Scheibman 2007:
The Effect of Usage on Degrees of Constituency: The Reduction of Don't in English. in Joan Bybee (Ed.): Frequency of Use and the Organization of Language. Oxford University Press.

Joan Bybee 2009:
Grammaticization: Implications for a Theory of Language. In J. Guo, E. Lieven, S. Ervin - Tripp, N. Budwig, S. Ozcaliskan, and K. Nakamura (eds.), Crosslinguistic Approaches to the Psychology of Language: Research in the Tradition of Dan Isaac Slobin. New York: Taylor and Francis Group, LLC. 345 - 355.

John van der Auwera 2002:
More Thoughts on Degrammaticalization. in Ilse Wischer & Gabriele Diewald (Eds.): New Reflections on Grammaticalization. John Benjamins Publishing Company.

Lyle Campbell & Mauricio J. Mixco 2007:
A Glossary of Historical Linguistics. Edinburgh University Press.

Martine Vanhove, Catherine Miller and Dominique Caubet 2009:



The Grammaticalisation of Modal Auxiliaries in Maltese and Arabic Vernaculars of the Mediterranean Area. In Björn Hansen and Ferdinand de Haan (eds.): Modals in the Languages of Europe: a Reference Work. Empirical Approaches to Language Typology, No.44. Mouton de Gruyter.

Mohssen Esseesy 2007:

Grammaticalization. in Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.II. (191 - 8) Leiden, Boston: Brill.

Mohssen Esseesy 2009a:

Reanalysis. In Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.IV. (37 - 43) Leiden, Boston: Brill.

Mohssen Esseesy 2009b:

Semantic Bleaching. in Kees Versteegh et al (Eds): Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics. Vol.IV. (160 - 4) Leiden, Boston: Brill.

Mohssen Esseesy 2010:

Grammaticalization of Arabic Prepositions and Subordinators. A Corpus - based Study.. Leiden: Brill.

Muriel Norde 2012:

Lehmann's Parameters Revisited. in Kristin Davidse, Tine Breban & Lieselotte Brems (Eds.): Grammaticalization and Language Change: New Reflections. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins.

Nikolaus P. Himmelmann 2004:

Lexicalization and Grammaticalization: Opposite or Orthogonal?. p.21. in Walter Bisang, Nikolaus P. Himmelmann and Björn Wiemer (Eds.): Trends in Linguistics. Studies and Monographs. Berlin/Boston: Mouton De Gruyter.

Östen Dahl 2004:

The Growth and Maintenance of Linguistic Complexity. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins.



Paul J. Hopper 1996:
Some Recent Trends in Grammaticalisation. Annual Review of Anthropology, vol.25:217 - 36.

Paul J. Hopper & Elizabeth C. Traugott 2003:
Grammaticalization. 2nd ed. p.1 - 2. Cambridge: Cambridge University Press.

R. L. Trask 1993:
A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics. London and New York: Routledge.

Roger Lass 2000:
Remarks on (Uni)dierctionality. In Olga Fischer, Anette Rosenbach & Dieter Stein (Eds.): Pathways of Change: Grammaticalization in English. John Benjamins Publishing Company.

Stephen G. Alter 2001:
The Linguistic Legacy of William Dwight Whitney. in Sylvain Auroux et al. (Eds.): History of the Language Sciences. Vol.2. pp.1923 - 31. Berlin, New York: Walter de Gruyter.

Von David Wilmsen 2011:
On Grammaticalization Processes in Arabic, the Use of Corpora and the Limits of Theory: Claims and Counter Claims. Orientalistische Literaturzeitung 106 (6): 1 - 9.

ج) مراجع وردت ضمن مراجع البحث الأساسيّة

Bernd Heine 1982:
The Nubi Language of Kibera - An Arabic Creole: Grammatical Sketch and Vocabulary. (Language and Dialect Atlas of Kenya, 3) Berlin: Reimer.

B. Heine, U. Claudi & F. Hunnemeyer 1991:
Grammaticalization: A Conceptual Framework. University of Chicago Press.



Colette Craig 1991:
Ways to go in Rama: A Case Study in Polygrammaticalization. In Elizabeth C. Traugott & Bernd Heine (Eds.): Approaches to Grammaticalization. Vol.2: 455 - 92. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.

Elizabeth Closs Traugott 1982:
From Propositional to Textual to Expressive Meanings: Some Semantic - Pragmatic Aspects of Grammaticalization. In W. P. Lehmann & Yakov Malkiel (Eds.): Perspectives in Historical Linguistics. 245 - 71. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.

J. M. Anderson 1971:
The Grammar of Case: Towards a Localist Theory. Cambridge University Press.

James Li 1977 (Ed.):
Mechanisms of Syntactic Change. Austin: University of Texas Press.

Martin Haspelmath 1997:
From Space to Time: Temporal Adverbs in the World's Languages. Munich and Newcastle: Lincom Europa.

S. Svorou 1993:
The Grammar of Space. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.



أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ فِي العَرَبِيَّةِ - مُشْكِلاتُهُ وَدَلالاتُهُ
مُقَارَبَةٌ لِسَانِيَّةٌ مِنَ النَّحْوِ المُقَارِنِ إِلَى النَّحْوِ التَّقَابُلِيِّ

أ.د مُحَمَّد عَبْد مَشْكُوْر الكَعْبِيُّ
كُلِّيَّةُ الآدَابِ - جَامِعَةُ بَغْدَادَ

المُقَدِّمَةُ

تَرُومُ دِراسَتُنَا هَذِهِ معالجَةَ مشكلاتِ (أفعل التَّفْضِيلِ) في العربيَّة الَّتِي تَتَمَثَّلُ بِأمرينِ مُهمينِ، أَوَّلُهُمَا: حدُّه عند النَّحويِّينَ، وخُرُوجُ استِعْمَالاتِهِ اللغَوِيَّةِ عَلَى هَذَا الحَدِّ، ومحاولاتُهم تَعْلِيلَ هَذِهِ الخُرُوجَاتِ، بِتَسْوِيْغِهَا تَارَةً، وبِتَأْوِيْلِهَا تَارَةً أُخْرَى.

وَثَانِيهما: دلالاتُهُ الَّتِي شكَّلتْ مُفَارَقَةً في بَعْضِ استعمالاتِهِ فِي نُصُوصٍ فَصِيحَةٍ فِي القرآنِ الكَرِيمِ والشِّعرِ الفَصِيحِ، وأَمْثِلَةٍ من مَنْثُورِ كَلامِ العَرَبِ المُحْتَجِّ بِكَلامِهِمْ هَذَا فِي ضَوْءِ ما طَرَحَهُ النُّحاةُ الأَقدمُونَ.

وَتُحَاوِلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ عَرْضَ هَذِهِ المُشْكِلاتِ وتَوْجِيهَهَا فِي ضَوْءِ مَنْظُورٍ لُغَوِيٍّ شَامِلٍ نَحْواً، وَبَلاغَةً، ودِلالَةً، زِيَادَةً عَلَى مُعْطَيَاتِ التَّفْسِيْرِ القُرآنِيِّ، وَمَنَاوِيلِ التَّفْسِيْرِ، والشَّرْحِ لِغَيْرِ نُصُوْصِ القُرْآنِ مِنَ الأَدْعِيَةِ والوَصَايَا، ومَا سُمِعَ مِنْ فَصِيْحِ الكَلامِ العَرَبِيِّ شِعْراً وَنَثْراً.

وَلَمْ يَكْتَفِ هَذَا البحثُ بالوقوفِ عِنْدَ هَذِهِ الرَّوَافِدِ المَعْرِفِيَّةِ المَذْكُورةِ فَحَسْب، وإِنَّمَا حَاوَلَ مُعَالَجَةَ هذا المَوضُوعِ باستِثْمَارِ مُعْطَيَاتِ اللسَانِيَّاتِ المُقَارِنَةِ (Comparative Linguistics) بِتَتَبُّعِهِ فِي لغَاتِ الأَرُومَةِ السَّامِيَّةِ، وَتأصِيلِهِ؛ بُغْيَةَ تَحْقِيقِ فَائدَتَيْنِ عِلْمِيَّتَيْنِ، أولاهُمَا: مُحَاوَلَةُ حَلِّ إشكالاتِه في ضَوْءِ المَنْهَجِ المُقَارِنِ، وَثَانِيهِمَا: تَصْحِيحُ مَا وَهِمَ بِهِ بَعْضُ المُخْتَصِّيْنَ فِي الدِّرَاسَاتِ السَّامِيَّةِ فِي أَحْكَامِهِم غَيْرِ العِلمِيَّةِ فِي ضَوْءِ دِراسَتِهِم(التَّفْضِيْل) فِي العَرَبِيَّةِ، و اللغَاتِ السَّامِيَّةِ.

وزيادةً على ما ذكرناه يستفيدُ بحثنا هذا من معطياتِ اللسانيّاتِ التقابليّةِ (Contrastive Linguistics) بمقابلةِ دراسةِ التّفضيلِ في العربيّةِ مع دراستِهِ في اللغةِ الانجليزيّةِ في(comparative degree) درجةِ التّفضيلِ، و (superlative degree) الدّرجة الفضلى بغيةَ تحقيقِ فائدتينِ علميّتينِ، أولاهما: تسهيلُ فهمِ التّفضيلِ عندَ الدّارسينَ للغتينِ (العربيّةِ والإنجليزيّةِ) بمقابلةِ هذا الموضوعِ في اللغةِ الّتي يتعلّمونها باللغةِ الّتي يتحدّثونها، وهو سبيلٌ سهلٌ يتكفّلُ بتحقيقِهِ هذا المنهجُ اللسانيُّ.

وثانيهما: تسهيلُ التّرجمةِ لأسلوبِ التّفضيلِ منَ الإنجليزيّةِ إلى العربيّةِ، أو منَ االعربيّةِ إلى الإنجليزيّةِ ويُعينُ على تحقيقِ هذا رصدُ المتشابهاتِ في استعمالاتِ التّفضيلِ، ودلالاتِهِ بين اللغتينِ، ولمّا كانت التّرجمةُ عمليّةَ إنتاجٍ معرفيٍّ، وكانَ هذا المنهجُ خيرَ ما يُعينُ المترجمَ على إجادةِ التّرجمةِ ودقّتِها فهوَ حريٌّ بالاستثمارِ، وجديرٌ بالإفادةِ منهُ في الدّراساتِ اللسانيّةِ العربيّةِ.

مُشْكِلاتُهُ وَدَلالاتُهُ فِي العَرَبيَّةِ:

يُمكنُ لنا إجمالُ مُشكلاتِهِ ودلالاتِهِ في ضوءِ الحدِّ الّذي وضعَهُ النّحويّونَ لَهُ منْ جهةٍ، وما وردَ لهُ منِ استعمالاتٍ تُمثّلُ خروجاتٍ صريحةً عنْ هذا الحدِّ منْ جهةٍ أخرى.

جاءَ في كتابِ شرحِ الحدودِ النّحويّةِ – في تعريفِ اسمِ التّفضيلِ – :"هوَ ما اشتُقَّ – أي: أُخِذَ – منْ فعلٍ: ثلاثيٍّ، متصرّفٍ، تامٍّ، مجرّدٍ لفظاً وتقديراً، قابلٍ للتّفاوتِ، غيرِ دالٍّ على لونٍ ولا عيبٍ، ولا منفيٍّ، ولا مبنيٍّ للمفعولِ لموصوفٍ قامَ بهِ الفعلُ، متلبّسٍ بزيادةٍ على غيرِهِ في أصلِ ذلكَ الفعلِ، فهوَ دالٌّ على المشاركةِ والزّيادةِ، كأكرم، وأعلم"[1].

ثمّةَ مشكلاتٌ تردُ على هذا الحدِّ تتعلّقُ باشتقاقِ(أفعل التّفضيلِ) ودلالاتِهِ و قدْ شخّصَها اللغويّونَ القدماءُ في مصنّفاتِهم، لكنّهم اختلفوا – بعدَ ذلكَ – في قبولِها وتأويلِها.

ويُمكنُ أنْ نُوجزَها بالآتي:

---

(1) شرحُ كتابِ الحدودِ في النّحوِ، للإمامِ عبدِ اللهِ بن أحمدَ الفاكهيِّ (ت972هـ)، 191، تحقيقُ: الدكتور المتولّي أحمد الدّيمريّ، مكتبةُ وهبة، ط/ 2(1414هـ-1993م)، مصر القاهرة.

أَوَّلاً: ورودُ أفعلِ التَّفضِيلِ مِمَّا لَيسَ لَهُ فِعلٌ، أي: اسْمُ ذاتٍ غَيرُ مُشْتَقٍّ البَتَّةَ، جَاءَ فِي كِتَابِ سِيْبويهِ:"...وإنَّمَا يُحفَظُ هَذَا حِفْظاً وَلا يُقَاسُ، قَالُوا أَحْنَكُ الشَّاتَيْنِ، وَأَحْنَكُ البَعِيْرَيْنِ كَمَا قَلُوا آكَلُ الشَّاتَيْنِ كَأَنَّهُم قَالُوا حَنِكَ وَنَحْو ذَلِكَ فَإِنَّمَا جَاؤا بِأَفعَلَ عَلَى نَحْوِ هَذَا وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ وَقَالُوا آبَلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ كَمَا قَالُوا أَرْعَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا أَبِلَ يَأبَلُ، وَقَالُوا رَجُلٌ آبَلُ وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِالفِعْلِ، وَقَوْلُهُمْ آبَلُ النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ آبَلُ مِنْهُ؛ لأَنَّ مَا جَازَ فِيهِ أَفعَلُ النَّاسِ جَازَ فِيهِ هَذَا، وَمَا لَمْ يَجُزْ فِيهِ ذَاكَ لَمْ يَجُزْ فِيهِ هَذَا، وَهَذِهِ الأَسْمَاءُ الَّتِي لَيسَ فِيهَا فِعلٌ لَيْسَ القِيَاسُ فِيهَا أَنْ يُقَالَ أَفعَلُ مِنْهُ وَنَحْو ذَلِكَ وَقَدْ قَالُوا فُلانٌ آبَلُ مِنْهُ كَمَا قَالُوا أَحْنَكُ الشَّاتَيْنِ"[1].

فَنَظَراً لِورُدِهِ فِي مَسمُوْعِ كَلامِ العَرَبِ الفُصَحَاءِ يَقْبَلُهُ سِيْبَوَيْهِ واللغويُّونَ وَيَجعَلُونَهُ فِي حُدُوْدِ السَّمَاعِ وَلا يُجِيْزونَ القِيَاسَ عَلَيْهِ لِقِلَّتِهِ قِيَاساً بِالشَّائِعِ الكَثِيْرِ مِنْ كَلامِ العَرَبِ.

ويَتَأَوَّلُ سِيْبَوَيْهِ فِي النَّصِّ المَذْكُوْرِ (أَحْنَكُ) الَّذِي هُوَ أَفْعَلُ تَفْضِيْلٍ بـ(آكَلُ) عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ لَهُ فِعْلاً هُوَ (حَنِكَ) مِنَ الحَنَكِ المَعْرُوفِ الَّذِي هُوَ اسمُ ذَاتٍ وَهُوَ بَاطِنُ أَعْلَى الفَمِ مِنْ دَاخِلٍ، وَقِيْلَ: هُوَ الأَسْفَلُ فِي طَرَفِ مُقَدَّمِ اللحْيَيْنِ مِنْ أَسْفَلِهِمَا[2].

وَضَبَطَ عَينَهُ عَلَى البَابِ الرَّابِعِ؛ لِتَفْرِيْقِهِ عَنْ الفِعْلِ حَنَكَ يَحْنِكُ مِنَ البَابِ الثَّانِي وَحَنَكَ يَحْنُكُ مِنَ البابِ الخَامِسِ، وَهُمَا بِمَعْنىً وَاحِدٍ وهُوَ "جَعْلُ الرَّسْنِ فِي حَنَكِ الدَّابَةِ"[3].

ثُمَّ جَعَلَ هَذَا الفِعْلَ المُفْتَرَضَ بِمَعْنَى أَكَلَ - فِيمَا أَرَاهُ - نَظَراً لِعِلاقَةِ الحَنَكِ بِالأَكْلِ، إذ الحَنَكُ آلَةُ الأَكلِ، وَوَسِيلَتُهُ، وهِيَ - بِحَسَبِ هَذَا المَفْهُوْمِ - دِلالَةٌ مَجَازِيَّةٌ(مَجَازٌ مُرسَلٌ) عِلاقَتُهُ الآلَةُ، أي: إِطْلاقُ الآلَةِ وَإِرَادَةُ مَا تُحَقِّقُهُ وَتُنْتِجُهُ، فَالحَنَكُ هُوَ آلَةُ الأَكْلِ، واسْتِعْمَالُهُ هُنَا فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا سِيْبَوَيْهِ:(هِيَ أَحْنَكُ الشَّاتَيْنِ) يُعْطِي هَذَا المَعْنَى بِحَسَبِ هَذِهِ

---

(1) الكِتَابُ، لأَبِي بِشْرٍ عَمْرو بن عُثْمَان المُلَقَّبِ بِسِيبَويهِ(ت180هـ)، 2/ 252، ط/ 1، المَطْبَعَةُ الأَمِيرِيَّةُ بِبُولاق(1317هـ).

(2) لِسَانُ العَرَبِ، لابْنِ مَنْظُور الأفريقِيّ(ت711هـ)، 1/ 967، مادَّةُ(حَنَكَ)، مُرَاجَعَةُ يُوسُف البِقَاعِيِّ وصَاحِبَيْهِ، ط/ 1، 1426هـ-2005م، مُؤَسَسَةُ الأَعْلَمِيِّ للمَطْبُوعَاتِ، بَيْروت-لبنان.

(3) أَسَاسُ البَلاغَةِ، لِجَارِ اللهِ مَحْمُود بن عُمَر الزَّمَخْشَرِيّ(ت538هـ)، 197، تَحْقِيقُ الدُّكتُور مُحَمَّد قَاسِم، ط/ 1، 1423هـ-2003م، المَكْتَبَةُ العَصْرِيَّةُ للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ، بَيْرُوت-لبنان.

الدَّلَالَةِ، وَلا يُتصَوَّرُ أَنَّ المُتكَلِّمَ يُرِيْدُ أَنَّ هَذِهِ الشَّاةَ هِيَ أَعْظَمُ حَنَكاً مِنْ غَيْرِهَا؛ لأنَّ الحَنكَ خِلْقَةٌ والخِلْقَةُ لا تَفَاضُلَ فِيْهَا[1].

وَهَذِه الدِّلالَةُ قَرِيْبَةٌ مِمَّا يَذْكرُهُ البَلاغِيُّوْنَ لِهَذِهِ العِلاقَةِ المَجَازِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم/ 4).

فَاللِّسَانُ فِي هَذِهِ العِلاقَةِ المَجَازِيَّةِ يُرَادُ بِهِ اللغَةُ وَلَيْسَ العُضْوَ المَعْرُوف بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللسَانَ هُوَ آلَةُ اللغَةِ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ التَّعْبِيْرُ عَنْهَا بِآلَتِهَا أَمْراً طَبِيْعِيّاً مأْلُوْفاً فِي لِسَانِ العَرَبِ.

وَمَعلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الدِّلالَةَ تَطَوَّرَتْ بِفِعْلِ العُرْفِ الغَوِيِّ العَامِّ حَتَّى نُسِيَتْ الدَّلالَةُ اللغَوِيَّةُ المَجَازِيَّةُ الأولَى وَهِيَ اسْتِعْمَالُ اللسَانِ بِمَعْنَى اللغَةِ، وَأَصْبَحَ اللسَانُ يَدُلُّ عَلَى اللغَةِ دِلالَةً حَقِيْقِيَّةً دُوْنَ النَّظَرِ إِلَى الدِّلالَةِ المَجَازِيَّةِ الأوْلَى، وَهَذَا الزَّمَخْشَرِيُّ يُصَرِّحُ بِهَذَا التَّطَوُّرِ الدَّلالِيِّ لِلفَظَةِ لِسَانٍ فِي تَفْسِيْرِهِ لِهَذِهِ الآيَةِ قَائِلاً:" وَمَعْنَى بِلِسَان قَوْمِهِ: بِلُغَةِ قَوْمِهِ"[2].

وَيَظْهَرُ مِنْ كَلامِ المُعْجَمِيِّينَ أَنَّ هَذِهِ الدِّلالَةَ المَجَازِيَّةَ أَصْبَحَتْ هِيَ الدِّلالَةَ الحَقِيْقِيَّةَ الشَّائعَةَ فِي عُرْفِ الاسْتِعْمَالِ اللغَوِيِّ، بَعْدَ أَنْ نُسِيَتْ الدِّلالَةُ المَجَازِيَّةُ الأوْلَى بِحَسَبِ مَا أَقَرَّهُ الأُصُولِيُّونَ والبَلاغِيُّونَ فِي بَابِ الحَقِيقَةِ العُرْفِيَّةِ العَامَّةِ[3].

ولِهَذَا لَمْ يُشِرْ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي مُعْجَمِهِ(أَسَاس البلاغَةِ) إِلَى أَصْلِ دِلالَةِ الحَنكِ عَلَى الأَكْلِ بِأَنَّهَا دِلالَةٌ مَجَازِيَّةٌ كَعَادَتِهِ فِي هَذَا المُعْجَمِ الَّذِي نَهَجَ فِيْهِ نَهْجاً مُخْتَلِفاً عَنْ نَهْجِ المُعْجَمِيِّينَ العَرَبِ وَذَلِكَ فِي رَصْدِ الدِّلالاتِ المَجَازِيَّةِ وإِظْهَارِهَا، وإِنَّمَا اكْتَفَى بِذِكْرِ الدَّلالَةِ الجَدِيْدَةِ لِشُيُوْعِهَا فِي الاسْتِعْمَالِ والتَّدَاولِ اللغَوِيِّين قَائِلاً:" واحْتَنَكَ الطَّعَامَ أَكَلَهُ كُلَّهُ،

---

(1) يُنْظَرُ الكِتَابُ

(2) الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ التَّنْزِيْلِ وَعُيُونِ الأَقَاوِيْلِ فِي وُجُوْهِ التَأْوِيلِ، لِجَارِ اللهِ مَحْمُود بن عُمَر الزَّمَخْشَرِيِّ، 2/ 367، ط/ 1، 1403هـ-1983م، دارُ الفِكْرِ للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ والتَّوزِيعِ.

(3) يُنْظَرُ عَلَى سَبِيلِ الإِيْجَازِ المُستصفَى مِنْ عِلْمِ الأُصُولِ، لِلإِمَامِ أَبِي حَامِدِ الغزالِيِّ(ت505هـ)، 1/ 325-326، ط/ 1، 1322هـ المَطْبَعَةُ الأَمِيْرِيَّةُ بِبُولاق. وَيُنْظَرُ الطِّرَازُ المُتَضمِّنُ لأسْرَارِ البلاغَةِ وعلُوْمِ حَقَائِقِ الإِعْجَازِ، لِلإِمَامِ يَحْيَى بن حَمْزَةَ العَلَوِيِّ(ت749هـ)،26-27، ط/ 1، 1415هـ-1995م، دَار الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، بَيْرُوت- لُبنَان.

واستَحْنَكَ الرَّجُلُ: اشْتَدَّ طَعَامُهُ بَعْدَ قِلَّتِهِ، وهَذِهِ الشَّاةُ أَحْنَكُ الشَّاتَيْن، أي: آكَلُهُمَا، وَشَاةٌ حَنِيْكَةٌ"[1].

وَيُورِدُ ابْنُ مَنْظُوْرٍ – كَذَلِكَ – فِي مُعْجَمِهِ لِسَانِ العَرَبِ هَذَا التَّطَوُّرَ الدِّلالِيَّ لِلَفْظَةِ (حَنَك) دُوْنَ النَّظَرِ إِلَى الدِّلالَةِ المَجَازِيَّةِ الأُوْلَى قَائلاً: "... واسْتَحْنَكَ الرَّجُلُ: قَوِيَ أَكْلُهُ واشْتَدَّ بَعْدَ ضَعْفٍ وَقِلَّةٍ...والحُنُكُ الأَكَلَةُ مِنَ النَّاسِ، واحْتَنَكَ الجَرَادُ الأَرْضَ: أَتَى عَلَى نَبْتِهَا وَأَكَلَ مَا عَلَيْهَا، والحَنَكُ: الجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ يَنْتَجِعُوْنَ بَلَداً يَرْعَوْنَهُ.."[2].

وكَذَلِكَ الحَالُ مَعَ لَفْظَةِ(آبَلُ) فِي الجُمْلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا سِيبَوَيْهِ(آبَلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ) بِمَعْنَى (أَرْعَى النَّاسِ كُلِّهِم) عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ لَهُ فِعْلاً هُوَ أَبِلَ يَأْبَلُ بِمَعْنَى الحَذَقِ بِرِعْيَةِ الإِبِلِ وَمَصْلَحَتِهَا.

وَيُوَضِّحُ ابْنُ مَنْظُوْرٍ قَوْلَ سِيبَوَيهِ الآنِفَ: "وَحَكَى سِيْبَوَيْهِ: هَذَا مِنْ آبَلِ النَّاسِ أي: أَشَدُّهُم تَأَنُّقاً فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ وَأَعْلَمُهُمْ بِهَا.."[3].

وَدِلالَةُ (آبَل) عَلَى الرَّعْي – بِحَسَبِ مَا أَرَى – دِلالَةٌ لِزُوْمِيَّةٌ بِحَسَبِ عُرْفِ المَنَاطِقَةِ[4]، أي: يَلْزَمُ مِنْ وُجُوْدِ الإِبِلِ وُجُوْدُ الرَّعْيِ والعِنَايَةِ المَشْفُوْعَتَيْنِ بِخِبْرَةٍ وَدِرَايَةٍ عَالِيَتَيْنِ فِي مَصَالِحِهَا؛ وَلِذَلِكَ لا تَتَحَقَّقُ لِمَالِكِ الإِبِلِ حَقِيْقَةُ تَمَلُّكِهَا إلا بوجُوْدِ هَذِهِ الخِبْرَةِ وَالدِّرَايَةِ فِي رَعْيِهَا وَالعِنَايَةِ بِهَا، أي أَنْ يَكُوْنَ صَاحِبُهَا حَاذِقاً فِي رِعْيَتِهَا وَتَدْبِيرِ مَصْلَحَتِهَا.

وَبِنَاءً عَلَى مَا ذَكَرْنَاه تَكُوْنُ دِلالَةُ(آبَل) هِيَ أَرْعَى؛ لِأَنَّ المَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ بِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ آبَلُ مِنَ الآخَرِيْنَ مِنَ الإِبِلِ لأَنَّ الإِبِلَ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ الخِلْقَةُ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَكُوْنُ كَلامُنَا ذَا مَعْنَى فِي قَوْلِنَا:(فُلانٌ آبَلُ مِنْ فُلان) إِلَّا بِأَنْ يَكُوْنَ المَعْنَى أَنَّ الأَوَّلَ أَكْثَرُ خِبْرَةً فِي رَعْيِ الإِبِلِ والعِنَايَةِ بِهَا وَتَدْبِيْر عَيْشِهَا وَتَأْمِيْنِ مَصْلَحَتِهَا مِنَ الثَّانِي، وَهَذِه دِلالَةٌ لِزُومِيَّةٌ

---

(1) أَسَاسُ البَلاغَةِ، 197.

(2) لِسَانُ العَرَبِ، 968، مَادَّةُ(حَنَكَ).

(3) المَصْدَرُ نَفْسُهُ، 1/ 27، مَادَّةُ(أبل).

(4) تَعْنِي دِلالَةُ اللزومِ فِي عُرْفِ المَنَاطِقَةِ: أَنْ يَدُلَّ اللفظُ عَلَى مَعْنَى خَارِجٍ عَنْ مَعْنَاهُ المَوْضُوعِ لَهُ لازِمٍ لَهُ يَسْتَتْبِعُهُ اسْتِتْبَاعَ الرَّفِيْقِ اللازمِ الخَارِجِ عَنْ ذَاتِهِ، كدِلالَةِ لَفْظَةِ الدَّوَاةِ عَلَى القَلَمِ، المَنْطِقُ، الشَّيْخُ مُحَمَّد رضَا المُظَفَّر،1/ 29، ط/ 1، 1430هـ-2009م، مُؤَسَسَةُ الرَّافِدُ للطِبَاعَةِ والنَّشْر.

يُتَوصَلُ إلَيْهَا بإعْمَال العَقْلِ بِمَا يُشْبِهُ الاسْتِدْلالَ، أي يَلْزَمُ مِن امْتِلاكِ الإبِلِ الخِبْرَةُ وَالدِّرَايَةُ وَالحَذَقُ فِي رَعْيِهَا وَتَدْبِيرِ عَيشِهَا وَمَصْلَحَتِهَا، وَهَذَا التَّلازُمُ اقْترانيٌّ؛ لأنَّ بوجُودِهِ تتحقَّقُ المِلكِيَّةُ، وَبِانْتِفَائِهِ تَنْتَفِي، وعَلَى الرَّغْمِ مِن ذَلِكَ يَتَبَايَنُ فِيهِ مَالِكُوهَا، ومِنْ ثَمَّ يَتَبَارونَ فِيهِ، وَيَتَنَافَسُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا التَّفَاضُلَ.

وَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ الدِلالَةُ أنْسَبَ للتَّرْكِيْبِ المَذْكُوْر (فُلانٌ آبَلُ مِنْ فُلان) مِن دِلالَةِ المُفَاضَلَةِ المَأخُوْذَةِ مِنَ الإبِلِ مِنْ حَيْثُ الخِلْقَةُ؛ لأنَّهَا بِهَذَا الاعْتِبَار وَاحِدةً لا تَخْتَلِفُ، وَلا تتبَايَنُ، وَمِنْ ثَمَّ لا تتفَاضَلُ؛ وَهَذَا مَا يُفَسِرُ لَنَا امْتِنَاعَ النَّحْوِيِّينَ عَنْ قَبُولِ مَجِيءِ التَّفْضِيْلِ فِيمَا هُوَ خِلْقَةٌ، أو مَا يَجْرِي مُجْرى الخِلقَةِ.

ثانِياً: وُرُوْدُ أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنَ الفِعْلِ غَيْرِ الثُّلاثِيِّ مِثْل(هُوَ أعْطَاهُمْ للدَّرَاهِمِ) و(أوْلاهُمْ لِلمَعْرُوْفِ) فَـ(أعْطَى) و(أوْلَى) فِعْلانِ رُبَاعِيَّان عَلَى وَزْنِ (أفْعَل) وبِنَاءُ (أفْعَل التَّفْضِيل) مِنهُمَا يُحْدِثُ لَبْساً دَلالِيّاً؛ سَبَبُهُ ذَهَابُ بَعْضِ حُرُوْفِ الفِعْلِ الأُصُوْل وَتَحْدِيْداً الهَمْزَةُ الَّتِي هِيَ لِلتَّعْدِيَةِ مِنَ المَفْعُوْلِ الوَاحِدِ إلَى المَفْعُوْلَيْنِ قَبْلَ التَّفْضِيْلِ[1] وَيَذْهَبُ ابْنُ السَّرَّاجِ(ت316هـ) إلَى أنَّ أصْلَ هَذيْنِ الفِعْلَيْنِ عطَا يَعْطُو، إذَا تَنَاوَلَ، وَأعْطَى غَيْرَهُ إذَا نَاوَلَهُ، وَكَذَلِكَ وَلِيَ وَأوْلَى غَيْرَهُ[2] وَمَعْنَى هَذَا أنَّ ابنَ السَّرَّاجِ يَرَى أنَّ هَذِينِ الفِعْلَيْنِ لازمَانِ وَصَارَا مُتَعَدِّيينِ بِالهَمْزَةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ إضَافَتَهَا، أي: الهَمْزَة إلَى بِنَاءِ(أفْعَل) الَّتِي للتَّفْضِيلِ يُخرِجُهُ مِنْ هَذَا البِنَاءِ[3].

وَيُجِيزُهُ سِيبَوَيْهِ لأمْرَيْنِ:

---

(1) يُنْظَرُ: شَرْحُ التَّصْرِيحِ عَلَى التَّوْضِيحِ، الشَّيْخُ خَالِدُ بنُ عَبْدِ اللهِ الأزْهَرِيُّ(ت905هـ)، 2/ 68، تَحْقِيقُ: مُحَمَّد بَاسِل عُيُون السُّود، دَارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، ط/ 1، 1421هـ- 2000م، بَيْرُوْت- لُبْنَان.

(2) الأُصُوْلُ فِي النَّحْوِ، لأبِي بَكْرٍ مُحَمَّد بن سَهْلِ السَّرَّاجِ النَّحْوِيِّ البَغْدَادِيِّ(ت316هـ)،1/ 100، تَحْقِيقُ الدُّكتور عَبْد الحُسَيْن الفَتْلِيّ، مُؤسَّسة الرِّسَالَة، ط/ 1، 1405هـ-1985، بَيْرُوت- لبنَان.

(3) يُنْظَرُ: شَرْحُ المُفَصَّلِ للزَّمَخْشَرِيِّ، لِمُوَفَّقِ الدِّيْنِ أبِي البَقَاءِ يَعيش بن عَلِيِّ بنِ يَعِيْشِ المَوْصِلِيِّ(ت643هـ)، تَحْقِيقُ: الدُّكْتُور إمِيل بَدِيْع يَعْقُوب، 4/ 415، دَارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، ط/ 1، 1422هـ- 2001م.

أَوَّلُهما: لِوُرُوْدِهِ فِي مَسْمُوْعِ كَلامِ العَرَبِ الفُصَحَاءِ، و مَعْلُوْمٌ أَنَّ كُلَّ كَلامٍ مَسْمُوْعٍ عَنهُمْ حُجَّةٌ يَحتَجُّ بِها عُلَماءُ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ، يَقُوْلُ السُيوطِيُّ فِي بَابِ (تَرْكِ القِيَاسِ بِالسَّمَاعِ): "وَأَمَّا كلامُ العَرَبِ فَيُحتَجُّ مِنْهُ بِمَا وَرَدَ عَنِ الفُصَحَاءِ المَوْثُوقِ بِعَرَبِيَّتِهِم"[1].

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ لِهَذَا المَسْمُوْعِ حُجَّةً تَرْقَى عَلَى القِيَاسِ، يَقُوْلُ ابْنُ جِنِّي: "واعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا أَدَّاكَ القِيَاسُ إِلَى شَيْءٍ مَا، ثُمَّ سمِعْتَ العَرَبَ قَدْ نَطَقَت فِيْهِ بِشَيْءٍ آخَرَ عَلَى قِيَاسِ غَيْرِهِ، فَدَعْ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ، إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ"[2].

ثَانِيهما: سَاغَ مَجِيءُ أَفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنْ الفِعْلِ الرُّبَاعِيِّ الَّذي عَلَى وَزْنِ (أَفْعَلَ) دُوْنَ غَيْرِهِ مِنَ الأَبْنِيَةِ؛ لِأَنَّهُ - عِنْدَ سِيبَويهِ - بِنَاءٌ مَعْلُوْمُ الدَّلالَةِ، لا يَحْدُثُ مَعَهُ لَبْسٌ؛ لِأَنَّ أَعطَى مَنْقُوْلٌ مِنْ عَطَوْتُ وَهُوَ لِلآخِذِ، وَكَذَلِكَ أَوْلَى فَهُوَ لِلمولِي لا لِمنْ وَلِيَ شَيْئاً بِخِلافِ غَيْرِهِ مِنْ أَبْنِيَةِ الأَفْعَالِ المَزِيْدَةِ مِثْلِ انفعَلَ وَتَفعَّلَ واستَفْعَلَ فَلا يُؤخَذُ مِنهَا أَفْعَلُ لِلتَّفْضِيْلِ؛ لِوقُوْعِ اللبْسِ إِذْ بِسُقُوْطِ أَحْرُفِ الزِّيَادَةِ لا يُدْرَكُ المَعْنَى الَّذِي يُرَادُ تَحَقُّقُهُ بِهَا خِلافاً لِلأَخْفَشِ (ت215هـ)[3].

وَيَذْكُرُ الزَّجَّاجِيُّ هَذَا المَعْنَى لِـ(أَعطَى) فِي قَوْلِنَا:(أَعْطَيْتُ زَيْداً دِرْهَماً)، فَزَيْدٌ عَاطٍ، أَي: آخِذٌ، والدِّرْهَمُ مَعْطُوٌّ"[4].

فِي ضَوْءِ مَا ذَكَرْنَاهُ يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ دِلالَةَ أَفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنَ الفِعْلَيْنِ أَعطَى وأَوْلَى لَمْ تُفقِدْ بِنَاءَ الفِعْلَيْنِ دِلالَتَهُمَا عَلَى الإِعْطَاءِ والإِيْلاءِ اعْتِمَاداً عَلَى مَا هُوَ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهِ فِي عُرْفِ استِعْمَالِ المُتَكَلِّمِيْنَ لِهذَيْنِ الفِعْلَيْنِ.

ويُعَدُّ المَعْنَى العُرْفِي مِنَ المَعَانِي المُهِمَّةِ فِي اللسَانِيَّاتِ التَّدَاولِيَّةِ، ويُسَمَّى - بِحَسَبِ جون سيرل -

---

(1) الاقتِرَاحُ فِي عِلْمِ أُصُوْلِ النَحْوِ، لِجَلالِ الدِّيْنِ السُّيُوطِيِّ(ت911هـ)، 100، تَحقِيقُ الدُّكتور مَحمُوْد سُلَيْمَان يَاقوت، دَارُ المَعْرِفَةِ الجَامِعِيَّةِ، 1426هـ- 2006م.

(2) الخَصَائِصُ، لأبي الفَتْحِ عُثْمَان بنِ جِنِّي، 1/ 125، تَحقِيقُ مُحَمَّد عَلِي النَّجَّار، دار الكِتَابِ العَرَبِيِّ(د-ت).

(3) يُنْظَرُ شَرْحُ المُفَصَّلِ،4/ 415.

(4) يُنْظَرُ عِلَلُ النَّحوِ، لأَبي الحَسَنِ مُحَمَّد بن عَبْدِ اللهِ الوَرَّاقِ(ت325هـ)، 221، تَحقِيقُ الدُّكتور مَحمُوْد جَاسِم الدَّرويش، بَيْتُ الحِكْمَةِ، بَغْدَاد 2002م.

بـ(المَعنَى الكُلّـيّ) ويَعـدُّهُ مَـعَ القَـصْدِيَّة الَّتِـي يُـسَمِّيهَا بــ(مَعْنِـى المُـتَكلِّم)، والمَعْنَـى القَضَوِيّ الَّذِي يُسمِّيهِ بـ(مَعنَى الجُملَةِ) ثالُوثاً دلالِيّاً ينْبَغِي أنْ يُؤْخَذَ بعَيْنِ الاعْتِبَارِ فِـي دِراسَـةِ المَعْنَى[1].

فَالفِعْلُ الكَلامِيُّ عُمُوْماً عِنْدَ سيْرل أوْسَعُ مِنْ أنْ يَقْتَصِرَ عَلَى مُرادِ المُتَكلِّمِ ومَقْـصَدِهِ، بَل يَرْتَبِطُ أيْضاً بِالأعْرافِ اللغَوِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ[2].

ويَتَّضِحُ مِنْ هَذه المُقَارَبَةِ أنَّ القُـدَماءَ ومِـنْهُم سِـيبَوْيهِ كَـانُوا يَأخُـذُونَ بِعَـيْنِ الاعْتِبَـارِ المَعْنَى العُرْفِيَّ - أي: ما هُوَ مُتَعارَفٌ عَلَيْه عِنْدَ المُتَكلِّمِـيْنَ - دَلِـيْلاً عَلَـى إظْهَـارِ المَعْنَـى بِـلا لَبْسٍ أو غُمُوضٍ ومِنْ ثَمَّ يَفِيْـدُوْنَ مِنْـهُ فِـي تَقْعِيْـدِ القَواعِـدِ وتَعْلِيْلِهَـا سَـابِقِيْنَ بِهـذا الـصَّنِيْعِ المُخْتَصِّيْنَ بِاللسَانِيَّاتِ التَّداوليَّةِ إلَى اسْتِثْمَارِ المَعْنَى العُرْفِيِّ فِي دِرَاسَاتِهم اللغَوِيَّةِ.

وفِي ضَوْءِ مَا ذُكِرَ يَتَّضِحُ ضَعْفُ مَا ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ الكهْف/ 12.

قَائلاً: "وَ(أحْصَى) فِعْلٌ مَاضٍ، أي: أيُّهُمْ أضْبَط(أمَدَا) لِأوْقَاتِ لَبْثِهِمْ، فَإنْ قُلْـتَ: فَمَـا تَقُوْلُ فِيمَنْ جَعلَهُ مِنْ أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ؟ قُلْتُ: لَيْسَ بِالوَجْهِ الـسَّدِيْدِ، وذَلِـكَ أنَّ بِنَـاءَهُ مِـنْ غَيْـرِ الثُّلاثِيِّ المُجرَّدِ لَيْسَ بِالقِيَاسِ، ونَحْوُ أعْدَى مِن الجَرَبِ، وأفْلَسُ مِنْ ابنِ المُذَلَّقِ شَاذٌّ، والقِيَـاسُ عَلَى الشَّاذِّ فِي غَيْرِ القُرآنِ مُمْتَنِعٌ فَكَيْفَ بِهِ؟"[3].

ثالِثاً: ورُوْدُ أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنَ الأفْعَالِ الَّتِي لا تَقْبَلُ التَّفاوُتَ نَحْوُ (ألْيَـل) فِـي كَـلامِ أمِيْرِ المؤمِنِيْنَ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلامُ) فِي دُعَاءِ الصَّبَاحِ:"صَلِّ اللهُمَّ عَلَـى الـدَّلِيْلِ إلَيْـكَ فِـي الليْـلِ الألْيَلِ، والمَاسِكَ مِنْ أسْبَابِكَ بِحَبْـلِ الـشَّرَفِ الأطْـوَلِ، والنَّاصِـعِ الحَـسَبِ فِـي ذِرْوَةِ الكَاهِـلِ

---

[1] العَقْلُ واللغَةُ والمُجْتَمَعُ- الفَلْسَفَةُ فِي العَالَمِ الوَاقِعِيِّ، جون سيرل، تَرْجَمَةُ سَعِيْدِ الغَانِمِي، المَرْكَزُ الثَّقَافِيُّ العَرَبِيُّ، المَغْرِبُ، ط/ 1، 2006م.

[2] يُنْظَرُ اللسَانِيَاتُ التَّداوليَّةِ فِي الخِطَابِ القَانُونِيِّ- قِراءَةٌ استِكْشَافِيَّةٌ للتَّفكيرِ التَّداوليِّ عِنْدَ القَانُونِيِّيْنَ، الدُّكتُور مُرْتَضَى جَبَّار كَاظِم، 45، مَنْشُوراتُ ضِفَافِ والاختِلافِ، ط/ 1، 1436هـ- 2015م.

[3] الكَشَّافُ، 2/ 474.

الأَعْبَلِ، والثَّابِتِ القَدَمِ عَلَى زَحالِيفِهَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ، وَعَلَى آلِهِ الأَخْيَارِ المُصْطَفَيْنِ الأَبْرَارِ»[1].

والمَقْصُوْدُ بِهَذَا الدُّعَاءِ هُوَ النَّبِيُّ(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَهُوَ الدَّاعِي إِلَى اللهِ وَهَذَا اسْمٌ مِنْ أسمائهِ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ[2]، قَالَ تَعَلَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ (الأَحْزَاب/ 45 - 46).

و(اللَيْلِ الأَلْيَلِ) هُنَا تَعْبِيْرٌ مَجازِيٌّ اسْتِعَارِيٌّ حَيْثُ شُبِّهَ ضَلالُ الجَاهِلِيَّةِ وانْحِرافُهَا الفِكْرِيُّ فِي الاعْتِقَادُ بِاللَيْلِ البَهِيْمِ حَالِكِ الظَّلامِ، ثُمَّ حُذِفَ المُشَبَّهُ وَصُرِّحَ بِلَفْظِ المُشَبَّهِ بِهِ عَلَى سَبِيْلِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ، ثُمَّ ذُكِرَ مَعَ المُشَبَهِ بِهِ مَا يُنَاسِبُهُ لِتَقْوِيَتِهِ (الأَلْيَلِ) عَلَى سَبِيْلِ الاسْتِعَارَةِ المُوَشَّحَةِ.

إِذ لا يُتَصَوَّرُ أَنَّ المُرَادَ - مِن التَّعْبِيْرِ المَذْكُوْر آنِفاً - الحَقِيْقَةُ، إِذ لا مَعْنَى لِلْكَلامِ أَنْ يَكُوْنَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يَدْعُوا قَوْمَهُ فِي اللَيْلِ حَالِكِ الظُّلْمَةِ دُوْنَ بَقِيَّةِ الأَوْقَاتِ، إِذ لا يُحَقِّقُ هَذَا الوَقْتُ مَصْلَحَةً زَائِدَةً لِلعِبَادِ عَلَى بَقِيَّةِ الأَوْقَاتِ إِن دَعَاهُمْ فِيْهِ!!!

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لا يَصِحُ التَّفَاضُلُ فِي الحَقَائِقِ الكَوْنِيَّةِ الثَّابِتَةِ، وَمِنْهَا اللَيْلُ إِذْ هُوَ وَاحِدٌ لا يَقْبَلُ التَّفَاوُتَ فَلَيْسَ ثَمَّةَ لَيْلٌ أَلْيَلُ مِنْ لَيْلٍ آخَرَ؛ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ الأَمْرُ مُتَفاوتاً مِنْ جِهَةِ أَنَّ ظَلامَ اللَيْلِ تَخْتَلِفُ شِدَّةُ ظُلمَتِهِ، لا لِذَاتِ اللَيْلِ، بَل بِاعْتِبَارِ ضَوْءِ القَمَرِ بَيْنَ انْعِدَامِهِ فِي المَحاقِ الكُلِيِّ إِذْ يَكُون اللَيْلُ - وقْتَئِذٍ - أَشَدَّ ظُلْمَةً، وتَدَرُّجِهِ مِنْ حَالَةِ كَوْنِهِ هِلالاً إِلى اللَيْلَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيْهَا تَامّاً وَكَامِلاً فَيَكُوْنُ أَقَلَّ ظُلْمَةً، ومِنْ هُنَا يَأتِي التَّفَاضُلُ، وَيَسُوْغُ اسْتِعْمَالُهُ كَمَا فِي كَلامِ أَمِيرِ المؤمِنِيْنَ (عَلَيْهِ السَّلامُ).

فهذَا التَّعْبِيْرُ - وَإِنْ اسْتُعْمِلَ اسْتِعْمَالاً مَجَازِيّاً - فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُلغِي دِلالَةَ المُفَاضَلَةِ فِيْهِ بِلَفظَةِ (أَلْيَل) باعْتِبَار هَذَا المَفْهُوْمِ.

---

[1] بِحَارُ الأَنْوَارِ الجَامِعَةُ لِدُرَرِ أخْبَارِ الأَئمَّةِ الأَطْهَارِ، العلَّامةُ مُحمَّد بَاقِر المَجْلِسِيُّ(ت1111هـ)، 94/ 494. إيران- قُم،(د-ت).

[2] يُنْظَرُ: أسْمَاءُ النَّبِيُّ مُحمَّدٍ(ص) فِي القُرآنِ الكَرِيمِ دِراسَةٌ فِي البِنْيَةِ والدَّلالَةِ، د. مُحمَّد عَبد مَشْكُور، 60، بَحْثٌ مَنْشُور فِي مَجَلَّةِ الأُسْتاذ، العدد 88، 2009م.

جاءَ فِي كِتَابِ بِحَارِ الأَنْوَارِ: "عَلَى الدَّلِيْلِ إِلَيْكَ أَي مَنْ كَانَ هَادِياً لَنَا، والمُرَادُ بِهِ النَّبِيُّ(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فِي اللَيْلِ الأَلْيَلِ أَي البَالِغِ فِي الظُلْمَةِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِم ظِلٌّ ظَلِيْلٌ، وَعَرَبٌ عَرْبَاءُ، والمُرَادُ بِهِ زَمَانُ انْقِطَاعِ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ....."[1].

و(أَضْوَءُ) فِي كَلامِ الإِمَامِ الحَسَنِ(عَلَيْهِ السَّلامُ) لِأَخِيْهِ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ: "اجْلِسْ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِثْلُكَ يَغِيْبُ عَنْ سَمَاعِ كَلامٍ يَحْيَى بِهِ الأَمْوَاتُ، وَيَمُوْتُ بِهِ الأَحْيَاءُ، كُوْنُوا أَوْعِيَةَ العِلْمِ، وَمَصَابِيْحَ الهُدَى، فَإِنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ بَعْضُهُ أَضْوَءُ مِنْ بَعْضٍ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ وِلْدَ إِبْرَاهِيْمَ (عَلَيْهِ السَّلامُ) أَئِمَّةً، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ....."[2].

وَقَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلامُ): "فَإِنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ بَعْضُهُ أَضْوَءُ مِنْ بَعْضٍ" جَاءَ مُشَبَّهاً بِهِ عَلَى طَرِيْقِ التَّشْبِيْهِ الضِّمْنِيِّ، والمُشَبَّهُ هُوَ (كُوْنُوا أَوْعِيَةَ العِلْمِ، وَمَصَابِيْحَ الهُدَى) و مَعْلُوْمٌ فِي البَلاغَةِ أَنَّ المُشَبَّهَ بِهِ فِي هَذَا النَّوْعِ مِن التَّشْبِيْهِ يَقُوْمُ مَقَامَ الحُجَّةِ أو الدَّلِيْلِ البُرْهَانِيِّ لِتَأْكِيْدِ صِحَّةِ مَا ذَكَرَه المُتَحَدِّثُ للمُشَبَّهِ وَهُوَ (فَإِنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ بَعْضُهُ أَضْوَءُ مِنْ بَعْضٍ).

فَقَوْلُ الإِمَامِ الحَسَنِ (عَلَيْهِ السَّلامُ): "فَإِنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ بَعْضُهُ أَضْوَءُ مِنْ بَعْضٍ" قَوْلٌ يَقُوْمُ مَقَامَ الدَّلِيْلِ البُرْهَانِيِّ الَّذِي يُقَوِّي المُشَبَّهَ (كُوْنُوا أَوْعِيَةَ العِلْمِ، وَمَصَابِيْحَ الهُدَى) النَّاصَّ عَلَى ضَرُورَةِ اجْتِهَادِ آلِ البَيْتِ (عَلَيْهِم السَّلامُ) فِي العِلْمِ وَحِفْظِهِ فَهُمْ أَوْعِيَتُهُ، والمُسَارَعَةِ فِي تَبْلِيْغِهِ، واحْرَازِ أَفْضَلِ المَقَامَاتِ فِي مَرَاتِبِ الدُّعَاةِ إِلَى رَبِّ الأَرْضِ السَّمَاوَاتِ؛ لأَنَّهُم سَيَتَفَاضَلُوْنَ فِي الدَّرَجَاتِ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُم يَرْجِعُوْنَ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ هُوَ مَصْدَرُ النُّورِ والهِدَايَةِ الَّذِي يُنِيْرُ الأَفْكَارَ الغَارِقَةَ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ، والمُنْحَرِفَةَ عَنْ سَبِيلِ الحَقِّ، وَهُم فِي هَذَا الحَالِ كَالضَّوْءِ فِي كَوْنِ دَرَجَاتِهِ تَخْتَلِفُ فِي النَّهَارِ مِن بِزُوغِ الشَّمْسِ وحَتَّى الوَقْتِ القَرِيْبِ مِنْ غُرُوبِهَا عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ كُلَّ دَرَجَاتِهِ تَعُوْدُ إِلى أَصْلٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ضَوْءُ الشَّمْسِ، ثُمَّ يَذْكُرُ بَعْدَ ذلِكَ - مَا يُؤَكِّدُ هَذِهِ الدَّلالَةَ المُتَحَصِّلَةَ مِن التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ - وهو قَوْلُهُ (، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ وِلْدَ إِبْرَاهِيْمَ(عَلَيْهِ السَّلامُ) أَئِمَّةً، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) وَبِهَذا

---

[1] بِحَارُ الأَنْوَارِ94/ 494.

[2] المَصْدَرُ نَفْسُهُ 44/ 270-271.

اسْتَطَاعَ (عَلَيْهِ السَّلامُ) أنْ يُحقِّقَ هَذا الخِطَابَ الإقْنَاعِيَّ الرَّائعَ بوَسَاطَةِ هَـذَا الفَـنِّ التَّـشْبِيهِيِّ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنهُ فِي مَقَامَاتِ الحِجَاجِ فِي بَلاغَتِنَا العَرَبِيَّةِ.

جَاءَ فِي كِتَابِ بِحَارِ الأنْوَارِ: وَالحَاصِلُ أنَّهُ قَدْ اسْتَقرَّ فِي نُفُوسِ الجَهلَةِ بِـسَببِ الحَـسَدِ أنَّ المُتَشَعِبِيْنَ مِنْ أصْلٍ وَاحِدٍ فِي الفَضْلِ سَواءٌ؛ وَلِذَلِكَ يَـسْتَنْكِفُ بَعْـضُ الأُخْـوَةِ، والأَقَـارِبِ عَنْ مُتَابَعةِ بَعْضِهِمْ... فَأَزَالَ(عَلَيْهِ السَّلامُ) تِلْـكَ الـشُّبْهَةَ بِالتَّـشْبِيْهِ بِـضَوْءِ النَّهَـارِ فِـي سَـاعَاتِهِ المُخْتَلِفَةِ، فَإنَّ كُلَّهُ مِنَ الشَّمْسِ، لَكِنَّ بَعْـضَهُ أضْـوَءُ مِـنْ بَعْـضٍ، كَـأوَّلِ الفَجْـرِ، وَبَعْـدَ طُلُـوْعِ الشَّمْسِ، وَبَعْدَ الزَّوَالِ وَهَكَذَا فَبِاخْتِلافِ الاسْـتِعْدَادَاتِ والقَابِلِيَّـاتِ تَخْتَلِـفُ إفَاضَـةُ الأنْـوَارِ عَلَى المَوَادِ[1].

وَفِي ضَوْءِ هَذَا يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّ الضَوْءَ بِوَصْفِهِ مَفْهُوماً فِيْزِيَاوِيّاً هُو حَقِيْقَـةٌ وَاحِـدَةٌ لا تَفَاضُلَ فِيهَا، فَلَيْسَ ثَمَّةَ ضَوْءٌ بِمَا هُوَ هُوَ أضْوءُ مِنْ آخَرَ، وَإنَّمَا يَتَحَقَقُ التَّفَاضُـلُ فِـي دَرَجَـاتِ الضَوْءِ بِاعْتِبَاراتٍ خَارِجَةٍ عَنْ مَاهِيَّتِهِ كَالوَقْـتِ، وَأحْـوَالِ مَـصْدَرِ الـضَّوْءِ - بِحَـسَبِ قَـوانِيْنِ الفَلَكِ - الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ، وَخَيْرُ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذِه المَسْألَةِ هُوَ مَا ذكَرْناه عَنْ(أضْـوَء) المَـذْكُورَةُ سَلَفاً.

رَابِعاً: وُرُوْدُ أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنَ الأفْعَالِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى العُيُـوبِ، نَحْـو (أعْمَـى) فِـي قَوْلِـــــهِ تَعَـــــالَى﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسْرَاء/ 72).

اخْتَلَفَ المُفَسِرُوْنَ فِي تَفْسِيْرِ كَلِمَةِ(أعْمَى) فِـي كَونِهَـا صِـفَةً أو أفْعَـلَ تَفْـضِيْلٍ؟، وَإذَا كَانَتْ أفْعَلَ تَفضِيْلٍ فَهَلْ هِي للعِيْنِ، أو هِـيَ للبَـصِيْرَةِ؟، أي بَـصِيْرَة القَلْـبِ، و كَوْنُهَـا أفْعَـلَ تَفْضِيْلٍ أظهرَ فِي النَّصِّ مِن الوَصْفيَّةِ لِمَا يَأتِي:

أوَّلاً: إنَّ دِلالَة السِّيَاقِ اللفْظِيِّ، تُؤَيِّدُ أنَّ(أعْمَى) للمُفَاضَلَة فِـي ضَـوْءِ قَرِيْنَـةِ(وَأضَـلُّ سَبِيْلاً) إذْ هِي مُفْصِحَةٌ عَن المُفَاضَلَةِ بِمَا لا يَسْمَحُ للشَّكِّ.

---

[1] بِحَارُ الأنْوَارِ، 44/ 271.

جاءَ فِي تَفسِيرِ أَبِي السُّعُودِ: "وَقَدْ جَوَّزَ كَوْنُ الثَّانِي بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ عَلَى أَنْ عَماه فِي الدُّنْيا؛ وَلِذَلِكَ قَرَأَ أَبُو عَمْرِو الأَوَّلَ مُمالاً والثَّانِي مُفَخَّماً (وَأَضَلُّ سَبِيلاً) أَي مِن الأَعْمَى لِزَوالِ الاسْتِعْدادِ المُمْكِنِ وَتَعطُّلِ الآلاتِ بِالكُلِّيَّةِ..."[1].

ثانِياً: تَفرِيقُ القُرَّاءِ مِثْلِ أَبِي عَمْرِو بنِ العَلاءِ(ت154هـ) بِقِراءاتِهِمْ بَيْنَ لَفظَةِ(أَعْمَى) الأُولَى والَّتِي هِي صِفَةٌ، وَ(أَعْمَى) الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ أَفعَلُ تَفْضِيلٍ، بِأَنْ أَمالَ الأَوْلَى وَلَمْ يُمِلِ الثَّانِيَةَ؛ لأَنَّهَا للتَّفضِيلِ، وأَفعَل الَّتِي للتَّفْضِيْلِ لا تُمَالُ لأَنَّ المِيْمَ جُزءٌ مِنْهَا[2] يَقْصِدُ بِالمِيْمِ مِيْمَ (مِنْ) الَّتِي تَرِدُ بَعْدَ أَفعَلِ التَّفْضِيْلِ (أَعْمَى).

جاءَ فِي تَفسِيْرِ التِّبْيانِ فِي تَفسِيرِ القُرآنِ: "قَرَأَ أَهْلُ العِراقِ إِلَّا حَفصاً والأَعْشَى (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى) بِالإِمَالَةِ. البَاقُوْنَ بِالتَّفْخِيمِ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسَائِيُّ إِلَّا نُصيراً، وَخلَفاً، وَأَبَا بَكْرٍ إِلَّا الأَعْشَى والبَرْجَمِيّ(فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى) بِالإِمَالَةِ. البَاقُوْنَ بِالتَّفْخِيمِ.... وَأَمَّا تَفرِيْقُ أَبِي عَمْرِو بَيْنَ اللفظَيْنِ فَلِاخْتِلافِ المَعْنَى، فَقَالَ: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى مُمَالاً، فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى بِالفَتْحِ أَي أَشَدُّ عَمًا، فَجَعَلَ الأَوَّلَ صِفَةً بِمَنْزِلَةِ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ، والثَّانِي بِمَنْزِلَةِ أَفعَلَ مِنكَ، كَقَوْلِهِ:(وَأَضَلُّ سَبِيْلاً) أَي أَعْمَى قَلْباً"[3].

وَيُوَضِّحُ الزَّمَخْشَرِيُّ التَّفرِيْقَ فِي قِراءَةِ أَبِي عَمْرِو قَائِلاً: "وَمِنْ ثَمَّ قَرَأَ أَبُو عَمْرِو الأَوَّلَ مُمَالاً، والثَّانِي مُفَخَّماً؛ لِأَنَّ أَفعَلَ التَّفْضِيْلِ تَمَامُهُ بِمِنْ، فَكَانَتْ أَلِفُهُ فِي حُكْمِ الوَاقِعَةِ فِي وَسَطِ الكَلامِ... وَأَمَّا الأَوَّلُ فَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ شَيْءٌ، فَكَانَتْ أَلِفُهُ وَاقِعَةً فِي الطَّرَفِ مُعَرَّضَةً لِلإِمَالَةِ"[4].

وَإِذَا كَانَتْ للتَّفْضِيْلِ فَهَل هِيَ أَفعَلُ للعَيْنِ أَو للبصِيْرَةِ؟

---

(1) تَفسِيرِ أَبِي السُّعُودِ أَو إِرْشَادِ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايَا الكِتَابِ الكَرِيمِ، للقَاضِي أَبِي السُّعُودِ مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بن مُصْطفى العَمَادِيُّ الحَنَفِيُّ (ت982هـ)، 5/ 240-241، تَحقِيْقُ: خَالِد عَبْد الغَنِي مَحفُوظ دارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، ط/ 1،(2010م).

(2) يُنْظَرُ: مَعَانِي القِرَاءاتِ، لأَبِي مَنصُور مُحَمَّد بنِ أَحْمد الأَزْهَرِيّ(ت370هـ)، 259، دَار الكُتُب العِلْمِيَّة، ط/ 1(1420هـ- 1999م)

(3) التِّبْيَانُ فِي تَفْسِيرِ القُرآنِ، لِشَيْخِ الطَّائِفَةِ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بنِ الحَسَنِ الطُّوسِيّ(ت460هـ)، تَحقِيقُ: أَحْمَد حَبِيْب قَصِيرالعَامِلِيّ،6/ 453-454، الأَمِيْرَة للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ والتَّوزِيْعِ، ط/ 1،(1431هـ-2010م).

(4) الكَشَّاف، 2/ 460.

وبحسَبِ مَا يَذْكُرُ المُفسِرُون أنَّ (أَفعَل) الَّتِي للمُفَاضَلَةِ لا تَكُونُ من العَيْنِ، وإنَّما يُقَالُ: أَشَدُّ عَمًا، ومَعَ بَصِيْرَةِ القَلْبِ يُقَالُ: أعْمَى مِن.

جَاءَ فِي تَفْسِيْرِ التِّبْيَان: "وَالعَمَى فِي العَيْنِ لا يُتعَجَّبُ مِنْهُ بِلَفْظَةِ(أَفْعَل)، ولا يُقَالُ: مَا أَعْمَاهُ !، بَلْ يُقَالُ: مَا أَشَدَّ عَماهُ!، وَفِي القَلْبِ مَا أَعْمَاهُ !، بِغَيْر أَشَدّ؛ لأَنَّ عَما القَلْبِ حَمقٌ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ...:

أمَّا المُلُوكُ فَأنْتَ اليَومَ ألأَمُهُمْ لُؤماً وَأبْيَضُهُمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ[1].

ومَا يُؤيِّدُ دَلالَةَ أنَّه أَفْعَلُ تَفضِيْلٍ من عَمَى العَيْنِ، لا مِن عَمَى البَصِيْرَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ (طه/ 124 - 125).

وَيُعَضِّدُهُ مَا جَاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أنَّهُ أَعْمَى مِنَ البَصَر، جَاءَ فِي تَفْسِيْرِ مَجْمَعِ البَيَانِ: "وَنَحْشُرُهُ يومَ القِيَامَةِ أعْمَى، أي: أعْمَى البَصَرِ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقِيْلَ أعْمَى عَنَ الحُجَّةِ... والأَوَّلُ هُوَ الوَجْهُ لأنَّهُ الظاهِرُ، ولا مانِعَ مِنْهُ، وَيَدلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْراً..."[2].

خَامِسًا: ورُوْدُ أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِنَ الأَفْعَالِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الأَلوَانِ، نَحْو(أَبْيَض، وأَسْوَد) فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ - المَذْكُوْر سَلَفاً - :

أمَّا المُلُوكُ فَأنْتَ اليَومَ ألأَمُهُمْ لُؤماً وَأبْيَضُهُمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ

---

(1) التِّبيَانُ فِي تَفسِيْرِ القُرآن،6/ 453-454، الأمِيْرَة للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزِيعِ، ط/ 1،(1431هـ-2010م).

(2) مَجمعُ البَيَانِ فِي تفسيرِ القُرآنِ، لأبِي عَلِي الفَضْلِ بنِ الحَسَنِ الطَّبْرسِيِّ، 7/ 46، دارُ المُرْتضَى، ط/ 1(1427هـ-2006م).

وَقَوْلِهِم:" أَسْوَدُ مِنْ حَلَكِ الغُرَاب، وَأَبْيَضُ مِنَ اللَّبَن"[1].

وَيَذْكُرُ أَبُو البَرَكَاتِ الأَنْبَارِيُّ (ت577هـ) أَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ خِلافِيَّةٌ بَيْنَ النَّحْوِيِّينَ الكُوْفِيِّينَ الَّذِيْنَ أَجَازُوْهَا والنَّحْوِيِّيْنَ البَصْرِيِّينَ الَّذِيْنَ مَنَعُوْهَا، جَاءَ فِي كِتَابِهِ الانْصَافِ:" أَمَّا الكُوفِيُّونَ فَاحتَجُّوا بِأَن قَالُوا: إِنَّمَا جَوَّزْنَا ذَلِكَ لِلنَّقْلِ، والقِيَاسِ:

أَمَّا النَّقْلُ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا الرِّجَالُ شَتَوا واشْتَدَّ أَكْلُهُمُ ... فَأَنْتَ أَبْيَضُهُمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ.

.... وَأَمَّا القِيَاسُ، فَقَالُوا: إِنَّمَا جَوَّزْنَا ذَلِكَ مِنَ (السَّوَادِ) و (البَيَاضِ) دُوْنَ سَائِرِ الأَلْوَانِ؛ لأَنَّهُمَا أَصْلا الأَلْوَان، وَمِنْهَا يَتَرَكَّبُ سَائِرُهَا مِنَ الحُمْرَةِ، والصُّفْرَةِ، والخُضْرَةِ، والصُّهْبَةِ، والشُّهْبَةِ، والكُهْبَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَا هُمَا الأَصْلَيْنِ لِلأَلْوَان كُلِّهَا جَازَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُمَا مَال لا يَثْبُتُ لِسَائِرِ الأَلْوَان؛ إِذْ كَانَا أَصْلَيْنَ لَهَا وَمُتَقَدِّمَيْنِ عَلَيْهَا"[2].

ثُمَّ يَذْكُرُ رَأْيَ البَصْرِيِّينَ وَحُجَّتَهُمْ عَلَى مَنْعِهِ قَائِلاً:" وَأَمَّا البَصْرِيُّونَ فَاحتَجُّوا بِأَنْ قَالُوا: الدَّلِيْلُ عَلَى أَنَّه لا يَجُوْزُ اسْتِعْمَالُ(مَا أَفْعَلَهُ) مِنَ البَيَاضِ والسَّوَادِ أَنَّا أَجْمَعْنَا عَلَى أَنَّهُ لا يَجُوْزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ مِمَّا كَانَ لَوْناً غَيْرُهُمَا مِنْ سَائِرِ الأَلْوَان، فَكَذَلِكَ لا يَجُوْزُ مِنْهُمَا، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لا يَخْلُو امتِنَاعُ ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ؛ لِأَنَّ بَابَ الفِعْلِ مِنْهُمَا أَنْ يَأتِي عَلَى(افْعَلّ)، نَحْو:(احْمَرّ) وَ(اصْفَرّ) وَمَا أَشْبَه ذَلِك؛ أَو لِأَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ مُسْتَقِرَّةٌ فِي الشَّخْصِ لا تَكَادُ تَزُوْلُ فَجَرَتْ مَجْرَى أَعْضَائِهِ، وَأَيّ العِلَّتَيْنِ قَدَّرْنَا وَجَدْنَا المُسَاوَاةَ بَيْنَ البَيَاضِ وَالسَّوَادِ، وَبَيْنَ سَائِرِ الأَلْوَانِ فِي عِلَّةِ الامْتِنَاعِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَجُوْزَ فِيْهِمَا كَسَائِرِ الأَلْوَان"[3].

---

(1) حَاشِيَةُ الخُضَرِيِّ عَلَى شَرحِ ابنِ عَقِيلٍ عَلَى أَلفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ، لِمُحَمَّدِ بنِ مُصطَفَى بنِ حَسَنِ الخُضَرِيِّ الشَّافِعِيِّ (ت1278هـ)، 2/ 109، تَحقِيقُ: تُركِي فَرحان المُصْطَفَى، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّة، ط/ 4، (2011م- 1432هـ).

(2) الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ بَيْنَ النَّحْوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ والكُوفِيِّينَ، لِكَمَالِ الدِّيْنِ أَبِي البَرَكَاتِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ أَبِي الوَفَاءِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ الأَنْبَارِيِّ، 1/ 141-143، تَحقِيقُ: حَسَن حَمَد، دارُ الكُتُبِ العِلمِيَّة، ط/ 2(2007م- 1428هـ).

(3) الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ، 1/ 143.

وَلَكِنَّنَا فِي نِهَايَةِ المَطَافِ نَجِدُ أَنَّ أَفعَلَ التَّفْضِيْلِ جَاءَ مِنَ اللَونَيْنِ الأَسْوَدِ والأَبْيَضِ فِي الشِّعْرِ والنَّثْرِ الفَصِيْحَيْنِ، وبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ قِلَّةِ أَمْثِلَتِهِمَا الَّتِي جَاءَت عَلَيْهَا، يُمْكِنُ أَنْ نَكُوْنَ مُطْمَئِنينَ إِلَى أَنَّ قِسْماً مِن العَرَبِ قَد اختَارَ التَّفْضِيْلَ بِصِيغَةِ (أَفْعَل مِنْ) فِي الأَلوان، ولا دَاعِيَ لإِنكَارِهِ عَلَيهِمَ؛ لأَنَّهُم - بِالتَّأكِيْدِ - يَروْنَ مُفَاضَلَةً فِي دَرَجَاتِ اللونَيْنِ الأَسْودِ، والأَبْيَض، وكَونُ غَيْرِهِم يُخَالِفُهُم فَهَذَا لا يُلغِي اخْتِيَارَهُم اللغَوِيَّ، وَمَا تَعَارَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أَسَالِيْبِ لُغَتِهِم، وَجَرَى عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُهُم..

وَيُضِيفُ البَاحِثُ الدُّكتور سَمِيْر شَرِيْف استيتِيَّة مِن الدَّارِسِيْنَ المُعَاصِرِيْنَ مَجْمُوْعَةً مِن الإِشْكَالاتِ الدَّلالِيَّةِ عَلَى دِلالَة(أَفْعَل التَّفْضِيْل) عِنْدَ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ القُدَمَاءِ وَمَدَى قُصُوْرِهَا فِي فَهْمِ بَعْضِ النُّصُوْصِ، وَلاسِيَّمَا النُّصُوْصُ القَانُوْنِيَّةُ الحَدِيْثَةُ، ويَذْكُرُ دَلالاتٍ جَدِيْدَةً لِلمُفَاضَلَةِ فِي ضَوْءِ الخِطَابِ القَانُونِيِّ بِنَاءً عَلَى مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ النُّصُوْصِ القَانُوْنِيَّةِ مِثْل دِلالَةِ المُسَاوَاةِ المَفْهُوْمَةِ مِن تَفْسِيْر النَّص القَانُوْنِيِّ الآتِي:

"رَأيٌ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ للمَبَادِئ القَانُونِيَّةِ العَامَّةِ قُوَّةً مُسَاوِيَةً لِقُوَّةِ الدُّسْتُور"[1].

وَيَذْكُرُ استيتِيَّة أَنَّ هَذَا الرَّأيَ القَانُونِيَّ: "الَّذِي يَجْعَلُ المَبَادِئَ القَانُونِيَّةَ العَامَّةَ مُسَاوِيَةً للقَانُوْن المُدَوَّنَ يُنْشِئُ رَأياً فِي التَّفَاضُلِ، كَانَ عُلَمَاءُ الدَّلالَةِ جَدِيْرِيْنَ بِأَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَيْهِ، ولَكِنَّهُم لَمْ يَفْعَلُوا"[2].

وَدِلالَةَ التَّفَاضُلِ بَيْنَ أَطْرَافٍ مُتَعَدِّدَةٍ والَّذِي أَسْمَاهُ بـ(التَّفَاضُلِ المُرَكَّبِ) فِي تَفْسِيرِ النَّصِّ القَانُونِيِّ الآتِي:

"رَأيٌ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ للمَبَادِئ القَانُونِيَّةِ العَامَّةِ مَرْتَبَةً تَعْلُو عَلَى مَرْتَبَةِ القَانُوْنِ العَادِي لَكِنَّهَا لا تَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةِ الدُّسْتُوْر"[3].

---

(1) اللسَانِيَّاتُ المَجَالُ، والوَظِيْفَةُ، والمَنْهَجُ، د-سَمِيْر شَرِيْف استيتِيَّة، 498، عَالَمُ الكُتُبِ الحَدِيْث، ط/ 1(1425هـ-2005م)، ط/ 2(1429هـ-2008م).

(2) المَصْدَرُ نَفْسُهُ،499.

(3) المَصْدَرُ نَفْسُهُ، 498.

ويُعقّبُ استيتيّة علَى هَذَا النّصّ قَائلاً: "فَالفريْقُ الّذِي يَقُولُ إنَّ للمبَادِئِ القَانُونِيَّةِ العَامَّةِ مَرْتَبَةً تَعْلُو عَلَى مَرْتَبَةِ القَانُونِ العَادِي، لَكِنَّهَا لا تَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةِ الدُّسْتُورِ، يُنْشِئُ بَاباً للتَّفَاضُلِ لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِن عُلَمَاءِ اللغَةِ الَّذِيْنَ كَانَ هَمُّهُمْ أَنْ يَرْصدُوا التَّفَاضُلَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ فَقَط، فَهَذَا أَحْسَنُ مِنْ ذَاكَ، وَأولَئِكَ دُوْنَ هَؤلاءِ إِلَى آخِرِ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى أُسْلُوْبِ التَّفَاضُلِ بَيْنَ أَطْرَافٍ مُتَعَدِّدَةٍ، والَّذِي يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِيَهُ التَّفَاضُلَ المُرَكَّبَ، فَنَقُوْلُ: هَذَا أَفْضَلُ مِنْ ذَاكَ فِي العِلْمِ وَلَكِنَّهُ دُوْنَهُ فِي العَمَلِ.."[1].

وَأَحْسَبُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ استيتيَّةُ مُحَاوَلَةٌ جَيِّدَةٌ لِمَنْحِ دِلالَةِ المُفَاضَلَةِ مُرُوْنَةً دَلالِيَّةً فِي ضَوْءِ التَّدَاوُلِ الاسْتِعْمَالِيِّ فِي العَرَبِيَّةِ فِي كُلِّ نُصُوْصِهَا قَدِيْماً وَحَدِيْثاً، وَهَذَا مَا يُعْطِي للاسْتِعْمَالِ اللغَوِيِّ العَرَبِيِّ حَيَوِيَّتَهُ وقُدْرَتَهُ عَلَى اسْتِيْفَاءِ الدَّلالاتِ والتَّمَكُنِ مِنْ تَحْقِيْقِهَا.

وَمَا ذَكَرَهُ اسْتِيتيَّةُ لَيْسَ خَاصّاً بِالخِطَابِ القَانُونِيِّ كَمَا يَبْدُو مِنْ ظَاهِرِ كَلامِهِ إِذْ نَجِدُ فِي تُرَاثِنَا نُصُوْصاً تُشْبِهُ النُّصُوْصَ القَانُونِيَّةَ فِي دِلالتِها عَلَى المُفَاضَلَةِ لاسِيَّمَا دِلالَةُ التَّفَاضُلِ المُرَكَّبِ، وَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ حَدِيْثُ البُرَاقِ:"أُتِيتُ بِالبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُوْنَ البَغْلِ...."[2].

فَوَصْفُ رَسُولِ اللهِ(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) للبُرَاقِ – وَهُوَ الدَّابَّةُ الَّتِي عَرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ – بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الحِمَارِ وأَصْغَرُ مِنَ البَغْلِ، يَتَضَمَّنُ هَذَا النَّوعَ مِنَ المُفَاضَلَةِ المُرَكَّبَةِ الَّتِي تُعطِي دِلالَةً لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا النَّحويُّونَ القُدَماءُ فِي مُعَالَجَتِهِمْ لأُسْلُوبِ التَّفْضِيْلِ.

---

(1) اللسَانِيَّاتُ المَجَالُ، والوَظِيْفَةُ، والمَنهَجُ، 499.

(2) صَحِيْحُ مُسْلِم، 1/ 145، بَابُ الإِسْرَاءِ برسُوْلِ اللهِ (ص)، مُسْلِم بن الحَجَّاج أبو الحَسَن القُشَيْرِيّ النَّيسَابُورِيّ (ت261هـ)، المُحقِّقُ: مُحَمَّد فُؤاد عَبْد البَاقِي، النَّاشِرُ دَارُ إِحْيَاء التُّراث العَرَبِيّ، بيروت- لبنان، وَيُنْظَرُ: مُسْنَدُ ابي يَعْلَى المَوصِلِيّ، 6/ 109، أبو يَعْلَى احمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التَّمِيمِيّ المَوصِلِيّ(ت307هـ)، المُحَقِّقُ: حَسَن سَلِيم أَسَد، النَّاشِرُ دَار المَامُون للتُّراثِ- دمشق، ط/ 1(1404هـ- 1984م).

التَّفْضِيلُ فِي اللغاتِ السَّامِيَّةِ (مقارَبَةٌ فِي ضَوْءِ اللسانِيَّاتِ المُقَارِنَةِ):

يَهْدِفُ هَذَا المَنْظُورُ اللسَانِيُّ (Comparative Linguistics) إلَى التَّوَصُّلِ إلَى الخَصَائص اللغَوِيَّةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَ اللغَاتِ الَّتِي تَعُوْدُ إلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ اللغَةُ الأُمُّ (Mother Language) مَعَ تَبَاعُدِهَا فِي الزَّمَانِ والمَكَانِ[1] ويُمْكِنُ اسْتِثْمَارُ هَذِهِ الخَصَائص المُشْتَرَكَةِ فِي إثْبَاتِ وُجُوْدِ أَصْلٍ وَاحِدٍ لِهَذِهِ اللغَاتِ، وَكَذَلِكَ الإِفَادَةُ مِنْهَا حَلُّ كَثِيْرٍ مِنَ المُشْكِلاتِ اللغَوِيَّةِ، والنَّحْوِيَّةِ، والدَّلالِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِعْ البَحْثُ اللغَوِيُّ العَرَبِيُّ القَدِيْمُ أنْ يُقَدِّمَ لَهَا حُلُوْلاً عِلْمِيَّةً مَقْبُوْلَةً.

تَخْتَلِفُ أَسَالِيْبُ التَّفْضِيْلِ فِي اللغاتِ السَّامِيَّةِ، فَفِي العَرَبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ - كما ذَكَرْنَا سَلَفَاً - يكُوْنُ التَّفْضِيْلُ بِصِيغَةِ (أَفْعَل مِنْ) وَيَذْهَبُ بَعضُ المُخْتَصِّيْنَ باللغاتِ السَّامِيَّةِ إلى أنَّ هذهِ الصِّيْغَةَ مِمَّا تَخْتَصُّ بِهِ العَرَبِيَّةُ الشَّمَالِيَّةُ مِنْ دُوْنِ بَقِيَّةِ شَقِيْقَاتِهَا مِن الأَرُومَةِ السَّامِيَّةِ، يَقُوْلُ الدكتور مُنِيْرُ البَعلَبَكِّيّ:" أَفْعَلُ التَّفْضِيْلِ: باستِثْنَاءِ العَرَبِيَّةِ، لَيْسَ فِي اللغاتِ السَّامِيَّةِ صِيْغَةٌ صَرْفِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِالتَّعْبِيْرِ عَن التَّفْضِيْلِ بِنَوْعَيْهِ، أي: دَرَجَة التَّفْضِيْلِ (comparative degree)، والدَّرَجة الفُضْلَى (superlative degree)؛ وَلِذلِك نَجِدُ أنَّ تِلكَ اللغاتِ تَضطَرُّ إِلَى اسْتِخْدَامِ وَسَائلَ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ للتَّعْبِيرِ عَن التَّفْضِيلِ، فَالعِبْرِيَّةُ - مَثَلاً - قَدْ تُعَبِّرُ عَنْهُ باستِخْدَامِ الصِّفَةِ نَفْسِهَا مَتْبُوعَةً بـ(مِنْ).... وقَرِيْبٌ منْ هَذا مَا فِي سَائرِ السَّامِيَّاتِ، أَمَّا العَرَبِيَّةُ فَقَد خَصَّت التَّفْضِيْلَ بِنَوْعَيْهِ بِصِيْغَة (أَفعَل)، وَهِي صِيْغَةٌ سَامِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ، أي إنَّ العَرَبِيَّةَ لَم تَبْتَدِعهَا بَلْ تَفَرَّدَتْ بِأنْ أَسْنَدَتْ إِلَيْهَا وَظِيْفَةَ التَّعْبِيْرِ عَن التَّفْضِيْلِ عَلاوةً عَلَى دِلالاتِهَا الأُخْرَى، فَأَضْحى التَّفْضِيلُ مُرْتَبِطاً بِصِيْغَةٍ مُحَدَّدَةٍ وَقِيَاسِيَّةٍ تُعْفِي اللغَةَ مِن أسْلُوبِ المُدَاوَرَةِ الذي تُضْطَرُّ إليهِ اللغَاتُ التِي تَفْتَقِرُ إِلى مِثْلِ هَذِه الصِّيْغَةِ"[2].

---

(1) يُنْظَر: النَّظَرِيَّاتِ اللسَانِيَّةُ الكُبْرَى مِن النَّحْوِ المُقَارِنِ إِلَى الذَّرَائعِيَّةِ، ماري آن بافو، وجورج إليا سرفاتي، 15، تَرجَمَة: مُحَمَّد الرَّاضِي، المُنَظَّمَةُ العَرَبِيَّةُ للتَّرْجَمَةِ، ط/ 1، بيروت، آذار، 2012م.

(2) فِقْهُ العَرَبِيَّةِ المُقَارَنِ (دِرَاساتٌ فِي أَصْوَاتِ العَرَبِيَّةِ وَصَرْفِهَا وَنَحْوِهَا عَلَى ضَوْءِ اللغَاتِ السَّامِيَّةِ)، 146، دَارُ العِلْمِ للملايينَ، ط/ 1، نيسان/ أبريل 1999.

وَفِي قَوْلِ الدكتور البعلبكيّ تَعْمِيمٌ غَيْرُ دَقِيْقٍ؛ لأَنَّ صِيْغَةَ(أفْعَل) التي للتَّفْضِيْلِ مَوْجُوْدَةٌ فِي لُغَاتٍ سَامِيَّةٍ أُخْرَى مِثْل اللغَةِ النَّبَطِيَّةِ، والعَرَبِيَّةِ الجَنُوْبِيَّةِ[1].

أَمَّا فِي اللغَةِ النَّبَطِيَّةِ فيَقُوْلُ الدكتور يَحْيَى عَبَابْنَة - فِي حَدِيْثِهِ عَنْ التَّفْضِيْلِ - : "وَمِنْ خِلالِ تَحْلِيْلِ المُعْجَمِ النَّبَطِيِّ، تَبَيَّنَ أنَّ النَّبَطِيَّةَ اخْتَلَفَتْ مَعَ السَّامِيَّاتِ مَا عَدَا العَرَبِيَّةِ، فَقَدْ اسْتَعْمَلَتْ الصِّيْغَةَ التي اسْتَعْمَلَتْهَا العربِيَّةُ، وَهِي صِيْغَةُ (أفْعَل)، وَمِن الأَمْثِلَةِ التِي يُمْكِنُ أَنْ نَسُوْقَهَا عَلَى هَذَا الأَمْرِ:

- >n<tw

أي: أنْعتُ، وَهُوَ مَأخُوْذٌ من النَّعت، بِمَعْنَى أكْثر نَعْتاً.... وَفِي النَّبَطِيَّةِ بَعْضُ الأَمْثِلَةِ الأُخْرَى عَلَى هَذَا البَابِ"[2].

وَفِي اللغَةِ العَرَبِيَّةِ الجَنُوْبِيَّةِ يَقُوْلُ بيستون: "وزن (أ ف ع ل)، وَهُوَ كَثِيْرٌ فِي أَسْمَاءِ الأَعْلام، أَمَّا فِيْمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ نَادِرٌ، وَلَكِنْ لَهُ شَوَاهِدُ كَاسْمِ التَّفْضِيْلِ كَمَا فِي العَرَبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ فِي بِنَاءِ (أَفْعَلُ) نَحْوُ(أ ص ن ع/ ك ل/ ك ز { ي ت م }): أَشَدُّ كُلِّ القَوَانِيْنِ"[3].

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِقَوْلِ البَعلبكيّ المَذْكُوْرِ سَابِقاً: "فَالعِبْرِيَّةُ - مَثَلاً - قَدْ تُعَبِّرُ عَنْهُ باستِخْدَامِ الصِّفَةِ نَفْسِهَا مَتْبُوعَةً بـ(مِنْ).... وقَرِيْبٌ مِنْ هَذا مَا فِي سَائِرِ السَّامِيَّاتِ" فَلَيْسَ دَقِيْقاً تَمَاماً؛ لأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَى اللغَةِ العِبْرِيَّةِ[4]، واللغَةِ الآرَامِيَّةِ[5]، واللغَةِ

---

(1) يُنْظَر: اللغَة النَّبَطِيَّة(دِرَاسَةٌ صَوْتِيَّةٌ صَرْفِيَّةٌ دِلالِيَّةٌ فِي ضَوْءِ الفُصْحَى واللغاتِ السَّامِيَّةِ)، الدكتور يَحْيَى عَبَابْنَة، 216، دَار الشُّرُوق للنَّشْر والتَّوْزِيْعِ، ط/ 1، 2002. وَيُنْظَر: قَوَاعِد العَرَبِيَّة الجَنُوبِيَّة، ف. ل. بيستون، تَرْجَمَة: الدكتور خَالِد اسْمَاعِيْل عَلِي، 52، مَطْبَعَة المَجْمَع العِلْمِيّ العِرَاقِيّ، 1412هـ- 1992م.

(2) اللغَةُ النَّبَطِيَّةُ،216.

(3) قَوَاعِدُ العَرَبِيَّةِ الجَنُوبِيَّةِ،52.

(4) يُنْظَر: قَوَاعِد اللغَةِ العِبْرِيَّةِ، الدكتور عَوْنِي عَبْد الرَّؤوف، 229، الهَيْئَةُ العَامَّةُ للكُتُبِ والأَجْهِزَةِ العِلْمِيَّةِ، مَطْبَعَة جَامِعَةِ عَيْن شمس 1971م.

(5) يُنْظَر: قَوَاعِد اللغَةِ الآرَامِيَّةِ، الأب البير أبونا، 245-247. اربيل، 2001م.

السّريانيّةِ[1]، ولَكِنْ لا ينطَبِقُ هَذا عَلَى اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ بِلَهْجَتَيْهَا البَابِلِيَّةِ، والآشُورِيَّةِ[2]، وَكَذَلِكَ لا يَنطَبِقُ عَلَى اللغَةِ الأَجَارِيتِيَّةِ[3].

والدّليلُ عَلَى هَذا مَا ذُكِرَ فِي مَظَانِّ قَوَاعِدِ اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ بِلَهْجَتَيْهَا البَابِلِيَّةِ والآشُورِيَّةِ عَنْ التَّفْضِيلِ وَيُمْكِنُ إِجْمَالُهُ بالآتِي:

يُعَبَّرُ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ بِطُرُقٍ عِدَّةٍ، وَدَائماً بِمُسَاعَدَةِ حَرْفِ الجَرِّ إِل (eli) بِمَعْنَى (فَوْق)، (أَكْثر) نَحْو: شوكو ئربوكِ إِلِ كَلَ الان صيرُ (جَلالَتُكَ البَهِيَّةُ هِيَ فَوْقَ كُلِّ الآلِهَةِ)[4].

وَلَم تَرِدْ فِيهَا صِيغَةُ التَّفْضِيلِ المَذْكُورَةُ (الصِّفَةُ مَتْبُوعَةٌ بِحَرْفِ الجَرِّ مِنْ)[5]

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلُغَةِ الأَجَارِيتِيَّةِ فَإِنَّهَا رُبَّمَا تَسْتَعْمِلُ فَعِيل، أَو فَعِل بِكَسْرِ العَيْنِ مُضَافَةً للاسْمِ بَعْدَهَا[6]

نَحْوُ: ن ع م ن ع م ق ن ش م نُعمان أَشَدُّ النَّاسِ[7].

وَأَمَّا قَوْلُهُ:... وَلِذَلِك نَجِدُ أَنَّ تِلكَ اللغاتِ تَضطَرُّ إِلَى اسْتِخْدَامِ وَسَائِلَ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ التَّفْضِيلِ، فَالعِبْرِيَّةُ - مَثَلاً - قَدْ تُعَبِّرُ عَنْهُ باسْتِخْدَامِ الصِّفَةِ نَفْسِهَا مَتْبُوعَةً

---

(1) يُنْظَر: اللمعَة الشّهيَّة فِي نَحوِ اللغَةِ السّريانيَّةِ، أقليميس يوسف داود، 589، الموصل1896م، ويُنْظَر: المَنَاهج فِي النَّحْوِ والمَعَانِي عِنْدَ السّرْيَان، الأباتي جبرائيل القرداحيّ، 74-77، ط/ 3، حلب، 2008م. ويُنْظَر: فِي قَوَاعِدِ السَّامِيَّاتِ (العِبْرِيَّةِ والسّريانيّة والحبشيّةِ) مَعَ النُّصُوْصِ والمُقَارَنَاتِ، الدكتور رمضان عبد التّواب، 145، مطْبَعَة الخانجي بمصر،القاهرة، 1981، ويُنْظَر: فَن النَّحْوِ بَيْنَ اليُوْنَانيَّةِ والسّريَانِيَّةِ(تَرْجَمَةٌ وَدِرَاسَةٌ لِكِتَابَي ديونيسيوس ثراكس ويُوسف الأهوازيّ)، تَرْجَمَة ماجِدة محمّد أنور،83-84، المَجلِسُ الأَعْلَى للثَّقافَةِ، المَشْرُوعُ القَوْمِيّ للتَرْجَمَةِ، القاهِرَة، 2001م.

(2) يُنْظَر: قَوَاعِد اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ، الدكتور فَوْزِي رَشِيْد، 32، دَار صَفَحَات للدرَاسَات والنَّشْر، سورية – دمشق، ط/ 1، 2009م.، ويُنْظَر: اللغة الأَكَدِيَّة (البابليّة- الآشُوْرِيَّة) تاريخُهَا وتَدْوِيْنُهَا وقَوَاعِدُهَا، الدكتور عامر سُلَيْمَان، 308-309، الدّار العربيّة للمَوْسُوعاتِ، بيْرُوت- لبنان، ط/ 1412هـ- 1991م، ط/ 2 1426هـ-2005م.

(3) يُنْظَرُ: مُقَدِمَةٌ فِي قَوَاعِد اللغَةِ الأُوْجَارِيتِيَّةِ، أ.د خالِد إِسْمَاعِيل عَلِي، 53، جَامَعَة اليَرموكِ، 1998.

(4) اللغة الأكَدِيَّة (البابليّة- الآشُوْرِيَّة) تاريخُهَا وتَدْوِيْنُهَا وقَوَاعِدُهَا، الدكتور عامر سُلَيْمَان،308، و يُنْظَر: قَوَاعِد اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ، الدكتور فَوْزِي رَشِيْد،32.

(5) المَصْدَرَان أَنْفُسُهُمَا والصَّفْحَةُ نَفْسُهَا.

(6) يُنْظَرُ: مُقَدِمَةٌ فِي قَوَاعِد اللغَةِ الأُوْجَارِيتِيَّةِ، 53.

(7) التَّوَابِعُ فِي العَهْدِ القَدِيْمِ(دِرَاسَةٌ سَامِيَّةٌ مُقَارِنَةٌ)، صَفيَّة شَاكر محمود الشّخلِيّ، 43، رسَالةُ ماجِستِير مُقَدَمَةٌ إِلَى كُلِيَّةِ اللغَاتِ جَامِعَة بَغْدَاد، بإِشْرَافِ أ.د خَالِد إِسْمَاعِيل عَلِي، 2004م.

بـ(مِنْ).... وقَرِيْبٌ من هَذا مَا فِي سَائِرِ السَّامِيَّاتِ..." فَيُوحِي أنَّ هَـذِهِ الوَسِـيْلَةَ هِـيَ الطَّرِيْقَـةُ الوَحِيْدَةُ للتَّفضِيْلِ فِي اللغَةِ العِبْرِيَّةِ وَسَائِرِ اللغاتِ السَّامِيَّةِ عَلَى حَدِّ تَعْبِيْرِهِ.

والصَّحِيْحُ أنَّها لَيْسَت الوسِيْلَةَ الوَحِيْدَةَ لِلتَّفضِيْلِ فِي اللغـاتِ المَـذْكُوْرَةِ وَإنَّمـا هُنـاكَ وَسَائِلُ أُخْرَى لا يُمْكِنُ اخْتِزَالُهَا بِهَذِهِ الوَسِيْلَةِ فَقَطْ.

فَفِي اللغَةِ العِبْرِيَّةِ يَكونُ التَّفْضِيْلُ باسْتِعْمَالِ الصِّفَةِ مَعَ حَرْفِ (مِنْ) (מִן) حَيْثُ يُعَبِّـرُ عَنْ دَرجَةِ التَّفْضِيْلِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ، فَيُقَالُ مَثلاً: מָתוֹק מִדְּבַשׁ أحْلَى مِنَ السُّكَّرِ)[1].

وَمِثْلَ: גָּבֹהַּ מִכָּל הָעָם أكْبرُ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ)[2].

וְיִשְׂרָאֵל אָהַב אֶת יוֹסֵף מִכָּל בָּנָיו

وَأمَّا إسْرَائِيْلُ فَأحَبَّ يُوْسُفَ أكْثرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيْهِ[3].

وَأحْيَاناً يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بسِيَاقِ الجُمْلَةِ فَقَط وَذَلِـكَ عِنْـدَمَا يُرِيْـدُ المُـتَكَلِّمُ المُبالغَـةَ فِـي التَّفْضِيْلِ مِثل:

אֶת־הַמָּאוֹר הַגָּדֹל לְמֶמְשֶׁלֶת הַיּוֹם וְאֶת־הַמָּאוֹר הַקָּטֹן לְמֶמְשֶׁלֶת הַלַּיְלָה וְאֵת הַכּוֹכָבִים

النُّوْرُ الأكْبَرُ لِحُكْمِ النَّهارِ والنُّوْرُ الأصْغَرُ لِحُكْمِ الليْلِ والنُّجُوْمِ)[4].

وَكَذَا الحالُ فِي اللغَةِ االسُّرِيَانِيَّةِ فَفِيْهَا صِـيْغَةٌ أخْـرَى زِيـادَةً عَلَـى الـصِّيْغَةِ الَّتِـي هِـيَ مَجِيْءُ الصِّفَةِ مَتبُوْعَةً بـ(مِن) قَبْلَ المَفْضُوْلِ عَلَيْهِ، نَحْوُ: حكمتا طبا ى يمن عوةرا الحِكْمَـةُ أفْضَلُ مِن الغِنَى[5].

والصِّيْغَةُ الأُخْرَى وَهِيَ مَجِيْءُ المَفْضُوْلِ بَعْدَ الـصِّفَةِ مَجْمُوعـاً مِـنْ دُوْنِ مِـنْ، نَحْـوُ: مشبحا بنبيا اشعيا مشبحا بنبيا اشليا اشعِيَاء أمْجَدَ الأنْبِيَاءِ[6].

---

(1) يُنْظَرُ: قَوَاعِد اللغَةِ العِبْرِيَّةِ، الدكتور عَوْني عَبْد الرَّؤوف، 229

(2) المَصْدَرُ نَفْسُهُ والصَّفْحَةُ.

(3) سِفْرُ التَّكْوِيْنِ(37، 3)، يُنْظَرُ: قَوَاعِد اللغَةِ العِبْرِيَّةِ، الدكتور عَوْني عَبْد الرَّؤوف، 229.

(4) سِفر التَّكْوِيْن(1، 16)، ويُنْظَرُ: قَوَاعِد اللغَةِ العِبْرِيَّةِ، الدكتور عَوْني عَبْد الرَّؤوف، 229

(5) يُنْظَرُ: اللمْعَةُ الشَّهِيَّةُ فِي نَحْوِ اللغَةِ السَّريانِيَّةِ، 589.

(6) الأُصُوْلُ الجَلِيَّةُ فِي نَحْوِ اللغَةِ الآرَامِيَّةِ، المَطِرَانُ يَعْقُوب أوجِيْن مِنَا، 114، بيروت، 1975م.

وبِذَلِكَ نكُونَ قَدْ نَاقَشْنَا مَا ذُكرَ - عِنْدَ بَعْضِ الْمُخْتَصِّيْنَ باللغَاتِ السَّامِيَّةِ - عَنِ الْمُفَاضَلَةِ وَأَسَالِيْبها فِي العَرَبيَّةِ وبَقِيَّةِ شَقِيْقَاتِهَا مِنْ مَجْمُوْعَةِ الأَرُوْمَةِ السَّامِيَّةِ، وَكَشَفَتْ مُقَارَبَتُنَا هَذِهِ عَنِ الأَوْهَامِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ فِيْهَا بَعْضُ الدَّارِسِينَ فِي هَذا المَجَالِ المَعْرِفِيِّ، ومنْ هَذِهِ الأَوْهَامِ العِلْمِيَّةِ الأَحْكَامُ العَامَّةُ غَيْرُ الدَّقِيْقَةِ، والاسْتِقْرَاءُ النَّاقِصُ فِي تتبُّعِ هَذِهِ الظَاهِرَةِ تتبُّعاً عِلْمِيّاً يُوصِلُ إِلَى نَتَائجَ عِلْمِيَّةٍ دَقِيْقَةٍ وَوَاضِحَةٍ.

وانْتَهَى بَحْثُنَا إِلَى تَأْصِيْلِ صِيْغَةِ التَّفْضِيْلِ (أفعَل مِنْ) بِوَزْنِهَا وَدَلالَتِهَا فِي اللغَاتِ السَّامِيَّةِ مِنْ مِثْلِ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ الجَنُوبِيَّةِ، واللغَةِ النَّبَطِيَّةِ، علاوةً عَلَى وجُوْدِهَا فِي عَرَبِيَّتِنَا (العَرَبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ)، كَاشِفاً عَنْ وَهِمِ بَعْضِ البَاحِثِيْنَ بأَنَّ هَذِهِ الصِّيْغَةَ خَاصَّةٌ بالعَرَبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ دُونَ بَقِيَّةِ شَقِيقَاتِهَا منْ لُغَاتِ الأَرومَةِ السَّامِيَّةِ وَذَلِكَ بمُحَاوَلَةِ تتبُّعٍ دَقِيقَةٍ لأُسْلُوبِ التَّفْضِيْلِ فِي العَرَبِيَّةِ واللغَاتِ السَّامِيَّةِ بِمَا يَكْفُلُ للبَحْثِ نَتائجَ عِلْمِيَّةً دَقِيْقَةً فِي وَصْفِ هَذَا الأُسْلُوبِ فِي هَذِهِ اللغَاتِ، باسْتِثْمَارِ مَنهجِ اللسَانِيَّاتِ المُقَارِنَةِ.

التَّفْضِيلُ فِي اللغَتَيْنِ العَرَبِيَّةِ والإنجليزِيَّةِ (مُقَارَبَةٌ فِي ضَوْءِ اللسَانِيَّاتِ التَّقَابُلِيَّةِ).

يَهْدِفُ هَذَا النَّظَرُ اللسَانِيُّ (Contrastive Linguistics) إِلَى مُقَابَلَةِ لُغَةِ الدِّراسَةِ الأُمِّ باللغَةِ المُتَعَلَّمَةِ - اللغَةِ الهَدَفِ - أي مُقَابَلَةُ اللغَةِ الأُولَى باللغَةِ الثَّانِيَةِ حَيْثُ يُمكِنُ التَّركِيْزُ عَلَى الفُرُوْقِ بَيْنَ اللغَتَيْنِ عِنْدَ اكْتِسَابِ اللغَةِ الثَّانِيَةِ، وبِذَلِكَ تَهْدِفُ هَذِهِ المُقَارَبَةُ عَلَى تَقْدِيْمِ تَصَوُّرٍ لُغَوِيٍّ مُنَاسِبٍ لِتَعَلُّمِ اللغَةِ الثَّانِيَةِ، سَوَاءٌ أكَانَتْ هَذِهِ اللغَةُ الثَّانِيَةُ العَرَبِيَّةَ أم الانجليزيَّةَ[1].

ولأَنَّ اللسانِيَّاتِ التَّقَابُلِيَّةَ فَرْعٌ مِنَ اللسَانِيَّاتِ التَّطبيقِيَّةِ[2] فَلَهَا أَثَرٌ كَبِيْرٌ فِي رَفْدِ المُتَرجِمِ بِمَعْلُومَاتٍ مُهِمَّةٍ عَنْ اللغَةِ الهَدَفِ (Target Language) الَّتِي يَنْقُلُ إِلَيْهَا لُغَتَهُ الأُمَّ المُسَمَّاةَ بِلُغَةِ المَصْدَرِ(Source Language) أَوْ يَنْقُلُهَا إِلَى لُغَتِهِ الأُمِّ فِي مَيْدَانِ التَّرْجَمَةِ[3].

---

(1) يُنْظر:عِلْمُ اللغَةِ التَّطْبِيقِيُّ فِي المَجَالِ التَّقَابُلِيِّ (تَحْلِيْلُ الأَخْطَاءِ)، د-البَدراوِي زَهْرَان، 14، دَار الآفَاقِ العَرَبِيَّة، ط/ 1(1429هـ-2008م)، القَاهِرةُ-مصْر.

(2) المَصْدَرُ نَفْسُهُ والصَّفْحَةُ نَفْسُهَا.

(3) See: Aziz M. Khalil, A Contrastive Grammar of English and Arabic, Bethlehem University,PP.2.

وَفِـي اللغـةِ الانجليزيَّـةِ صِـيْغَتَان للتَّفْـضِيْلِ: دَرَجَـةُ التَّفْـضِيْلِ (comparative degree)، والدَّرَجَةُ الفُضْلَى (superlative degree)، تتمَثَّلُ دَرَجَـةُ التَّفْـضِيْلِ باسْـتِخْدَامِ اللاحِقَةِ (er) بَعْدَ الصِّفَاتِ المُتَكَوِّنَةِ من مَقْطَعٍ وَاحِدٍ، مثلاً:

Big, bigger; small, smaller

.s[1]Happy - happier pretty - prettier

(أَنْتَ أَسَنُّ مِنِّي) you are older than me

وَتتمَثَّلُ - كَذَلِكَ - بإضَافَةِ كَلِمَةِ (more) قَبْلَ الـصِّفَةِ الَّتِي تتكَـوَّنُ مِـنْ كَلِمَتَـيْنِ، مَثلاً:

[2]Difficult - more difficult quietly - more quietly

New York City is more famous than Enid, Oklahoma

مَدِيْنَةُ نيويورك أَكْثَرُ شُهْرَةً مِنْ مَدِيْنَةِ إنيد، أوكلاهوما.

وكَمَا ذكَرْنَا آنِفاً أَنَّ العَرَبِيَّةَ لَهَا صِيْغَةٌ وَاحِـدَةٌ فِـي التَّفْـضِيْلِ هِـيَ (أَفْعَـل مِـنْ) لِكُـلِّ الصِّيَغِ الَّتِي تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الشُّرُوطِ الَّتِي وَضَعَهَا عُلَمَاءُ العَرَبِيَّةِ، وَكُنْتُ قَـدْ ذَكَرْتُهَـا فِـي بِدَايَةِ بَحْثِي فَلا حَاجَةَ لِذِكْرِهَا مَرَّةً ثَانِيَةً.

وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ الاخْتِلافِ فِي صِيغَةِ التَّفْضِيلِ بَيْنَ العَرَبِيَّةِ والانجليزيَّة فَـنَحْنُ عِنْـدَمَا نُتَرْجِمُ صِيغَةَ التَّفضِيْلِ فِي الإنجليزيةِ إلى العَرَبِيَّةِ أو بالعَكْسِ، فَكُـلٌّ مِـن صِـيَغِ الإنجليزيَّـةِ، أو صِيغَةِ التَّفْضِيْلِ العَرَبِيَّةِ تُؤدِّي الدِّلالَةَ الَّتِي تُرِيدُهَا إِحدَى اللغتينِ.

أَمَّا دَرَجَةُ التَّفْضِيْلِ الكُبْرَى فَأَيْضاً لَهَا صِيغَتَان:

1- تتمَثَّلُ بإضَافَةِ اللاحِقَة:

(est) فِي نِهَايَةِ الصِّفَاتِ الَّتِي تتكَوَّنُ مِن مَقْطَعٍ وَاحِدٍ، مَثَلاً:

biggest, richest, fastest[3]

---

(1) Butler Lind and Podnecky Janet, Grammar Links , Houghton Mifflin Company Boston New New York,PP.345.

(2) Butler Lind and Podnecky Janet, Grammar Links , Houghton Mifflin Company Boston New New York,PP.345.

(3) Parrott Martin, Grammar for English Language Teachers, Cambridge ,University Press,PP.68.

Mary is the tallest of the four girls

مَارِي هِيَ أَطْوَلُ البَنَاتِ الأَرْبَعَةِ.

2- تتمثّلُ بإِضَافَةِ الكَلِمَةِ:

Most قَبْلَ الصِّفَةِ، مَثَلاً:

The shoes on the right are the most practical.

إِنَّ الأَحْذِيَةَ الَّتِي عَلَى اليَمِيْنِ أَكْثَرُ عَمَلِيَّةٍ.

والحالُ هُنا كالحالِ السَّابِقَةِ فِي الصِّيغَةِ الأُولَى للتَّفضِيلِ مِنْ حَيْثُ الصِّيْغَةُ ودلالاتُها فِي التَّرجَمَةِ بَيْنَ العَرَبِيّةِ والانجليزيَّةِ.

وَهُنَالِكَ بَعْضُ الصِّفَاتِ ذَاتُ المَقْطَعِ الوَاحِدِ فِي اللغَةِ الانجليزيَّةِ غَيْرُ قِيَاسِيَّةٍ، أي تتغيَّرُ حَالَةِ الكَلِمَةِ فِي المُقَارَنَةِ(comparative degree) إِلَى كَلِمَةٍ أُخْرَى مَعَ إِضَافَةِ (er) إِلَيْهَا، وَإِلَى كَلِمَةٍ أُخرَى فِي حَالَةِ المُفَاضَلَةِ (superlative degree) مَعَ إِضَافَةِ(est) وَمِن أَمْثِلَتِهِ:

good better bes[1]

وَتَرْجَمَتُهَا: جَيِّدٌ أفضَلُ الأَفْضَلُ.

وهُنَاكَ صِنْفَانِ مِن الصِّفَاتِ الفَرعِيَّةِ للمُفَاضَلَةِ فِي الانجليزيَّة بِحَسَبَ لِيتش وَآخَرِينَ (gradable) وهِيَ الَّتِي لَهَا دَرَجَاتٌ لِلمُفَاضَلَةِ و(non - gradable) وَهِيَ الَّتِي لَيس لها دَرَجَاتٌ لِلمُفَاضَلَةِ.

وَيُمكنُ لِبَعْضِ الصِّفَاتِ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ أَحَدِ الصِّنْفَيْنِ إِلَى الآخَرِ لَكِنْ مَعَ تَغَيُّرٍ طَفَيْفٍ فِي المَعْنَى، مَثَلاً: wooden وَالَّتِي تَعْنِي خَشَبِيٌّ أي مَصْنُوعٍ مِن الخَشَبِ، وَلا يُمْكِنُ المُفَاضَلَةُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ بِحَسَبِ لِيتش، لَكِن إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي مَعْنَى مَجَازِيٌّ اسْتِعَارَة (Metaphor) تَكُوْنُ صِفَةً قَابِلَةً للمُفَاضَلَةِ فَتَكُوْنُ بَعْدَ ذلِكَ دَالَةً عَلَى سُلُوْكِ الشَّخصِ (المُتخَشِّبِ) عَلى حَدِّ تَعْبِيرِهِ.

---

[1] See: Norman C. Stageberg et al , An Introductory English Grammar, Orlando, Florida 1981, PP. 149. And See: Michael Swan, Practical English Usage, Oxford, University, Press,PP.113.

His performance of Hamlet was very wooden

كَانَ أدَاءُ هَاملت مُتَخَشِّباً جِدّاً

ونستطيع القول:

His performance is more wooden than his friend's[1]

إنَّ أدَاءَ هاملت أخْشَبُ مِنْ أدَاءِ أصْدِقَائه.

وَلَيْسَ صَحِيْحاً أنْ تُتَرْجَمَ more wooden إلَى العَرَبِيَّةِ بـ(أشَدّ أو أكْثَر تَخَشُّباً) وَهِي مُسْتَعْمَلَةٌ اسْتِعْمَالاً مَجَازِيّاً بِحَسَبِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ لِيتش، وَنَسْتَفِيْدَ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ مِنْ مُقَابَلَةِ هَذَا الاسْتِعْمَال بِمَا يُقَابِلُهُ فِي العَرَبِيَّةِ مِن استعمال أفْعَلِ التَّفْضِيْلِ مِن الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّفَاوُتَ، كَمَا مَرَّ بِنَا سَابِقاً فِي (اللَيْلِ الأليَلِ) و(وَبَعْضُ النَّهَارِ أضْوَءُ مِن بَعْضٍ).

---

(1) The Macmillan Press, London English Grammar for Today, Leech et al, 1982

مَصَادِرُ البَحْثِ وَمَرَاجِعُهُ:

القُرآنُ الكَرِيْمُ.

الكِتَابُ المُقَدَّس.

- أَسَاسُ البَلاغَةِ، لِجَارِ اللهِ مَحْمُود بن عُمَر الزَمَخْشَرِيٌ (ت538هـ)، تَحْقِيقُ الدُكْتُور مُحَمَّد قَاسِم، ط/ 1، 1423هـ-2003م، المَكْتَبَةُ العَصْرِيَّةُ للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ، بَيْرُوت - لبنان.
- أَسْمَاءُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ(ص) فِي القُرآنِ الكَرِيمِ دِراسَةٌ فِي البِنْيَةِ والدَّلالَة، د. مُحَمَّد عَبْد مَشْكُور، بَحْثٌ مَنْشُور فِي مَجَلَّةِ الأُسْتَاذ، العدد 88، 2009م.
- الأُصُوْلُ الجَلِيَّةُ فِي نَحْوِ اللغَةِ الآرَامِيَّةِ، المَطِرَانُ يَعْقُوب أوجِيْن مِنَا، بيروت، 1975م.
- الأُصُوْلُ فِي النَّحْوِ، لأَبِي بَكْرِ مُحَمَّد بنِ سَهْل السَّرَّاجِ النَّحْوِيِّ البَغْدَادِيِّ (ت316هـ)، تَحْقِيقُ الدُكْتُور عَبْد الحُسَيْنِ الفَتْلِيِّ، مُؤَسَّسة الرِّسَالة، ط/ 1، 1405هـ-1985، بَيْرُوت - لبنَان.
- الإِقْتِرَاحُ فِي عِلْمِ أُصُوْلِ النَّحْوِ، لِجَلالِ الدِّيْنِ السُّيُوطِيِّ(ت911هـ)، تَحْقِيقُ الدُكْتُور مَحْمُوْد سُلَيْمَان يَاقوت، دَارُ المَعْرِفَةِ الجَامِعِيَّةِ، 1426هـ-2006م.
- الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ بَيْنَ النَّحْوِيِّينَ البَصْرِيِّيْنَ والكُوفِيِّيْنَ، لِكَمَالِ الدِّيْنِ أَبِي البَرَكَاتِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بن أَبِي الوَفَاء بن عُبَيْدِ اللهِ الأَنْبَارِيِّ، تَحْقِيْقُ: حَسَن حَمَد، دارُ الكُتُب العِلمِيَّة، ط/ 2(2007م- 1428هـ).
- بِحَارُ الأَنْوَارِ الجَامِعَةُ لِدُرَرِ أَخْبَارِ الأَئِمَّةِ الأَطْهَارِ، العَلَّامَةُ مُحَمَّد بَاقِر المَجْلِسِيُّ (ت1111هـ)، إيران - قُم،(د - ت).
- التِّبْيَانُ فِي تَفْسِيْرِ القُرآن، لِشَيْخِ الطَّائِفَةِ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بنِ الحَسَنِ الطُّوْسِيِّ(ت460هـ)، تَحْقِيقُ: أَحْمَد حَبِيب قَصِيْرالعَامِلِيّ، الأَمِيْرَة للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزِيْعِ، ط/ 1،(1431هـ-2010م).

- تَفسِيرِ أَبِي السُّعُودِ أو إِرْشَادِ العَقْلِ السَّلِيْمِ إِلَى مَزَايـا الكِتَـابِ الكَـرِيْمِ، للقَاضِـي أَبِـي السُّعُودِ مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بن مُصْطفى العِمَـادِيِّ الحَنَفِـيِّ (ت982هـ)، تَحْقِيْـق: خَالِـد عَبْد الغَنِي مَحْفُوظ، دارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، ط/ 1،(2010م).
- التَّوابِعُ فِي العَهْدِ القَدِيْمِ (دِراسَةٌ سَامِيَّةٌ مُقَارِنَةٌ)، صَفِيَّة شَاكر محمود الـشَّيخْلِيّ، رسَـالَةُ ماجِستِيْر مُقَدَّمَةٌ إِلى كُلِيَّةِ اللغَاتِ جَامِعَـة بَغْـدَاد، بإِشْـرَافِ أ.د خَالِـد إِسْـمَاعِيل عَلِـي، 2004م.
- حَاشِيَةُ الخُضَرِيِّ عَلَى شَرْحِ ابْنِ عَقِيْلٍ عَلَى أَلفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ، لِمُحَمَّد بـن مُـصْطَفَى بـنِ حَسَنِ الخُضَرِيِّ الشَّافِعِيِّ(ت1278هـ)، تَحقِيْقُ: تُركِي فَرْحَـان الْمُـصْطَفَى، دَارُ الكُتُـبِ العِلمِيَّة، ط/ 4، (2011م- 1432هـ).
- الخَصَائصُ، لأَبِي الفَتْحِ عُثْمَان بنِ جِنّـي، تَحقِيـقُ مُحَمَّـد عَلِـي النَّجَّـار، دار الكِتَـاب العَرَبِيِّ(د - ت).
- شَرْحُ التَّصْرِيحِ عَلَـى التَّوْضِـيْحِ، الـشَّيْخُ خَالِـدُ بـنُ عَبْـدِ اللهِ الأَزْهَـرِيُّ (ت905هــ)، تَحْقِيْقُ: مُحَمَّد بَاسِلِ عُيُون السُّوْد، دَارُ الكُتُـب العِلْمِيَّـةِ، ط/ 1، 1421هــ-2000م، بَيْرُوْت - لُبْنَان.
- شَرْحُ كِتَابِ الحُدُوْدِ فِـي النَّحْـوِ، لِلإِمَـامِ عَبْـدِ اللهِ بـن أَحْمَـدِ الفَـاكِهِيِّ (ت972هــ)، تَحْقِيقُ: الدُّكْتُور الْمُتَوَلِّي أَحْمَـد الـدَّيْمَرِيِّ، مَكْتَبَـةُ وَهْبَـة، ط/ 2(1414هــ-1993م)، مِصْر القَاهِرَة.
- شَرْحُ الْمُفَصَّلِ للزَّمَخْشَرِيِّ، لِمُوَفَقِ الدِّيْنِ أَبِي البَقَاءِ يَعيش بن عَلِيٍّ بنِ يَعِـيْشِ المَوْصِـلِيِّ (ت643هــ)، تَحْقِيـقُ: الـدُّكْتور إِمِيـل بَـدِيْع يَعْقُـوْب، دَارُ الكُتُـب العِلْمِيَّـةِ، ط/ 1، 1422هـ-2001م.
- صَـحِيْحُ مُـسْلِم، مُـسْلِم بـن الحَجَّـاجِ أَبـو الحَـسَنِ القُـشَيْرِيّ النَّيـسَابُورِيّ (ت261هـ)، المُحقِّقُ: مُحَمَّد فُـؤاد عَبْـد البَـاقِي، النَّاشِـرُ دَارُ إِحْيَـاء التُّـراث العَرَبِـيّ، بيروت - لبنان.

- الطِّرَازُ المُتَضَمِّنُ لأسْرَارِ البلاغَـةِ وعلُـوْمِ حقَـائقِ الإعْجَـازِ، لِلإمَـامِ يَحْيَـى بـن حَـمْزة العَلَـوِيّ (ت749هــ)، ط/ 1، 1415هــ-1995م، دَار الكُتُـبِ العِلْمِيَّـةِ، بَيْـرُوت - لُبنَان.
- العَقْلُ واللغَةُ والمُجْتَمَعُ - الفَلْسَفَةُ فِي العَالَمِ الـوَاقِعِيِّ، جـون سـيرل، تَرْجَمَـةُ سَـعِيْدِ الغانِمِي، المَرْكَزُ الثَّقافِيُّ العَرَبِيُّ، المَغْرِبُ، ط/ 1، 2006م.
- عِلَلُ النَّحْوِ، لأَبِي الحَسَنِ مُحَمَّد بن عَبْدِ اللهِ الـورَّاقِ (ت325هــ)، تَحْقِيـقُ: الـدُّكْتُور مَحْمُوْد جَاسِمِ الدّرويش، بَيْتُ الحِكْمَةِ، بَغْدَاد 2002م.
- عِلْمُ اللغَةِ التَّطْبِيقِيُّ فِي المَجَالِ التَّقَابُلِيِّ (تَحْلِيْلُ الأَخْطَاءِ)، د - البَدراوي زَهْـرَان، 14، دَار الآفَاقِ العَرَبِيَّة، ط/ 1(1429هـ-2008م)، القَاهِرةُ - مصْر.
- فِقْهُ العَرَبِيَّةِ المُقَارَن(دِرَاساتٌ فِي أَصْوَاتِ العَرَبِيَّةِ وَصَرْفِهَا وَنَحْوِهَا عَلَى ضَـوْءِ اللغَـاتِ السَّامِيَّةِ)، دَارُ العِلْمِ للملايينَ، ط/ 1، نيسان/ أبريل 1999.
- فَـن النَّحْـوِ بَـيْنَ اليُوْنَانِيَّـةِ والـسّرْيَانِيَّةِ(تَرْجَمَـةٌ وَدِرَاسَـةٌ لِكِتَـابَي ديونيـسيوس ثـراكس ويُوسف الأَهْوازِيّ)، تَرْجَمةُ ماجِدة محمّـد أنـور، المَجْلِـسُ الأَعْلَـى للثَّقافَـةِ، المَشْرُوعُ القَوْمِيّ للتَرْجَمَةِ، القاهِرَة، 2001م.
- فِي قَوَاعِدِ السَّامِيَّاتِ (العِبْرِيَّةِ والسّريانيّة والحبشِيّةِ) مَعَ النُّصُوْصِ والمُقَارَنَاتِ، الـدكتور رمضان عبد التَّواب، مطْبَعَة الخانجي بمصر،القاهرة، 1981.
- قَوَاعِد العَرَبِيَّة الجَنُوْبِيَّة، ف. ل. بيستون، تَرْجَمَة: الدكتور خَالِد اسْمَاعِيْل عَلِي، مَطْبَعَـة المَجْمَع العِلْمِيّ العِرَاقِيّ، 1412هـ-1992م.
- قَوَاعِد اللغَةِ الآرَامِيَّةِ، الأب البير أبونا، أربيل، 2001م.
- قَوَاعِد اللغَةِ الأَكَدِيَّةِ، الدكتور فَوْزِي رَشِيْد، دَار صَفَحَات للدِرَاسَات والنَّشْرِ، سـورية - دمشق، ط/ 1، 2009م.
- قَوَاعِد اللغَةِ العِبْرِيَّةِ، الدكتور عَـوْنِي عَبْـد الـرَّؤوف، الهَيْئَـةُ العَامَّـةُ للكُتُـبِ والأَجْهِـزَةِ العِلْمِيَّةِ، مَطْبَعَة جَامِعَةِ عَيْن شمس 1971م.

- الكِتَابُ، لأَبي بِشْر عَمْرو بنِ عُثْمَان المُلَقَّبِ بِسِيبَويه (ت180هـ)، ط/ 1، المَطْبَعَةُ الأَمِيْرِيَّةُ بِبُولاق (1317هـ).
- الكَشَّافُ عَن حقَائقِ التَّنزيْلِ وَعُيُونِ الأَقَاوِيْلِ فِي وُجُوْهِ التَّأويْلِ، لِجَارِ اللهِ مَحْمُود بنِ عُمَر الزَّمَخْشَرِيّ، ط/ 1، 1403هـ-1983م، دارُ الفِكْرِ للطِّبَاعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزِيْعِ.
- لِسَانُ العَرَبِ، لابْنِ مَنْظور الأَفْرِيقِيّ (ت711هـ)، مادَّةُ(حَنَك)، مُرَاجَعَةُ يُوسُف البَقَّاعِيّ وصَاحِبَيْهِ، ط/ 1، 1426هـ-2005م، مُؤَسَسَةُ الأَعْلَمِيّ للمَطْبُوعَاتِ، بَيْروت - لبنان.
- اللسانِيّاتُ التَّداوليَّةِ فِي الخِطَابِ القَانُوْنِيّ - قِراءةٌ استِكْشَافِيَّةٌ للتَّفكيرِ التَّداوليّ عِنْدَ القَانُونِيِّينَ،الدُّكْتُور مُرْتَضَى جَبَّار كَاظِم، مَنْشُوراتُ ضِفَافِ والاخْتِلافِ، ط/ 1، 1436هـ-2015م.
- اللسَانِيَّاتُ المَجَالُ، والوَظِيْفَةُ، والمَنْهَجُ، د - سَمِير شَرِيْف استِيتِيّة، 498، عَالَمُ الكُتُبِ الحَدِيْثِ، ط/ 1(1425هـ-2005م)، ط/ 2(1429هـ-2008م).
- اللغة الأكَدِيَّة (البابليّة - الآشُوْرِيَّة) تارِيخُها وتَدوينُها وقَواعِدُهَا، الدكتور عامر سُلَيْمَان، الدَّار العربيَّة للمَوْسُوعاتِ، بَيْرُوت - لبنان، ط/ 1412هـ-1991م، ط/ 2 1426هـ-2005م.
- اللغَة النَّبَطِيَّة(دِراسَةٌ صَوتِيَّةٌ صَرْفِيَّةٌ دِلالِيَّةٌ فِي ضَوْءِ الفُصْحَى واللغاتِ السَّامِيَّةِ) الدكتور يَحْيَى عَبَابْنَة، دَار الشُّرُوق للنَّشْرِ والتَّوْزِيْعِ، ط/ 1، 2002.
- اللمعَة الشَّهِيَّة فِي نَحْوِ اللغَةِ السّريانيَّةِ، أقليميس يوسف داود، الموصل1896م.
- مَجمعُ البَيَانِ فِي تفسيرِ القُرآنِ، لأَبي عَلي الفَضْلِ بن الحَسَنِ الطَّبْرَسِيّ، دارُ المُرْتَضَى، ط/ 1(1427هـ-2006م).
- المُستَصفَى مِنْ عِلْمِ الأُصُولِ، لِلإمَامِ أَبي حَامِد الغَزَالِيّ(ت505هـ)، ط/ 1، 1322هـ، المَطْبَعَةُ الأَمِيْرِيَّةُ بِبُولاق.

- مسنَدُ أبي يَعْلَى المَوصِلِيّ، أبو يَعْلى أحمد بن علي بن المثنّى بن يحْيى بن عيسى بن هلال التَّميمِيّ المَوصليّ (ت307هـ)، المُحقّقُ: حَسَن سَليم أسَد، النَّاشِرُ دَار المأمون للتُّراثِ - دمشق، ط/ 1(1404هـ-1984م).
- مَعَانِي القِراءاتِ، لأَبِي مَنصُور مُحَمَّد بنِ أحْمدالأَزْهَرِيٌّ(ت370هـ)، دَار الكُتُب العِلْمِيَّة، ط/ 1(1420هـ-1999م).
- مُقَدِمَةٌ فِي قَوَاعِد اللغَةِ الأَوْجَارِيتِيَّةِ، أ.د خالِد إسْمَاعِيل عَلِي، جَامَعَة اليَرموكِ، 1998.
- المَنَاهج فِي النَّحْوِ والمَعَانِي عِنْدَ السّريَانِ، الأباتي جبرائيل القرداحيّ، ط/ 3، حلب، 2008م.
- المَنْطِقُ، الشَّيْخُ مُحَمَّد رِضَا المُظَفَّر، ط/ 1، 1430هـ-2009م، مُؤَسَسَةُ الرَّافِدُ للطِبَاعَةِ والنَّشْرِ.
- النَّظَرِيَّاتِ اللسَانِيَّةَ الكُبْرَى مِن النَّحْوِ المُقَارنِ إلَى الذَّرائعِيَّةِ، ماري آن بافو، وجورج إليا سرفاتي، 15، تَرجَمَةُ: مُحَمَّد الرَّاضِي، المُنَظَّمَةُ العَرَبِيَّةُ للتَّرْجَمَةِ، ط/ 1، بيروت، آذار، 2012م

المَصَادِرُ الإنجليزِيَّة:

- Aziz M. Khalil, A Contrastive Grammar of English and Arabic, Bethlehem University.
- Butler Lind and Podnecky Janet, Grammar Links , Houghton Mifflin Company Boston New York.
- Michael Swan, Practical English Usage, Oxford, University, Press.
- Norman C. Stage berg et al , An Introductory English Grammar, Orlando, Florida 1981.

- Parrott Martin, Grammar for English Language Teachers, Cambridge ,University Press
- The Macmillan Press, London English Grammar for Today, Leech et al, 1982.



الإحالة الزمنية بين الفعل والصفة المشتقة بين العربية والعبرية: اسم الفاعل نموذجا

محمد ناجي

كلية الآداب واالعلوم الإنسانية بمكناس، المغرب.

تقديم

من المعروف أن هناك نوعاً من التشابه بين الفعل المضارع واسم الفاعل في اللغة العربية. وقد اعتمد النحاة مجموعة من المعايير لتسويغ هذا الشبه بين الاثنين، مثل الحالة الإعرابية وإمكانية وقوعهما حالا. إذ إن الفعل المضارع يمكنه أن ينصب أو يرفع كما هو الحال بالنسبة لاسم الفاعل، كما أنه يقع حالا أو حملا ثانويا[1].

إذا كان هناك نوع من التناظر بين الاثنين من الناحية الإعرابية ومن ناحية وقوعهما حالا، فهل يشمل هذا التناظر دلالة الاثنين على الزمن؟ هل يُدمج اسم الفاعل في مقولة الزمن، كما هو الحال بالنسبة للفعل المضارع؟ من الناحية النظرية[2] لا يمكن للجمل التي لا تحتوي على الزمن أن تشكل جملا مستقلة، وذلك لأن مقولة الزمن مقولة كلية و لا يمكن لأية لغة أن تحتوي على جمل مستقلة من دونها.

إن الجمل الآتية تدل على أن اسم الفاعل يحمل سمات الزمن، تماما كما هو الحال بالنسبة للفعل:

1. يضربُ زيدٌ هنداً اليوم.

2أ. زيدٌ ضاربٌ هنداً اليوم.

---

(1) أشكر كل من ساهم بملاحظاته في إغناء هذا البحث، وأتحمل لوحدي مسؤولية كل خطأ يرد فيه.

(2) بالنسبة للأدبيات التوليدية لا يمكن تصور الجملة دون مقولة الزمن. لكن هناك دراسات أخرى لبعض المستشرقين تعتبر اللغة العربية لغة جهية، تشتمل على الجهة وليس على الزمن (انظر على سبيل المثال كوهن (1989) Cohen بهذا الصدد).

ب.* زيدٌ ضاربٌ هنداً أمس.

إن الانسجام الحاصل بين ظروف الزمان واسم الفاعل يدل على أن هذا الأخير يحمل سمات الزمن. وهذا ما يفسر لحن (2ب)، فاسم الفاعل لا يمكنه أن يربط ظرفا دالا على الزمن الماضي. وقد اعتبر النحاة أن اسم الفاعل يدل على الحال والاستقبال.

0.1 اسم الفاعل في اللغات السامية

إذا عدنا إلى اللغات السامية، نجد أن اسم الفاعل في العبرية يتضمن مقولة الزمن. وقد اعتبر شلونسكي Shlonsky (1997) أن اسم الفاعل في العبرية يدمج في فعل مساعد فارغ صواتيا، الشيء الذي يمكنه من الاشتغال تركيبيا كالفعل. لذلك يشبه اشتغال اسم الفاعل أو بنوني في العبرية اشتغال الفعل المضارع في العربية. وحسب هذا التحليل فان اسم الفاعل أو بنوني في الجملة (3ب) يشتغل كفعل تام، بالإضافة إلى اشتغاله كاسم للفاعل في الجملة (3أ) [(1)]:

3 أ. Dani haya kotev sipurim

رواية كاتبا (بنوني) كان داني.

(كان داني يكتب رواية.)

ب. Dani kotev sipurim

رواية كاتبا (بنوني) داني.

(داني يكتب رواية)

إن ما يمكننا أن نلاحظه في البنيتين (3أ) و (3ب) هو أن نوعية التطابق الموجودة بين اسم الفاعل أو بنوني وفاعله هو تطابق مختلف عن تطابق الفعل. إنه يشبه تطابق الصفة وفاعلها، كما هو الحال بالنسبة لاسم الفاعل في اللغة العربية:

4 أ. كان زيدٌ كاتبا رواية.

---

(1) من الأسباب التي دفعتنا إلى تطوير هذه الدراسة المقارنة بين اسم الفاعل والفعل المضارع في العربية هو أن شلونسكي (1997) اعتبر اسم الفاعل في العربية شبيه ببنوني في العبرية. وقد إفترض أن العربية تتوفرعلى فعلين مضارعين، الفعل المضارع بالإضافة الى اسم الفاعل (انظر شلونسكي (1997) للمزيد من الفاصيل).

ب. زيدٌ كاتبٌ روايةً.

إن فرضية شلونسكي حول التشابه القائم بين اسم الفاعل والمضارع ليست جديدة. فقد رصد النحاة القدامى هذا التشابه بين صيغة فاعل والمضارع في العربية. فالاثنان يمكنهما أن يقعا حالا يصف هيئة الفاعل في البنيتين التاليتين:

5 أ. جاء زيدٌ ضاحكاً.

ب. جاء زيدٌ يضحكُ.

إن اسم الفاعل والمضارع، الاثنان، يقعان حالا يصف هيئة الفاعل زيدٌ في البنيتين (5أ)، (5ب). ونود أن نضيف أن هناك اختلافا في التأويل بين هاتين الجملتين، بحيث يبدو ذلك واضحا في الجملتين المدرجتين في (6):

6 أ. حينما دخلت كان زيدٌ يجلسُ.

ب. حينما دخلتُ كان زيدٌ جالساً.

فبينما يصف اسم الفاعل هيئة الفاعل في (6 ب)، فإن المضارع يركز على وصف الحدث في (6أ). الملاحظة نفسها بالنسبة للجملتين التاليتين:

7 أ. زيدٌ واقفٌ.

ب. زيدٌ ضاربٌ هنداً.

إذا كان اسم الفاعل اللازم يصف هيئة زيد في (7أ)، فإن اسم الفاعل المتعدي في (7ب) يصف طبيعة الحدث الذي يعبر عنه المسند.

أما فيما يخص التشابه بين اسم الفاعل والفعل المضارع من حيث قابليتهما للوسم الإعرابي، فقد أظهرت عدد من التحاليل بأن العلامات الإعرابية التي تظهر في آخر الفعل المضارع ليست سوى تحققات للمقولة الوظيفية التي تحتضن الموجهات[1].

إذا كان اسم الفاعل في العربية يختلف عن الفعل المضارع، فمن غير المتوقع أن يشتغل اسم الفاعل **benoni** في العبرية بطريقة موازية لاسم الفاعل في العربية.

---

(1) أنظر في هذا الصدد أعمال كل من العاتي (1994) Ellaty، ناجي (1997) Naji و الفاسي الفهري (1993) Fassi Fehri.

سنحاول أن نظهر فيما يلي أن بنوني يختلف عن اسم الفاعل أو صيغة فاعل في العربية. وسنورد مجموعة من الحجج التركيبية للبرهنة على ذلك.

1.1 تقديم المفعول

إن التراكيب التي يكون فيها اسم الفاعل محمولا أساسيا في العبرية كما في العربية تمكن من تبئير المفعول (object topicalisation):

8. ?et ha - tsuva Ruti yoda&at.

عارفة روتي الجواب

(روتي عارفة الجواب.)

9. العسل زيد شارب.

وتشتغل هذه البنيات في العربية بشكل مماثل للجمل الفعلية التي يتصدر فيها الفعل الجملة[1]. إذ تُمكن هذه الجمل كذلك من تقديم المفعول، كما هو الحال في (10).

10 – العسلَ شربَ زيدٌ.

2.1. قلب الفاعل

وفيما يخص قلب الفاعل، فإن جمل بنوني في العبرية تمكن من قلب الفاعل (subject inversion) كما يبدو في المثال التالي:

11 أ. &ax$av Daniela tofer - et smalot.

فساتينا خائطة دانيلا الآن

---

(1) أما إذا دخل التعريف على اسم الفاعل، فيصبح تقديم المفعول غير ممكن:

- زيد الشارب العسل حضر.
- * العسل زيد الشارب حضر.

وتفسر سيلوني (1994) استحالة استخراج المفعول في هذه الجمل التي تسميها *أشباه جمل الصلة* في العبرية بوجود المركب الحدي الذي يشكل مجالا مغلقا أمام نقل المكونات من داخل الجملة. 3 8 6

(الآن تخيط دانيلا الفساتين.)

ب. &ax$av tofer - et Daniela smalot.

فساتيننا دانيلا خائطة الآن

(الآن تخيط دانيلا الفساتين.)

إذا كان الفاعل (Daniela) في الجملة (11أ) يسبق اسم الفاعل(tofer - et) ، فإنه في الجملة (11 ب) يتلو اسم الفاعل. و بالنظر إلى هذه الخاصية، **خاصية قلب الفاعل**، فإنها تنعدم مع الجمل التي تضم اسم الفاعل في العربية كما يتبين في المثال (12ب)[1]:

12أ. زيدٌ قارئُ السورة.

ب.* قارئُ زيدٌ السورة.

إذا كان اسم الفاعل العبري يقبل القلب مع فاعله، فإن اسم الفاعل في العربية لا يتيح هذه الإمكانية. فالجمل الخبرية التي يسبق فيها اسم الفاعل فاعله هي جمل لاحنة كما يتضح في (12ب).

3.1. قلب الفعل المساعد

هناك خاصية تركيبية أخرى يختلف فيها اسم الفاعل في العربية مع بنوني في العبرية. هذه الخاصية تتعلق بظاهرة قلب الفعل المساعد (auxiliary inversion). فالجمل التي يشكل فيها بنوني حملا رئيسيا مع الفعل المساعد، تمكن من قلب الرتبة بين بنوني والفعل المساعد:

13 أ. Dani haya tofer smalot.

فساتينا خائطا كان داني

(كان داني يخيط الفساتين.)

---

(1) يبدو هذا النوع من الجمل غير لاحن إذا ما قرأت الجملة بنوع من الوقف أو الفصل الصوتي بين اسم الفاعل المقدم وبقية الجملة كما هو الحال مع الجملة (15) لاحقا. هذا يعني أن هناك نوع من التوكيد الصوتي على المحمول المقدم، نفس الملاحظة بالنسبة للجملة (14 ب).

ب. .Dani tofer haya smalot

فساتينا كان خائطا داني

(كان داني يخيط فساتينا.)

يسبق الفعل المساعد بنوني في الجملة (13 أ)، غير أن هذا النظام يقلب في (13 ب) حيث يسبق بنوني الفعل المساعد. إذا كانت جمل بنوني في العبرية، تتيح قلب الفعل المساعد، فماذا عن هذه الخاصية في العربية؟

يبدو لأول وهلة أن نظام الكلمات بين اسم الفاعل و الفعل المساعد **كان** في العربية، لا يمكن قلبه. وهذا ما يفسر لحن جمل من قبيل (14 ب) في العربية:

14أ. كان زيدٌ خارجا.

ب. * خارجاً كان زيدٌ.

إذا كانت الجملة (14 أ) حيث يسبق الفعل المساعد **كان** الفاعل واسم الفاعل جملة صحيحة، فإن (14 ب) التي قدم فيها اسم الفاعل على الفعل المساعد هي جملة لاحنة. إن الجمل من نوع (14ب) تكون جملة سليمة، إذا قُرئت بتوكيد صوتي على اسم الفاعل، مع نوع من الوقف بينه وبين بقية الجملة.

15 - **خارجاً** كان زيدٌ.

إن السؤال الذي يطرح حول البنيتين (14 ب)، (15) هو: لماذا لا يمكن تقديم اسم الفاعل في البنية (14ب)، بينما تمكن البنية (15) من ذلك بقراءة توكيدية لاسم الفاعل؟

للمزيد من التمحيص، سنأخذ البنيتين (16 أ)، (16ب) مع اسم فاعل أساسي متعدي:

16 أ. كان زيدٌ آكلاً طعامك.

ب. كان آكلا طعامك زيد.

تمكن الجملة (16 ب) من تقديم اسم الفاعل المتعدي مع مفعوله عن الفاعل. غير أن اسم الفاعل لا يمكن تقديمه لوحده دون مفعوله كما تبين ذلك الجمل الواردة في (17) و(18).

17* آكلا كان زيدٌ طعامك.

18* آكلا كان طعامك زيدٌ.

لقد لاحظ النحاة القدامى أن اسم الفاعل المتعدي لا يمكن تقديمه لوحده[1] غير أن هذا التقديم يصبح ممكنا إذا ما قدم الفعل مع مفعوله كما هو حاصل في البنية التالية:

19 - آكلا طعامك كان زيدٌ.

إن ضرورة نقل الفعل مع مفعوله في (19) تجعلنا نحلل قلب الرتبة بين اسم الفاعل والفاعل في هذا النوع من الجمل كنقل للمركب الفعلي بأكمله. و تعرف هذه الظاهرة في الأدبيات التوليدية بظاهرة **تقديم المركب الفعلي (VP fronting)**[2]. ويبين هذا بأن القراءة التوكيدية للفعل اللازم في (15) هي قراءة ناتجة عن تحويل كل المركب الفعلي في هذه البنية إلى موقع غير محوري خارج الجملة. نستنتج من هذا أن صعود اسم الفاعل إلى موقع المصدري (مص) متخطيا بذلك الفعل المساعد في مقولة الزمن هو أمر غير ممكن في العربية، خلافا لما يقع مع بنوني في العبرية.

إن أهم خاصية تميز بنوني في العبرية هي إمكانية صعوده الى مقولة الزمن، وذلك عن طريق اندماجه في فعل مساعد فارغ صواتيا في هذه المقولة. غيرأن هذه الخاصية ليست متوفرة مع اسم الفاعل العربي، لذلك لا يمكن قلب نظام الكلمات بين اسم الفاعل والفاعل، كما لا يمكن قلب النظام بينه وبين الفعل المساعد **كان**.

0.2. بعض الاختلافات الأخرى بين اسم الفاعل والفعل المضارع

هناك بعض الاختلافات الأخرى بين اسم الفاعل والفعل تؤكد افتراض خلو جمل اسم الفاعل من الزمن.

---

(1) انظر على الخصوص السيوطي في الهمع.

(2) انظر على سبيل المثال هوانغ (1993) Huang حول هذه الظاهرة.

1.2. الزمن العام

من المعروف جدا أن الفعل المضارع في العربية يمكنه أن يعبر عن الزمن العام أو ما يسمى بالزمن الاستغراقي (le temps générique)، لنعتبر الجملتين التاليتين:

20. الضفادع تخرج من الماء في الربيع.

21. * الضفادعُ خارجةٌ من الماء في الربيع.

تعبر الجملة (20) عن حقيقة عامة ومعروفة وهي كون الضفادع تخرج من الماء في فصل الربيع[1]. هذه الحقيقة تبدو صالحة وغير متغيرة في كل الأزمنة. إذا كان بإمكان الفعل المضارع أن يعبر عن هذا الزمن العام في (20)، فإن الأمر يختلف مع اسم الفاعل الذي لا يمكنه التعبير عن الزمن العام. وهذا ما يفسر لحن (21).

2.2. الأفعال الخاصة بالوجه:

تعتبر الأفعال الخاصة بالوجه في الأدبيات التوليدية مؤشرا على وجود الزمن في الجملة. وفي هذا الصدد، يختلف اسم الفاعل عن الفعل المضارع فيما يتعلق بالوجه، لذلك لا يمكن لاسم الفاعل أن يعبر عن بعض الخاصيات الزمنية كما هو الحال في تراكيب الوجه الإرادي (le subjonctif):

22. أتمنى أن يخرج زيدٌ..

23. * أتمنى أن خارجٌ زيدٌ.

إذا كان الفعل المضارع في (22) بإمكانه التعبير عن الوجه الإرادي، فإن اسم الفاعل لا يتوافق مع هذه الخاصية. ويمكننا تفسير لحن الجملة (25) بنفس السبب.

24. يجب أن يخرج زيدٌ.

---

(1) عدم ملائمة اسم الفاعل للزمن الاستغراقي لاتنتج عنه فقط جمل مبهمة من ناحية التأويل الزمني، بل تكون الجملة لاحنة تماما، كما توضح ذلك الجملة (ب) أسفله:

أ- يصوم المسلمون شهرا كل سنة.

ب *- المسلمون صائمون شهرا كل سنة.



25. * يجب أن خارج زيدٌ.

هناك أيضا بعض الأدوات التي تبرز كيفية تحقق الفعل، هـذه الخاصـية أيـضا مؤشـر على وجود الزمن في الجملة. فالحرف **قد** يفيد الترجيح والاحتمال مـع الفعـل المـضارع كمـا يتبين في (26).

26. قد يخرج زيدٌ هذا الصباح.

27. * قد خارج زيدٌ هذا الصباح.

إذا كان الفعل المضارع يتوافق مع **قد** التي تفيد احتمال تحقق الفعل[1]، فهذا يعـود إلى كون المضارع يحمل سمات الزمن. أما اسم الفاعل في (27) فلا يتوافق مع هـذه الأداة، لأنـه خال من الزمن. بناء على كل هذه المعطيات التي أوردناهـا، نـصوغ الإفـتراض التـالي: **28. اسم الفاعل لا يحتوي على مقولة الزمن**

0.3. اسم الفاعل في مجال الاستفهام

إن المعطيات التركيبية التي أوردناها تدل على غياب الزمن في بنيات اسـم الفاعـل في العربية. بيد أن هناك بعـض التحفظـات علـى هـذا الافـتراض. ذلـك أن الجمـل المـستقلة لا يمكنها أن توجد دون مقولة الزمن. إذ يعتبر وجود مقولة الـزمن في الجمـل المـستقلة، بالنـسبة للأدبيات التوليدية، ضروريا وإجباريا. ولا يمكننا أن نتصور اكتـساب المجـالات الجمليـة دون وجود مقولة الزمن فيها. إن هـذه الـضرورة النظريـة لوجـود الـزمن تجـد مـا يؤكـدها علـى المستوى الأمبيريقي، أو مستوى التحليل التركيبي، لنأخذ الجملتين الاستفهاميتين التاليتين:

29. هل زيدٌ خارجٌ؟

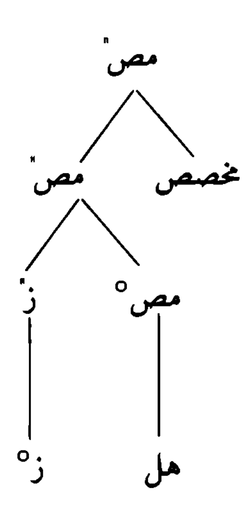
30. أخارجٌ زيدٌ؟

---

[1] نستعمل هنا مفهوم الفعل وليس مفهوم الحدث، لأن قد تفيد ترجيح الأفعال الدالة على الحالة، بالإضـافة الى الأفعـال الدالة على الحدث (قد يفهم زيدٌ الدرس).

إن وجود أدوات الاستفهام **هل** في (29) والهمزة في (30) يدل بشكل واضح على وجود بنيات زمنية في هذه الجمل التي تعبر عن الاستفهام التصديقي. فهذه الأدوات الاستفهامية تحتل رأس المركب المصدري في البنية التالية:

(31)



تبين البنية التشجيرية (31) أن رأس المركب المصدري (مص°) ينتقي مقولة الزمن أو الإسقاط الأقصى للزمن (ز°). و يعود هذا الافتراض إلى ستول Stowell (1982) الذي يرى ضرورة إنتقاء مقولة المصدري لمقولة الزمن.

على عكس الإفتراض الذي صغناه في (28)، تدفع بنا المعطيات الواردة في (29)، (30) إلى التسليم بوجود مقولة الزمن في بنيات اسم الفاعل. لكن يبقى السؤال المطروح هو هل مقولة الزمن الموجودة في اسم الفاعل هي نفسها مقولة الزمن الموجودة داخل المجالات الجملية الفعلية؟ إن هذا النوع من الأسئلة مهم بالنسبة لتحليلنا هذا وبالنسبة لطبيعة المعطيات الواردة فيه.

1.3. اسم الفاعل في مجال النفي:

إذا كان وجود أدوات الاستفهام في جمل اسم الفاعل يدل على انتقاء هذه الأدوات للزمن، فإن استعمال أدوات النفي يبرز أن مقولة الزمن الموجودة في هذه الجمل مختلفة تركيبيا عن تلك التي توجد في الجمل الفعلية.

يمكن لاسم الفاعل أن يرد مع أداة النفي **ما** المحايدة اتجاه الزمن كما هو واضح في (32) [1] لكن لا يمكنه أن يرد مع أداة نفي تنتقي الزمن الماضي أو المضارع:

32. ما خارجٌ زيدٌ.

33. لن يخرج زيدٌ.

34 * لن خارجٌ زيدٌ.

من المعروف أن بعض أدوات النفي في العربية تحمل سمات الزمن مثل **لن** في (33). فهذه الأداة النافية لا يمكنها أن تظهر مع الفعل الماضي (أنظر ناجي (1997)). ومن المهم في هذا الإطار أن نلاحظ بأن اسم الفاعل لا يمكنه أن يظهر مع أدوات النفي التي تحمل سمات الزمن. وهذا ما يفسر عدم نحوية الجملة (34). وعلى العكس من هذا، فإن اسم الفاعل يظهر مع **ما** المحايدة اتجاه الزمن:

35. ما آكل زيد الرغيف الآن.

تدل هذه التراكيب على أن مقولة الزمن الموجودة في اسم الفاعل هي مقولة ذات طبيعة مختلفة عن مقولة الزمن الموجودة في الفعل. وبناء على هذا نصوغ الافتراض التالي:

36. أ. زمن الصفة المشتقة (اسم الفاعل) زمن ضعيف.

---

[1] نعتبر ما محايدة بالنسبة للزمن، ذلك أنها ترد مع الزمن الحاضر كما ترد مع الما ضي (ما يدخن زيد الآن.)، (ما دخل زيد ولا خرج.).

ب. الزمن الضعيف لاسم الفاعل مدمج في رأس الإسقاط المصدري(مصْ) [1].

يفسر وجود هذا الزمن الضعيف في رأس الإسقاط المصدري ملائمة بنيات اسم الفاعل لظروف الزمن:

37. زيدٌ خارج الآن.

38. زيدٌ قادمٌ غداً.

39.* زيد خارج أمس.

0.4. الرتبة داخل بنيات اسم الفاعل

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن اسم الفاعل لا يمكنه أن يتصدر الجملة، لذلك تُعتبر الجمل الإخبارية من قبيل (40أ)، (40ب) جملا لاحنة.

(40) أ. * قاتلٌ زيدٌ هندا.

ب. * آكلٌ زيدٌ الرغيف.

إن البنيات الوحيدة التي يمكن لاسم الفاعل أن يتصدر فيها الجملة، هي البنيات التي يكون فيها مسبوقا بأداة استفهام أو أداة نفي، كما يُتبين في الجملة التالية[2]:

41. **هل** قاتلٌ زيدٌ هنداً؟

42. **أ**قاتلٌ زيدٌ هنداً؟

43. **ما** قاتلٌ زيدٌ هنداً.

كيف يمكننا أن نفسر هذا التقابل في نظام الكلمات بين الجمل الخبرية العادية في (40أ)،(40ب) والجمل الاستفهامية وجمل النفي في (41)، (42)،(43)؟ لماذا يتصدر اسم الفاعل الجملة فقط حينما يكون مسبوقا بأداة استفهام أو أداة نفي؟

---

(1) نظن أن البراهين المقدمة هنا مثل عدم قابلية اسم الفاعل للموجهات والأدوات الخاصة بالوجه وكذا أدوات النفي التي تنتقي الزمن كافية لاعتبار أن مقولة الزمن، حتى ولو وجدت في بنيات اسم الفاعل، فإنها ضعيفة ولا ترقى إلى مقولة الزمن في الجمل الفعلية.

(2) يُسمي النحاة تقدم اسم الفاعل الى مكان الصدارة داخل الجملة في حالة وجود أدوات الاستفهام والنفي ***بشرط الاعتماد***.

في الحقيقة فإن وجود معطيات مثل(40أ - ب)، (41)، (42) و(43) يؤكد فرضية إدماج الزمن في رأس المركب المصدري. إذ نعتقد أن اسم الفاعل في البنية التركيبية (44) يصعد إلى الزمن الموجود في مصْ، لكي يكون مرئيا في الواجهة أو لكي يمكن قراءته على مستوى الوجاه: المكون الصوتي و المكون الدلالي.

44 [مص" [مص' [مص° اسم الفاعل] [تط" [تط' [تط° ث] [ص" [ص' [ص ث]]]]]]][1]

يفترض ريزي (1995) Rizzi أن مقولة المصدري هي مقولة مفصلة أكثر مما كان يُعتقد سابقا في الأدبيات التوليدية. فهذه المقولة يمكن تقسيمها لعدة مقولات أخر غير محورية كمقولة **الانتهاء** ومقولة **البؤرة** المخصصة كذلك للاستفهام. إذا تبنينا هذا التصور، سيصبح المكان الملائم الذي يمكن لاسم الفاعل أن يصعد إليه داخل هذه المنظومة من المقولات اللامحورية هي مقولة **الانتهاء**.

45

بؤ"

مخصص بؤ'

بؤ° نت"

مخصص نت'

فاعل نت° تط"

اسم الفاعل تط°

---

(1) يُشير الرمز ث إلى المقولة الفارغة أو الأثر الذي خلفه نقل اسم الفاعل إلى مقولة المصدري. كما يشير الرمز ص إلى رأس الإسقاط الأقصى لمقولة الصفة المعجمية.

يصعد اسم الفاعل في البنية (45) إلى مقولة الانتهاء (نت°) Fin(ite) phrase ليفحص بعض سماته في هذا الرأس. لكي يكون مرئيا على مستوى الوجاه. أما الفاعل فإنه يصعد لمخصص مقولة الانتهاء، لكي يفحص بعض خصائصه النحوية والمقولية في هذا الموقع: الخاصية الإعرابية المتمثلة في حالة الرفع والخاصية المقولية المتمثلة في سمة الحد [+حد][1]. ويفحص الفاعل هذه السمات عن طريق علاقة التطابق بين المخصص والرأس(spec - head agreement) مع مقولة الانتهاء.

يفسر وجود اسم الفاعل والفاعل النحوي في علاقة **تطابق مخصص - رأس**، داخل اسقاط الانتهاء الذي يعتبر إسقاطا خارجاً عن الجملة، عدم احتلال اسم الفاعل للصدارة في جمل الصفة المشتقة العادية. وهي رتبة كما رأينا تخالف الرتبة داخل الجمل الفعلية التي يسبق فيها الفعل الفاعل. حسب هذا التحليل فإن لا نحوية (40أ)، (40ب) يمكن إرجاعها إلى عدم صعود الفاعل إلى مخصص مقولة الانتهاء لاختبار سمة الحد الاسمية، قبل عملية التهجي في المكون الصواتي.

لنعُد الآن إلى البنيات (41)، (42)، (43)، إن فرضية ريتزي حول تقسيم مقولة المصدري إلى عدة إسقاطات لا محورية يمكنها أن تفسر تصدر اسم الفاعل لجملته، حينما تسبقه أداة استفهام أو نفي. ويرى ريزي أنه بالإضافة إلى تجزيء المصدري إلى عدة مقولات، فإن أدوات الاستفهام والنفي تخضع لما يسمى **بالمقياس الميمي Wh criterian**[2]. يُفترض حسب هذا المقياس أن أدوات الاستفهام والنفي هما عاملان منطقيان operators. ويجب أن يدخلا في علاقة **تطابق مخصص رأس** مع متغيراتهما داخل إسقاط البؤرة[3].

لا يشمل المقياس الميمي فقط العوامل التي تحتل موقع المخصص، بل إن أدوات الاستفهام التي تقع رأسا لإسقاطاتها تخضع هي الأخرى لهذا المقياس. حيث تجذب

---

(1) يعتبر شومسكي في مراجعة وتطوير البرنامج الأدنوي أن الفاعل ينتقل إلى مخصص مقولة الزمن فقط لتمحيص سمة الحد. وذلك لإشباع مبدءا للإسقاط الموسع ((Extended Projection Principale (EPP)) انظر شومسكي ((1995)، (2005)).

(2) انظر ريتزي (1995) للمزيد من التفاصيل.

(3) انظر الفاسي الفهري (2009) حول ترجمة مصطلح operator بالعامل.

المحمولات المعجمية و تدخل معها في **علاقة تطابق رأس - رأس** لاختبار سمات الاستفهام قبل الوصول إلى نقطة التهجي في المكون الصواتي[1].

انطلاقا من هذا نرى أن اسم الفاعل في (41)، (42) ينتقل من رأس مقولة الانتهاء إلى رأس مقولة البؤرة لإشباع المقياس الميمي، بينما يبقى الفاعل في مخصص الانتهاء:

46 [بؤ" [بؤ' [بؤ° هل[خارج] [نت" زيد [نت' [نت°]]]]]]

يفسر لنا **المقياس الميمي** تصدر اسم الفاعل للجملة في الجمل الاستفهامية (41) و(42). إذ تقع أداتا الاستفهام الهمزة وهل في رأس الإسقاط الخاص بالبؤرة في البنية (46). وتجذب هاتان الأداتان اسم الفاعل من رأس مقولة الانتهاء لاختبار سمة [+ م] مع اسم الفاعل تاركة الفاعل النحوي في مخصص الانتهاء[2].

أما بالنسبة لجمل النفي من قبيل (43)، فقد وضعت هاجمان (1995) Haegeman مقياسا خاصا بالنفي وهذا المقياس شبيه بالمقياس الذي وضعه ريزي (1995) لجمل الاستفهام. ترى هاجمان أن أدوات النفي تخضع لما تسميه بمقياس النفي (le critère négatif). فأدوات النفي التي لا تكون رؤوسا مثل **pas** في الفرنسية يجب أن تدخل في **علاقة رأس مخصص** مع أدوات النفي التي تكون رؤوسا من مستوى سْ (X°).

إذا انطلقنا من فكرة أن **ما** في البنية (43) هي مخصص من مستوى س[3]، وبأنها عامل يقع في مخصص اسقاط البؤرة، فإن هذه الأداة تدخل مع اسم الفاعل الذي يوجد في رأس هذا الاسقاط (بؤ°) في **علاقة رأس مخصص**. لذلك ينتقل اسم الفاعل من مقولة الانتهاء إلى مقولة البؤرة لانتقاء سمة النفي. وفي هذه الحالة فإن ما يجذب اسم الفاعل إلى هذه المقولة هو رأس نفي فارغ في البؤرة (أنظر ريزي (1995) حول هذه الفكرة). فصعود اسم الفاعل إلى موقع بؤ°، لاختيار سمة النفي ولإشباع مقياس النفي، يفسر لنا تصدر اسم الفاعل للجملة في (43).

---

(1) انظر شومسكي (1986)، (1995) حول *علاقة التطابق راس-راس*.

(2) [+م]اختزال لسمة [+ استفهام[WH]+].

(3) انظر ناجي (1997)

5 - خلاصة:

لقد أظهرنا في هذا التحليل أن اسم الفاعل في اللغة العربية يختلف عن الفعل المضارع في العربية كما أنه يختلف عن اسم الفاعل **بينوني** في العبرية. وأوردنا مجموعة من الحجج التركيبية التي تبرز الاختلاف بينهما. فإذا كان اسم الفاعل العبري يقبل بعض الظواهر مثل قلب النظام مع فاعله و كذلك قلب الرتبة مع الفعل المساعد، نتيجة اندماجه في مقولة الزمن، فإن جمل اسم الفاعل في العربية لا يمكن أن تتغير فيها الرتبة بين اسم الفاعل و فاعله أو بين اسم الفاعل و الفعل المساعد. بالإضافة إلى هذا يبرز غياب مقولة الزمن في جمل اسم الفاعل في العربية من خلال عدم تقبل بعض الأدوات التي ترتبط عادة بوجود الزمن في الجملة: مثل الأدوات الدالة على الصيغة (le mode) وأدوات النفي الحاملة للزمن. ويتجلى كذلك في رفض ما يسمى بالزمن العام أو الزمن الاستغراقي.

ورغم كون هذه الظواهر تبرز غياب مقولة الزمن في جمل اسم الفاعل. فإن هذه الجمل يمكنها أن تتقبل بعض أدوات الاستفهام كما هو الحال مع **هل** و**الهمزة**. وانطلاقا من فرضية **ستويل** (1982) الذي يرى أن مقولة المصدري تنتقي دائما مقولة الزمن، قدمنا افتراضا مفاده أن زمن جمل اسم الفاعل هو زمن ضعيف مقارنة مع زمن الجمل الفعلية أو جمل **بنوني** في العبرية. كما تبنينا فكرة ريزي (1995) Riz حول تمفصل مقولة المصدري الى عدة مقولات لا محورية وبينا أن زمن اسم الفاعل يقع في مقولة الانتهاء. لقد مكننا هذا الافتراض من تفسير الرتبة داخل جمل اسم الفاعل. كما مكننا من تفسير تصدر اسم الفاعل للجملة في حالة وجود بعض أدوات الاستفهام والنفي في بدايتها.

إن هذا التحليل قد مكننا من إبراز الاختلاف بين اسم الفاعل العربي والفعل المضارع اتجاه الزمن. كما مكننا من رصد وتفسير الاختلاف بينه وبين **بنوني** في العبرية. إذا كان هذا الأخير يندمج في مقولة الزمن ويتصرف كفعل تام اتجاه بعض الظواهر التركيبية، فإن الزمن في اسم الفاعل العربي ضعيف ولا يمكنه التصرف كفعل تام.

لائحة المراجع العربية:

- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله. **شرح ابن عقيل**. دار الفكر، لبنان.
- التوكاني، نعيمة. (1989)، خصائص المشتقات الجهية: اسم المفعول نموذجا، أطروحة السلك الثالث، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء.
- الجواري، ع. (1974). **نحو الفعل**. مطبوعات المجمع العلمي العراقي.
- **الرحالي، محمد. (2010). الجمل الغير الفعلية. اللسانيات** العربية المقارنة، منشورات كلية الآداب
- **والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة.**
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. **الكتاب**. الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق عبد السلام هارون (1977).
- الأستراباذي، رضى الدين. **شرح الشافية**. بيروت دار الكتب العلمية (1975).
- السيوطي، جلال الدين. **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**. دار المعرفة، لبنان.
- الفاسي الفهري، عبد القادر. (2009). **معجم المصطلحات اللسانية: إنجليزي - فرنسي - عربي**، بمشاركة نادية العمري. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت لبنان.
- المخزومي، محمد. (1964). **في النحو العربي**. بيروت، لبنان.

References

- Chomsky, N.(1986). **Barriers.** MIT Press.
- Chomsky, N. (1995). **The Minimalist Program**. MIT Press.
- Chomsky, N. (2005). Phases. Ms. MIT.
- Cohen, D. (1989). **L'aspect verbal**. Presses universitaires de France (PUF).
- Ellaty, Y. (1994). Le cas verbal: syntaxe et Morphologie. Thèse de Doctorat , université de Paris XIII.



- Fassi Fehri, A. (1993). **Issues in The Structure of Arabic Clauses and Words**. Kluwer Academic.
- Gueron, J & T. Hoekstra. (1995). The Temporal Interpretation of Predication. In A. Cardinaletti and M. - T Guasti, eds. **Syntax and Semantics 28. Small clauses, Academic Press.**
- Haegeman, L. (1995). **The Syntax of Negation**. Cambridge University Press.
- Huang, C.T James. (1993). Reconstruction and The Structure of VP: Some Theoretical Consequences. **Linguistics Inquiry 24**.
- Naji, M. (1996). Morpho - syntactic Checking and Categorial Specification: The Case of The Arabic Verb. **In J. Costa, R. Goedemans & R. Van de Vijver eds, Leiden.**
- Naji, M. (1997). <u>Vérification morpho - syntaxique et structure de la phrase en arabe</u>. Thèse de Doctorat, Université de Paris X - Nanterre.
- Naji, M. (2010). Categorization and semantic function. Paper presented at the second conference on The Event, Paris. University of Sorbonne - Paris III.
- Shlonsky, U. (1997). **Clause Structure and Word Order in Hebrew: an essay in Comparative semitic syntax**. Oxford University Press.
- Siloni, T. (1994). <u>Noun Phrases and Nominalizations</u>. Dissertation, University of Geneva.
- Stowell, T. (1982). The Tense of Infinitives. **Linguistics Inquiry 19.**
- Zannuttini, R. (1991). <u>Syntactic Properties of Sentential Negation. A comparative study of Romance Languages</u>. PHD. Dissertation, University of Pennsylvania.



يمثل هذا الاكتتاب الموسوم بـ(اللسانيات العربية، رؤى وآفاق) موسوعة لغوية حاوَلتْ أن تغطي مساحات اشتغال الدراسات اللسانية العربية الحديثة؛ ترجمة، وتوصيفا، ونقدا، وإجراء. وقد ضمت أربعا واربعين دراسة رائدة، لباحثين من مختلف الجامعات والمراكز البحثية في البلدان العربية، توزعت -بحسب مضامينها- في أربعة أجزاء. حملت في طياتها اجتهادات وآراء ومقترحات مهمة، نأمل أن تسهم في النهوض بواقع الدرس اللساني العربي اليوم، وأن تفتح آفاق البحث اللساني العربي على مساحات بِكر لم تدشن بعدُ. وتضمر ما بين دفتيها دعوة للسانيين العرب إلى العمل الجماعي الموضوعي، وتوحيد الجهود وتنسيقها.